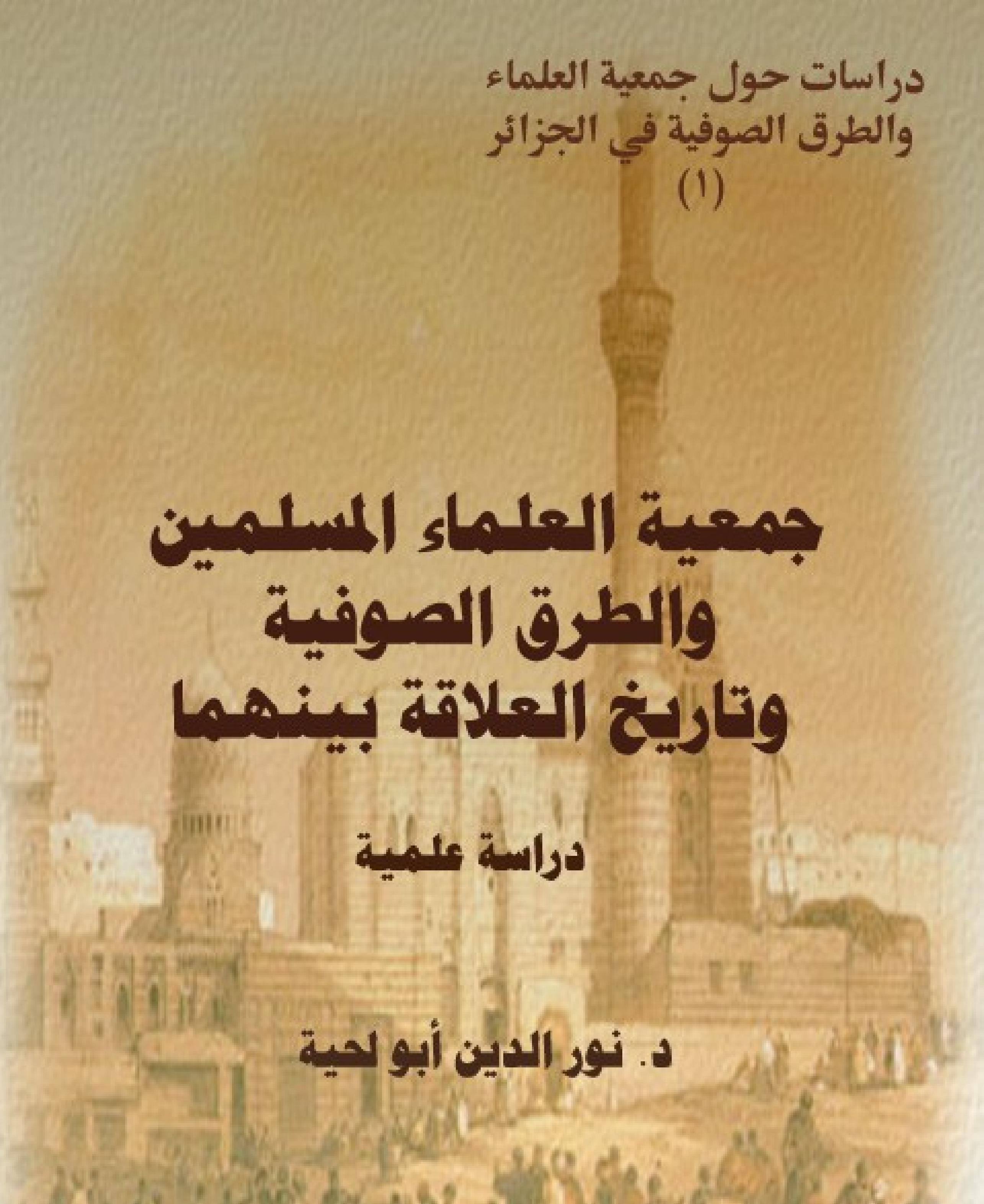


دراسات حول جمعية العلماء
والطرق الصوفية في الجزائر
(١)

جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما

دراسة علمية

د. نور الدين أبو لحية

دراسات حول جمعية العلماء
والطرق الصوفية في الجزائر
(1)

جمعية العلماء المسلمين
والطرق الصوفية
وتاريخ العلاقة بينهما

دراسة علمية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1437 هـ -2016

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المحتويات

مقدمة

لا شـك أن البـاحث في الواقـع الـديني والثقـافي والاجتمـاعي للجزائــر في عهــد الاســتعمار الفرنســي، يجــد فصــيلين مهمين متميزين كان لكيلهما أثره في الحياة الجزائرية:

أما **الأول**: فيمثله مشايخ الطرق الصوفية ومريدوهم وزوايـاهم وأوقافهم التي لم تكن تخلو منها مدينة ولا قرية في جميـع القطـر الجزائـري، وهم – لـذلك- متغلغلـون في جميـع الحيـاة الجزائريـة اجتماعية كانت أو تربوية أو ثقافية أو حتى ما ارتبط منها بالجــانب السياسي والعسكري.

وأمـا **الثـاني**: فهم العلمـاء أو طلبـة العلم الـذين تبنـوا الفكـر الإصلاحي التنويري أو الوهابي الـذي كـان في ذلـك الحين في أوج نشاطه في المشـرق العـربي، وقـد تسـنى لهـذا الفريـق أيضـا أن يقيم بعض المؤسسات التربوية والإعلامية الـتي ينشـر من خلالهـا آراءه ومشـاريعه الإصـلاحية، وقـد تجلى هـذا الفصـيل في أجلى صوره في (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)

ومن الطبيعي أن يحصل بين فصيلين كبـيرين كهـذين الفصـيلين أنواع من العلاقة والتعامل المبنية على أساس التوجهـات الفكريـة المختلفـة، وعلى أسـاس المشـاريع الإصـلاحية الـتي قـد تختلـف التصورات حولها.

بنـاء على هـذا، وبنـاء على أهميـة مـا حصـل في تلـك الفـترة الخطيرة من التاريخ الجزائري، والتي انبنى عليها الواقع الجزائري بعد الاستقلال تثار إشكالات كثيرة يمكن صياغتها كما يلي:

الأول: لقد كان كلا التيارين يحملان أفكارا مختلفة، تصل أحيانا إلى درجة التناقض، وكان لهما في نفس الوقت مشاريع يشـتركان فيها كبغض الاسـتعمار وحب التخلص منـه، والحـرص على الهويـة العربيـة الإسـلامية، والحـرص على تحقيـق العدالـة والتخلص من الجور والتمييز العنصري الذي فرضه الاستعمار.

وهذا يستدعي التساؤل عن تعامـل هـذين الفصـيلين مـع هـذين الجــانبين، وهــل غلب كلاهمــا الاتجــاه الفكــري، ومــا يفــرزه من اختلافات تصل إلى حد التناقض، أم أنهما ترفعـا على هـذا، وعلمـا

أن الواقع الجزائري لا يسمح بطرح تلك الخلافات، وأن الأولى هـو العمل في المتفق عليه، وترك الخلاف لمحله.

الثاني: هـو أنـه من المتفـق عليـه، بـل من البـديهي أن التيـار الإصلاحي في الجزائر، كما هو في العالم الإسلامي أجمـع، ينطلـق من خلافه التام مع التيار التقليدي المحافـظ المتمثـل في الطـرق الصوفية ومؤسساتها، بل إنه لم يسم إصلاحيا إلا لثورته على التيار التقليدي، وهـذا يسـتدعي التسـاؤل عن الأسـباب المحركـة لـذلك الخلاف، ومـدى أهميتهـا، وموضـوعيتها.. وهـل كـان مـا حـدث من خلاف خطأ استراتيجيا وقع فيـه كلا الطـرفين المختلفين حين غفلا عن القضـايا الكـبرى الـتي كـان يمكن أن يتوجهـا لهـا.. أم أن مـا حصل كان ضرورة لابد منها، ولم يكن هناك بـد من إعلان الحـرب على المخالف، فالجسم المريض لا يمكنه أن يتحرر خارجيـا إلا إذا تحرر داخليا؟

الثـالث: وهــو بعــد إقرارنــا بوجــود الخلاف الفكــري بين كلا الفصـيلين، وهـو ممـا لا يجـادل فيـه أحـد، هـل كـان هنـاك فـرص لتخفيف بعض مظاهر الخلاف، أو الحد منـه نهائيـا، أم أنـه لم يكن لهما مناص من ذلك.. أي أن ما حصل هو ما ينبغي أن يحصل، فلم يكن أمام الجمعيـة، ولا أمـام الطـرق الصـوفية إلا تلـك الأسـاليب والوسائل التي استعملاها؟

الرابع: هو عن آثار ذلك التعامل، وما حصـل فيـه من وفـاق أو خلاف، هل بقي محصورا في المحال التي كان فيها، أم أنه تعـداها إلى نواح أخرى كالسياسة والمجتمع والثقافة والدين وغيرها؟

وفي هــذه الحالــة، هــل يمكن أن نسـتفيد من الأخطــاء الــتي وقعت، ونتدارك ما لم يمكن تداركه في المرحلـة السـابقة، أم أن ذلك كله مستحيل؟

وهل تستفيد التيارات العلمانية المختلفة ممـا يحـدث اليـوم من خلاف بين التجديديين أو الحركيين أو السلفيين، وبين الطرقيين أو المحافظين؟

وهل استغلت الحكومـات المتعاقبـة على الجزائـر ذلـك الخلاف القديم، والذي اكتسى كل حين ثيابا جديدة، في صرف الإسـلاميين عن التأثير الاجتماعي، وعن المناصب السياسية؟

هذه الأسئلة وغيرها نحاول الإجابة عنهـا في هـذه السلسـلة من

الدراسـات الـتي نتقـدم بهـا للبـاحثين وطلبـة العلم لإعـادة قـراءة التــاريخ بدقــة وموضــوعية بعيــدا عن أي مــؤثرات، وقــد عنونــا السلسلة بـ (دراسات حول جمعية العلمـاء والطـرق الصـوفية في الجزائر)

وقـد دفعنـا إلى اختيـار البحث في هـذا الموضـوع دوافـع كثـيرة يمكن حصرها في:

دافع علمي: وهو أني رأيت أكثر البـاحثين في هـذا الموضـوع يقفـون مـع أحـد طـرفي التعامـل، بـل نـراهم في أحيـان كثـيرة يعتبرون الطرف الآخر هو أسـاس المشـكلة وسـببها.. وهـذا يـؤثر كثيرا على المنهج العلمي، فهو يتطلب التعامـل مـع الطـرفين من زاوية موضوعية واحدة.

وكمثـال على ذلـك كتـاب (صـراع بين السـنة والبدعـة) للشـيخ أحمد حماني - رحمه الله – فهو مع أهميته البالغة في الموضوع إلا أن مؤلفه يمثل فيه طرفا من أطراف النزاع، وبالتالي صار أقــرب إلى الوثيقة أو المصدر منه إلى البحث الموضوعي.

وهكذا نجد الكثير من المراجـع في هـذا البـاب تنظـر من زاويـة واحدة لهذا الموضوع الخطير، وبالتـالي تعلن حربهـا على الطـرف الآخــر، لتصـبح هي الأخـرى فـردا من أفـراد الخلاف.. ولهـذا رأينـا الحاجة إلى استعمال الحيدة المطلقة حتى نصل إلى الحقيقــة من بابها الصحيح.

دافــع عملي: وهــو ناشــئ من اعتقادنــا أن الحاضــر صــدى للماضي، وما يحصل اليوم ربمـا يكـون قـد حصـل مثلـه من قبـل، والعاقل هو الذي يستفيد من صواب غيره وخطئـه، حـتى لا يفوتـه الصواب، وحتى لا يكرر الخطأ.

والدعوة الإسلامية خصوصا بحاجة إلى الكثـير من التجـارب في هـذا المجـال، فهي تخـوض كمـا خـاض سـلفها حروبـا عديـدة مـع تيـارات مختلفـة، وهي تحتـاج إلى نـوع من النضـج في هـذا البـاب لتستفيد من حسنات التجارب السابقة، وتعتبر بسيئاتها.

وللأسف نجد الكثير من الدعاة في الجزائـر على إلمـام مفصـل وواسع بكثـير من الحركـات الإسـلامية الشـرقية، وأنـواع التعامـل التي حصلت لهـا مـع مختلـف التيـارات، بينمـا تغيب عنهم الحركـة الإسلامية الجزائرية، بل يعتبرونها من تاريخ المواجهــة للاســتعمار، وكأنها لم يكن لها هدف إلا مواجهة الاستعمار، وبمـا أن الاسـتعمار

قد ذهب، فقد انتهى دورها.

دافع شخصي: وهو أنه أتيح لي أن أطلع عن كثب على من يمثل جمعية العلماء والطرق الصوفية في واقعنا المعاصر.

فقد صحبت بعض الطرق الصوفية، وتتلمذت في بعض الزوايا التي كان لها علاقة بمشائخ الجمعية، ودرَّست فيها، وقد أتيح لي أن أتعرف على مواقفها المختلفة سواء من جمعية العلماء كرجال يمثلونها، أو على الأفكار التي بثتها جمعية العلماء، أو لا يزال ورثتها يبثونها.

ومثلما صحبت هذه الطرق انخرطت في بعض الحركات الإسلامية، ورأيت مواقفها المختلفة، بل والمتناقضة أحيانا من التصوف، ومن الطرق الصوفية.

وقد كان لكلا الأمرين أثره في نفسي: فقد شعرت بنوع من الصراع بين ذلك الانتماء المحافظ، وبين ذلك التجديد الذي أتت به جمعية العلماء، والذي مثله بعد ذلك ورثتها.. وقد كنت أتساءل كل حين بيني وبين نفسي عن إمكانية التوفيق بين كلا التيارين: التيار التقليدي المحافظ المتسغرق في محافظته، وبين التيار التجديدي أو السلفي الذي مثلته الجمعية، ومثله بعد ذلك ورثتها.

وقد آلمني أكثر من ذلك أن الحركات الإسلامية مع ما أثبتته من قدرة على اختراق كثير من المواقع إلا أنها لم تفكر في اختراق الطرق والزوايا، فتركتها ساحة مباحة لغيرها يتحكمون فيها، بل قد تدبر لهم المكايد من خلالها.

وقد رأيت أن سر ذلك الخوف من التقدم لتلك الجهات لتوجيهها التوجيه الصحيح هو النظرة التي لا تزال وليدة الماضي، والتي هي أثر من آثار خلاف جمعية العلماء مع هذه المحال، وهي تحتاج لذلك إلى جرأة في البحث بعيدة عن كل تعصب، وهو ما نفتقر إلى كثير منه للأسف.

ولهذا، فأنا أحاول من خلال هذه الرسالة أن أكون جسرا واصلا بين الحركات الإسلامية التي تمثل في حقيقتها ودورها جميعة العلماء، وبين الزوايا والطرق الصوفية.. ليعملا جميعا في المتفق عليه، وما أكثر المتفق عليه.

أما المختلف فيه، وهو في أكثره فروع من المسائل الاعتقادية والسلوكية، فله نظيره في العالم الإسلامي أجمع، بل له نظيره في الكتب المتداولة.. فيمكن البحث فيه على طاولات البحث.. لتخفيف آثار الخلاف إلى أقل حدودها الممكنة.

المنهج:

بناء على موضوع هذه السلسلة، فإننا نعتمد المناهج التالية:

المنهج الوصـفي التـاريخي: وهـو منهج ضـروري لوصـف واسـتعراض الأحـداث التاريخيـة والظـواهر الاجتماعيـة والثقافيـة والسياسية.. فللبحث كما هو – ظاهر – علاقته بالتـاريخ السياسـي والحضاري.

المنهج التحليلي النقدي: ونحاول من خلاله دراسة الأسباب والظـواهر والآثـار، ومناقشـتها، وربــط بعضـها ببعض، واسـتنباط الأحكـام منهـا جزئيـة كـانت أو كليـة، نسـبية كـانت أو نهائيـة، مـع الدراسـة النقديـة للوثـائق والنصـوص لاسـتخلاص الحقـائق من مصادرها الأولى، وبكل موضوعية.

المنهج المقارن: فالدراسـة مقارنـة بين جهـتين، وأسـلوبهما في إدارة التعامل، وذلك يحتاج منا إلى عقد المقارنـات المختلفـة، بالإضافة إلى أنا نحتاج إلى هـذا المنهج في بعض الأحيـان لمقارنـة هذا التعامل المحلي بـأنواع أخـرى من التعامـل حصـلت في نـواح أخرى من العالم.

أهم مصادر البحث ومراجعه:

أولا ـ المصادر:

وهي كثيرة يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

1 ـ **الصحف الصادرة من كلا الطرفين**:

أمـا الطـرف الأول، وهـو جمعيـة العلمـاء، فمن صـحفها الـتي نعتبرهــا مصــادر أساســية (المنتقد)، و(الشــهاب)، و(الإصــلاح)، و(البرق)، و(صدى الصحراء) و(السنّة)، و(الشريعة)، و(الصــراط)، و(البصائر)

وتعتبر (الشهاب)، و(البصائر) من أهم المصــادر، حيث اسـتمرتا بالصدور مدة طويلة، بينما توقفت الجرائد الأخرى بعد صـدور كـل منها بفترة قليلة.

أما صحف الطرق الصوفية، فأهمهـا جريـدة (البلاغ الجزائـري)، ومجلة (المرشـد) الـتي كـانت تصـدرهما الطريقـة العليويـة، وقـد كانت هذه الطريقة من أهم أطراف الخلاف مع الجمعية.

2 ـ التقارير والمنشورات الصـادرة من كلا الطـرفين: باعتبارهــا وثــائق رســمية، وقــد حاولنــا الرجــوع لمنشــورات كلا

الطرفين في المسائل المختلفة:
فمن التقارير الصادرة عن جمعية العلماء (سجل مؤتمر الجمعية) المنعقد عام 1935 في العاصمة الجزائرية والمتألف من 238 صفحة، ويشتمل على تقرير أعده البشير الإبراهيمي نائب رئيس الجمعية، وفيه يبين منجزات الجمعية منذ تأسيسها حتى عام 1935، كما يحدد الخطط المستقبلية للجمعية، ويضم أيضا كلمات وقصائد لبعض أعضاء الجمعية، ويعتبر تقرير الإبراهيمي أهم ما في هذا السجل.
ومنها (القانون الأساسي لجمعية العلماء الجزائريين)
أما المنشورات المرتبطة بالطرق الصوفية، فأكثرها مذكور في جرائدها ومجلاتها المختلفة كجريدة (البلاغ الجزائري)، ومجلة (المرشد)
3 ـ **الكتب والرسائل**:
فمن الكتب الخاصة التي ألفت لتأييد خط الجمعية (رسالة الشرك ومظاهره)، للشيخ مبارك الميلي، و(بدعة الطرائق في الإسلام) للشيخ العربي التبسي، و(الصراع بين السنة والبدعة) للشيخ أحمد حماني.
بالإضافة إلى مجموعة أعمال ابن باديس في تفسير القرآن والموضوعات العامة، وقد جمعت هذه الأعمال من قبل بعض تلاميذ ابن باديس في مصنفين يتعلق الأول بتفسير القرآن نشر عام 1964، ويعتبر الثاني أشمل وأعم من الأول لأنه يتضمن كامل آثار ابن باديس التي عثر عليها جامعها، وضمنها كتابه (ابن باديس حياته وآثاره)
ومنها مجموعة مقالات البشير الإبراهيمي التي كتبها في افتتاحيات جريدة البصائر، في سلسلتها الثانية، وقد جمعت أيضا بعد وفاته.
ومنها الكتاب الجامع لآثار الشيخ العربي التبسي، من تأليف تلميذه الأستاذ أحمد الرفاعي الشرفي، والذي عنوانه: (مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر بقسميه الأول والثاني)
بالإضافة إلى كتب الدكتور أحمد عيساوي الكثيرة المرتبطة بالجمعية عموما، وبالشيخ العربي التبسي وأعلام مدينة تبسة خصوصا.
ومن الكتب التي ألفت لتأييد خط الطرق الصوفية كتب

ورسائل (أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي)، وهو من أكبر من توجه له النقد من طرف رجال الجمعية، ومن تلك الكتب والرسائل (رسالة القول المعروف في الرد على من أنكر التصوّف)، وهي رسالة للرد على الفقيه الشيخ عثمان بن مكي صاحب (المرآة لإظهار الضلالات)

ومنها (مظهر البينات في التمهيد بالمقدمات)، و(القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول)، و(القول المعتمد في مشروعية الذكر بالإسم المفرد)، و(البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور)، و(المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية)، و(المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية)، و(ديوان الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي)، و(الأبحاث العلوية في الفلسفة الإسلامية)، و(رسالة الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف)، و(أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل).. وغيرها، وهي في جلها مناقشات علمية لما كان يطرح في ذلك الحين من مسائل في المحال المختلفة.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن بعض المصادر المرتبطة بالطريقة العلاوية تكاد تكون مفقودة، ولهذا فقد رجعت فيما يخصها إلى مرجعين:

الأول: كتاب (صفحات مطويّة في التصوّف الإسلاميّ) لشيخ الطريقة الدرقاوية في الأردن الشيخ أحمد حسن شحاذة الردايدة والذي نقل جزءا كبيرا من كتب الشيخ ابن عليوة في كتابه هذا، وخاصة أهم كتاب من كتب الشيخ وهو(أعذب المناهل) الذي صار في حكم المفقود، لأني لم أجده بعد البحث الطويل، ولهذا فإني في التوثيق أنقل من هذا الكتاب مع الإشارة إلى المصدر الأصلي.

الثاني: رسالة علمية جادة بعنوان (الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1909 – 1934) للباحثة غزالة بوغانم، وهي رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة منتوري بقسنطينة، قسم التاريخ والآثار، وميزة هذه الرسالة أن صاحبتها قامت بإجراء مقابلات مع شخصيات مهمة في الطريقة العلاوية لم يتسن لي اللقاء معها، بالإضافة إلى اطلاعها على بعض الكتب التي صارت في حكم المفقود.

ثانيا ـ المراجع:

وهي كثيرة جداً:

منها ما يرجع لدراسة الواقع الجزائري إبان الاستعمار، وخاصة في تلك الفترة التي تأسست فيها الجمعية ومارست فيها نشاطاتها، وهي كثيرة لعل أهمها كتابات أبي القاسم سعد الله حول الحركة الوطنية الجزائرية، وحول التاريخ الثقافي الجزائري.

ومنها مؤلفات أحمد توفيق المدني كـ (كتاب الجزائر)، و(هذه هي الجزائر) و(حياة كفاح) باعتبار مؤلفها عاصر الحركة، فكان لسانا معبرا عنها وعن مواقفها في هذا المجال.

ومنها كتابات يحي بوعزيز، وخاصة منها كتابه (كفاح الجزائر من خلال الوثائق)

ومنها الكتابات التي تؤرخ للجمعية أو الطرق الصوفية وتحلل نشاطاتها، ومنها كتاب (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر) لأحمد الخطيب.

ومنها ما يرجع إلى دراسة الشخصيات التي تمثل الجمعية أو تمثل رجال الطرق الصوفية:

وأهمها – بالنسبة للتأريخ لرجال الجمعية - مؤلفات الدكتور تركي رابح عمامرة الكثيرة في هذا المجال، وخاصة كتابه (الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد بن عبد الوهاب في طريق الإصلاح والسلفية، دراسة مقارنة)، وكتابه (الشيخ عبد الحميد بن بايس فلسفته وجهوده في التعليم)، و(الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر)، و(الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة)، و(الشيخ عبد الحميد بن باديس شيخ المربين وشيخ المصلحين في الجزائر)، و(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية 1931 – 1956 ورؤساؤها الثلاثة : ابن باديس – والإبراهيمي – والشهيد الشيخ العربي التبسي)

ومنها كتاب (الإمام عبد الحميد بن باديس: الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية) للدكتور محمود قاسم، وكتاب (ابن باديس وعروبة الجزائر) لمحمد الميلي، وكتاب (عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية) لبسام العسلي.. وغيرها كثير.

أما الكتب التي تؤرخ لرجال الطرق الصوفية، فمن أهمها كتاب

(الروضة السنية في ذكر المآثر العلويـة) للشـيخ عـدة بن تـونس، ويتناول فيه حياة الشـيخ العلـوي بالتفصـيل، والخلاف الـذي جـرى بينـه وبين رجـال جمعيـة العلمـاء، ويـذكر أهم مريديـه في القطـر الجزائري وخارجه، ويعتـبر الكتـاب من أهم الوثـائق الـتي تتنـاول شخصية الشيخ.

ومنهـا (ذكريـات الـدكتور مارسـيل كاريه)، وهي ذكريـات أو مذكرات طبيب فرنسي كـان قـد باشـر معالجـة الشـيخ أحمـد بن مصطفى العلاوي في السنوات الأخيرة من حياته، وقد نشـرها في طنجة سنة 1942، وهي تكتسي أهمية كـبرى باعتبارهـا شـهادات حية من مصادر أجنبية على سيرتهم، وخصوصا الجـانب التفصـيلي فيها.

الثـالث: كتب اهتمت بدراسـة الخلاف بين المدرسـتين اللـتين تمثلان الجمعيـة والطـرق الصـوفية، وهي المدرسـة السـلفية والمدرسـة الصـوفية، وهي كتب كثـيرة جـدا، منهـا كتـاب (جهـود علمـاء السـلف في القـرن السـادس الهجـري في الـرد على الصوفية)، للدكتور محمد بن أحمد بن علي الجوير، وأصل الكتـاب رسالة علمية تقدم بها الباحث لنيـل درجـة الـدكتوراة في العقيـدة والمذاهب المعاصرة، ومنها كتاب (الردود العلميـة في دحض حجج وأباطيـل الصـوفية: ردود طائفـة من علمـاء القـرن السـادس) للكاتب السـابق، وكتـاب (جهـود علمـاء الحنفيـة في دحض عقائـد القبورية) للشيخ العلامة شمس الدين السلفي، وكتـاب (الطريقـة الشاذلية: عرض ونقـد)، وهو رسالة علمية من تأليف الدكتور خالد بن ناصر العتيبي، وكتاب (عقيدة الصـوفية وحـدة الوجـود الخفيـة) للدكتور أحمد بن عبدالعزيز القصير، وغيرها كثير.

بالإضافة إلى كتب الطرق الصوفية الكثيرة في هذا المجال.

وأخيرا، من الصعوبات الـتي واجهتـني أثنـاء القيـام بـالبحث هـو المواجهة مع من ينظرون إلى التاريخ الجزائـري ورجالـه بنـوع من التقديس الذي يحول بينهم وبين النظرة العلمية الموضوعية.

والحمد لله، فهذه النظـرة التقديسـية ربمـا تكـون في مصـيرها إلى الـزوال، وخاصـة بين البـاحثين والأكـاديميين الصـادقين الـذين يجعلون من الماضي موضع عبرة لا موضع تقليد.

والثانية هي ذلك الخـوف من الـذين يتصـورون أن كـل بحث لـه

علاقــة بــالطرق الصــوفية لا يعــدو أن يكــون تشــجيعا للخرافــة أو الشعوذة أو الدجل.. وهذه النظرة القاصــرة للأســف لازلنــا نعــاني منهــا، وهي الــتي تحــول بيننــا وبين اســتثمار كثــير من الطاقــات الإسلامية، بل وتصرف جهودنا إلى كثير من الجزئيات التي تشــتت جهودنا، وتترك الفرصة للمغرضين ليندسوا إلينا من خلالها.

وأما الثالثة، فإنــا مــع محاولتنــا أن نكــون موضــوعيين في بحثنــا ووجهنا بفقد بعض ما نحتاجه من وثائق، وقد اضطرنا هذا إلى نــوع من التحليــل الــذي قــد يفتقــد الموضــوعية العلميــة.. فلــذلك نحن نستغفر الله مسبقا لأي خطــأ يمنعنــا من التحقيــق العلمي الجــاد.. والحمد لله أولا وأخيرا.

الفصل الأول

نبذة تاريخية عن جمعية العلماء والطرق الصوفية

مع الشهرة التي حظيت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومثلها الطرق الصوفية، ومع كثرة البحوث المعرفة بهما والمؤرخة لهما إلا أن المنهج العلمي يتطلب منا التقديم بالتعريف بكليهما، وذلك لسببين:

الأول: أن هذا من ضروريات المنهج العلمي، فالتصديقات فرع عن التصورات، والحكم على الشيء فرع عن تصوره.

الثاني: أن التعاريف والتواريخ المرتبطة بالجمعية قد تختلف من جهة إلى أخرى، وقد تتدخل في بعضها الذاتية والأحكام الجزافية، وهذا يقتضي منا التحقيق للوصول إلى الحقيقة بعيدا عن التقليد.

وبناء على هذا قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: نبذة تاريخية عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

المبحث الثاني: نبذة تاريخية عن الطرق الصوفية المعاصرة لجمعية العلماء.

المبحث الأول
نبذة تاريخية عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تعتبر جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين من أكـثر الجمعيـات الدينيـة والثقافيـة الجزائريـة شـهرة، ذلـك أن سـمعتها في تـاريخ الإصلاح والثقافة تعدت الجزائر لتشمل العالم كله.

ولذلك أسباب كثيرة لعل أهمها هو اجتمـاع الكثـير من العمالقـة الكبـار في الفكـر والأدب والنشـاط في وقت واحـد، وفي جمعيـة واحدة.

ومنهـا الأهـداف الكثـيرة الـتي حملتهـا الجمعيـة في ظـل واقـع استعماري مليء بأصناف المعوقات والمثبطات.

ومنهـا الأعمـال الكثـيرة الـتي اسـتطاعت أن تقـوم بهـا - بغض النظر عن المواقـف حولهـا - إلا أنـه لا يمكن لأحـد من النـاس أن ينكرهــا، وكيــف ينكرهــا، ونحن لا نــزال نــرى آثارهــا في الواقــع الجزائري إلى الآن.

وأسباب كثيرة أخرى جعلت من جمعية العلمـاء عنـد الكثـير من الباحثين أكبر حركة إصلاحية عرفتها الجزائر في تاريخها الحديث.

انطلاقا من هذا نحاول في هذا المبحث أن نتعرف على تاريخها، والعوامل المؤثرة فيـه، والـتي أتـاحت لهـا كـل ذلـك التـأثير، وقـد قسمنا المبحث إلى ثلاثة مطالب بحسب المراحل التي مرت بها:

المطلب الأول: المرحلة التأسيسية للجمعية

المطلب الثاني: جمعيــة العلمــاء في عهـد ابن بــاديس وأهم منجزاتها

المطلب الثالث: جمعيــة العلمــاء في عهـد الإبــراهيمي وأهم منجزاتها

المطلب الرابع: دور الشـــيخ العـــربي التبســـي في جمعيـــة العلماء

أما ما يرتبط بتوجهها الفكري، ومشاريعها الإصـلاحية، ووسـائلها في تحقيقها، فسنتحدث عنها بتفصيل في فصـل خـاص في البـاب الثاني من هذه الرسالة.

المطلب الأول: المرحلة التأسيسية للجمعية

تعتبر المرحلة التأسيسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائـريين من أدق مراحلها التاريخية حساسية، باعتبار الظروف الاستعمارية

التي كانت تمر بها الجزائر حينئذ، وباعتبار الواقع الديني الذي كـان يشكل فيـه المحـافظون نسـبة أكـبر بكثـير من نسـبة الإصـلاحين، وباعتبارات أخرى كثيرة.

ومع ذلك، فلم يكن تأسيسـها عجيبـا، فقـد كـانت هنـاك عوامـل كثـيرة خففت من وطـأة تلـك الظـروف القاسـية، وقـد أشـار إلى بعض تلـك العوامـل الشـيخ الإبـراهيمي، الـذي عزاهـا إلى أربعـة عوامل[1]:

أولها: آثار دعوة الإمام محمد عبده الـتي تـأثر بهـا المصـلحون الجزائريون، وكذا مؤلفات تلميذه الشيخ رشيد رضا التي كـان لهـا الأثـر القـوي في إذكـاء الحركـة الإصـلاحية في الجزائـر، ومن ثم توحيد جهودهم تحت جمعية واحدة.

ثانيها: الثـورة التعليميـة الـتي أحـدثها الشـيخ عبـد الحميـد ابن باديس بدروسه حيث كون عقولهم وشحذ عزائمهم وربى نفوسهم على وجه تتشـوف بـه إلى كـل دعـوة تغيـير في المسـتقبل بقائـد الدين وشعار الإصلاح.

ثالثها: التطـور الفكـري الـذي طـرأ على عقـول النـاس من مخلفات وآثار الحرب العالمية الأولى.

رابعها: رجـوع طائفـة من المثقفين الجزائـريين الـذين كـانوا يعيشون في المشرق العربي ولا سيما في الحجاز والشام والذين من أبرزهم الإبراهيمي والعقبي.

وقد وقعت في التأريخ لهذه الفترة خصوصا كثـير من الخلافـات بين المـؤرخين للجمعيـة سـواء كـانوا من المـوالين لهـا، أو من المناوئين، وهي مهمـة جـدا من حيث دورهـا في إعطائنـا الصـورة للوضـع حينـذاك، وخاصـة مـا يرتبـط منـه بالتعامـل بين الجمعيـة والطرق الصوفية.

وانطلاقا من هذا، فسنبحث في هذه الفترة خصوصا انطلاقا من وجهات النظر المختلفة محـترمين لهـا جميعـا، تـاركين الحكم بعـد ذلك للقـارئ، أو للبـاحث المنصـف لمزيـد من البحث للاطلاع على

---

[1]) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المنعقد بمركزها العام، نـادي الترقي بالجزائر، دار الكتب، 1982 ، ص46، ومـا بعـدها، وانظـر: آثـار الإبـراهيمي: 1/181.

الحقيقة من جميع جوانبها.

ونحب أن ننبه هنا إلى أننا لن نطرق في هذا المطلب الخلاف الذي حصل بين الجمعية والطرق الصوفية في مرحلتها التأسيسية لأننا سنذكره بتفصيل من وجهات النظر المختلفة مع نتائجه وأسبابه في الفصل التالي لهذا الفصل.

ولهذا سنكتفي بالحديث عن ثلاثة أمور:

الأول: المؤسس الحقيقي للجمعية

الثاني: جلسات التأسيس، وكيف تمت.

الثالث: قانون الجمعية.

أولا ــ مؤسس الجمعية:

اختلف المؤرخون للجمعية حول البداية الحقيقية للتفكير في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبناء على ذلك اختلفوا في المؤسس الحقيقي لها[1]، ونحب أن نطرح هنا هذا الخلاف، لغايتين:

الأولى: ما نراه من ضرورة مراجعة الأحداث التاريخية، وعدم التسليم لكل ما يذكره المؤرخون، وكأنه حقيقة مقدسة لا يجوز المساس بها، وخاصة إذا استلم زمام كتابة التاريخ طرف واحد له صلة بالجهة التي يكتب عنها.

ثانيا: ــ أن الحكم على ما حصل بين الجمعية والطرق الصوفية من أحداث وتأثير يرجع بدرجة كبيرة إلى البداية التأسيسية للجمعية، ولهذا فإنه من المهم التعرف على المؤسس الحقيقي ودوافعه.

انطلاقا من هذا نذكر أهم الشخصيات التي دار الجدل حول كونها مؤسسة للجمعية، وهي – كما نرى – أربع شخصيات، كل شخصية منها تمثل توجها فكريا وإصلاحيا خاصا، سنعرفه في في هذه الرسالة عند عرض التوجهات الفكرية لجمعية العلماء.

---

[1] لعل من أسباب الخلاف في هذا أن النداء الذي نشرته الشهاب في شهر فيفري 1931 (إلى كافة الشعب الجزائري)، والذي جاء فيه : (هل من حازم يوفق لتأسيس جمعية العلماء فينال جائزة مالية مع تخليد اسمه)، لم يذكر فيه اسم الداعي، بل اكتفت جريدة الشهاب بقولها (والداعي إلى إعادة بحث هذا الموضوع الهام هو أحد الفضلاء الممتازين)

1 ــ أحمد توفيق المدني:

يعتبر (أحمد توفيق المدني) [1] من الشخصيات المهمة التي ظهرت إبان تأسيس جمعية العلماء، وكان لها دور بارز فيها، وهو يمثل شخصية الإداري المحنك الناجح الذي يستطيع أن يتأقلم مع كل التوجهات، ولذلك اعتبره البعض مؤسسا حقيقيا للجمعية، بل كان هو نفسه يقول بذلك، ويرى أنه صاحب الفكرة[2].

ويرجع تاريخ نشأة الجمعية على حسب هذا المصدر إلى التقاء مجموعة من العلماء[3] بنادي الترقي لمناقشة الأوضاع التي آلت إليها الجزائر خاصة بعد الاحتفالات المئوية، وكذلك دراسة موضوع تأسيس حركة تمثل الشعب الجزائري، ولكن لا تكون في الإطار السياسي، فاهتدوا في الأخير إلى تكوين جمعية إسلامية تجمع شمل العلماء، وغايتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت مبادرة العاصمي بأن يطلق عليها اسم (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) [4]

وقامت هذه الجماعة بتشكيل لجنة تحضيرية لتأسيس جمعية العلماء، وكان منهم - على حسب رواية المدني: محمد بن المرابط، ومحمود بن ونيش، ومحمد الزميرلي، والحاج ماماد المانصالي، ومحمد بن الباي، ومحمد علي عباس التركي، وقدور بن مراد الرودوسي، ومحمد بن الحفاف، بالإضافة إلى العاصمي، وعمر إسماعيل، وعبابسة، والمدني، وخرجوا بالقرارات التالية :

---

[1] أحمد توفيق المدني (1899ـ- 1984) من مواليد مدينة تونس وهو من عائلة جزائرية، زعيم سياسي قدير درس بالزيتونة وشارك في النضال الوطني بتونس ضمن الحزب الدستوري، سجن عدة مرات، له عدة مؤلفات منها كتاب الجزائر 1931، وكتاب هذه هي الجزائر 1957، وكتاب حياة كفاح في ثلاثة أجزاء ،عرف بنشاطه السياسي والصحافي انظر في ترجمته: محمد الطاهر العدواني، مجلة التاريخ، العدد 18(م.و.ف. م، الجزائر،1985) ص169.

[2] أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 2،، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، 1977، ص 174.175.

[3] وهم: محمد العاصمي ومحمد عبابسة وعمر إسماعيل.

[4] المدني، حياة كفاح، ج2، ص ص.175. 176.

• السـير إلى الأمـام دون تـردد وتـواني إلى أن تجتمـع هـذه الجمعية.
• أن النـادي سـيكون مقرهـا الرسـمي إلى أن تقيم الجمعيـة لنفسها مقرا خاصا.
• أن رجال النادي وراء الفكرة أدبيا وماديا وقانونيا[1].

ويذكر المدني بأن الأعضـاء المجتمعين كلفـوه بتحضـير (قـانون أساسي للجمعية)، وأنه تمكن خلال ثلاثة أيـام من إعـداد مشـروع القانون فوافق عليه أعضاء النادي[2].

وبعد مراسلة أعضاء النادي الاجتماع كـان أول إجتمـاع يـوم 05 ماي 1931م في نادي الترقي.

ولعل ما يؤيد هذا الـرأي أن نـادي الـترقي الـذي كـان الحاضـن الأكبر لجمعية العلماء بـدأ نشـاطه، بـل تأسـس عنـد عـودة أحمـد توفيق المدني إلى الجزائر أثناء صيف سنة 1926.

وقد وصف أحمد توفيق المدني كيفية التأسيس، فذكر أنـه أثنـاء حفل عشـاء أقيم بمـنزل السـيد محمـد بن المرابط -أكـبر التجـار الجزائريين- على شرفه بعودته إلى الجزائر، وضم هذا الحفـل 32 رجلا من أعيـان الجزائـر وفضـلائها، وأخـذ الحـديث مجـراه حـول وضعية الجزائـر وحـول حاضـرها ومسـتقبلها، وقـام السـيد الحـاج ماماد المانصالي، وشكر المدني بخطبه الواعظة الهادفة في حفل التكريم، وكذا جمعيـة الشـبيبة ومـا أثـاره في نفـوس الجزائـريين، واقترح على المدني بأن يكمل عمله بإنشاء جمعية أو نـاد على أن يعينوه ويؤيدوه، وصادق جمع كبير على ماقاله المانصالي، فـاقترح المدني إنشاء ناد ضخم كبير يقـع في أحسـن حي، ويـؤثث أحسـن تأثيث يلم الشمل، وفيه يجمـع النـاس كـل يـوم، وفي هـذا النـادي تتكون الأفكـار وتظهـر الآراء وتنـاقش المشـاريع وتبـدو الحركـات الصالحة، فمن أراد النهضة الاقتصادية وجد حوله رجـال الاقتصـاد، ومن أراد الإصلاح الاجتماعي وجد من يبحث في الإصلاح، إلى غـير ذلك من مواضيع النهضة والحياة.

فرد عليـه السـيد يوسـف بن المرابط بـأن الفكـرة حسـنة جـدا

---

[1] المدني، حياة كفاح، ج2، ص 177.

[2] أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 107.

لكنها مثل كل الأفكار تطفو على السطح حينا ثم ترسـب ولا يبقى لها من أثر فما كان على المـدني إلا أن قـال : (إن الفكـرة سـهلة التنفيذ وقريبة الإدراك، ويلزمها ثلاثة أمور: المال وعنـدكم والحمـد للـه، والرجـال وأنتم عصـبة قويـة من الرجـال، والعزيمـة وفيكم العزيمـة الصـادقة، فلـو أردتم ولـو عـزمتم لكـان لكم النـادي في أقرب وقت)

وهنـا أخـذ الحاضـرون يتناقشـون وطـال الحـديث وتشـعبت وتشاكست الآراء وتصادمت الغايات إلى أن هـدأت الثـائرة وخفت الحـدة بعـد سـاعة فقـال المـدني : (الآن حسـب رأيي عليكم أن تجربوا ليتكلف ثلاثة منكم بالبحث عن محل لائـق محـترم وفسـيح وليتعهد جماعة منكم أو كلكم ببذل المال الكافي من أجل الإيجـار والتـأثيث ودفـع التكـاليف الأولى ثم لتعينّ لجنـة لتحريـر قـانون أساسي يعرض على الاجتماع العام عند عقده)(1)

وهكذا تأسس النـادي، وكـان خـير مثـال على الإصـلاح الشـامل الذي استطاع أن يجمع الجزائريين بمختلـف مشـاربهم وتوجهـاتهم الفكرية، ولو أن الأمر اسـتمر على ذلـك النهج لكـان واقـع جمعيـة العلماء المسلمين الجزائريين مختلفا كثـيرا عن الواقـع الـذي آلت إليه، والذي أدخلها في صراعات داخلية كثـيرة شـغلتها عن دورهـا الإصلاحي الأساسي الذي هو الحفـاظ على الهويـة، والوقـوف في وجه المستعمر.

2 ــ عبد الحميد بن باديس:

لاشـك في اعتبـار الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس هـو صـاحب الفكـرة الحقيقي عنـد أكـثر المـؤرخين، وخاصـة من المـوالين للجمعيـة، أو من الـذين اقتصـِروا في مصـادرهم على مـا تـورده الجمعية متلقين له تلقي المسلِّم.

ولعل خير من دافع عن هذا الرأي وأكـده (محمـد خـير الـدين)، وهـو من أشـد المقـربين إلى الشـيخين عبـد الحميـد بن بـاديس والبشـير الإبـراهيمي(2)، فهـو ينفي بقـوة أن تكـون فكـرة تأسـيس

[1] أحمد توفيق المـدني، مـذكرات حيـاة كفـاح 1925/1954م، ج2 (ش. و. ن. ت، الجزائر 1977) ص111.

[2] لقد كان الإمام ابن باديس يعتز كثيرا بالشيخ خير الدين، فأثنـاء تجديـد المجلس الإداري عام 1938 م، وأثناء التعريف بأعضـائها قـال: (و ثـالثهم الشـيخ محمـد خـير

الجمعية لغير عبد الحميد بن باديس حيث يذكر أنه هو والشيخ مبارك الميلي كانا حاضرين حين دعا ابن باديس محمد عبابسة بقسنطينة، وأوكل إليه مهمة الدعوة إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين بالعاصمة مع مراعاة العناصر التي لا تثير أسماؤها الشبهات والشكوك لدى الإدارة الفرنسية أو مخاوف أصحاب الزوايا، وأن يوجه الدعوات إلى العلماء بنادي الترقي مع الحرص أن يكون ذلك سرا حتى يكتب للموضوع النجاح.

وحسب خير الدين فإن محمد عبابسة وجه الدعوة لكل من عمر بن إسماعيل الدلسي والشيخ محمد العاصمي، وأحمد توفيق المدني الذي كان صديقا لمبارك الميلي.

كما يذكر أن ابن باديس أفضى لهم بالسر وطلب كتمانه، كما أخبرهم بأنه لن يحضر الاجتماع في يومه الأول حتى يستدعى رسميا لحضور الاجتماع العام، وكان هدفه تجنب ردود فعل الإدارة وأصحاب الزوايا الذين يتحرجون بكل عمل يقوم به عبد الحميد ابن باديس[1].

بل يذكر محمد خير الدين التحضيرات التي قام بها عبد الحميد بن باديس قبل التأسيس، وأهمها الاجتماع الذي دعا إليه عام 1928، وكانت الدعوة موجهه إلى العلماء والطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي الذين تفرس فيهم الشيخ المؤهلات العلمية والعملية والقدرة القوية والاستعداد التام للعمل في إنجاز هذا المشروع.

الدين عميد الحركة الإصلاحية في بسكرة وضواحيها وهو- من بين إخوانه - ممتاز بحسن التدبير التجاري والفلاحي، الذي قلّ أن لا يعود عليه بالأرباح لكنه كثيرا ما ترك ذلك في سبيل خدمة الجمعية بذلك التدبير، وهو مراقب الجمعية العام) (محمد خير الدين، المذكرات،ص 294. أنظر أيضا: عبد الحميد بن باديس: (المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ،جريدة البصائر، العدد 137، 28 أكتوبر 1938 ،ص2)، ومثله الشيخ الإبراهيمي الرجل الثاني، فقد كان يعتمد عليه كثيرا، وكان ينشد دائما قوله:

الدين خير كله وأنا أرى =من خير هذا الدين (خير الدين)

(محمد خير الدين:المصدر نفسه، ص 231)

[1]) رابح تركي، المرجع السابق : ص 66 - 67.

وكـان الاجتمـاع - كمـا يرويـه الشـيخ محمـد خـير الـدين[1] - في مكتب ابن بـاديس المجـاور لمسـجد الأربعين شـريفا بقسـنطينة، حيث سـاد الحمـاس الفيـاض والعزيمـة الصـادقة في العلمـاء والطلاب، وأبدوا فيه الاستعداد لبداية عهد التضحية في سبيل اللـه ودينه والنهوض بالوطن، وافتتح ابن باديس الجلسة بخطبـة عـرض فيها على وجه الإجمال والإيجـاز، خطـوات فرنسـا في طمس دين ولغة وهوية وقومية وشخصية الجزائريين، وذكرهم بتلـك القـوانين الجائرة التي تدرج المستعمر الفرنسـي في إصـدارها، حنكـة منـه في طور التغيير واقتلاع الجذور، وامتصاصا لردود الفعل المنتظرة من جراء كل قـانون ابتـداءًا من قـانون تقسـيم الجزائـر وإلحاقهـا بالعمالات الفرنسية.. وذكر الشيخ العلماء بتلك المجاعة والجفـاف التي عانت الجزائر منها سنة 1879 واستغلتها فرنسا في استمالة وتحويل المسلمين عن دينهم إلى الديانة النصرانية بقيـادة الـزعيم الروحي للمبشرين (الكاردينال لافيجري)

ويـذكر خـير الـدين أن العلمـاء أجـابوا كلهم باسـتعدادهم التـام وشوقهم للتضحية في سبيل دينهم ووطنهم، وعـرض الـرئيس في الاجتماع خطة العمل الإدارية والعمليـة مسـلطا الضـوء فيهـا على وسـائل وجبهـات التضـحية الـتي تفرضـها الظـروف والأحـوال في الغالب، ونص على الدروس والوعظ لعامة المسلمين والكتابة في الصحف والمجلات للتوعية، وإنشـاء النـوادي للاجتماعـات، وإلقـاء الخطب والمحاضرات والاعتمـاد على الكشـافة الإسـلامية لعنصـر الشباب، وتنمية روح النضال في الجزائـريين، وهـذه الوسـائل هي عين الوسائل المعلن عنها بعد تأسـيس الجمعيـة رسـميا مـا يؤكـد قدم فكرة التأسيس للجمعية قبل موعدها الرسمي[2].

ومن المؤيدين لهذا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بل إنه ذكر تاريخا أسبق من التاريخ الذي ذكره محمد خير الدين، ولا بـأس أن ننقل بتصرف بعض ما ذكره هنا لنرى من خلاله الـدوافع الحقيقيـة لتأسيس الجمعية، قال: (كنا نؤدّي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلـة

---

[1]) مذكرات الشيخ محمد خير الدين: 1/83.

[2]) مذكرات الشيخ محمد خير الدين: 1/83.

في المسجد النبوي، ونخـرج إلى مـنزلي، فنسـمر مـع الشـيخ ابن باديس، منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفـترق إلى الليلـة الثانيـة، إلى نهايـة ثلاثـة الأشـهر الـتي أقامهـا بالمدينـة المنـوّرة.. كـانت هـذه الأسـمار المتواصلة كلها تـدبيرًا للوسـائل الـتي تنهض بهـا الجزائـر، ووضـع البرامج المفصّلة لتلك النهضات الشـاملة الـتي كـانت كلهـا صـورًا ذهنية تتراءى في مخيلتينا، وصحبها من حسن النيّة وتوفيق الله ما حقّقها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد اللـه على أن تلـك الليـالي من سـنة 1913 ميلاديـة هي الـتي وضـعت فيهـا الأسـس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجـود إلا في سنة 1931)[1]

ثم يذكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كيف رجع الشـيخ عبـد الحميد بن باديس إلى الجزائر، والخطوات التي قام بها لتنفيـذ مـا اتفقا عليه، فقـال: (وشـرع الشـيخ بعـد رجوعـه من أول يـوم في تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الذي اتفقنا عليـه، ففتح صـفوفًا لتعليم العلم، واحتكر مسجدًا جامعًا من مسـاجد قسـنطينة لإلقـاء دروس التفسير، وكان إمامًا فيه، دقيق الفهم لأسـرار كتـاب اللـه، فما كاد يشرع في ذلك ويتسامع الناس به حتى انهال عليــه طلاب العلم من الجبـال والسـهول إلى أن ضـاقت بهم المدينـة، وأعانـه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعـام المحـاويج منهم جماعـة من أهـل الخير ومحبّي العلم، فقويت بهم عزيمته) [2]

ثم يذكر الثمار التي جناها الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس بعـد سـنوات من ذلـك الجهـد التعليمي والـتربوي، والـذي كـان نـواة لتحقيق ما اتفقا عليـه، فقـال: (ورأيت بعيـني النتـائج الـتي حصـل عليهـا أبنـاء الشـعب الجزائـري في بضـع سـنوات من تعليم ابن باديس، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركــة لها ما بعدها، وأن هذه الخطوة المسدّدة الـتي خطاهـا ابن بـاديس هي حجــر الأســاس في نهضــة عربيــة في الجزائــر، وأن هــذه

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/278.

[2] آثار الإبراهيمي: (5/279)

المجموعة من التلاميـذ الـتي تنـاهز الألـف هي الكتيبـة الأولى من جنـد الجزائـر، ولمسـت بيـدي آثـار الإخلاص في أعمـال الرجـال، ورأيت شـبابًا ممن تخرّجـوا على يـد هـذا الرجـل وقـد أصـبحوا ينظمون الشعر العربي بلغة فصـيحة وتـركيب عـربي حـرّ، ومعـان بليغة، وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمّة، وأوصـاف رائعـة في المجتمع الجزائري، وتشريح لأدوائه، ورأيت جماعة أخــرى من أولئك التلامذة وقد أصبحوا يحبرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم من إخوانهم في الشرق العربي، وآخرون يعتلون المنابر فيحاضـرون في الموضـوعات الدينيـة والاجتماعيـة، فـيرتجلون القــول المــؤثّر، والوصــف الجـامع، ويصــفون الــدواء الشافي بالقول البليغ)[1]

ثم يذكر مؤازرته لابن بـاديس في التحضـير لتأسـيس الجمعيـة، فقال: (وحللت بلدي وبدأت من أول يـوم في العمـل الـذي يـؤازر عمل أخي ابن باديس... بدأت أولًا بعقد النـدوات العلميـة للطلبـة، والدروس الدينية للجماعات القليلـة، فلمـا تهيّـأت الفرصـة انتقلت إلى إلقاء الدروس المنظّمة للتلامذة الملازمين، ثم تدرّجت لإلقــاء المحاضرات التاريخية والعلمية على الجماهير الحاشدة في المدن العامرة والقرى الآهلة، وإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد الــديني كل جمعة في بلد، ثم لما تمّ استعداد الجمهور الذي هزّته صيحاتي إلى العلم، أسّسـت مدرسـة صـغيرة لتنشـئة طائفـة من الشـبان نشأة خاصة وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجمـاهير بعـد تزويدهم بالغذاء الضروري من العلم) [2]

بهذا التأريخ الذي ذكره الإبراهيمي يتبين لنا أن التـاريخ الحقيقي لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين انطلـق من الفـترة التي كان فيها ابن باديس والإبراهيمي بأرض الحجاز، وكان للفكرة مـا بعـدها من الجهـد العـام والخـاص لتوفـير الأرضـية الصـالحة لاستقبال الجمعية ورعايتها.

وهــذا لا يعــني أننــا نــرجح أن ابن بــاديس والإبــراهيمي همــا المؤسسان الحقيقيان للجمعية، وإنما نـرجح أن هنـاك شـعورا بين

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/279)

[2] آثار الإبراهيمي: (5/279)

طبقـات من المثقفين الجزائـريين من أصـحاب الاتجـاه الإسـلامي بضــرورة تنظيم أنفســهم مثلمــا حصــل بين تيــارات أخــرى في الجزائر.. أو مثلما حصل خارج الجزائر من تنظيمات إسلامية.

3 ــ الطيب العقبي:

يعتـبر الطيب العقـبي من أكـثر الأعضـاء البـارزين في الجمعيـة قبل تأسيسها، بما كان يملكه من قدرات خطابية عالية، وبما كــان يملكه من شخصـية قويـة اسـتطاع بهـا أن يقتحم محـال كـان من الصعب على العلماء اقتحامها، وهو يمثل – كما سنرى في محله – شخصية الداعية النجدي الوهابي، بكل ما تحملـه هـذه الكلمـة من معان، في مقابـل ابن بـاديس الـذي كـان يمثـل دور محمـد عبـده ورشيد رضا وغيرهم من أصحاب المدرسة التنويرية.

وقد أشار إلى هذا مالـك بن نـبي عنـدما ذكـر عن نفسـه تـأثره الشديد بالشيخ العقبي وتفضيله عليه في شـبابه على الشـيخ عبـد الحميد بن باديس، فقـال: (كـان الشـيخ العقـبي يبـدو في نـاظري بدويا بينمـا يبـدو الشـيخ ابن بـاديس بلـديا، وحين بـدأت فيمـا بعـد معركــة الإصــلاح وكنت أحــد المشــتركين فيهــا، بقيت أحمــل في أعماقي شيئا من التحفـظ تجـاه ابن بـاديس وبعض الأسـى لكـون الشيخ العقبي لا يقود تلك الحركة ولا يرأس جمعية العلماء)[1]

وإلى اعتبــار الطيب العقــبي هــو المؤســس الحقيقي للجمعيــة ذهب بعض الباحثين في تاريخ الجمعية[2]، ولعل ما يدل لهذا الــرأى الوجيه الدور الكبير الذي لعبه الشيخ العقبي في نادي الترقي قبل تأسيس الجمعية.

فقد ذكر المؤرخون للنادي وللجمعية التغيير الذي أحدثـه الطيب العقبي للنادي بعد انتقاله إليه بدعوة من أعضاء هيئة النـادي الـتي أعجبت بفصاحته الراقية في اللغة العربيـة على اثـر تأبينيـة ناصـر

---

[1] مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، دمشق، سورية، 1984، 132.

[2] انظــر: أحمــد مريــوش ;الشــيخ الطيب العقــبي ودوره في الحركــة الوطنيــة الجزائرية، مطبعة دار هومة الجزائر،2007، ص 143.

الدين ديني[1] ببوسعادة[2].

بعد هذا التف أعيان الجزائر المصلحون حوله وأكرمـوه وجعلـوا له مرتبا من صندوق النادي يكفيـه، ثم اشـتروا لـه دارا حسـنة في حي (سانتوجين)[3]

في هذه الأجواء بدأ العقبي نشاطه بنادي الـترقي، وقـد قـدرت محاضراته الأسبوعية فيه بـأكثر من خمس محاضـرات، هـذا علاوة عن الحلقات والندوات التي كان يعقدها من حين لآخر مـع جماعـة النادي وبعض الأعيـان من مختلـف الولايـات الأخـرى وكلهـا تعـالج الطرح الجديد للإصلاح [4].

وقـد لقيت دعـوة العقـبي الإصـلاحية الإقبـال الكبـير وعمـرت دروسـه بـالمؤمنين بهـا، كمـا اسـتقطبت حركتـه عنصـر الشـباب وكذلك عمال الميناء الـذين واضـبوا على الاسـتماع إليـه وأصـبحوا الجند الواقي لحركته حتى أسماهم العقبي بـ (الجيش الأزرق)[5]

---

[1] إتيان دينيه (1861/1929) ولد بباريس، والداه محاميـان، وهـو رسـام فرنسـي مشهور أعلن إسلامه بالجزائر وأتخذ اسم ناصر الدين سنة 1927م برع في التصوير وله لوحات معروفة، ألف بالفرنسية كتاب محمد بالاشـتراك مـع سـليمان الجزائـري وحلاه برسوم من ريشته، له بالفرنسـية : حيـاة الصـحراء ،أشـعة من نـور الإسـلام، توفي بفرنسا بنوبة قلبية وأوصـى بنقـل جثمانـه إلى بوسـعادة للمزيـد أنظـر : سـعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص 415.

[2] مريوش، الطيب العقبي، ص.ص.124. 125.

[3]) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج2،ط1(المطبعـة العربيـة، الجزائر، 1971) ص 115.

[4] مريوش، الطيب العقبي، ص.ص 129. 130.

[5] عرف محمد الطاهر فضلاء هذا الجيش بأنه: منظمـة تشـبه الفـدائيين مكونـة من الشـباب المصـلحين المتـأثرين بالحركـة الإصـلاحية الجديـدة والمبهـورين بشخصـية الطيب العقبي، تأثروا بدروسه ومحاضراته واهتـدوا إلى الإقلاع عن الـدنايا والتكفـير عن السيئات بالرجوع إلى الله والاهتداء بهديه، ثم استعمال العنف أحيانا للـدفاع عن الحركة الإصلاحية ومحركها الشيخ الطيب العقبي وكانوا حرسا له أينما كـان وحيثمـا حل. انظر: محمد الطاهر فضلاء، الطيب العقبي رائد الإصـلاح الـديني بـالجزائر (م.

بل حتى الحركة الكشفية استطاع العقبي أن يستقطبها من خلال تدعيمه وتوجيهاته لها، ومن خلال توافد شبابها على نادي الترقي، وقد ذكر محمد بوراس زعيم الكشافة الإسلامية أنه كانت له علاقة بالعقبي، وكان من مناصريه سواء بالنادي أو بالخارج، واتضح ذلك في حضور بوراس لنشاطات العقبي سنة 1936م أثناء تحضيراته للمؤتمر الإسلامي[1].

وقد ذكر مالك بن نبي تأثير العقبي على العاصمة، فقال: (... حتى وصلنا تحت لافتة (نادي الترقي) وربما كانت أول لافتة بالخط العربي في العاصمة كما قال له الدليل أنه من مريدي العقبي في هذا النادي حيث يعطي درسه كل مساء... ولم تكن ظاهرة التغير التي شهدتها العاصمة على وجه رجل الشارع وفي هيئته وكلامه وفي هذه اللافتة المكتوبة بالخط العريض، لم تكن تعني لي إلا شيئا واحدا هو أن موجة الإصلاح قد وصلت إلى هنا)[2]

4 ـ عمر إسماعيل:

قد يستغرب البعض طرح اسم (عمر إسماعيل)[3]هنا، خاصة وهو اسم غير معروف للكثير، ولكنا مع ذلك نطرحه باعتبارين:

الأول: أنه - مع كونه محسوبا على الجناح الصوفي – تولى مناصب حساسة في إدارة الجمعية في أول تأسيسها، فقد ترأس اللجنة التأسيسية، وترأس لجنة العمل الدائم في السنة الأولى من تأسيس الجمعية، وكان يمكن لو استمر في هذه الوظائف الخطيرة أن يحمي الجمعية من كثير من التقلبات التي حصلت فيها، فقد كان يجمع بين التوجه الصوفي والتوجه الإصلاحي،

و. ف. م، الجزائر، 1985) ص57، وقد ذكر لي الدكتور أحمد عيساوي أن هذا غير صحيح.

[1] انظر : مريوش، الطيب العقبي، ص132.

[2] بن نبي، مذكرات شاهد للقرن – الطالب – ص256.

[3] عمر إسماعيل : أحد أعيان العاصمة وأثريائها قام بدور كبير في تأسيس نادي الترقي ماديا، تولى رئاسة اللجنة الدائمة التي وضعت لتأسيس الجمعية وساعده في ذلك محمد المهدي (كاتب)، وآيت سي أحمد عبد العزيز (أمين المال)، ومحمد الزمرلي والحاج عمر العنق (عضوان) (انظر: مريوش، الطيب العقبي، ص 144)

وبالتالي كان أكثر أعضاء الجمعية قدرة على استيعاب كل أطياف التوجهات الفكرية الجزائرية.

الثاني: أن هناك من الباحثين المحترمين وشهود العيان من أخبر بهذا، بل صار يطالب به، فقد نشرت جريدة ليبرتي (Liberté) الصادرة باللغة الفرنسية، في عدديها الصادرين يومي الجمعة 4 والسبت 5 ماي 2012، وكذلك يومي الجمعة 11 والسبت 12 ماي 2012، مقالا في حلقتين من تأليف الكاتب (عبد الحكيم مزياني)، الذي يشغل منصب نائب رئيس مؤسسة القصبة.

والمقال عبارة عن تغطية للنشاط الذي نظمه المقهى الأدبي لمؤسسة قصبة الجزائر، الذي عقد بمناسبة إحياء الذكرى الواحدة والثمانين لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد كان عنوان المقال (تكريم القصبة لجمعية العلماء ومؤسسها الشيخ عمر إسماعيل)

ولم يكن هذا العنوان خطأ من الكاتب أو الناشر، وإنما هو عنوان مقصود، وقد ذكر فيه إجماع الشهود من أصدقاء وأقارب (عمر إسماعيل)على أن فكرة تأسيس الجمعية تعود لعمر إسماعيل مشددين على ضرورة استعادة حقوقه التاريخية.

وقد ذهب الكاتب إلى أكثر من ذلك حين ذكر أن الإدارة الاستعمارية تعمدت إبعاد العناصر الصوفية، وقربت الإصلاحيين من ذوي التوجه السلفي لتمنحهم تسيير مراكز العبادة تطبيقا لقانون 1905 الذي يفصل بين الدين والدولة، منحازة بذلك لجانب الجناح الإصلاحي على حساب الجناح الصوفي في الجمعية.

ونحن مع احترامنا لهذا الرأي إلا أنا لا نرى ما ذكره من الأدلة كافيا، بل القضية تحتاج إلى المزيد من البحث والأدلة بعيدا عن التحيز والتعصب.

ونأسف في نفس الوقت كثيرا لما قوبل به هذا الرأي المحترم الوجيه من طرف جمعية العلماء الجديدة، فقد حملت في موقعها على الإنترنت حملة شنيعة على الكاتب وعلى الجمعية، وعنونت حملتها بعنوان (ماذا وراء محاولة اختطاف جمعية العلماء؟!)[1] وهو

[1] انظر: الموقع الرسمي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين على الرابط التالي (http://www.oulama.dz/)

ناشئ للأسف من النظرة التقديسية للتاريخ، والتي لا تتيح لنا مراجعة الحقائق بعيدا عن كل تعصب.

وكل ما ذكره الكاتب من أدلة هو مجموعة خطابات تعودنا عليها لا تحمل أي طابع علمي، فهو ينتقل ــ مثلا ــ من مناقشة الفكرة إلى الحديث عن صاحبها، فيقول: (الاستغراب يأتي من كون أن الحقيقة التي يعرفها العرب والعجم، ويعتقد بصحتها جل المؤرخين لحركة الإصلاح الوطني وتاريخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هي أن الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس – عليه رحمة الله- هو مؤسس جمعية العلماء المسلمين، فهل يكفي مقال لكاتب لامع وصحفي مخضرم ومقتدر في القضايا الثقافية ينصب اهتمامه -حسب ما قرأنا له- على شؤون الفن والسينما، والقضايا الأدبية أن يقلب حقائق معروفة وموثقة منذ 80 سنة؟!)

وهو - ثانيا- يرجع في مصادره إلى المصادر التي لا يمكن الاعتماد عليها وحدها، باعتبارها طرفا من الأطراف، فهو يذكر مثلا (الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الرئيس الثاني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومذكرات الشيخ محمد خير الدين، أحد مؤسسي جمعية العلماء وأعضائها القياديين، والدكتور أبو القاسم سعد الله، المؤرخ الجزائري المعروف، وكل هؤلاء مشهود لهم باستقامتهم الدينية، وأمانتهم العلمية، وسعة إطلاعهم على قضايا وخفايا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)

ونحن لا ننكر هنا ما ذكره هذا الكاتب، وما ذكرته تلك المصادر، ولكنا في نفس الوقت لا نستطيع أن ننكر ما ذكره غيرهم، ولذلك نرى أن المنهج العلمي يجعلنا نحترم كل الآراء، ولا نقدس أحدا منها مهما كان، ولا نعتبر من خالفنا مختطفا مهما كانت صفته، ما دام يعتمد في ذلك على المنهج العلمي.

ثانيا ــ جلسات التأسيس:

بغض النظر عن صاحب الفكرة فإنه بعد أقل من سنة على مرور الاحتفالات المئوية للاستعمار الفرنسي، والتي كانت بمثابة الشرارة التي ساعدت في إخراج الفكرة إلى الوجود[1]، عقدت الجلسة التمهيدية لوضع أسس وهيئات الجمعية صبيحة يوم الثلاثاء

---

[1] الشهاب ،ج 5، م7، المطبعة الجزائرية الإسلامية قسنطينة، محرم 1350هـ، ص 341.

على الساعة الثامنة صباحا الموافق لـ 5 مـاي 1931 م.

وقد حضر حفل التأسيس 702 عالما وطـالب علم من مختلـف أنحاء القطر الجزائري بدعوة من اللجنة التأسيسية، وعلى رأســها عمر إسماعيل، وكان الاجتماع يهدف إلى وضع القـانون الأساسـي للجمعية، فعينوا للرئاسة المؤقتة أبا يعلي الزواوي، وللكتابة محمد الأمين العمودي الذي تلى القانون فأقرته الجمعية بالإجماع.

وفي المسـاء من نفس اليـوم أعيـد الاجتمـاع لانتخـاب الهيئـات الإداريــة، طبقــا للقســم الثــالث والفصــل الســابع من القــانون الأساسي وقد اعتمدت طريقة الاقتراع لاختيار الأعضـاء وهم: عبـد الحميد بن باديس، ومحمـد البشـير الإبـراهيمي، والطيب العقـبي، ومحمد الأمين العمودي، ومبارك الميلي، وابراهيم بيوض، ومولــود الحــافظي، ومــولاي بن شــريف، والطيب المهــاجي، والســعيد الياجوري، وحسـن الطرابلسـي، وعبـد القـادر القاسـمي، ومحمـد الفضيل الورتيلاني، وحددت لهؤلاء مهمة اختيار المهام فيما بينهم.

وتم سن القـانون الأساسـي للجمعيـة وانتخـاب الهيئـة الإداريـة وانتخب ابن باديس غيابيا[1] للرئاسة والإبراهيمي نائب لـه وللكتابـة العامة محمد الأمين العمودي ولمساعدته العقبي والأمانـة الماليـة للميلي والأستاذ إبراهيم بيوض مساعد له[2].

وقد ضمت الجمعية في عضويتها اتجاهات مختلفـة كـان بعضـها

---

[1] يفسر المؤرخـون للجمعيـة سـر تغيب ابن بـاديس عن الاجتمـاع هـو أنـه رأى في غيابـه حكمـة لتـدعيم الجمعيـة وأن غيابـه كـان بـأمر من المجتمعين حـتى لا تتفطن الإدارة لأبعاد جمعيـة العلمـاء (مريـوش، الطيب العقـبي، ص 145)، وهـذا مـا أكـده محمد بن خير الدين الذي يذكر أن ابن باديس ذكر له أنـه لن يلـبي دعـوة الاجتمـاع، ولن يحضر في يومه الأول حتى يقرر المجتمعون اسـتدعاءه بصـفة رسـمية، فيكـون بـذلك مـدعوا لا داعيـا، وبـذلك يتجنب مـا يكـون من ردود فعـل تقـوم بهـا السـلطة الفرنسـية في البلاد وأصـحاب الزوايـا ومن سـار في ركابهـا، وبهـذا الـرأي السـديد نجحت الخطة (محمد خير الدين، مـذكرات، ج1، ط1(مؤسسـة الضـحى، الجزائـر ، 2002) ص89)

[2] عبـد الكـريم بـو صفصـاف، جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين وعلاقاتهـا بالحركات الجزائرية الأخرى (1931 ـ 1945)، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، ص101-102.

إصلاحيا مجددا، وكان البعض الآخر يمثل المحافظين (كـان رؤسـاء زوايـا 06 طـرق صـوفية هامـة في البلاد أعضـاء مسـاعدين في المجلس الإداري للجمعية)

يقول الإبـراهيمي: (فـانتخب المجلس الإداري من رجـال أكفـاء جمعتهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة)[1]

وفي اليوم الثاني الموافق لـ 06 مــاي 1931م عقـدت الهيئـة الإداريـة أول جلسـة بنـادي الـترقي برئاسـة محمـد البشـير الإبراهيمي، وقد حضر الاجتماع كل الأعضاء ما عدا الأستاذين، عبد الحميد بن باديس، وحسن الطرابلسـي، وتم خلال الجلسـة إعـادة النظر في القانون الأساسي، وأقر بالإجمـاع، وقـرر ترجمتـه للغـة الفرنسـية للمصـادقة عليه[2]، وفي اليـوم الثـالث عقـدت الهيئـة الإداريـة بحضـور عبـد الحميـد بن بـاديس، وعرضـت عليـه لائحـة الأعمال السابقة[3].

ثالثا ـ قانون الجمعية:

لقد ذكرنا أن هناك اختلافـا في واضـع قـانون الجمعيـة، فـالكثير يذكر أنّه من انجـاز الإبـراهيمي بطلب من ابن بـاديس، أمـا أحمـد

---

[1] آثار الإبراهيمي، ج5، ص281.

[2] وأهم ما جاء فيه في القسم الأول والفصل الأول: (أنه تأسست بـالجزائر جمعيـة ثقافيـة تحت اسـم (جمعيـة العلمـاء المسـلمين)، مركزهـا نـادي الـترقي. كمـا نص القانون في نفس الفصل، وفي الفصـل الثـالث أنـه لا يسـوغ للجمعيـة الخـوض في المسـائل السياسـية، وكـان هـذا المبـدأ كضـمان أول وشـرط أساسـي لكي توافـق الحكومة الاستعمارية لقيام هذه الجمعيـة (الفضيل الـورتيلاني، الجزائـر الثـائرة، دار الهدى- عين مليلة، الجزائر، ص149)، كما حدد القانون أهداف الجمعية في الفصــل الرابع، ولكي تباشر الجمعية في أعمالها وتحقق مقاصدها، كان لا بد لها من ترخيص من طرف الإدارة الفرنسية، وتم تقديم طلب الموافقة على تأسيس الجمعيـة نظـرا لضمها أعضاء مصلحين ورجال دين، وبفضل هذه المرونة والتكتيـك سـارعت الإدارة الفرنسية للاعتراف بهـا والموافقـة على قادتهـا في مـدة وجـيزة لا تتعـدى 15 يومـا (أبوالقاسم سعد الله: الحركة الوطنية 1930-1945 ،ط2، الشركة الوطنيـة للنشـر والتوزيع، الجزائر، ج3 ،ص83)

[3] الشهاب ،ص341..

توفيق المدني فيذكر في مذكراته بأنّه هو من كّلف شخصيا بوضع هذا القانون، وبطلب من أعضاء نادي الترقي، ويقول في ذلك: (كلفتني الجماعة بإيجاد قانون أساسي بسيط للجمعية، أعرضه عليهم بعد أيام)، ثم يضيف: (أما أنا، فقد اعتكفت في مكتبتي ثلاثة أيام سطرت فيها للجمعية قانونها الأساسي بما لا يخرج عن نطاق القوانين المعروفة الأخرى)[1]

بغض النظر عمن كتب القانون، فقد تمت صياغته تبعًا لنظام وقواعد الجمعيات المبينة بالقانون الفرنسي المؤرخ بأول جويلية سنة 1901 م، وقد كان مقسما إلى 5 أقسام و23 فصلا، حدّد في القسم الأول اسم الجمعية ومقرها، أما القسم الثاني فحدّدت مقاصد هذه الجمعية وغاياتها وأهدافها، والقسم الثالث تطرق إلى أعضاء الجمعية، والقسم الرابع تطرق إلى مالية الجمعية وكيفية إدارتها، أما القسم الأخير فوضّح فيه الاجتماعات الإدارية والعامة، وكيفية تسييرها[2].

وقد وصف الشيخ الإبراهيمي هذا القانون، وكيف سهر على إنجازه وتأثيره على أعضاء الجمعية وغيرهم بعد تقديمه لهم، فقال: (كلّفني إخواني أعضاء المجلس الإداري في أول جلسة أن أضع للجمعية لائحة داخلية نشرح أعمالها كما هي في أذهاننا لا كما تتصوّرها الحكومة وأعوانها المضلّلون منا، فانتبذت ناحية ووصلت طرفي ليلة في سبكها وترتيبها، فجاءت في مائة وسبع وأربعين مادة، وتلوتها على المجلس لمناقشتها في ثماني جلسات من أربعة أيام، وكان يحضر الجلسات طائفة كبيرة من المحامين والصحافيين العرب المثقفين بالفرنسية، فأعلنوا في نهاية عرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات، وأنها أصلح لغة لصوغ القوانين ومرافعات المحامين، وكأنما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم، وخطب الرئيس عند تمام مناقشة اللائحة وإقرارها بالإجماع خطبة مؤثّرة أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان مما قال:

---

[1] انظر : أحمد توفيق المدني :حياة كفاح، مذكرات، في الجزائر 1925-1954)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص177-178.

[2] انظر : علي حشلاف، المرجع السابق، ص12.

عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضلّ في دين أو يخزى في دنيا، أو يذلّ لاستعمار. ثم خاطبني بقوله: وري بك زناد هذه الجمعية)[1]

المطلب الثاني: جمعية العلمـاء في عهـد ابن بـاديس وأهم منجزاتها:

يذكر تلميذ ابن باديس الشيخ محمـد الطـاهر فضـلاء محـاولات الاستعمار الفرنسي الساعية لـنزع الرئاسـة عن ابن بـاديس، ومـا قام به في هذا الصديد من إغراءات، وكيف قـاوم ابن بـاديس كـل تلك الإغراءات بقوة وشـجاعة[2]، فـذكر أنـه بعـد تأسـيس الجمعيـة رسمياً، وبروز خطها الإصـلاحي الجهـادي، اسـتدعى الـوالي العـام (مـيرانت) بقسـنطينة الشـيخ ابن بـاديس ووالـده مصـطفى بن باديس، وعرض على الشيخ أن يختار لنفسه أية وظيفة يرغب فيها (مفتي أكبر.. أو قاضي قضاة مثلا) على شرط واحد هـو أن يتخلى عن رئاسة جمعية العلماء، قائلا له : (يا شيخ اترك عنك هـذا العار اخرج من هذه الحشومة، ودع هذه الجماعة المسكينة التي جمعها عدو فرنسا بالنـادي، فليس هـؤلاء الرجـال رجالـك، وليسـت هـذه الحثالة من الطلبة ممن يفتخر العالم بالانتسـاب لهم، أو أن يكـون رئيسًا عليهم) وأمام هذا الاقتراح تأجج شعور الإمـام ضـد الـوالي، وحاول الرد عليه، لولا وقوف والـده وبكائـه وإلحاحـه عليـه بقبـول العرض بسبب أن الأسـرة مقبلـة على الإفلاس وأنـه بقبولـه تعلن الحكومـة الفرنسـية اسـتعدادها لعمليـة الإنقـاذ، بإضـافة مسـاعدة مالية قصد تحسين الأوضاع الفلاحية والاقتصادية.

واقتضـت حكمـة الإمـام ابن بـاديس، أن طلب فرصـة قصـيرة للتفكير والاستخارة حتى الصباح الموالي.. وخرج الإمام دار الولاية العامة، متأثرًا منفعلاً باكيًا مدركًا السر الإلهي في يتم الرسـول ﷺ منذ صباه الأول، يقول: (اليوم فقط عـرفت السـر، وعـرفت معـه كيف يكون الابتلاء بالنعمة وبالنقمة معًا، وبالخير والشر معًا وصدق الله القائل: (وَنَبلُوكُم بِالشَرِّ والخَيرِ فِتْنَة وَإلَيْنَا تُرجَعُونَ)

---

[1] آثار الإبراهيمي: 5/281.

[2] انظر: محمد الطاهر فضلاء : دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1968 م، ص : 102-104.

وفي اليوم الموال كتب ابن باديس جوابه إلى ميرانت قال له فيه : (اقتل أسيرك يا ميرانت، أما أنا فمانع جاري! اقتل يا ميرانت مصطفى بن باديس، واقتل معه عبد الحميد بن باديس، واقض على كل أسرة ابن باديس، إن منحك الله هذه القدرة، ولكنك لن تصل ابدًا إلى قتل جمعية العلماء بيدي، لأن جمعية العلماء ليست جمعية عبد الحميد بن باديس، وإنما هي جمعية الأمة الجزائرية المسلمة، وما أنا فيها إلا واحد، أتصرف باسم الأمة كلها. ومحال أن أتصرف تصرفًا أو أقف موقفًا يكون فيه قتل الجمعية على يدي. أقول هذا، وحسبي الله ونعم الوكيل)[3]

ونحن لا ننكر هذه الرواية، ولكنا في نفس الوقت نرى أن الاستعمار الذي أباد ملايين الجزائريين، واستطاع بحيله ومكره أن يغتال من يشاء وكيف يشاء لم يكن محتاجا إلى أي إغراء ليحقق مقاصده ما دامت لديه تلك الأسلحة التي أباد بها الملايين.

بالإضافة إلى هذا، فإن جمعية العلماء كانت بحاجة إلى رجال أقوياء لتولي تلك المناصب الرفيعة، وكان يمكن حينها من باب الحنكة والسياسة أن يقبل بها ابن باديس، ثم يفوض رئاسة الجمعية لأي عضو من أعضاء الجمعية المقتدرين وما أكثرهم، وبالتالي تكسب الجمعية طابعا رسميا بالإضافة إلى طابعها الحر.

لكن مع ذلك، فإن الرواية التي ذكرها فضلاء ترسم صورة لشخصية ابن باديس القوية، والتي استطاعت أن تجعل من الجمعية في فترة رئاسته لها جمعية لها سمعتها في الجزائر جميعا، بل وصلت سمعتها إلى غيرها من البلاد العربية.

بالإضافة إلى هذه الصورة الممتلئة بالقوة نجد صورة أخرى ممتلئة بالتسامح وضحها في خطبة له قالها بعد انتخابه رئيسا للجمعية، ومما جاء فيها: (إخواني، كنت أعد نفسي ملكاً للجزائر أما اليوم فقد زدتم في عنقي ملكية أخرى، فاللهَ أسأل أن يقدرني على القيام بالحق الواجب.. إخواني إنني أراكم في علمكم واستقامة تفكيركم لم تنتخبوني لشخصي، وإنما أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضعيف هذا : الأول إنني قَصَرْتُ وقتي على التعليم فلا شغل لي سواه فأردتم

[3] محمد الطاهر فضلاء : دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ص 102-104.

أن ترمـزوا إلى تكـريم التعليم إظهـاراً لمقصـد من أعظم مقاصـد الجمعية وحثاً لجميع الأعضاء على العناية به كل بجهده، الثاني: أن هذا العبد له فكرة معروفة، وهو لن يحيد عنها ولكنها يبلغهـا بـالتي هي أحسـن، فمن قبلهـا فهـو أخ في اللـه، ومن ردهـا فهـو أخ في الله، فالأخوّة في الله فوق ما يقبـل ومـا يـرد، فـأردتم أن ترمـزوا بانتخابي إلى هذا الأصل، وهـو أن الاختلاف في الشـيء الخـاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام)[1]

انطلاقا من هاتين الصفتين في شخصية ابن بـاديس نحـاول في هذا المطلب أن نـذكر ثلاث مواقـف مهمـة للجمعيـة في عهـده[2]، كنمـــــــــــــــاذج عن أنـــــــــــواع الحركـة الـتي كـانت تتحـرك بهـا الجمعية[3]، باعتبـار أن الكثـير من المـؤرخين

---

1) الشهاب : ج6، م7، غرة صفر 1350هـ جوان 1931.

2) من أهم ما يذكره المؤرخون للجمعية عند ذكرهم لمنجزات الجمعية في عهد ابن باديس:

- دوره في إخمـاد نـار الفتنـة بين اليهـود والمسـلمين (فاجعـة قسـنطينة) صـيف 1934 م.
- الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي والمساهمة فيه شهر جوان 1936 م.
- مشاركته ضمن وفد المؤتمر إلى باريس في شهر جويلية 1936 م.
- موقفه السّياسيّ من وعود حكومة فرنسا.
- محاورة لجنة البحث في البرلمان الفرنسي في شهر أبريل 1937 م.
- دعوة النواب إلى مقاطعة المجالس النيابية في شهر أوت عام 1937 م.
- نداءه لمقاطعة الاحتفالات القرنية لاحتلال مدينة قسنطينة خريف 1937 م.
- موقفه من قانون 8 مارس 1938 م.
- موقفه من إرسال برقية التضامن مع فرنسا ضد التهديد الألماني.
- مقاومة سياسة الاندماج والتجنيس.
- الوقوف في وجه المحاولات الهادفة إلى زعزعة الوحدة الوطنية.

3) وهذا لا يعني اختزال المنجزات في هـذا، فالجمعيـة في هـذه الفـترة كـانت في أنشط عهودها، فقد قامت بـالتعريف بمبادئهـا من خلال صـحفها، وتأسـيس عـدد من المـدارس والمسـاجد، كمـا قـامت بإنجـاز ثقـافي امتـد إلى فرنسـا من خلال جهـود الفضيل الورثلاني للجالية العمالية الجزائرية بتلقين أبنائهـا مبـادئ القـراءة، والكتابـة

يعرضها باعتبارات من الإنجـازات الكـبرى إمـا للجمعيـة جميعـا، أو لابن باديس خصوصـا، ونحب أن نعرضـها هنـا كمـا هي، وبوجهـات النظر المختلفة:

أما أولهما، فيتعلق بعلاقة الجمعية مع الطرق الصوفية.

وأمـا الثـاني، فيتعلـق بالمطـالب السياسـية للجزائـريين، وهي تتعامل في هذا الحالة مع المستعمر الفرنسي.

وأما الثالث، فيتعلق برفض الجمعية لبرقيـة التأييـد لفرنسـا في حربها مع ألمانيا.

وسنذكر الكثير من المنجزات والمواقـف الأخـرى في الميـادين المختلفـة عنـد الحـديث عن مشـروع جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين الإصلاحي في الباب الثاني من هذه الرسالة.

أولا ــ استبعاد المحافظين من الجمعية:

لقد كان من أولى منجـزات الفـترة الـتي ولي فيهـا ابن بـاديس قيادة جمعيـة العلمـاء اسـتبعاد المحـافظين من الجمعيـة، والـذين يشـملون خصوصـا على رجـال الطـرق الصـوفية، والـذين كـانوا يشكلون جزءا مهما من الجمعية عند تأسيسها.

وبمـا أنـا سـنذكر هـذا الموقـف ونتائجـه وأسـبابه بتفصـيل في الفصل التالي لهذا الفصل عند ذكر العلاقة الرسـمية بين الجمعيـة والطرق الصـوفية، فإنـا سـنكتفي هنـا بسـرد الحادثـة كمـا ذكرهـا محمد الصـالح آيت علجت فقـد ذكـر مختصـرا مـا حـدث في ذلـك اليوم وأسبابه، فقال: (كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين تضـــم اتجـــاهين في تشـــكيلتها: المحـــافظون والإصـــلاحيون، فالمحافظون هم المنتمون إلى شيوخ الزوايا والمرابطين والعلماء الذين لم يتأثروا بالحركـة النجديـة الوهابيـة الـتي كـان للكثـير من علمـاء الاتجـاه الإصـلاحي اتصـالٌ بهـا حين وجـودهم في الحجـاز كالشيوخ السادة: ابن باديس والعقبي والإبراهيمي، زعمـاء حركـة التجديد الذي لم يقبله العلماء المحافظون، فكـانت بين الاتجـاهين

بالعربية، ومبادئ الدين الإسلامي، وتاريخ الإسـلام، وجغرافيـة الجزائـر، حـتى يرتبـط الصـغار الجزائريـون في المهجـر بالحضـارة العربيـة الإسـلامية، وبـوطنهم الأصـلي الجزائر.. وغيرها كثير.

.

هجومات متبادلة عبر التجمعات والندوات وفي الصحف. وبإنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931، التزم الفريقان بالكف عن النزاع والمجادلة في المسائل الخلافية وإحلال الوئام والصفاء اللذان لم يستمرا أكثر من سنة لتعود تلك الصراعات المذهبية والخوض في الجزئيات والبحث عن الأسباب المثيرة للجدل بين الفريقين، ما جعل الخلاف بينهما يستفحل، ويليه استدعاء الشيخ عبد الحميد بن باديس للشرطة للتدخل على أثر الانقسام العلني الذي حدث في جلسة الجمعية بتاريخ 24 ـ 05 - 1932، ليخرج المحافظون (الطرقيون) على أثر هذا الاجتماع من الجمعية)[1]

وقد اعتبر الشيخ الإبراهيمي بأن هذا الانشقاق الذي حصل في أوساط الجمعية تمحيصا لها من رجال الطرق الصوفية الذين أرادوا اختراقها، فقال: (ولما جاء أجل الانتخاب للدورة الثانية هجم العليويون ومن شايعهم على ضلالهم تلك الهجمة الفاشلة بعد مكائد دبروها، وغايتهم استخلاص الجمعية من أيدي المصلحين، وجعلها طرقية عليوية واستخدامهم هذا الاسم الجليل في مقاصدهم الخاطئة كما هي عادتهم في إلباس باطلهم لباس الحق، ووقف المصلحون لتلك الهجمة وقفة حازمة أنقذت الجمعية من السقوط ومحصتها من كل مذبذب الرأي مضطرب المبدأ، وتألف المجلس الإداري من زعماء الإصلاح وصفوة أنصاره، ورأى الناس عجيب صنع الله في نصر الحق على الباطل)[2]

وقد كان لهذه الحادثة تأثيرها الكبير على العلاقة بين الجمعية والطرق الصوفية - كما سنرى ذلك في الفصل الثالث من هذا الباب - ومما زاد في آثارها سوءا استدعاء ابن باديس للشرطة عند وقوع الهرج في نادي الترقي للمحافظة على الأمن، وقد انتقد في ذلك نقدا لاذعا وليم على استدعاء الشرطة (الفرنسية

---

[1] آيت علجت، محمد الصالح : الشيخ المولود الحافظي حياته وآثاره، تقديم الدكتور محمد الشريف قاهر، الجزائر، منشورات دار الكتب، 1998، ص 63-75.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 188)

طبعا) لفض تنازع العلماء، لكن ابن باديس دافع عن الشرطة بحرارة[1].

وكان من ضمن ما قال في دفاعه: (ارتباط الجزائر بفرنسا اليوم صار من الأمور الضرورية عند جميع الطبقات فلا يفكر الناس اليوم إلا في الدائرة الفرنسية، ولا يعلقون آمالهم إلا على فرنسا مثل سائر أبنائها ورغبتهم الوحيدة كلهم هي أن يكونوا مثل جميع أبناء الراية المثلثة في الحقوق كما هم مثلهم في الواجبات، وهم إلى هذا كله يشعرون بما يأتيهم من دولتهم مما يشكرونه، ومما قد ينتقدونه، وقد كنا نؤكد لهم هذا التعلق ونبين لهم فوائده ونبين لهم في المناسبات أن فرنسا العظيمة لا بد أن تعطيهم يوما- ولا يكون بعيداً- جميع ما لهم من حقوق وكنا لا نرى منهم لهذا إلا قبولا حسنا وآمالاً طيبة)[2]

وقد دافع سعد الله عن هذا الموقف الحرج الذي وقع فيه ابن باديس والجمعية، فقال: (ومن هنا يتضح أن موقف العلماء لم يكن سهلا، فقد كانوا يمشون على البيض كما يقول المثل الأجنبي، فهم من جهة كانوا يريدون تحقيق مبادئهم وأهدافهم بأية وسيلة مشروعة، ومن جهة أخرى كانوا واقعين تحت طائلة إجراءات استثنائية مستعدة لعرقلة سيرهم، بل وضعهم في قفص الاتهام، لذلك كانوا يناورون ما وسعتهم الحيلة والمناورة ويجاملون ولكنهم لا يتنازلون عن مبادئهم، ومن أجل ذلك اصطدموا مرات بالإدارة)[3]

ولسنا ندري ما هي الضرورة الداعية لاستعداء المستعمر على علماء أو طلبة علم وقع الخلاف بينهم، وكان يمكن أن يرفعوه بالحكمة واللين من غير أن يشوهوا سمعتهم بتدخل الشرطة الاستعمارية، بل بدعوتها للتدخل؟

---

[1] انظر: الشهاب: ج 8، م 8، ص 401 - 409 غرة ربيع الأول 1351ه - أوت 1632م، وانظر: آثار ابن باديس: 4/321.

[2] الشهاب: ج 8، م 8، ص 401 - 409 غرة ربيع الأول 1351ه - أوت 1632م، وانظر: آثار ابن باديس: 4/321.

[3] سعد الله، الحركة الوطنية: 3/93.

هذا بعض ما حصل في ذلك اليـوم التـاريخي الـذي صـارت فيـه الجمعيـة شـيئا واحـدا، وتمثـل طرفـا واحـدا بعـد أن كـانت تمثـل الجزائر جميعا، وسنعود إلى تفاصيل الحادثة كمـا يراهـا الطرفـان، وخلفياتها ونتائجها في الفصل التالي لهذا الفصـل باعتبارهـا حادثـة مفصلية في تاريخ العلاقة بين الجمعية والطرق الصوفية.

ثانيا ـ حضور المؤتمر الإسلامي:

يعتبر حضور الجمعية في عهد ابن باديس للمؤتمر الإسلامي في شهر جـوان 1936 من أهم الأنشـطة السياسـية الـتي قـامت بهـا الجمعيـة، والـتي لقيت في نفس الـوقت جـدلا في مـدى جـدواها وتأثيرها.

وقصــة هــذا المــؤتمر – باختصــار – هي أنــه في عــام 1936م لوّحت فرنسا للجزائريين بمشروع (بلـوم- فيـوليت)[1] الـذي ينتقـد السياسـة الفرنسـية السـابقة، وفي مقترحـات المشـروع: إصـلاح مســتوى التعليم، تــأمين نفس الحقــوق الــتي للفرنســيين لبعض الجزائريين، إلغاء المحاكم الخاصة بالجزائريين.

وقــد وقــف الجزائريــون مواقــف مختلفــة متباينــة من هــذا المشروع:

فبينما عارض المستوطنون معارضة شديدة هذه الإصلاحات، بل رفضوا مجرد التفكير في منح الشعب الجزائـري أبسـط الحقـوق، ذهب أعضاء النخبة الجزائرية في اتجـاه المطالبـة بالمسـاواة في بعض الحقوق (كالتمثيل والانتخاب)

وفي مقابــل هــؤلاء تحفــظ أعضــاء حــزب النجم على سياســة الجبهــة الشــعبية، وأبــدوا مخــاوفهم من نتائجهــا على مســتقبل الجزائر[2].

بين هذه المواقف رأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن تقف موقفا وسـطا، فلم تجـار السـلطة في مزاعمهـا، وفي نفس الوقت لم ترفض التعامل معهـا، وبنـاء على هـذا دعت إلى انعقـاد

[1] بلوم هو رئيس الوزراء في حكومة الجبهة الشعبية و(فيوليت) كان حاكمًا للجزائر في العشرينات، وقد عين في هذه الحكومة مختصًا بالشؤون الجزائرية.

[2] ينظر ابن باديس حياته وآثاره 3 : 370..

هذا المؤتمر[1]، لجمع كلمة الأمـة وتوحيـد صـفوفها حـول المسـألة الوطنيـة، والتصـدي لمـا يخطـط لـه المحتلـون، ويقـوم بـه بعض الجزائـريين تنفيـذا لمخططـات السـلطة من تـرويج لسياسـة التغريب، ونشر أفكار الاندماج، والتساهل في شأن الذاتية[2].

بعد هذا عقد المؤتمر الإسلامي بباريس، واجتمـع هنـاك العلمـاء (الإبراهيمي، ابن بـاديس، والطيب العقـبي) برجـال دولـة فرنسـا، وبالصحافة الفرنسـية، وبرجـال نجم شـمال إفريقيـا، وكـانت هـذه فرصة للعلماء لإطلاع الساسة الفرنسيين على ما يجري بالجزائر.

وكـان غالبيـة من حضـر المـؤتمر من دعـاة الانـدماج وأنصـار مشروع (بلوم فيوليت)، ولذلك رأى المناصـرون لحضـور الجمعيـة لهذا المؤتمر أنـه كـان لـه أثـر فعـال في تعطيـل الانـدماج وإبـراز الذاتية الإسلامية العربية الجزائرية، حيث جاء في مطالب المؤتمر ما يلي[3]:

1 ــ رفع جميـع الأوضـاع الخاصـة مثـل المتصـرفيات ومجـالس (الكريمينـال)[4] والمعـاملات الخاصـة مثـل الانديجينـه وأعطيـات الجندية وزيادة مدة الخدمة العسكرية، والبرنـامج الخـاص بـالتعلّم في المكاتب الابتدائية وغيرهـا، وحرمـان عمّـال الجزائـر من كثـير مما يتمتع به العمّال الفرنسيون.

2 ــ تسـوية نـواب الجزائـريين بـالنّواب الفرنسـيين في جميـع المجـالس، مـع توحيـد النيابـة البرلمانيـة بكلا المجلسـين بحيث يشارك في انتخاب النوّاب البرلمانيين مشاركة فعلية جميع سكّان

---

[1] وقد ذكر أحمـد ابن ذيـاب وحمـزة بوكوشة أن صـاحب الفكـرة في الأصـل هـو الأمين العمودي الذي أشار بها على ابن باديس، وطلب منه أن تكون الدعوة صـادرة باسـمه انظـر: أحمـد ابن ذيـاب (جـوانب نضـالية من حيـاة الشـهيد محمـد الأمين العمودي)، مجلة الثقافة، السنة الخامسة عشر، عدد 86، مارس أفريـل 1985، ص 235، وانظر: حمزة بوكوشة : مجلة الثقافة، عدد 06، جانفي 1972، ص 59.

[2] انظر: آثار الإمام 4 : 118..

[3] آثار الإبراهيمي: (1/256) وما بعدها، وانظر: حمزة بوكوشة : مجلة الثقافة، عدد 06، جانفي 1972، ص 59.

[4] كلمة فرنسية معناها الجرائم، الجنايات.

الجزائر على اختلاف أجناسهم وعقائدهم مع بقاء المسـلمين على جميع ذاتياتهم الإسلامية.

3 ــ اعتبار اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتكتب بها مـع الفرنسـية جميـع المناشـير الرسـمية، وتعامـل صـحافتها مثـل الصـحافة الفرنسـية، وتعطى الحريـة في تعليمهـا في المـدارس الحرة مثل اللغة الفرنسية.

4- تسـليم المسـاجد للمسـلمين مـع تعـيين مقـدار من ميزانيـة الجزائـر لهـا يتناسـب مـع أوقافهـا. وتتـولّى أمرهـا جمعيـات دينيـة مؤسسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدين عن الحكومة.

5 ــ تأسيس كلية لتعليم الدين ولسانه العربي لتخـريج مـوظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرسين ومؤذنين وقيّمين وغيرهم.

6 ــ تنظيم القضـاء بوضـع مجلـة أحكـام شـرعية على يـد هيئـة إسلامية، يكون انتخابها تحت إشـراف الجمعيـات الدينيـة، وإدخـال إصلاحات على المـدارس الـتي يتخـرّج منهـا رجـال القضـاء، منهـا تدريس تلك المجلة والتحقق بـالعلوم الشـرعية الإسـلامية، وطبـع التعليم بطابعها لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثلين لها.

وقـد ذكـر حمـزة بوكوشة أنـه عنـد مقابلـة ابن بـاديس لـوزير الحربية الفرنسي آنذاك، وتصريحه له بأنه لا يمكنه أن يوافق على إعطاء المسلمين الجزائريين النيابة في البرلمـان مـع محـافظتهم على الشريعة الإسـلامية في الحقـوق الشخصـية، وقـال لهم: (إن فرنسا معها مدافع)، فقال له عبد الحميد: (والجزائر معها الله)[1]

وكتب عبـد الحميـد حينهـا مقـالاً في الشـهاب وصـف فيـه تلـك المقابلات ختمه بذكر أهم نتيجتين تمخض عنها، وهي:

1 – أن الوفـد أدى مطـالب مـؤتمر الأمـة الجزائريـة المسـلمة بصدق وأمانة وشرف.

2 – أن فرنسـا بحكومتهـا وأحزابهـا وصـحافتها عـرفت أن وراء البحر أمة جزائرية إسلامية تطالب فرنسا بحقوقها وتحافـظ تمـام المحافظة على شخصيتها ومقومات شخصيتها[2].

رغم عـدم نجـاح المـؤتمر في تحقيـق مطالبـه إلا أنّ الجمعيـة

---

[1] مع ذكر ابن باديس للقائه مع وزير الحربية إلا أنه لم يذكر هـذا (انظـر: آثـار ابن باديس: 3/340)، وانظر: حمزة بوكوشة : مجلـة الثقافـة، عـدد 06، جـانفي 1972، ص 61.

ظلت حريصة عليه، وقد كان من أوائل ما أصيبت بـه الجمعيـة من الخيبة بعد الخيبة التي رجعت بهـا من المـؤتمر هـو ذلـك الموقـف الذي وقفه (ابن جلول) بسبب حادثة مقتل مفتي الجزائر (محمـود بن دالي)[1]، المعروف بكحول، الذي كان ضـمن وفـد المـؤتمر إلى فرنسا، وقد اتهم في قتله الشيخ الطيب العقبي.

ولم يكتف ابن جلول بخروجه من المـؤتمر، بـل ذهب بعيـدا في خصومته للجمعيـة، إذ التجـأ إلى الطـرق الصـوفية وأقـام لهم في قسنطينة حفلا كبيرا.

ولمـا جـاءت سـنة 1937م كـان المـؤتمر الإسـلامي مـا زال

---

[2]) آثار ابن باديس: 3/340.

[1]) وقد أثـرت هـذه الحادثـة كثـيرا في مسـيرة الجمعيـة، ولعلهـا من الآثـار السـلبية لدخول المؤتمر، وقصتها هي أن رجلا معروفا بالإجرام يقال له عكاشة، نفـذ جريمتـه يوم 2أوت 1936م بقتل المفتي في الـوقت الـذي كـان فيـه العقـبي وسـائر ممثلي المؤتمر مجتمعين بـالملعب البلـدي[20أوت حاليـا] يشـرحون للأمـة المطـالب الـتي تقدموا بها إلى الحكومة الفرنسية، فلما ألقي عليـه القبض ادعى الجـاني أنـه تسـلم من العقبي خنجرا من صنع بوسعادة ومبلغ 30000فرنكا، فاعتقل العقبي ورفيق لـه وزج بهمـا في السـجن، وأغلـق نـادي الـترقي، وضـيق على أعضـاء الجمعيـة في العاصمة، واحتشدت الجماهير وتجمعت تلقائيا احتجاجا على اعتقال الشـيخ وصـاحبه فكادت تحدث فتنة عمياء لـولا أن توجـه إليهم ابن بـاديس والإبـراهيمي بـأن يقـابلوا الصدمة بالصبر والتزام الهدوء والسكينة، فقضى الشيخ في السجن سـبعة أيـام، ثم تراجع عكاشة عن تصريحاته بعد ذلك وأنكـر أن تكـون لـه علاقـة بـالعقبي وصـاحبه، فأفرج عنهما بصفة مؤقتة، ووضعا تحت المراقبة مع إمكانية التوقيف عند الضـرورة، ثم لم يُفصل في القضـية إلا بعـد ثلاث سـنوات، حيث حكم بـبراءة العقـبي وصـاحبه بتـاريخ 28 جـوان 1939، ويـرى البعض أن الحادثـة قـد أثـرت كثـيرا على العقـبي ومواقفه، ولعلها من أسباب استقالته بعد ذلك من الجمعيـة، لكن الإبـراهيمي يـذهب إلى عكس ذلك، فيقول في (الآثار (1/279): (ومن آثـار هـذه الحادثـة على الأسـتاذ العقبي أنها طارت باسـمه كـل مطـار ووسـعت لـه دائـرة الشـهرة حـتى فيمـا وراء البحار، وكان يوم اعتقاله يوما اجتمعت فيه القلوب على الألم والامتعاض، وكان يوم خروجه يوما اجتمعت فيه النفوس على الابتهاج والسـرور) (انظـر: الحادثـة بتفصـيل في: أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج2، ص177)

متماسكا، رغم الحملة التي شنّت عليه من طرف ابن جلــول ومن معه، وبقيت مطـالب المـؤتمر الأولى كمـا هي لم تتغيّـر، وأضـيف إليها مطـالب أخـرى، ولكنّ شـيئا من هـذا كلّـه لم يتحقّـق، فعقـد اجتمـاع اللجنــة التنفيذيــة للمــؤتمر سـنة 1937م، وتمخّض هــذا الاجتماع عن قرارات مهمة منها: استقالة جميع النواب المسـلمين وعــدم مشــاركتهم في المجــالس المنتخبــة اعتبــارا من تــاريخ الاجتماع، كما جدّدت اللجنـة مطالبتهـا بحريـة تعليم اللغـة العربيـة وإيجاد المدارس الكافية للتعليم العام، والحريـة المطلقـة للوعـظ والإرشاد، والتعليم في سائر المساجد.

وتكوّن وفد ضمّ الشيخ ابن باديس وفرحات عباس للـذهاب إلى فرنسا، لعرض هذه المطالب على الحكومة الفرنسية، لكن فرنسا أجابت بالرفض، عندها أضربت الجمعية وصحفها عن الاهتمام بهذا المؤتمر، حيث لم تحقق من ورائه أي شيء.

وقد كانت هـذه الأحـداث محـل مناقشـة كثـيرة بين مؤيـد لهـذا العمل الذي قامت به الجمعية، ورافض له يعتبر أن آثـاره السـلبية أخطر بكثير من آثاره الإيجابية، ولعل خير من يمثل هذا التوجه هو الأستاذ الكبير مالك بن نبي، الذي انتقد بشدة ما آلت إليـه الأمـور في المؤتمر الجزائري، وانتقد سير الجمعية مع القافلة السياسية.

ومهمة هذا النقد هو ما أبرزه من تصـوير للواقـع الجزائـري في تلك الفترة، والذي صار (أكثر جدباً وأفشى قحطاً، لم تبق فيه تلك الرابطة التي كان المرء يشعر بها بين القلوب والعقول المجتمعــة حول قضية في جو يضفي عليها القداسة... بل هذه القضية نفسها أصبحت كأنهـا ذابت وتبخـرت في طوفـان من كلام، إذ أصـبح كـل مقهى سوق عكاظ، وكـل مائـدة فيهـا أصـبحت منصـة يخطب من حولها بما شاء ولمن شاء وكيفما شاء)[1]

ويعزو ابن نبي سبب هذا التحول إلى تسليم (القيادة (المعمَّمة) زمــام الأمــر للقيــادة (المطربشة[2]، حــتى على رأس المــؤتمر الجزائري الإسـلامي، الـذي ذهب أول ضـحية لهـذا التسـليم، وبـدأ

[1] مذكرات شاهد القرن، ص 384.

[2] (المطربشـــة) كنايـــة عن الزعمـــاء السياســـيين خـــريجي الجامعـــات، وهـــذه المصطلحات كانت قد ظهرت في مصر أثناء الصراع بين قيادات الأخوان المسلمين أصحاب العمائم الأزهريين وبين خريجي الجامعات من (الأفندية) كما كانوا يسمون.

ظهور (الجبهة الشعبية) بفرنسا يضيف مفعوله الخاص إلى الانهيار الذي حدث بالجزائر، فأصبح كل جزائري ذا اهتمـام سياسـي يعلن عضويته في الحزب الاشتراكي الفرنسي، حـتى بعض هيئـة أركـان حزب الإصلاح) [1]

ويذكر بقاء تأثير هـذا الحـدث على الجزائـريين لعقـود، فيقـول: (وإنني لأرى، وأنا أحرر هذه السطور بعـد مضـي ثلث قـرن، نتـائج هذا الانحراف في المظاهرة الطلابية الـتي تمـر هـذه اللحظـة في الشارع تحت نافذتي، منادية بسقوط شخصية عربية أعلنت اليـوم استقالتها من الحكم بعـد الهزيمـة النكـراء، بينمـا لم أر همـة هـذا الشباب تتحرك قبل أسبوع لينـادي بسـقوط (موشـي دايـان).. إن هـذا الظـرف يكشـف عن ظـاهرة الفـرار من الـواجب بالتظـاهر والمظاهرات، تلك الظاهرة التي لم تكن بعـد نتائجهـا واضـحة في الميدان السياسي ولكنها أصـبحت في منتهى الوضـوح في الحقـل النفسي)[2]

ويذكر مالك بن نبي أن الشيخ العربي التبسي، وهـو من شـيوخ الجمعية، كان يدافع عن ابن جلـول باعتبـاره زعيمـاً سياسـياً لا بـد منه (وكان الرجل (بن جلول) يقوم علانيـة بـدور من ينقض الغـزل كلما غزله الشعب منذ ربع قرن)[3]

والخلاصة الـتي يصـل إليهـا مالـك هي أن العلمـاء وهم الأمنـاء على مصلحة الشعب سلموا الأمانة لغيرهم، سـلموها لمن يضـعها تحت قدميه لتكون سلماً يصعد عليه للمناصب السياسية، سـلموها للجناح القومي البرجوازي (فرحـات عبـاس وأمثالـه) الـذي تقبلهـا منهم بكل سرور!

ويعتقد مالك أن العلمـاء لم يكن في اسـتطاعتهم مواجهـة هـذا

---

1) مذكرات شاهد القرن، ص 384.

2) مذكرات شاهد القرن، ص 384.

3) مـذكرات (386)، وانظـر: د. محمـد العبـدة، مالـك بن نـبي وجمعيّـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين، مقـال بموقـع ابن بـاديس على هـذا الرابـط: (http://www.binbadis.net)

التيــار لأنهم لا يشــعرون به[1] (ولأنهم لم يكونــوا على جــانب من الخبرة بوسائل الاستعمار في مجال الصراع الفكري حتى يفطنــوا إلى هذا الانحراف، وربما كان هذا سبب فتور علاقــاتي بهم خاصــة مع الشيخ العربي التبسي)[2]

ويرى مالـك أن الحركـة الإصـلاحية كـان عليهـا أن تتعـالى على أوحال السياسـة والمطـامع الانتخابيـة وأن من أسـباب انجـرارهم لهذه الأحوال هو شعورهم بمركب النقص إزاء قادة السياسة[3].

وقـد صـدقت فراسـة مالـك بن نـبي في ابن جلـول، فقـد كتب بعدئذ الشيخ الإبراهيمي يقول: (ولكن الرجل – ابن جلـول- تملّكـه الغرور، وتكشف عن خِلال كلها غميزة في وطنيّة السياسيّ، وكان أقوى الأسباب في سقوطه اصطدامه بجمعية العلمـاء، وهي الـتي كونته وأذاعت اسمه، وعبّـدت لـه الطريـق إلى النيابـات، فـأرادت الجمعية أن تستصلحه فلم ينصلح، فنبذت إليه على سواء)[4]

وما ذكره مالك بن نبي حول انزلاق الجزائر إلى أوحال التهــريج السياسي عاد الإبراهيمي عام 1954 ليقر بـه وينتقـده، يقـول في ذلك: (وكأن الحكومة الاسـتعمارية الـتي تـدرس نفسـية الشـعوب عــرفت مــواطن الضــعف في النفســيّة الجزائريــة، فــرأت أن الانتخابات هي الفتنـة الكـبرى للزعمـاء وأتبـاعهم، فنَصَـبَتها صـنماً يصطرعون حوله، والغالب على الشعوب البدائيّة في السياسة أن تكون على بقيّة من وثنيّة، أصنامها الشخصيات، فيكـون إحساسـها تبعاً لإحساسهم ولو إلى الضياع والشر، وهذه هي الحالـة السـائدة في شرقنا)[5]

ونرى أن ما حدث للجمعية وما ذكره مالك بن نبي من آثــار هــو نفس مـا تقـع فيـه حركـات الإسـلام السياسـي حين تنصـرف عن

---

[1] مذكرات (386).

[2] مذكرات (386).

[3] مذكرات (386).

[4] آثار الإبراهيمي: 5/132.

[5] الآثار الكاملة 3/69.

مهمتها الأساسية في تشكيل الأمة وتحصينها إلى ما يسـميه مالـك بن نـبي بـالزردات[1] السياسـية الـتي لا تقـل خطـرا عن الـزردات الصوفية.

ثالثا ــ رفض برقية التأييد لفرنسا:

وقصتها كما يـذكرها حمـزة بوكوشة[2] هي أنـه سـنة 1937 ظن الناسُ أن الحرب بين فرنسا وألمانيا على الأبـواب، فبعثت جمعيـة الميعاد الخيري (هيئة متكونة من الأغوات والقياد)، وبعثت جماعــة اتحــاد الزوايــا وغيرهــا من الهيئــات برقيــة ولاء وتأييــد للحكومــة الفرنســية، وشــذت جمعيــة العلمــاء عن ذلــك، فكــبر ذاك على الفرنسيين.

فطلبـوا من الشـيخ الطيب العقـبي أن ترسـل جمعيـة العلمـاء برقية ولاء ليُظهر المسلمون الجزائريون مظهـر اتحـاد ووفـاق في موالاة فرنسا، فعرض القضية على الشيخ عبد الحميد بن بــاديس، فقال: (سينعقد الاجتمـاع العـام للجمعيـة في هـذه الأيـام، وطبعـاً يتقـدم ذلـك اجتمـاع المجلس الإدراي، وسأضـع هـذا الاقـتراح في اجتماعه ليقول الأعضاء الإداريون كلمتهم)

وفي الاجتماع الإداري في 23 سبتمبر 1938 طرح عبد الحميــد القضـية بهـدوء، وطلب من الأعضـاء إبـداء آرائهم، فكـانت غالبيـة الآراء ضد كتابـة البرقيـة، واستصـوب العقـبي إرسـالها، وقـال في تبريره لذلك: (الحرب على الأبـواب، وإرسـال البرقيـة يخفـف من حـدة الفرنسـيين، فتسـلم مدارسـنا ونوادينـا ومشـاريعنا الخيريـة، ونبقى على اتصال بأمتنا ولـو في زمن الحـرب)، وأخـذ يـدافع عن نظريتــه، فعارضــه كثــير من الأعضــاء، وعبــد الحميــد معتصــم بالسكوت.

ولما طالت المناقشة طلب عبد الحميـد من الأعضـاء التصـويت برفع الأيدي، فكانت النتيجـة أربعـة أصـوات منهم العقـبي يقولـون بإرسالها، واثني عشر يقولون بعدم إرسالها، واحتفظ عبـد الحميـد بصوته، ولما انتهت المناقشـة حمـد اللـه وأثـنى عليـه، وكـان ممـا

[1] يسمى هكذا النذر الذي يقام كل سنة قبـل قيـام الحركـة الإصـلاحية في المـدن الجزائرية، انظر حديث مالك بن نبي عن هذا في (مذكرات شاهد القرن)، ص 386.

[2] انظـر: حمـزة بوكوشة : مجلـة الثقافـة، عـدد 06، جـانفي 1972، ص 60، ومـا بعدها.

قاله: (لو كانت أغلبيتكم تؤيد إرسال البرقيـة مـا كنتم ترونـني في مجلسكم هذا بعد اليوم)

وانتقلت القضية من الاجتماع الإداري الخاص بالأعضاء الإداريين إلى الاجتماع العام الذي تحضره الجماهير، فقال عبد الحميـد على رؤوس الملأ: (أقول صراحة – واجتماعنا هذا لا يخلو من جواسيس رسميين أو غير رسميين- إني لن أمضي البرقية ولن أرسـلها ولـو قطعوا رأسي، وماذا تستطيع فرنسا أن تعمل؟ إن لنا حياتين حياة مادية وحياة أدبيـة روحيـة، فتسـتطيع القضـاء على حياتنـا الماديـة بقتلنا ونفينا وسجننا وتشريدنا، ولن تستطيع القضـاء على عقيـدتنا وسـمعتنا وشـرفنا فتحشـرنا في زمـرة المتملقين، إننـا قررنـا السكوت)

وقد بـرر هـذا الموقـف بـأن الحـرب بين فرنسـا وألمانيـا (حقـد الاسـتعمار بعضـه على بعض، ورغبـة بعضـه في إثـارة مسـتعبدي بعضه عليه، واسـتمالتهم إلى نفسـه، لأنّ تلـك الأمم المستضـعفة، هي مادة حياته وأساس قوته، فهو يتقاتل من أجلها تنافسـا عليهـا، لا رحمة بها، وإن تظاهر بالعطف والشفقة)[1]

وقد نتج عن هذه الحادثة آثار سلبية كثـيرة على الجمعيـة، كـان أولها استعفاء الشيخ الطيب العقبي من العضوية الإداريـة لجمعيـة العلمـاء، واضـطرار الجمعيـة إلى توقيـف جريـدة البصـائر لكي لا تـرغم على نشـر مـا لا ترضـاه، فأعـاد العقـبي إصـدار جريدتـه (الإصلاح) في 28 ديسمبر 1939 والـتي اسـتمرت إلى العـدد 73 الصادر في 3مارس 1948.

المطلب الثالث: جمعية العلماء في عهد الإبراهيمي:

بعـد وفـاة ابن بـاديس لم يكن هنـاك شـخص أولى وأقـدر من الإبـراهيمي على تـولى ذلـك المنصـب الحسـاس، زيـادة على أن القانون الأساسي للجمعيـة يقضـي بتوليـة النـائب في حالـة وفـاة الرئيس[2].

---

[1] البصائر، العدد 165، 22 ربيع الأول، 1358هـ ـ 12 مايو، 1939م.

[2] وقد ذكرت بعض المصادر أنـه عنـد وفـاة ابن بـاديس حضـر ممثـل الـوالي العـام الفرنسي الكومندان شال، واقترح عليهم تعيين العقبي مقابل تقديم العـون، بـالرغم من أ ن هـذا الأخـير قـد اسـتقال من عضـوية الجمعيـة منـذ سـبتمبر 1938، بسـبب

وقد كان الإبراهيمي في تلك الأثناء منفيا بآفلو[3]، ولم ترفع عليه الإقامة الجبرية إلا سنة 1943، فـانتخب كـرئيس للجمعيـة غيابيـا، وظل يشغل هذا المنصب إلى غايـة انـدلاع الثـورة، رغم بعـده عن الساحة.

ويمكن من خلال اسـتقراء الأحـداث والمواقـف الـتي وقفتهـا الجمعية في عهد إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى (1939- 1944):

مع قيام الحرب العالمية الثانيـة، طـالبت فرنسـا كافـة الهيئـات الجزائريـة بتأييـد موقـف فرنسـا، لكن الجمعيـة رفضـت، وكـانت المواجهة مع السلطة الفرنسية مباشرة، ولهذا أصدرت السلطات قـرارًا بإلغـاء الجمعيـة عـام 1940، وتـوفي ابن بـاديس في نفس العام، وخلفه محمد البشير الإبراهيمي في رئاسة الجمعية، ولكنـه اعتقل وعُذِّب في عـام 1941، ثم قـامت سـلطات الاحتلال بنفيـه إلى الصحراء، وفي عام 1946 عـادت الجمعيـة إلى النشـاط بعـد الإفراج عن رئيسها.

وتتمـيز هـذه الفـترة بتجمـد نشـاط الجمعيـة فيهـا مثـل سـائر الأحزاب الجزائرية نتيجة الحرب العالمية الثانية، حيث خضعت إلى الأحكام العرفية.

ونحب أن ننقـل هنـا بتصـرف تصـوير الشـيخ الإبـراهيمي لتلـك الفترة وما حصل فيها من أحداث، لأنهـا – بالإضـافة إلى تصـويرها الواقع الجزائري في ذلك الحين بدقة – تصور كذلك الفكر الثـوري

الخلاف الذي وقع بينه وبين ابن باديس نتيجة رسالة الولاء والتأييد التي كان سـيبعثها العقبي للحكومة الفرنسية في حربها ضد ألمانيا.

(CH-R-Ageron:.Histoire de L'Algérie Contemporaine, Op-Cit, p 579.(

[3]) يذكر المناصرون للإبراهيم في سبب اعتقاله أن فرنسا عرضت عليـه في بدايـة الحرب العالمية الثانية أن يقبل بمنصب شيخ الإسلام في الجزائر إن هو قال أو كتب مـا يؤيّـدها في حربهـا ضـد ألمانيـا، فـرفض ذلـك بإبـاء وشـموخ، فكـان أن نفي إلى الصحراء. (انظر: الدكتور عبد العزيز الصغير الدخان، جمعية العلمـاء ــ ابن بـاديس ـ البشير الإبراهيمي: المصابيح المشرقة في ليل مظلم طويل، على موقعه بـالانترنت (http://dr-dakhane.com/main/textshow-27.html))

الذي كان يحمله الإبراهيمي، وكان يقود الجمعية على أساسه.

يقول ذاكرا الفترة التي كان فيها في الغـرب الجزائـري: (بلغت إدارة الجمعية وهي في مسـتهل حياتهـا من النظـام والقـوة مبلغًـا قويًّا بديعًا فأصبحنا لا نتعب إلّا في التنقل والحـديث، أمـا الحكومـة الاستعمارية فإننا بنينا أمرنا من أول خطـوة على الاسـتخفاف بهـا وبقوانينهـا، وقـد كنـا نعلن في جرائـدنا كـل أسـبوع بـأن القـوانين الظالمـة لا تسـتحق الاحـترام من الرجـال الأحـرار، ونحن أحـرار فلتفعل فرنسا ما شاءت، وكان هـذا الكلام ومثلـه أنكى عليهـا من وقع السهام لأنها لم تألف سماعه، وقـد اطمـأنت إلى أن الشـعب الجزائري قد مات كما صرح بذلك أحد ساسـتها الكبـار في خطبـة ألقاهـا على ممثلي الأمم في المهرجـان الـذي أقامتـه في عيـدها المئــوي لاحتلال الجزائــر، وكــان ممــا قــال: (لا تظنــوا أن هــذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هـذا الـوطن، فقـد أقـام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجـوا منـه، ألا فلتعلمـوا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار)[1]

ثم يذكر تأثير ذلك السلوك الثوري عليه وعلى الجمعية، فيقول: (ولما ضاقت فرنسـا ذرعًـا بأعمـالي ونفـد صـبرها على التحـديات الصـارخة لهـا، وأيقنت أن عاقبـة سـكوتها عنـا هـو زوال نفوذهـا وخاتمة استعمارها، اغتنمت فرصة نشوب الحرب العالمية الثانيـة، وأصدر رئيس وزرائها إذ ذاك "دالاديى" (Daladier) قرارًا يقضـي بإبعادي إلى الصحراء الوهرانية إبعادًا عسـكريًا لا هـوادة فيـه، لأن في بقـائي طليقًـا حـرًا خطـرًا على الدولـة، كمـا هي عبارتـه في حيثيات القرار، ووكـل تنفيـذ قـراره للسـلطة العسـكرية فنقلـوني للمنفى في عاشر أفريل سنة 1940، وبعد استقراري في المنفى بأسبوع تلقيت الخبر بموت الشيخ عبد الحميـد بن بـاديس- رحمـه الله- بداره في قسنطينة بسرطان في الأمعاء، كـان يحس بـه من سنوات ويمنعـه انهماكـه في التعليم وخدمـة الشـعب من التفكـير فيه وعلاجه، وقد شيع جنازته عشرات الألوف من الأمة رغمًــا عن

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/284)

قسوة الأحكام العسكرية وقت الحرب)[1]
ثم يذكر انتخاب الجمعية له بإجماع، فيقـول: (واجتمـع المجلس الإداري للجمعيـة ورؤسـاء الشُّـعَب يـوم موتـه وانتخبـوني رئيسًـا لجمعية العلماء بالاجماع، وأبلغوني الخبر وأنا في المنفى فأصبحت أدير الجمعية وأصرف أعمالها من المنفى بالرسائل المتبادلة بيـني وبين اخواني بواسطة رسل ثقات) [2]

المرحلة الثانية (1944-1956):

وتعتبر فترة نشاط واسـع بالنسـبة للجمعيـة، وخاصـة في نشـر رسـالتها التعليميـة من خلال مدارسـها، ومسـاجدها رغم احتياجهـا للمال.

وقـد ذكـر الشـيخ الإبـراهيمي منجزاتـه فيهـا، فقـال: (بقيت في المنفى ثلاث سـنين تقريبًـا، ولمـا أطلـق سـراحي من المنفى أول سـنة ثلاث وأربعين كـانت فاتحـة أعمـالي تنشـيط حركـة إنشـاء المدارس، فأنشأت في سنة واحدة ثلاثًا وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كله، كلها بأموال الأمـة وأيـديها، واخـترت لتصـميمها مهندسًا عربيّا مسلمًا فجاءت كلها على طراز واحد لتشهد للأجيـال القادمة أنها نتاج فكرة واحدة) [3]

ويذكر النشاط الكبير الذي بذلته الجمعية في بناء المدارس في ذلـك الـوقت، فقـال: (وتهـافتت الأمـة على بـذل الأمـوال لتشـييد المـدارس حـتى أربت على الأربعمائـة مدرسـة، ولم أتخـل بعـد رئاستي للجمعية وخروجي من المنفى عن دروسي العلمية للطلبة وللعامة)[4]

ثم يذكر موقف المستعمر من هذا النشاط، فيقول: (ولمـا رأت فرنسـا أن عقابهـا لي بـالتغريب ثلاث سـنوات لم يكـف لكسـر شوكتي، وأنني عدت من المنفى أمضى لسانًا وقلبًـا وعزيمـة ممـا كنت، وأن الحركـة الـتي أقودهـا لم تـزدد إلّا اتسـاعًا ورسـوخًا،

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/284)

[2] آثار الإبراهيمي: (5/284)

[3] آثار الإبراهيمي: (5/285)

[4] آثار الإبراهيمي: (5/285)

انتهزت فرصة نهاية الحرب ودبـرت للجزائـر ثـورة مفتعلـة فقتلت من الشعب الجزائري المسلم ستين ألفًا، وسـاقت إلى المعتقلات سـبعين ألفًـا معظمهم من أتبـاع جمعيـة العلمـاء، وألقت بي في السجن العسكري المضيق تمهيدًا لمحـاكمتي بتهمـة التـدبير لتلـك الثـورة، فلبثت في السـجن سـنة إلّا قليـل، ثم أخرجـوني بـدعوى صدور عفو عام على مدبري الثورة ومجرميها وكـان من "زملائي" في السـجن الـدكتور شـريف سـعدان- رحمـه اللـه-، والصـيدلي فرحات عباس والمحامي شريف حاج سعيد وغيرهم)[1]

ثم يذكر النشاط المتزايد الذي قام به بعد خروجه من السـجن، فقال: (ولما خرجت من السجن عدت إلى أعمـالي أقـوى عزيمـة ممـا كنت، وأصـلب عـودًا وأقـوى عنـادًا، وعـادت المـدارس الـتي عطلتها الحكومـة زمن الحـرب، وأحـييت جميـع الاجتماعـات الـتي كـانت معطلـة بسـبب الحـرب، ومنهـا الاجتمـاع السـنوي العـام، وأحييت جريدة (البصائر) التي عطلناهـا من أول الحـرب باختيارنـا باتفاق بيـني وبين ابن بـاديس لحكمـة، وهي أننـا لا نسـتطيع تحت القوانين الحربية أن نكتب مـا نريـد، ولا يرضـى لنـا ديننـا، وهمتنـا، وشرف العلم، وسـمعة الجمعيـة في العـالم، أن نكتب حرفًـا ممـا يراد منا، فحكمنا عليها بالتعطيل وقلنا: بيدي لا بيد عمـرو، وحسـنًا فعلنا، كذلك عطلنا مجلة (الشهاب) الناشرة لأفكار الجمعية)[2]

ويذكر الإبراهيمي النشـاطات الكثـيرة الـتي كـان يقـوم بهـا في الجمعيـة، فيقـول: (كنت أقـوم للجمعيـة بكـل واجباتهـا، وأقـوم للجريـدة بكـل شـيء حـتى تصـحيح النمـاذج، وأكتب الافتتاحيـات بقلمي، وقد تمر الليالي ذوات العدد من غير أن أطعم النوم، وقـد أقطع الألف ميـل بالسـيارة في الليلـة الواحـدة، ومـا من مدرسـة تفتح إلّا وأحضـر افتتاحهـا وأخطب فيـه، ومـا من عـداوة تقـع بين قبيلتين أو فردين إلّا وأحضر بنفسـي وأبـرم الصـلح بينهمـا، وأرغم الاستعمار الذي من همه بث الفتن، وإغراء العـداوة والبغضـاء بين

[1] آثار الإبراهيمي: (5/285)

[2] آثار الإبراهيمي: (5/285)

الناس، فكنت معطلًا لتدبيراته في جميع الميادين)[1]

ثم يـذكر النشـاط المتزايـد الـذي قـام بـه في مجـال التعليم، فيقول: (بلغ عدد المدارس الابتدائية العربية أربعمائة وزيادة، وبلـغ عدد تلامذتها إلى اليوم الذي سافرت فيه إلى الشرق مئات الآلاف بين بـنين وبنـات، وبلـغ عـدد معلميهـا ألفًـا وبضـع مئـات، وبلغت ميزانيتها الخاصة (وهي فرع من الميزانية العامة لجمعية العلمـاء) مائـة مليـون فرنـك وزيـادة إلى نهايـة خـروجي من الجزائـر سـنة 1952. ولما بلغ عدد المتخرجين من مدارسنا بالشـهادة الابتدائيـة عشرات الآلاف، وجدت نفسي أمام معضلة يتعسر حلهـا، ذلـك أن حاملي هذه الشهادة ذاقوا حلاوة العلم فطلبوا المزيـد، وأرهقـوني من أمري عسـرًا، وألحـوا عليَّ أن أتقـدم بهم خطـوة إلى الأمـام، وحرام علي- على حـد تعبـيرهم- أن أقـف بهم دون غاياتـه، فكـان واجبًـا علي أن أخطــو بهم إلى التعليم الثـانوي، وأهبت بالأمـة أن تعينني بقوة أبلغ بها غرض أبنائها، فاسـتجابت فكـان ذلـك مشـجعًا على إنشاء معهد ثانوي بمدينة قسنطينة نسبناه إلى إمـام النهضـة ابن باديس..، وكـانت نيـتي معقـودة على إنشـاء معهـدين ثـانويين آخرين، أحدهما بمدينة الجزائر، والثاني بمدينة تلمسـان، وقـد بلـغ تلامذة المعهد الباديسي في السـنة الأولى ألفًـا أو يزيـدون، وكلهم منتخبون من مدارسنا الابتدائية من جميع القطر) [2]

هـذه هي الأحـداث كمـا صـورها الإبـراهيمي بنفسـه، وهي في مجملها تـدل على الاهتمـام المتزايـد في عهـده بالمجـال الـتربوي والتعليمي وتأسيس المدارس.

ويضم إلى هذا جهـوده السياسـية الكثـيرة، ومن أهمهـا محاولـة جمع الأحزاب والشخصيات الوطنية في (هيئة أحباب البيان)، وقــد خرج من تلك المحاولات أكثر اقتناعـا بفسـاد أغلب تلـك الأحـزاب وتناحرها على المناصب والألقاب[3].

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/285)

[2] آثار الإبراهيمي: (5/285)

[3] انظـر: آثـار الإبـراهيمي 2/257. وقـد كتب هـذا الكلام بالبصـائر، العـدد 52، 11 أكتوبر 1948..

ومن الأعمال السياسية التي قامت بها جمعية العلماء في عهده أنّها كانت وراء تشكيل اتحاد أحزاب الشمال الإفريقي، الذي شارك فيه من الجزائر: حزبُ البيان الجزائري، وحزبُ حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ومن المغرب: حزبُ الاستقلال، وحزب الإصلاح، وحزبُ الشورى والاستقلال، وحزب الوحدة، ومن تونس: الحزبُ الحرّ الدستوري الجديد، والحزب الدستوري التونسي(1).

وأسوأ ما حصل في هذه الفترة – وهو ما كان مقدمة لانتهاء نشاط الجمعية - هو سفر كل من رئيس الجمعية البشير الإبراهيمي، ونائبه أحمد المدني إلى مصر في عام 1951، واستقرارهما بها منذ عام 1952، وإن كان عذرهما هو حشد التأييد السياسي والمادي القضية الجزائرية، وخشية الاعتقال عند العودة، ونجاحهما في المشاركة في تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة، وافتتاح إذاعة صوت الجزائر من الإذاعة المصرية، وقد كان أول صوت يصدر من هذه الإذاعة صوت البشير الإبراهيمي مناديًا الثوار: (لا نسمع عنكم أنكم تراجعتم، أو تخاذلتم)(2)

المطلب الرابع: دور الشيخ العربي التبسي في جمعية العلماء

من الشخصيات المهمة التي كان لها الدور الكبير في الجمعية ابتداء من تأسيسها، وانتهاء بحلها الشيخ العربي التبسي، ولهذا لا يمكننا أن نؤرخ للجمعية دون أن نمر عليه، وعلى منجزاته فيها.

وبما أن رسالة دكتوراه أستاذي الفاضل الدكتور أحمد عيساوي مرتبطة بالشيخ العربي التبسي، بالإضافة إلى ما جمعه من آثاره، بالإضافة إلى كونه ابن بلده، ويعرف الكثير من العلاقات المرتبطة به، فسيكون مرجعي في هذا المطلب ما كتبه في رسالته حوله، لا باعتباره مرجعا فقط، بل باعتباره مصدرا أيضا، فقد تسنى له

---

(1) انظر: عبد العزيز الصغير دخان، جمعية العلماء ـ ابن باديس ـ البشير الإبراهيمي: المصابيح المشرقة في ليل مظلم طويل، على هذا الموقع: (http://dr-dakhane.com/main/textshow-27.html)، ولم أجد الكتاب مع أهميته مطبوعا.

(2) المصدر السابق.

أن يلتقي بالكثير من معارف الشيخ الذين وفروا له من الشهادات ما يمكن الاستئناس به والاستفادة منه.

ومن خلال ما ذكره الدكتور عيساوي عنه، يمكن تقسيم مراحل علاقة الشيخ العربي التبسي بالجمعية إلى أربعة مراحل:

1 ـ قبل تأسيس الجمعية:

ذكر الدكتور أحمد أن علاقة الشيخ العربي بالجمعية كانت علاقة مبكرة ابتدأت من عضويته في جماعة الرواد (1928-1931) الذين ذكرهم الشيخ محمد خير الدين في مذكراته، فقال: (.. اجتماع الرواد، في عام 1928م تحقق عزم ابن باديس ووجه دعوته إلى الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي ، الذين رأى فيهم مقدرة واستعدادا للعمل في سبيل الدين والوطن .. وقد لبى دعوته : الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ مبارك بن محمد الميلي والشيخ الطيب العقبي والشيخ العربي التبسي والشيخ السعيد الزاهري، وكاتب هذه المذكرات الشيخ محمد بن خير الدين)[1]

وقد عرض الشيخ ابن باديس خطته على هذه الجماعة، وهي – كما يلخصها الدكتور عيساوي-:

1 - تكوين لجنة منكم للتسيير والتنفيذ .

2 - الشروع فورا في إنشاء المدارس الحرة لتعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية .

3 - الالتزام بإلقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرة ، والجولان في كافة أنحاء الوطن لتبليغ الدعوة الإصلاحية لجميع الناس .

4 - الكتابة في الصحف ، والمجلات لتوعية طبقات الشعب .

5 - إنشاء النوادي العربية للاجتماعات ، وإلقاء الخطب والمحاضرات .

6 - إنشاء فرق الكشافة الإسلامية للشباب في كافة أنحاء البلاد .

7 - العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والحكم الأجنبي ، لأن مبدأنا الذي يجب أن

---

[1] محمد خير الدين . المذكرات . ج 1 . ص 83، نقلا عن الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص120.

نسير عليه هو اتباع هدي رسول الله ﷺ[1].

بعـد ذلـك عين ابن بـاديس جماعـة الـرواد ، وحـدد لهم أمـاكن نشـاطهم .. وجعل نشـاط الشيخ العربي التبسـي لإلقـاء الـدروس بتبسة وما جاورها.

2 ـ عند تأسيس الجمعية:

حيث أنه كـان من الحضـور في جلســات الاجتمـاع التأســيسي لجمعيـة العلمـاء المســلمين الجزائـريين المنعقـد بنـادي الـترقي بالجزائر العاصـمة يـوم الثلاثـاء 05/05/1931م الموافـق 17/ذي الحجة/ 1349هـ[2].

وقد ذكر الدكتور أحمد عيساوي السبب في عدم ترشيح الشـيخ العربي التبسي نفســه لعضـوية المجلس الإداري لجمعيـة العلمـاء في جلستها التأسيسية ناقلا ذلك عن أقـرب تلامذتـه ومسـاعديه[3]، وهي:

1 - رغبته في إفساح الفرصة للعلماء الآخرين .

2 - زهده في طلب المناصب.

3 - تفويت الفرصة على الأعداء ، والمتربصين بنجـاح تأسـيس الجمعية .

3 ـــ مرحلـة العضـوية في المجلس الإداري لجمعيـة العلماء

وهي تمتد من سـنة 1932 إلى سـنة 1956، وتبـدأ من ترشـيح الشيخ العربي نفسه لعضوية المجلس الإداري للجمعيـة بطلب من العلماء الحاضرين في جلسـاتها المنعقـدة يـومي الاثـنين والثلاثـاء 18/19/محـرم 1350هــ27/28/09/1932م، وانتخب الشـيخ في عضوية المجلس الإداري للجمعية في عامهـا الثـاني للمـرة الأولى

---

[1] محمد خير الدين . المذكرات . ج 1 . ص 83 ـ 122، نقلا عن الـدكتور أحمـد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص121.

[2] محمد البشير الإبراهيمي . الجلســة التمهيدية لجمعية العلمـاء . مجلة الشـهاب . ج 6 . المجلد 7 . قسـنطينة غـرة صفــر 1350هـ . الموافق لـ جــوان 1931م . ص 341 ..

[3] ذكر الدكتور أحمد عيساوي أنه استفاد ذلـك من حـوار مـع الشـيخ العيـد والشـيخ عيسى سلطاني بالقرب من منزلهما بتبسة شـهر جـوان 1991م، نقلا عن: الـدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص122.

التي يترشح فيها ، وعين نائبا للكاتب العام محمد الأمين العمودي[1].

وقد ذكر الدكتور أحمد عيساوي أن الشيخ العربي التبسي كان يرشح نفسه لعضوية المجلس الإداري لجمعية العلماء كل سنة إلى أن انتخب كاتبا عاما للجمعية في جلساتها الاعتيادية أيام الأحد والاثنين 11/12/رجب/ 1355هـ 27/28/09/ـ 1936م، بعد أن حاز على 178 صوتا من المصوتين كبقية زملائه الأعلام المترشحين وهم : ابن باديس والإبراهيمي والعقبي والميلي[2].

وقد ظل الشيخ العربي – كما يذكر الدكتور أحمد عيساوي- يشغل منصب الكاتب العام للجمعية إلى أواخر شهر سبتمبر 1946م تاريخ انعقاد الجلسة العادية للجمعية، حيث تم تجديد المجلس الإداري للجمعية وفيه نال منصب نائب الرئيس، وفي فترة جمود نشاط الجمعية أثناء الحرب العالمية الثانية كان الشيخ مبارك الميلي يشغل منصب نائب الرئيس ، وقد أقعده المرضه العضال ، فنابه في مهامه [3].

وقد تعمق في هذه المرحلة (1939-1945)ـ – كما يذكر الدكتور أحمد عيساوي- نشاط الشيخ في مجالات الجهاد السياسي بالإضافة إلى اضطلاعه أيضا بالعمل الدعوي والإصلاحي والتعليمي.

ومن نشاطاته التي غطتها تقارير الإدارة الاستعمارية (S . L .N . A) كراسة المطالب التي تقدمت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للحلفاء، حيث يورد التقرير

أنه (اجتمع العلماء بقسنطينة يوم 07/07/1944م برئاسة الشيخ العربي التبسي في غياب الإبراهيمي الذي كان معتقلا في آفلو ، رغم قرار الحظر الصادر عن الحاكم العام بسبب

---

1) محمد خير الدين . المذكرات . ج 1 . ص 111 ..ـ 119، نقلا عن الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص122.

2) اجتماع الجمعية . جريدة البصائر . السلسلة الأولى . السنة الأولى . عدد 37 . الجمعة 16/رجب/1355هـ الموافق 02/10/1936م . ص 1 ـ 5 ـ 8، نقلا عن الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

3) الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص123..

ظروف الحرب العالمية الثانية الاستثنائية ، وكان موضوع الاجتماع منصبا حول العراقيل الإدارية التي تعترض رجال الجمعية ومؤسساتها ، واقترح تقديم كراسة المطالب إلى الحكومة الفرنسية حول القضايا الرئيسية التالية :

1 - المساجد وموظفوها وأوقافها .

2 - التعليم العربي ومدارسه ومعلموه .

3 - القضاء الإسلامي وتعليمه ورجاله ..)[1]

بعد هذا ترقى الشيخ العربي إلى منصب نائب رئيس الجمعية وذلك عند انعقاد اجتماع أعضاء الجمعية في دورتهم العادية أيام بقسنطينة في 27/28/29/سبتمبر/1946م، حيث انتخبوا مجلسا إداريا جديدا للجمعية.

وقد ظل الشيخ العربي في هذا المنصب إلى أن رحل البشير الإبراهيمي إلى المشرق العربي يوم 07/03/1952م [2] .

4 ـ مرحلة الرئاسة الفعلية لجمعية العلماء:

وهي تمتد من (1952-1956)، وقد ذكر الدكتور أحمد عيساوي أن الشيخ العربي ظل يشغل منصب نائب رئيس الجمعية حتى بعد جلستها الإدارية المنعقدة بالجزائر العاصمة أيام 27/28/29/سبتمبر1954م لاعتبارات إصلاحية لها صلة بتماسك الجمعية أثناء غيابه في موسم الحج إلى غاية حل الجمعية.

وذكر أن الشيخ تحمل في هذه المرحلة بالذات ما تنوء الجبال بحمله ، وذلك باعتراف كل رجال الجمعية بما فيهم الشيخ البشير الإبراهيمي نفسه، إلى أن أوصل الجمعية إلى حل نفسها يوم 07/01/1956م كي لا تتورط مع الإدارة الاستعمارية في الدخول في المفاوضات والطروحات الاستسلامية[3].

ومن الملاحظات التي أوردها الدكتور أحمد عيساوي حول هذه المرحلة[4]:

1 - وضوح وثبات إطاره المرجعي في كافة مراحله الدعوية والإصلاحية .

---

[1] الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

[2] الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

[3] الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

[4] الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص125.

2 - وضوح خطه ، وممارساته ، وغاياته ، وأهدافه .
3 - تنوع أساليبه ، وممارساته ، ووسائله .
4 - استمراره بين خطي التربية والتعليم من جهة ، والعمل في إطار جمعية العلماء من جهة أخرى.
5 - تطوير آلياته وتقنياته الدعوية والإصلاحية حسب ماتقتضيه كل مرحلة .
6 - عزوفه عن الترشح للمناصب الدنيوية ، وتجنبه المنافسة فيما لايرضي الله تعالى .
7 - صدقه ، وإخلاصه ، وتقواه ، ووفاؤه لرسالة الإسلام ، التي تفانى في خدمتها إلى يوم استشهاده.
8 - حزمه ، وانضباطه المهني .
9 - تفانيه في خدمة الإسلام ، والجزائر ، والشعب الجزائري .

المبحث الثاني
نبذة تاريخية عن الطرق الصوفية المعاصرة لجمعية العلماء

تعتبر الطرق الصوفية – بغض النظر عن توجهاتها الفكرية والسلوكية المختلفة- من أهم مكونات المجتمع الجزائري لفترة طويلة من الزمن، فالمؤرخون يتفقون على أنها بدأت في الانتشار في الجزائر، وكسب نفوذ اجتماعي لها فيها، بل أحيانا تعدى إلى النفوذ السياسي ابتداءا من القرن السادس عشر، ثم أخذت تنمو وتتسع حتى انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر[1].

وهي بذلك تشكل جزءا مهما من تاريخ الجزائر الديني والثقافي والاجتماعي، بل والسياسي، ولهذا نجد المستعمر الفرنسي قد أولاها أهمية كبرى، فأرشيفه يحتوي على تفاصيل كثيرة عن أعدادها وزواياها ومشايخها، بل حتى توجهاتها الروحية والفكرية.

وبما أن دراستنا هذه مرتبطة خصوصا بالتعامل بين الطرق الصوفية وجمعية العلماء، فإننا سنكتفي بالتعريف بالطرق الكبرى[2] التي حصل بينها وبين الجمعية أي نوع من أنواع التعامل الذي سنراه في الفصول القادمة.

والثاني أننا سنقتصر من التأريخ لهذه الطرق بما يرتبط بتلك

---

[1] فيلالي مختار الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن القرافيكي، باتنة، ط1، ص34.

[2] ناهز عدد الطرق الصوفية في الجزائر ستة وعشرين طريقة، منها أربعة أنشئت في العهد الاستعماري كالسنوسية والعليوية، والباقي كان موجودا منذ العهد العثماني، وبعضها مؤسس بالجزائر كالرحمانية والتيجانية، والبعض الآخر في المغرب كالطيبية والعيسوية والدرقاوية، ومنها ما هو مؤسس في المشرق كالقادرية، وأهم الطرق الصوفية التي ذاع صيتها في الجزائر : القادرية، الشاذلية، الدرقاوية، الرحمانية، التيجانية، السنوسية (مقلاتي عبد الله : الطرق الصوفية في الجزائر أمام جدلية فاعلية حضورها الاجتماعي والسياسي، الموقف من الاحتلال الفرنسي نموذجا، الملتقى الدولي الحادي عشر (التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة)، جامعة أدرار، أيام 09/10/11 نوفمبر 2008، ص 511)

الفترة إلا إذا دعت الحاجة إلى الرجوع للأحداث السابقة أو التالية.

وقبل أن نبحث في تاريخ هذه الطرق في تلـك الفـترة نحب أن ننبه هنا إلى أمرين:

الأول: أنه من الصـعب ضـبط العلاقـة بين أي طريقـة صـوفية وأي دولة من الدول، ذلك أن الطرق الصـوفية لا تعـترف بالحـدود الجغرافية، فلهذا، قد نجد بعض مشايخ الطرق من خارج الجزائــر، بينما لهم تواجد فاعل في الجزائر، ويتـدخلون بمـواقفهم أو آرائهم فيما يحصل فيهـا من أحـداث[1]، ولهـذا سنسـتند عنـد الحـديث عن المناقشات الفكرية بين الجمعية والطرق الصوفية إلى مشايخ من خارج الجزائر، باعتبار أن امتدادهم الـروحي والفكـري يسـري إلى الطرق الموجودة في الجزائر[2].

ولعـل نفس الأمـر يقـال بالنسـبة لجمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين، فقـد تبنت هي أيضـا جماعـة من العلمـاء من خـارج الجزائر، وضمتهم إلى الجمعية[3].

---

[1] وكمثال على ذلك الشيخ عبد الحي الكتاني المغربي، فقد كانت لـه صـلات كبـيرة بالطرق الصوفية الجزائرية إلى درجة أن جمعية العلماء شـنت حملـة شـديدة عليـه، وكان على رأسها البشير الإبراهيمي في مقـال مطـول لـه بعنـوان (أفي كـل حي... عبد الحي)، وقد كتبه بمناسبة مؤتمر الزوايا، الذي قـاده الشـيخ عبـد الحي الكتـاني. (انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 391)

[2] وفي هذا يقول الباحث عبد القادر خليفي: (الطرق الصوفية ظـاهرة إسـلامية لا تعترف بالحدود السياسية بين الدول والشعوب ولا بالقوميات والإثنيات، وهي أوســع مجالا من الوطنية الضيقة، بل هي أفسح ميدان يعبر فيه المريد عن شجونه ويتحــرر بها من خصوصـياته الضـيقة في سـبيل خصوصـيات جماعيـة هادفـة، إذ من أهـدافها الجمع لا الفرقة والألفة لا التشرذم، والطرق الصوفية هي إحدى عوامل التوحــد بين الشعوب المغاربية التي لن تتأثر بالمسارات السياسية والتغيرات الآنية) انظـر: عبـد القادر خليفي : الشيخية والقادرية بين الجنوب الغربي الجزائري وشـرقي المغـرب، الملتقى الدولي الحادي عشر (التصوف في الإسلام والتحـديات المعاصـرة)، جامعـة أدرار، أيام 09/10/11 نوفمبر 2008، ص 533.

[3] قرر المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائـريين في اجتماعـه يـوم 4 أكتوبر 1951 منح لقب "الـرئيس الشـرفي" لهـذه الجمعيـة لبعض العلمـاء الأجـانب

الثـاني: أنـا لا نتحـدث هنـا عن التفاصـيل المرتبطـة بالتوجـه الروحي والفكري للطرق الصوفية، لأنا سنتحدث عنه بتفصيل عنـد ذكـر الاتجـاه الفكـري للطـرق الصـوفية، بالإضـافة إلى ذكـره في الباب المخصص لجوانب الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية.

ولهـذا سيقصـر حـديثنا في هـذا المبحث عنـد كـل طريقـة على أمرين:

1 - التعريـف المختصـر بمؤسـس الطريقـة وشـيوخها الكبـار، وخاصة من الذين سيرد لهم ذكر في الرسالة، أو كانت لهم علاقـة مع جمعية العلماء.

2 – تاريخ الطريقة في الجزائر، ومـواطن انتشـارها، ومـا يتبـع ذلك من البحث عن عوامل الانتشار ونحوها.

أما علاقة هذه الطرق بجمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين، والتي هي الهدف الأساسي من البحث، فسنتعرف عليهـا بتفصـيل في الفصل التالي لهذا الفصل.

بعد هذه المقدمات والتنبيهـات، فإننـا - باسـتقراء الطـرق الـتي تتوفر فيها الخصائص التي ذكرناها - نجد أنهـا أربعـة طـرق كـبرى، وهي بحسب تسلسلها التاريخي (القادرية، والرحمانية، والتيجانيـة، والعلاوية)، وقد خصصنا كل واحدة منها بمطلب خاص.

ثم أضفنا مطلبا بذكر طرق أخـرى كـانت لهـا بعض العلاقـة مـع الجمعية، وهي مع ذلك أقـل شـأنا من هـذه الطـرق الكـبرى، وقـد

الـذين يشـتركون معهـا في الفكـر والمنهج والهـدف، وهم: محمـد بهجت البيطـار (سوريا)، محمد تقي الدين الهلالي (العراق)، محمد عبد اللطيف دراز (مصر)، محمد أمين الحسيني (فلسطين)، محمد بن العربي العلوي (المغرب)، عبد القادر المغربي (سوريا)، عبد العزيز جعيط (تـونس)، مسـعود النـدوي (باكسـتان)، أحمـد بن محمـد التيجاني (المغرب)، محمد نصيف (الحجاز).

ووكـل المجلس إلى رئيسـه الشـيخ محمـد البشـير الإبـراهيمي تنفيـذ هـذا القـرار بمراسلة هؤلاء العلماء لإبلاغهم به. وتمثل هذه الخطـوة إسـتراتيجية جديـدة لتوسـيع نشاطها خارج البلاد وكسب منابر جديدة للتعريـف بأعمالهـا، واسـتقطاب شخصـيات علمية مشهورة لمناصرة دعوتها، وفك الحصار الـذي فرضـته عليهـا سـلطة الاحتلال الفرنسية. (انظر: أ.د مولـود عـويمر، الشـيخ محمـد بهجت البيطـار وصـلته بجمعيـة العلماء المسلمين الجزائريين، مقال منشور بـ (رابطة أدباء الشام على هذا الموقـع الالكتروني(http://www.odabasham.net/show.php?sid=52591)

اكتفينا فيها بتعريف موجز عنها.

المطلب الأول: الطريقة القادرية

تعد الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية التي دخلت إلى الجزائــر عن طريــق بجايــة، ثم انتشــرت في الغــرب الجزائــري والجنــوب الغــربي من الصـحراء وبـاقي منـاطق الجزائـر وغـرب تونس.

وفروعها كانت موجودة في مختلف المدن ولهـا زوايـا وأضـرحة ومساجد في الجزائر وتلمسان وغيرها، ولها أوقـاف كثـيرة، كـانت ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم في بغـداد، وبقي الحـال كـذلك في العهد الفرنسي ولكن في ظل إجراءات مغايرة متضمنة قيودا عديدة.

وتعتــبر القادرية أســاس ومنطلــق كــل الطــرق الصــوفية في الجزائـر، فالمدينيـة (نسـبة إلى أبي مـدين شـعيب بن الحسـين) تفـرعت عن القادرية، وتفـرعت عن المدينيـة الطريقـة الشـاذلية، وعن الشــاذلية تفــرعت طــرق كثــيرة كالدرقاويــة والجزوليــة واليوسيفية والعيساوية والشيخية والطيبية والحنصالية، وإن كـانت الشـاذلية قـد تفـرعت عن القادرية إلا أنهـا أخـذت منحى صـوفيا يختلف عن المنحى الصوفي القادري[1].

ويقدر الفرنسيون عدد أتباع الطريقة القادرية في الجزائر ســنة 1882 بـ (14.574) إخوانيا، 268 مقدما، 29 زاوية.

وفي سنة 1897 بــ 24.578 إخوانيـا، 558 مقـدما، 33 زاويـة، ومن ضمن الإخوان هناك 2.695 إمرأة أو خونية.

وفي سنة 1906 قدر عددهم بـ 25.000 إخوانيـا (منهم 2.800 من النساء) و33 زاوية[2].

وقد كـان لهـذه الطريقـة تـاريخ مشـرف في الجزائـر، فهي من أوائـل الطـرق الـتي قـاومت الاسـتعمار الفرنسـي بقيـادة شـيخها الكبير الأمير عبد القادر، وكان لها في نفس الوقت علاقة طيبة مع جمعية العلماء، وخاصة في منطقة الوادي الـتي كـانت تـتزعم في

---

[1]) خير الـدين شـترة، الصلات الروحيـة بين الطـرق الصـوفية في المغـرب العـربي (الجزائـر وتـونس أنوذجـا)، الملتقى الـدولي الحـادي عشـر (التصـوف في الإسـلام والتحديات المعاصرة)، جامعة أدرار، أيام 09/10/11 نوفمبر 2008، ص 405.

[2]) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 4، ص 58.

ذلك الحين هذه الطريقة.

بناء على هذا سنتحدث في هذا المطلب عن كبار مشايخ هذه الطريقة في الجزائر، وبعض فروعها فيها، وبعض الأحداث التاريخية التي كان لها علاقة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقبل ذلك نتحدث باختصار عن مؤسس الطريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني.

أولا ـ مؤسس الطريقة القادرية:

مؤسس الطريقة القادرية هو الشيخ عبد القادر أبو محمد محي الدين بن أبي صالح عبد الله، وقيل ابن أبي موسى جنكي دوست الجيلاني، نسبة إلى مدينة جيلان (وراء طبرستان)، ولد بجيلان عام 1077م وجاء إلى بغداد عام 488 هـ / 1095م حيث درس الفقه الحنبلي، ويقال أنه لم يهتم بالصوفية حتى حضر مجلس الشيخ أبو الخير حمد الدباسي.

في عام 521 هـ 1127م أي عندما جاوز الخمسين من العمر أصبح من أشهر علماء بغداد في الفقه الحنبلي، ثم لبس لباس الصوفية وبنى لنفسه مدرسة عام 528 هـ / 1135م، لم ينضم أحد إلى طريقته خلال حياته، وبعد وفاته بدأ الناس يسيرون على نهجه، وقد أخذ المريدون بنشر الطريقة فكان لها مواقع كثيرة في العالم الإسلامي ومنه شمال إفريقيا، توفي الشيخ عبد القادر سنة 561 هـ ودفن في مدرسته ببغداد(1).

ثانيا ـ شيوخ الطريقة في الجزائر:

من أهم شيوخ وأعلام الطريقة القادرية بالجزائر:

1 ـ الشيخ محمد الهاشمي بن إبراهيم:

يعتبر الشيخ محمد الهاشمي الشريف بن إبراهيم بن أحمد الذي ولد سنة 1853م في نفطة بتونس(2) من أكثر مشايخ الطريقة

---

(1) ممدوح الزوبي : الطرق الصوفية، ظروف النشأة وطبيعة الدور، الأهالي للتوزيع، دمشق، ط1، 2004م، ص 111، 112.

(2) معظم زوايا الشرق الجزائري والجنوب ذات صلة بزاوية نفطة والكاف القادريتين، ومؤسس زاوية نفطة هو أبو بكر بن أحمد الشريف، وهو تلميذ الشيخ المنزلي (نسبة إلى منزل بوزلفة بتونس) وقد تطورت الزواية بفضل جهود الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي حتى قال بعضهم أن تأثيره سنة 1897م وصل

القادرية نشاطا، وقد تلقى تعليمه الديني على يد والده الذي كان شيخ الطريقة القادرية على منطقة الجريد التونسي، وبتوجيه منه انتقل إلى ناحية الوادي وأسس بها زاوية قادرية، واستمر في نضاله إلى أن توفي عام 1923م وهو دفين مدينة البياضة بالوادي.

وقد واجه في بداية تأسيسه للطريقة منافسة شديدة مع الزاوية التيجانية المجاورة له في البياضة، وكانت السلطات الفرنسية تزكي هذا التنافس، بل تثير النعرات والفتن بين الطريقتين – كما ذكرنا سابقا- ضمن سياية (فرّق تسد)

2 ـــ الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي:

وقد خلف والده في مشيخة الطريقة القادرية بعد وفاة أخيه، بعد أن توفر فيه الشرط الذي شرطه والده، فقد حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم التحق بجامع الزيتونة بتونس، وكان أول الناجحين ضمن أقرانه وإخوانه إذ تحصل على شهادة التطويع في حياة والده بامتياز، وبذلك أصبح المؤهل الوحيد لمشيخة الزاوية باعتباره المتخرج الأول من جامع الزيتونة.

وقد تم الإجماع على أن يتولى مشيخة الزاوية القادرية في سوف مع ملحقاتها في كل من تقرت وبسكرة وسكيكدة والجزائر العاصمة، كما يقوم بالإشراف على شؤون العائلة وعلى إخوانه الذين يزاولون تعليمهم بجامع الزيتونة بالإضافة إلى العمل المستمر في تطوير أملاك الزاوية وخاصة في غابات النخيل، واستثمار تجارة التمور المزدهرة والمربحة عبر مناطق الجنوب حتى أصبح الشيخ عبد العزيز يعرف بـ (ملك التمور)، وهذا ما أثار غيظ المحتكرين الأجانب الذين عزموا على إبعاده من هذا الميدان

إلى غدامس وغات والجزائر وعين صالح وتوات وتيديكلت وله أتباع في بلاد الطوارق وعلى رأسهم الشيخ عابدين، وكان هذا الأخير هو مقدم الشيخ محمد بن إبراهيم وقد ترك إبراهيم أولادا تقاسموا برَكة والدهم على النحو الآتي: الأكبر منهم وهو محمد تولى الزاوية الأم بنفطة وأسس الهاشمي زاوية في عميش بوادي سوف وأصبح نائبا لأخيه، ونشط الهاشمي في تجنيد الأتباع ونشر الطريقة إلى أقصى الجنوب وربط علاقات مع السودان وغات. انظر: موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1930)، رسالة ماجستير، 2005، ص100.

والسطو وحدهم على تجارة التمور واحتكارها لأنفسهم، وهذا ما تم لهم فعلا فيما بعد.

وقد سارت حياة الشيخ بصورة عادية لمدة 12 سنة، ولكنه بعد أن قام بأداء فريضة الحج سنة 1936، عاد إلى الجزائر أخذ يقترب من أفكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي طفحت على سطح الأحداث الجزائرية خاصة بعد انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري العام في شهر جوان 1936، وذهاب الوفد الإسلامي بمطالب الأمة الجزائرية إلى باريس لعرضها على الحكومة الفرنسية، وما تلا ذلك من أحداث[1].

وبناء على هذا راسل الشيخ عبد الحميد بن باديس في شهر أكتوبر 1937 ببرقية يفصح له فيها عن رغبته في الانخراط في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[2]، فبادر الشيخ عبد الحميد بن باديس بالإسراع في الرد عليه بالمثل معينا إياه عضوا فاعلا في مكتب الجمعية مكلفا بمناطق وادي سوف وما جاورها.

نتيجة لهذا التحول وجدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نفسها بوادي سوف تنتشر انتشارا واسعا نتيجة السعي المكثف من طرف الشيخ عبد العزيز الشريف، والذي تمثل في تحويل جزء من زاوية عميش إلى مدرسة عصرية على طراز مدارس جمعية العلماء المسلمين[3].

وقد انتدب للتدريس فيها الشيخين عبد القادر الياجوري والشيخ علي بن سعد خران[4]، كما قام الشيخ عبد العزيز الشريف بفتح مدرسة بالوادي وانتدب لها من الشيوخ ما يحولها إلى معهد

---

1) انظر: موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1930)، رسالة ماجستير، 2005، ص106.

2) عمار هلال : أبحاث ودر سات في تاريخ الجز المعاصرة (1830 - 1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ، ص 321.

3) عمار هلال : أبحاث ودراسات، ص 326.

4) انظر: محمد الصالح بكوش: (الشيخ علي بن سعد خيران القماري)، الندوة الفكرية الثالثة للشيخ عبد القادر الياجوري، الجمعية الثقافية للمركز الثقافي بقمار، الوادي، أيام 04 -5-6 جوان 2002، ص2.

إسلامي يتوفر على الشروط الضرورية، وعلى إثر هذه المساعي التعليمية طالبت الإدارة الفرنسية من الشيخ عبد العزيز الشريف رخصة التعليم، فرد عليها الشيخ بأن الزاوية تقوم بدور التعليم من قديم الزمان بدون رخصة[1].

وقد تدعمت الصلة بين الشيخ عبد العزيز وجمعية العلماء بعد حضوره المؤتمر السنوي العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي بدأ أعماله يوم 24 سبتمبر 1937 بنادي الترقي بالعاصمة، حيث قدم الشيخ ابن باديس بعض كبار الرجال الذين لهم أكبر الأثر في بعث النهضة الجزائرية من جمعية العلماء، وذكر منهم الشيخ الفضيل الورتلاني والشيخ سعيد صالحي، ثم تقدم هو بنفسه، وألقى خطابه الرسمي مقترحا أن يسمى هذا الاجتماع بعيد النهضة الجزائرية، ثم طلب إلى زميله الطيب العقبي أن يقدم الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي إلى الحاضرين، وكان لهذا التقديم مغزاه العميق، فقد كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يدرك الشدة التي كان يحملها العقبي على الطرقيين.

ثم أحيلت الكلمة إلى الشيخ عبد العزيز الذي أبدى تأسفه لتأخره عن الانضواء تحت لواء الجمعية، ووعد بأنه سيبذل كل مجهوداته في خدمة الإصلاح وتبرع لهم بمبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك، وهو مبلغ هام في ذلك الوقت.

بعدها رتب الشيخ عبد العزيز زيارة لوفد من جمعية العلماء بقيادة الشيخ عبد الحميد بن بادسي إلى الوادي في شهر ديسمبر 1937 م[2].

وفي أواخر جانفي 1938 م أعد الشيخ عبد العزيز الشريف زيارة للشيخ الفضيل الورتلاني إلى وادي سوف، وهذا ردا على الزيارة التي قام بها الشيخ محمد الحافظ التيجاني المصري قصد إلقاء دروس بمنطقة سوف بدعوة من شيوخ الطريقة التيجانية كرد فعل على زيارة وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للمنطقة، وقد كانت الزيارة التي قام بها الشيخ الورتلاني بعد

---

[1] وقد ذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس هذا في مقاله السابق: البصائر : عدد 123، السنة الثالثة، الجمعة 24 جمادي الثانية 1357 ه - 22 جوليت 1938م.

[2] عمار هلال : أبحاث ودراسات، ص 326.

زيارته لبسكرة، حيث كانت يوم الثلاثاء 23 ذي القعدة 1356 ه / 25 جانفي 1938 م، ليبقى مدة يومين في ضيافة الشيخ عبد العزيز الشريف[1].

وقد كان الشيخ الورتلاني يتقد حماسا بمواقفه الصريحة ونقده اللاذع، فكان لهذه الزيارة الصدى الواسع عند الناس لما طرحته من مواضيع ساخنة أغضبت الحاكم العام الفرنسي الذي بدأ يترصد خطوات الشيخ عبد العزيز.

و رغم ملاحظات السلطات المحلية، فإن الشيخ عبد العزيز لم يتوقف عن نشاطه، بل واصل مشروعه التعليمي، ولم يعترف بمرسوم 10 أكتوبر 1892 واعتمد بمرسوم 8 مارس 1938 الذي يراقب التعليم في المدارس القرآنية، لأن الشيخ يعتقد أن التعليم في الزوايا غير مراقب.

وقد كان هذا السلوك بالإضافة إلى مواقف أخرى كثيرة جعلت من الإدارة الفرنسية تشيد في ضغوطها عليه، وقد كان

وقد اشتد هذا الصراع خلال زيارة مدير الشؤون الأهلية وأقاليم الجنوب (لويس مييو) للوادي، حيث صرح له الشيخ عبد العزيز الشريف بموقفه المعارض لمرسوم 08 مارس 1938 ويفصح عن الحالة الاقتصادية السيئة التي يعيشها أهالي المنطقة[2].

ومن مواقف أسرة الهاشمي الشريف الكبرى بعد هذه المواقف وقوفهم لصالح الثورة التحريرية وتزويدها بما تحتاجه من ثروة وما قام به أحد أبناء القادرية يعد إثباتا على نضالها إذ تبرع بقصر الباي بتونس الذي اشتراه عام 1946 للثورة التحريرية ورفع فيه علم الجزائر ونصبت فيه أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية[3].

و استمر الشيخ في تدعيم الثورة حتى تحصلت الجزائر على استقلالها غير أن الشيخ لم يرجع إلى الجزائر، بل بقي بتونس، ولازم داره ولم يقم بأي عمل سياسي أو ثقافي يذكر، وكانت

---

[1] أحمد صاري : عبد العزيز الهاشمي والإصلاح، ص 569.

[2] أحمد صاري : عبد العزيز الهاشمي والإصلاح، ص 569.

[3] عميراوي احميده، رسالة الطريقة القادرية في الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2003، ص 68.

وفاته في تونس سنة 1965.

القاضي شعيب بن علي:

هـو الشـيخ الفقيـه أبـو بكر شـعيب بن علي بن فضـل اللـه بن محمد بن عبد الله الجليلي، ولد بتلمسـان وحفـظ القـرآن الكـريم وشرع في طلب العلم على يد علماء تلمسان منهم: أحمد المختار بن البشير، محمد بن دحمان العبادي، بن عبـد اللـه بن العيـدوني، وهـو الـذي لازمـه طـويلا واشـتد سـاعده بـه، كمـا روى عن ابن الحفاف وعبـد الكبـير الكتـاني، وكـان من أتبـاع الطريقـة القادرية التي أخذها عن الشيخ بن سليمان.

بالإضـافة إلى هـذا، فقـد درس بالمدرسـة الشـرعية الفرنسـية، وتولى الإمامة ثم القضاء، برع في الفقه والتصوف ونظم الشـعر، تولى القضاء لمـدة أربعين سـنة من 1869 إلى 1909، وقـد مثَّل الجزائر في مؤتمر المستشرقين باستوكهولم عام 1889م.

توفي بتلمسان سـنة 1928م، ودفن بضـريح سـيدي أبي مـدين بالعباد. تاركا خلفه عـدة رسائل في التوحيد وقصائد منها: (الرمـز الكفيل في عقائـد أهـل الـدليل)، شـرحه محمـد بن عبـد الـرحمن الديسي، وقرظه الشيخ محمـد عبـده، و(المعلومـات الحسـان في مصنوعات تلمسان)، و(زهرة الريحان في علم الألحان)، وغيرها[1].

المطلب الثاني: الطريقة الرحمانية

تعتبر الطريقة الرحمانية من أوسـع الطـرق انتشـارًا في عمـوم الجزائر إبان القرن التاسع عشر؛ حيث كانت تستحوذ وحـدها على أكثر من 50% من عدد الزوايا في الجزائر، وحسب إحصائية عـام 1892 للمستشرق (رين) بلغ عدد زوايـا الطريقـة الرحمانية 177 زاوية، وأتباعها 156214 خونيا[2].

وتنتشر هذه الزوايا خصوصا في الشرق والوسط والجنوب حتى في تـونس، ومن هـذه الزوايـا (زاويـة صـدوق، بـرج بن عـزوز،

---

[1] انظـر: مركـز القاسـمي للأبحـاث والدراسـات الصـوفية على هـذا الرابـط: (http://kacimisoufisme.org)

[2] صلاح مؤيد العقبي، الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر تاريخها ونشاطها، بيروت، لبنان، دار البراق، 2002م، ص158.

طولقة، أولاد جلال، خنقة سيدي ناجي، قسنطينة)[1]

ومن أهم مراكـز الطريقـة في العهـد العثمـاني الأخـير: الحامّـة قرب العاصمة، وآيت إسماعيل ببلاد القبائل، وزاوية صدوق بناحيـة سـطيف، وقسـنطينة، والـبرج قـرب طولقـة، وأولاد جلال، وخنقـة سـيدي نــاجي، ووادي ســـوف، وتقــع المراكــز الأربعــة الأخــيرة بالواحات[2].

ويـذكر للطريقـة الرحمانية الـتي صـعدت سـلطتها في منطقـة الشرق الجزائري وخاصة الريف القسنطيني، يذكر لها أنهـا قـامت بدور محوري في نشر التضامن بين سـكان المنطقـة ونشـر العلم والتآخي[3].

وقد كانت هذه الطريقة محل احترام من بعض مشايخ الجمعية، وخصوصا الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كـانت لـه علاقـة مـع بعض مشايخها كما سنرى.

ولكن ذلك ليس عاما، فقد شن عليها الشيخ مبــارك الميلي في كتابه (رسالة الشرك ومظاهره) حملة شـعواء خاصـة على فرعهـا في الزاوية الحملاوية.

انطلاقــا من هــذا، فســنتحدث في هــدا المطلب باختصــار عن مؤســس الطريقــة، وكبــار مشــايخها في الجزائــر إبــان العهــد الاستعماري.

أولا ــ مؤسس الطريقة:

---

[1] صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا، ص162، وانظر: أبو القاسـم سـعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1/515.

[2] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المـرابطين والطـرق الصـوفية وأثرهمـا في الجزائـر خلال العهـد العثمـاني، ص 44،ــ 45، وعبـد البـاقي مفتـاح: أضـواء على الطريقـة الرحمانية الخلوتية، الوليد للنشر، الوادي، طبعة 2004، ص 61، 62، 63، ص 144، 167، 232.

[3] محمد الأمين بلغيث : السـلطة في الجزائـر وتـونس في القـرن 17م من خلال تاريخ العدواني، الندوة الفكرية الخامسة للشيخ محمـد العـدواني، الـزقم / الـوادي / 01، 02، 03 نوفمبر 2000م، ص 6، 7.

مُؤسِّــسُ الطريقــة هــو محمــد بن عبــد الرحمــان القشــتولي الجرجري الأزهري[1]، المولود حوالي سـنة 1720م في قبيلـة آيت إسماعيل التي كانت جزءًا من حلـف قشـتولة في قبائـل جرجـرة، الواقعة على بعد 15 كلم، شرق ذراع الميزان.

ويلقب بـ (الـزواوي) نسـبة إلى بلاد زواوة الـتي نشـأ بهـا، كمـا يلقب بالأزهري نسبةً إلى أزهر مصر حيث جاوره مـدة طويلـةً من سني حياته.

زاول دراسـته الأولى في مسـقط رأسـه، ثم واصـل تعلمـه في الجزائر العاصمة، في عام 1739م توجه لأداء فريضــة الحج، وفي عودته اسـتقر بالجـامع الأزهـر فـترة طويلـة مـترددًا على العلمـاء وشيوخ التصوف كمحمد بن سالم الحفناوي، حيث أصبح محمد بن عبد الرحمان مريدًا وتلميذًا له حيث أدخله الطريقة الخلوتية.

وبعـد غيـاب طويـل دام أكـثر من ثلاثين سـنة عـاد إلى الجزائـر بعدما تلقى الأمر من شيخه في مصـر محمّـد بن سـالم الحفنـاوي الخلــوتيّ (ت 1181 هـــ) بـــالعودة إلى بلـــده ونشـــر الطريقـــة الخلوتية،وكان ذلك سنة 1177هـ = 1758م.

التزم التلميذُ أمرَ شيخِه وعاد إلى موطنـه الجزائـر حيث أسـس زاوية بمسقط رأسه (آيت إسماعيل) وشرع في الوعــظ والتعليم، وقد التف حوله جموع الناس من سـكان جرجـرة المسـتقلين عن السلطة العثمانية[2].

---

[1] استفدنا هذه الترجمة من عدة مصادر أبرزها ما كتبه الحفناوي في كتاب (تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية في الجزائر/1324هـ - 1906م، ص(450) ومـا بعـدها)، بالإضـافة إلى مقـاليْن للأسـتاذ عبـد المنعم القاسـمي عن الطريقة الرحمانية ومؤسسها (كلاهما منشور على موقعه المشار إليـه آنفًـا)، فضـلًا عن مقال ثالث بعنوان (تعريف الطريقة الرحمانيّة الخلوتيّة والزاويّة القاســميّة) من إعداد محمّـد فـؤاد، منشـور على مدونـة (دار الخليـل القاسـمي للنشـر والتوزيـع)ن بالإضافة إلى ترجمة وافية في (عبد الباقي مفتـاح، أضـواء على الطريقـة الرحمانية، ص63-76)

[2] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المـرابطين والطـرق الصـوفية وأثرهمـا في الجزائـر خلال العهد العثماني، ص 40، وعبد البـاقي مفتـاح: أضـواء على الطريقـة الرحمانية الخلوتية، ومحمد نسيب: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر، ص 151.

انتقل إلى الحامة إحدى ضـواحي العاصـمة، ومن المحتمـل أنـه فعل ذلك فرارًا من خصومه المرابطين الذين عادوه لما حققه من نجاح هدد نفوذهم في المنطقـة، أو لأنـه تأكـد من رسـوخ تعاليمـه وانتشـارها في المنطقـة فـرأى أن يسـتقر بـالقرب من العاصـمة ليوسع دائرة دعوته، أسس في الحامة زاوية وأخذ في نشر تعاليم الطريقــة الخلوتيــة، ولكن ســرعان مــا أثــار ســخط المــرابطين والعلماء للأسباب التالية:

1 – ابن عبــد الرحمــان من أبنــاء الريــف، لــذا لابــد أن يلقى معارضة من أهل الحضر المرابطين والعلماء خوفًا على نفوذهم.

2 – خـوف الأتـراك منـه لأن قبيلتـه تنتمي إلى حلـف قشـتولة وبالتالي فهي لا تخضع لحكمهم بل معادية لهم، ولهذا الغرض أثــار الأتراك العلماء والمرابطين ضده.

3 – دعوته الدينية تبعث على إحيـاء الوحدة الروحيـة والوطنيـة التي طالما عمل الأتراك من أجل عدم تحققها طوال حكمهم حتى لا تكون خطرًا على سلطانهم[1].

رأى ابن عبــد الرحمــان أن الحكمــة تقتضــي منــه العــودة إلى مسقط رأسه فعاد سريعًا إلى زاويتـه ببلـدة آيت إسـماعيل، وبعـد ستة أشهر من عودته جمع مريديه وأخبرهم بقرب أجلـه وعين من يخلفه في منصبه وهو علي بن عيسى المغربي[2].

لم يحصـر ابن عبـد الرحمـان نشـاطه في نشـر دعوتـه الدينيـة الصوفية على منطقة القبائل والعاصمة فحسب، وإنما مدّ نشـاطه أيضًا إلى إقليم الشرق الجزائري حيث قـام بتعـيين خليفـة لـه من أبناء قسنطينة وهو مصـطفى بن عبـد الرحمـان بن البـاش تـارزي الكــرغلي، فقــام هــذا الأخــير بنشــر تعــاليم الطريقــة في الإقليم الشرقي حيث نصّب عدة مقاديم أشهرهم الشيخ محمد بن عــزوز

[1] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المـرابطين والطـرق الصـوفية وأثرهمـا في الجزائـر خلال العهد العثماني، ص 41، 42..

[2] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المـرابطين والطـرق الصـوفية وأثرهمـا في الجزائـر خلال العهد العثماني،، ص 43.

في واحة البرج قرب بلدة طولقة[1].

بعد وفاته (1208هـ/1793م) ازدادت الطريقة نجاحًا واتسعت دائرة نفوذها مما زاد في هياج الأتراك وحنقهم، لذا فقد قاموا بمحاولة لوضع حد لتدفق الزوار من كل مكان على الزاوية الأم بآيت إسماعيل فدفعوا بثلاث مجموعات استطاعت إحداها نقل جثمانه إلى الحامة حيث دفن في احتفال مهيب، ثم بنوا عليه مسجدًا وقبة، على أن سكان قرية آيت إسماعيل حينما تحققوا أن الجثة لم تفارق قبرها الأصلي - وكانوا قد نبشوا القبر - اعتقدوا أن جثة شيخهم قد ازدوجت ومنذ ذلك الحين لُقب محمد بن عبد الرحمان بـ (بو قبرين) [2]

وقد استطاع خليفته - علي بن عيسى - الذي بقي مدة 43 عامًا في منصبه 1208هـ /1251هـ أن يدير الزاوية الأم بكل حكمة ونجاح، مما أكسب الطريقة انتشارًا واتساعًا في النفوذ سواء في وسط البلاد أو في شرقها وجنوبها، إلا أن موته أفقد إدارة الزاوية الالتحام والوحدة حيث إن خلفاءه لم يستطيعوا بسط هيمنتهم على مقاديم الزوايا البعيدة التي أعلنت استقلالها عن الزاوية الأم، وذلك نتيجة لضعف شخصية هؤلاء الخلفاء من جهة، وسياسة الاحتلال الفرنسي التي عملت على تمزيق وحدتها من جهة أخرى[3].

ثانيا ـ شيوخ الطريقة الرحمانية وأعلامها:

اشتهرت الطريقة الرحمانية بكثرة مشايخها وعلمائها،

---

[1] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 43، وعبد الباقي مفتاح: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، ص 98، 118، 146.

[2] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 43،ـ 44، وعبد الباقي مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، ص 62.

[3] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 44، وعبد الباقي مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، ص 74.

وسنحاول هنا أن نذكر - باختصار - بعضهم :

الشيخ عبد الرحمن باش تارزي:

ويعتبر من أشهر رجـال الطريقـة الرحمانية، وناشـرها بالناحيـة الشرقية من الجزائـر، وهـو مؤسـس أسـرة بـاش تـارزي العلميـة الطرقية المجاهدة الشهيرة بالشرق الجزائري، وقد وصـف بكونـه أحد أركان التصوف علمـا وعملا وزهـدا وتحقيقـا ورئاسـة وجلالـة، كان وحيد دهره علما وحكمة واتقانا وإصلاحا.

تفقـه على المـذهب الحنفي، وألمّ بالمـذهب المـالكي، وسـلك التصوف على يدي الشيخ الأزهري، ومن مؤلفاتـه: (عمـدة المريـد في بيـان الطريقـة)، و(غنيـة المريـد في شـرح كلمـة التوحيـد)، و(المنظومة الرحمانية).. وغيرها من المؤلفات والرسائل.

وقد تخرج على يديه جمع كبير من التلاميذ منهم: الشـيخ محمـد بن عزوز البرجي ناشـر الطريـق في الجنـوب الجزائـري، والشـيخ محمـــد بن الحـــبيب القســـنطيني، والشـــيخ محمـــد الســـياري القسنطيني.

توفي الشيخ باش تارزي عام 1807م، بقسنطينة ودفن بها[1].

الشيخ مصطفى بن عبد الرحمن باش تارزي:

بعد وفاة الشيخ عبد الرحمن خلفه ابنه العلاّمة الشيخ مصـطفى بن عبد الرحمن بـاش تـارزي (ت 1836م). وهـو من كبـار رجـال الطريقة الرحمانية، وشارح (المنظومـة الرحمانية) لوالـده الشـيخ عبد الرحمن باش تارزي. ومما جاء في وصفه: (هو الشـيخ الإمـام العلامـــة نخبـــة الفضـــلاء وواســـطة عقـــد النبلاء وواحـــد العلمـــاء الأعلام...) تـولى الفتـوى الحنفيـة ثم القضـاء، ثم الخطابـة بجـامع سوق الغزل ثم بجامع القصبة ثم بالكتاني.

ومن آثـــاره العلميـــة: (المنح الربانيـــة في بيـــان المنظومـــة الرحمانية)، و(رسـالة تحفـة النـاظرين) في الوقـف... وغيرهـا من المؤلفات. توفي الشيخ مصـطفى عـام 1836م بقسـنطينة ودفن في المقبرة العليا بسوق الغزل، ويسمى الممر باسمه (ممر باش تارزي)

وجاء بعده ابنه الشيخ محمود. ثم خلفه ابن عمـه الشـيخ محمـد

---

[1] انظر: عبد المنعم القاسمي الحسني، (زاوية الشـيخ عبـد الـرحمن بـاش تـارزي بقسنطينة: معقل العلم والقضاء والطريقة والجهاد)، مقال منشور بجريدة الشــروق اليومي : 25 - 08 - 2010.

بن محمد بن عبد الرحمن، ثم جاء بعده الشيخ الحاج السعيد بن أحمد باش تارزي (ت 1911م). وخلفه على رئاسة الزاوية الحاج أحمد باش تارزي (ت 1917م). ويتولى مشيختها حاليا الأستاذ الفاضل محمد الشريف باش تارزي من سلالة العلامة الشيخ عبد الرحمن باش تارزي[1].

ونحب أن نذكر هنا بمناسبة علاقة جمعية العلماء بالطريقة الرحمانية أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس قد اشرف على تصحيح الطبعة الثانية لـ (المنظومة الرحمانية في الأسباب الشرعية المتعلقة بالطريقة الخلوتية) التي ألفها الشيخ عبد الرحمن باش تارزي.

وقد قال الشيخ عبد الحميد في آخر تصحيحه للطبعة: (ندبني الشيخ المذكور مصطفى باش تارزي إلى إعانته على نشر المنظومة الرحمانية بالوقوف على تصحيحها فلبيت طلبه راجيا من وراء ذلك أن يتذكر الإخوان ما عليهم في هذا الطريق الشرعي من الأدب العملي والعلمي، ويعلموا أنهم لا يكفيهم في ترقية نفوسهم مجرد الانتساب الإسمي، فيدعوهم ذلك إلى العلم والتعلم اللذين لا سعادة في الدارين بدونهما ولا تقدم، فيفقهوا حينئذ حقيقة الدين وينتفعوا بنصائح المرشدين، ويكونوا يوم ذلك إن شاء الله تعالى من المهتدين، والله المسؤول أن يهب التوفيق والنفع والثواب لكل ساع في خير المسلمين آمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) [2]

و تحت عنوان خاتمة الطبع بقلم المصحح، قال الشيخ عبد الحميد بن باديس: (الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والآل والصحابة أجمعين وجميع التابعين بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد : فقد تم طبع المنظومة الرحمانية ذات الأسرار الربانية الجامعة لأصول الطريقة الخلوتية، وآداب التربية الشرعية الدالة على علم ناظمها

---

[1] انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص4.

[2] نقلا عن: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص5.

وبركته بما نفع الله بها من أتباعــه وتلامذتــه، حــتى نفـدت طبعتهـا الأولى مع شرحها، فكثرت الرغبـات، وتـوالت الطلبـات في إعـادة طبعها لتعميم نفعها، فقام بـذلك على نفقتـه العـالم البركـة الخـير الثقة شيخ شيوخ الطريقة الخلوتية بقسـنطينة اليـوم المتحلى من أخلاق أسلافه بالنفائس الغالية السوم الشيخ سيدي مصـطفى ابن الشيخ سيدي محمود ابن الشـيخ سـيدي الحـاج محمـد ابن الشـيخ سيدي محمود ابن الشيخ الأكبر سيدي الحـاج عبـد الـرحمن بـاش تارزي زاده الله من بره وتوفيقه وسدده في سـلوك طريقـه بمنـه آمين.

و لنحل هذه الخاتمة بكلمات وجيزة في ترجمته فنقول : لا زال هـذا الرجـل معروفـا من شـبابه بجمـال العفـة، وحسـن السـمت، ومكـارم الأخلاق، والحيـاء التـام، والتواضـع الفطـري مـع جميـع الناس.

اعتنى بتربيته أبوه الشيخ سيدي محمود، ثم ابن عم جده الشيخ سيدي الحاج السعيد، فحفـظ القـرآن الكـريم، وقـرأ العلم وتـأدب بآداب الطريق وشبّ على الأخلاق الكريمة اللائقة بمثله، في كـرم مجـده وشـريف تربيتـه، ومـا هـو مترشـح لـه من الجلـوس على سجادة الطريق، وتهذيب الإخوان حتى نال بذلك المنزلـة الرفيعـة من قلوب عارفيه عموما، وأهل الطريقة خصوصا.

و في رجـــب عــام 1329 هـــ ولي خطـــة الخطابــة والإمامــة بالجامع الأخضر الحنفي، بعد وفاة الشيخ سيدي السعيد الذي كـان إماما خطيبا بالجامع الكتاني الحنفي.

و في شوال 1335 هـ جلس على سجادة الطريقة الخلوتية بعد وفــاة عمــه الشــيخ البركــة ســيدي الحــاج أحمــد عليــه الرحمــة والرضوان، وله في الإذن بتلقين ذكـر الطريقـة الخلوتيـة إجازتـان تتصلان بالقطب الأكبر والغـوث الأشـهر الشـيخ سـيدي محمـد بن عبــد الــرحمن القشــطولي الأزهــري دفين الجزائــر، الــذي أتى بالطريقة الخلوتية إلى وطن الجزائر من ديار مصر)[1]

ونحب أن نـذكر هنـا كـذلك أن الزاويـة الرحمانية الـتي أسسـها الشـيخ بـاش تـارزي في قسـنطينة كـانت مركـزا لاجتمـاع علمـاء

---

[1]) انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص5.

الحنفية والأتراك منهم خصوصا، ومقـرا لنشـر الطريقـة الرحمانية لدى قسنطينة والضواحي، كما كانت حلقة وصـل بين بلاد القبائـل والزوايا الجنوبية، ونشرت الطريقة بالشرق الجزائري.

وكـان للزاويـة فـروع ومقـدمون، وحسـب إحصـاء (ديبـون وكوبولاني) فإن أتباع الزاوية بلغوا في آخـر القـرن التاسـع عشـر: أكثر من عشرة آلاف مريد، ولها ثمـاني زوايـا، ووكيـل واحـد و25 أسـتاذا، وشـيخ واحـد و85 مقـدما، و104 من الشـواش، ومعظم هؤلاء الإخوان كانوا في إقليم قسـنطينة. وبعضـهم كـان في إقليم الجزائر.

وقد ساهمت الزواية في ثـورة الرحمـانيين سـنة 1864م، حيث هـاجم أتباعهـا قـوات الجـنرال (بريقـو) حـاكم مقاطعـة قسـنطينة بالوادي الكبير، واسـتمرت الثـورة إلى غايـة 1865. كمـا شـاركت في ثورة التحرير الكبرى عن طريق أبناء الأسرة الذين التحق عدد كبير منهم بالثورة[1].

الشيخ محمّد بن أبي القاسم:

هو مؤسّـس زاويـة الهامـل، ولـد في 1823م ببـاديـة الحامديّـة، بولايـة الجلفـة، رحـل في طلب العلم إلى جبـال القبائـل، فحـلَّ بزاويـة سـيّدي أبي داود بتاسـلينت ناحيـة أقبـو، وأخـذ من شـيخها أحمـد بن أبي داود، علـوم الفقـه، والنحـو، وعلم الكلام والفلـك، والفرائض، والمنطق.

وفي عام 1844م جلس للتدريس بالهامل، فتوافد عليه الطلاب من المناطق المجاورة، وفي هذه الفترة ذهب لزيـارة الأمـير عبـد القادر، الذي كان غير بعيد عن البـيرين، بجبـل البيضـاء، وفي نيّتـه أن يكون مجاهدا في صفوف جيش الأمير، غـير أنّـه طلب منـه أن يبقى مدرّسا، ومن هنا توطّدت العلاقـة، فكـانت بينهمـا مراسـلات من الجزائر ومن الشام، وما تزال بالزاوية قطع من أسلحة أهداها الأمير للشيخ محمّد بن أبي القاسم، وازدادت العلاقة بعائلة الأمـير متانة بتعاقب شيوخ الزاوية.

وقـد تتلمـذ في التصـوف على يـدي الشـيخ المختـار بن عبـد

---

[1] انظر: عبد المنعم القاسمي الحسني، (زاوية الشيخ عبد الرحمن باش تارزي بقسنطينة: معقل العلم والقضاء والطريقة والجهاد)، مقال منشور بجريدة الشروق اليومي : 25 - 08 - 2010.

الرّحمن بن خليفة الجلاّلي، فلازمه من بداية سنة 1273هـ إلى أول سنة 1278هـ، حيث أَذِن له في إعطاء ورد الطريقة الرحمانية، وخلفه على رأس زاويته قريبا من سنة.

عاد بعدها إلى الهامل فبنى زاويته التي كانت من أهم زوايا العلم في الجزائر بالإضافة إلى دورها التربوي والروحي والاجتماعي والذي لا يزال قائما إلى الآن.

وقد كان لهذه الزاوية علاقة طيبة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقد حاضر فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، وأحمد توفيق المدني، والشيخ إبراهيم بيوض، وغيرهم ممّا يطول عدّهم[1].

السيدة زينب بن محمد بن أبي القاسم:

ولدت في بلدة الهامل، عام (1287هـ/1872م). حفظت القرآن الكريم، وتفقّهت على يد والدها. تولت إدارة الزاوية بعد وفاة مؤسسها، فأحسنت تسييرها. كتب عنها بعض المستشرقين الذين رأوا فيها مثالا للمرأة العربية المسلمة التي أثبتت جدارتها في حسن الإدارة والسياسة، ولا سيما في تلك الفترة التي كانت المرأة في المجتمعات الإسلامية محجرا عليها. توفيت رحمها الله في الزاوية بتاريخ: (1323هـ/1905م) ودفنت بجنب والدها[2].

الشيخ محمد بن الحاج محمد بن أبي القاسم:

ولد في بلدة الهامل، عام 1859م أخذ عن الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، والشيخ عاشور الخنقي، والشيخ محمد المكي بن عزوز، وغيرهم من العلماء. درّس بالزاوية، وتولّى مشيختها بعد وفاة ابنة عمّه السيدة زينب عام 1905م، فنهض بها نهضة علميّة استرعت اهتمام العلماء في المشرق والمغرب، فكاتبوه وزاروه، واستجازوه وأجازوه، وكوّن علاقات علميّة وأدبيّة

---

[1] انظر ترجمته المفصلة في: الشيخ محمد بن محمد القاسمي: الزهر الباسم في ترجمة الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم، المطبعة الرسمية، تونس، ط1، 1308هـ.

[2] انظر ترجمتها المفصلة في: لالا زينب القاسمية ودور الطريقة الرحمانية في المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى، على هذا الموقع: (http://ouledsidi.com)

واسـعة في شـتى الأقطـار الإسـلاميّة، تـوفّي عـام 1913م في الزاويـة ودفن فيهـا. من تآليفـه (الزهـر الباسـم) وهـو مطبـوع، و(المطلب الأسنى) وهو مطبوع، و(تحفة الأفاضل) ورسائل أخرى مخطوطة[1].

الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي:

ولد سنة 1270 هـ- 1854م بقرية الديس، وتـوفي عـام 1339 هـ- 1921م، تلقي المبادئ العلمية على يد الشيخ ابن أبي القاسم بن إبراهيم، ثم انتقل إلى زاوية الشيخ السعيد بن أبي داود، وأخــذ عن رجالها الفقه والنحو والتوحيد والفلك، ثم عاد إلى قريته ولازم حفظ المتون بها فحفـظ نحـو الخمسـين متنـا، ومنهـا قصـد زاويـة الشيخ سـيدي محمـد بن أبي القاسـم بالهامـل، فأخـذ فيهـا علـوم التفسير والحديث والتصوف وبعض علـوم العربيـة، ولقنـه الأسـتاذ الأكبر الورد وكلفه لما رأى فيه من النبوغ بمجاورة الزاويـة لإفـادة الطلبة بمعلوماته وللاسـتفادة من العلمـاء الوافـدين على الزاويـة في ذلك العهد.

كان شغوفا بالمجالس العلمية والبحوث، وقد أقـر لـه بالرسـوخ في العلم من عاصره من أفاضل العلماء كالشيخ محمد المكي بن عـزوز، والشـيخ أحمـد الأمين، والشـيخ عبـد الحي الكتـاني، وكـان الشيخ الحفناوي يلقبه بـ (الشمس)

من مؤلفاته: (فوز الغانم، في شرح ورد الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم)، و(الزهرة المقتطفة)، و(عقد الجيـد)، ومنظومـة في العقائـد وشـرحها بشـرح سـماه (المـوجز المفيـد))، و(المشـرب الراوي على منظومـة الشـبراوي في النحـو)، و(سـلم الوصـول)، و(وهو نظم الورقات في الأصول)، وشرحه بشـرح سـماه (النصـح المبــذول)، و(تــوهين القــول المــتين، في الــرد على الشــماخي الإباضي)، وغيرها من المؤلفات[2].

الشيخ أبو القاسم الحفناوي:

مفـتي المالكيـة بـالجزائر، ولـد بقريـة الـديس سـنة 1269 هــ-

---

[1] انظر في ترجمته الشيخ أبو القاسم الحفناوي في كتابه (تعريف الخلـف برجـال السلف)، ص336.

[2] . انظر في ترجمته الشيخ أبو القاسم الحفناوي في كتابه (تعريف الخلف برجـال السلف)، ص399.

1852م، تعلم على يد والـده بمسـقط رأسـه ثم توجـه إلى زاويـة طولقــة، ثم زاويــة ابن أبي داود وأكمــل تعليمــه العــالي بزاويــة الهامل، ثم توجـه إلى العاصـمة سـنة 1301 هــ- 1883م، وتـولى الكتابة بجريدة المبشر إلى أن تـوقفت سـنة 1344 هــ- 1927م، كما تولى التدريس بالجامع الكبير بالعاصمة منـذ سـنة 1315 هــ- 1897م، عين للفتوى سنة 1927.

كان واسع المعارف جماعا للكتب والوثائق، وهو صاحب الكتاب الشهير (تعريف الخلف برجال السلف)، توفي بمسقط رأسه سنة 1360 هـ- 1943م[1].

محمد بن عزوز البرجي:

يعتـبر محمـد بن عـزوز الـبرجي (بـرج طولقـة) شـيخ الطريقـة الرحمانية الذي ورث عن شيخه مصـطفى بن محمـد بـاش تـارزي الــذي لم يكن مقــدما للرحمانيــة في الجنــوب فقــط، ولكن في الجريد التونسي أيضا، كما أنه ولشهرته وكثرة أتباعه أصـبح وكأنـه مؤسس لطريقة جديـدة تسـمى العزوزيـة – الرحمانية، كمـا كـان احتلال فرنسا لبسكرة وتطور أحـداث الجزائـر وتـونس سـببا آخـر في تفريعـات الطريقــة الرحمانية، فعنــد احتلال بســكرة (1843-1844م) هاجر مصطفى بن محمد بن عزوز إلى نفطة وأسس بها زاوية رحمانية أصبحت ذات شهرة واسعة سيما قبل احتلال تونس سنة 1881م، حيث كان ولاء شيوخ الطريقـة في فـروع (طولقـة، أولاد جلال، الأوراس، خنقـة سـيدي نـاجي، الهامـل، وادي سـوف) لمصطفى بن محمد بن عزوز.

وزاوية نفطة التي أنشـأها مصـطفى بن عـزوز والـتي انفصـلت عن الطريقة الرحمانية بالجزائر، أنشـأها لنشـر الطريقـة بتـونس، وقد كان صاحب شخصية جذابة بما لـه من فصـاحة وبيـان وتمكن في العلم وذوق صوفي وصدق في ممارسة الشعائر.

ومن تلامذة بن عزوز عبد الحفيظ الخنقي مقــدم الرحمانية في خنقـة سـيدي نـاجي ونواحيهـا، عمـل على نشـر التعليم والأذكـار الصوفية، وبقي على ولائه لفرع الرحمانية بنفطة العزوزية، وكــان لمصــطفى بن عــزوز أولاد منهم من بقي في الجزائــر ومنهم من انتقل إلى تونس وأنشأ بها زوايا، وهم : الحفناوي الذي خلفه على

[1]) الزير سيف الإسلام؛ تاريخ الصحافة في الجزائر، ج5، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص؛144

زاوية نفطة، ومحمد الذي أسس زاوية بالقيروان، والمكي الذي اشتهر بالعلم والورع حيث هاجر إلى المشرق وعمل في نطاق الجامعة الإسلامية، وكان المكي قد تزوج من نواحي بوسعادة.

وكان أبناء عبد الحفيظ الخنقي على صلة بزاوية نفطة الرحمانية، حتى أن الأذكار هنا وهناك واحدة، وكانت فرنسا تشجع على التفرق بين الزوايا والشيوخ لأجل تسهيل التحكم فيها.

وترجع شهرة زاوية نفطة إلى كونها أصبحت مدرسة للتعليم بالإضافة إلى الدور الديني والاجتماعي، وكان رجالها يكملون تعليمهم بجامع الزيتونة، ويتولون الوظائف الدينية كالقضاء والتعليم، ومنهم الجزائريان المكي بن عزوز والخضر بن الحسين، وذهب إلى هذه الزاوية عدد من طلبة الجزائر للدراسة مثل عاشور الخنقي، كما هرب إليها بعض الثوار أمثال ناصر بن شهرة وشريف ورقلة ونزل فيها محي الدين بن الأمير عبد القادر سنة (1870-1871م) حين عاد إلى الجهاد، فأهل بسكرة وتبسة والوادي وتقرت كانوا يقصدون زاوية نفطة للتعلم والتصوف معا.

وبعد ثورة 1871م اضطهدت الطريقة الرحمانية، وهُدمت زواياها الواقعة في المناطق الثائرة وتفرعت إلى فروع وفقدت مركزيتها بعد هدم زاوية (صدوق) التي تزعمها الشيخ الحداد ونفي زعمائها إلى خارج الجزائر.

كما تذكر بعض المصادر أن الجنوب بصفة عامة كان تحت تأثير الزاوية العزوزية خصوصا عن طريق خريجيها أمثال مولود الزريبي المدرس بزاوية الهامل، وسيدي حامد العبيدي النفطي مدرس التجويد والقراءات، أو عن طريق معاهدها وزواياها المنتشرة في القطرين مثل زوايا طولقة والهامل والخنقة ووادي سوف[1].

الشيخ محمد المكي بن عزوز:

كان قاضياً وفقيهاً، باحثاً بالإضافة إلى توجهه الصوفي الرحماني المختلف فيه، وقد هاجر أبوه من الجزائر لاجئا إلى تونس، ولد في مدينة نفطة بأرض الجريد في الجنوب التونسي سنة 1270 هـ، وتعلم بتونس، وولي الإفتاء بنفطة سنة 1297 هـ ثم قضاءها،

---

[1]) خير الدين شترة، الصلات الروحية بين الطرق الصوفية في المغرب العربي (الجزائر وتونس أنوذجا)، الملتقى الدولي الحادي عشر (التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة)، جامعة أدرار، أيام 09/10/11 نوفمبر 2008، ص 408.

وفي سـنة 1313 هــ رحـل إلى الآسـتانة إسـطنبول، فتـولى بهـا تدريس الحديث في دار الفنون ومدرسة الـواعظين، واسـتمر إلى أن توفي بها.

من مؤلفاته (رسالة في أصول الحديث)، و(مغانم السـعادة في فضـل الإفـادة على العبـادة)، و(نظم الجغرافيـة الـتي لا تتحـول بمغالبة الدول)، و(تعديل الحركـة في عمـران المملكـة)، و(عمـدة الإثبات في رجال الحديث)، و(إرشـاد الحـيران في خلاف القـالون لعثمان في القراءة. الجوهر المـرتب في العمـل بـالربع المجيب)، و(إسـعاف الإخـوان في جـواب السـؤال الـوارد من داغسـتان)، و(أصول الطرق وفروعها وسلاسـلها)، و(إقنـاع العـاتب في آفـات المكاتب)، و(انتهاز الفرصة في مذاكرة متفنن قفصـة)، و(الأجوبـة المكية عن الأسئلة الحجازية)، وغيرها.

و لما تـوفي رثـاه الشـيخ الطيب العقـبي بقصـيدة تشـمل على خمسين بيتا قدم لها بقوله : (وهذه قصيدة قلتها بالمدينة المنــورة أرثي بها العلامة الشيخ محمد المكي بن عـزوز دفين دار السـعادة لما بلغني خبر وفاته، وكان مما يعز علي كثيرا لما بيـني وبينـه من المؤانسة وعظيم الوداد، ولم أرث أحدا قبلـه فهي أول مرثيـة لي، قال في مطلعها :

هي الـدار في أحـداثها تتجـرم   سرور فأحزان فعرس فمــأتم

إلى أن يقول:

بكت سـنة من بعـده وتـألمت   فقد كان إن مست لهـا يتـألم

و يختمها بقوله:

عليــك سـلام اللــه حيـا وميتا   فآخر عهـدي أنـني بـك مغـرم

وقد وقع الخلاف في انتسابه للطريقة الرحمانية، بـل للتصـوف أصلا، فبينما يذكر باحثو الطريقة الرحمانية أنه كان صوفيا رحمانيا، وأنه ظل على هذا طول حياته، ومما يدل على هذا كتابه (السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني) يرد فيه على من أنكر كرامات الشيخ الشهير عبدالقادر الجيلاني وما نُسب إليـه من خرافات، وقد تهجم فيه على دعوة الشـيخ محمـد بن عبـدالوهاب،

وجوّز الاستغاثة بالأموات[1].

وله – بالإضافة إلى هذا- منظومة سماها (وسيلة الأمان في مناقب الشيخ علي بن عثمان)، مطلعها :

حمدا لباسط الأنام في الورى ما دامت الأشراف في الدنيا ترى

إلى أن يقول :

كشيخنا طود الأسانيد علي هو ابن عثمان زكي العمل

محي طريق: جده التهامي صلى عليه خالق الأنام

كما أنه قام بالرد على الشيخ رشيد رضا لما أنكر كرامات الأولياء ومما جاء في رده قوله: (أنتم تعلمون أن الكرامة ثابتة عند أهل السنة قاطبة حتى الإسفرايني والقشيري المروي عنهما البحث في شأن الكرامة ما أنكراها، وإنما قالا أنها لا تبلغ مبلغ المعجزة، وبعضهم اشترط أن لا تتوالى ولا تترادف ترادفا يجعلها عادة وفيه نظر، وكلاهما الآن في جواز وقوعها إمكانا وسنة لا في عوارضها، وإرشاداتكم على طريقة السلف الصالحين في الاعتقاد، وهل نطق بذلك أحد من أهل القرون الثلاثة ؟ فتأملوا المسألة فإن خطرها كبير، والماديون والطبيعيون بالمرصاد، فإذا سمعوا علماء الملة يقولون بعدم خرق العادة، فيا بشراهم يبنون على هذا الأساس الموهوم ما شاءوا لأن مذاهبهم انعزال الخالق جل جلاله عن التصرف في العالم استغناء بالطبيعة، أعاذنا الله وإياكم من الضلالة وبالله التوفيق)

في مقابل هذا الرأي نجد من ينكر هذا [1]، بل يعتبر الشيخ وهابيا سلفيا، ويذكر قصة لذلك، وهي أنه لما كتب كتابه (السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني)والذي اعترض فيه على من أنكر كرامات الشيخ عبدالقادر الجيلاني حرص على توزيع

---

[1] انظر: المكي بن عزوز، السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني، دط.دت. ص 35.

[1] انظر: مجلة الكويت، الجزء 10 العدد الأول، ورسالة : المكي بن عزوز - حياته وآثاره، للأستاذ على الرضا الحسيني.

كتابه هذا في أنحاء البلاد الإسلامية، فوقعت نسخة منه بيد علامة العراق الشيخ السلفي محمود شكري الألوسي الذي بادر بعد قراءته للكتاب إلى مناصحة صاحبه بإرسال خطاب وعظي رفيق، دون أن يكتب اسمه عليه، مرفقٌ به أحد كتب علماء الدعوة السلفية.

ويذكرون أن هذه الهدية قد أثرت فيه، حيث تغيرت أحواله بعد انتقاله من تونس إلى الأستانة بتركيا.

ويذكرون أن جمال القاسمي كتب رسالة إلى الألوسي - ولم يدرِ برسالة الألوسي السابقة لابن عزوز – يقول فيها: (إن حضرة العالم النحرير، سليل العلماء الأفاضل السيد محمد المكي بن عزوز التونسي نزيل الأستانة كان من أشداء المتعصبين للجهميين والقبوريين، ثم بصّره الله تعالى الحق فاعتنقه، وأصبح يدافع عنه)[1]، ثم ذكر بتفصيل قصة تحوله إلى المذهب السلفي.

فأجاب الألوسي على رسالة القاسمي السابقة يذكر فيها رسالته له: (سرّني ما كان من المراسلة بين السيد محمد المكي وبين السلفيين في دمشق. وهذا الرجل أعرفه منذ عدة سنين ؛ فإن كتابه (السيف الرباني) لما طُبع في حضرة تونس أرسل منه لنقيب بغداد عدداً كثيراً من نسخه، فأعطاني النقيب يومئذ نسخة منه، فطالعتها فرأيت الرجل من الأفاضل، غير أنه لم يقف على الحقائق، فلذلك استحكمت الخرافات في ذهنه فتكلم على السلفيين، وصحح بعض الأكاذيب التي يتعلق بها مبتدعة الصوفية، وغير ذلك من تجويز الاستغاثة، والتوسل بغير الله، وإثبات التصرف لمن يعتقد فيهم الولاية، والاستدلال بهذيان ابن دحلان ونحوه... كما ترى بعضاً من ذلك في الورقة المنقولة عن كتابه. فأرسلت له كتاب "منهاج التأسيس" مع التتمة المسماة "بفتح الرحمن"، وذلك سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف، وكان إذ ذاك في تونس لم يهاجر بعد، ولم أعلمه بالمرسل، ويخطر لي أني كتبت له كتاباً أيضاً التمست منه أن يطالع الكتاب كله مع التمسك

---

[1] انظر: الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي، للأستاذ محمد العجمي، ص 101-110.

بالإنصاف، ولم أذكر أسمي ولا ختمته بختمي، وأرسلت كل ذلك إليه مع البريد الإنكليزي. وبعد ذلك بمدة هاجر إلى القسطنطينية، وكان يجتمع كثيراً مع ابن العم علي أفندي ويسأله عن كتب الشيخين ويتشوق إليها.. وقد اجتمع به ابن العم في هذا السفر الأخير وأخبرني عنه أنه الآن تمذهب بمذهب السلف قولاً وفعلاً وأصبح يجادل أعداءه، ويخاصم عنه. ولم يزل يتحفني بسلامه، ويتفضل علي بالتفاته)[1]

ويذكرون أن ابن عزوز - بعد هدايته للسلفية – كتب رسالة إلى الشيخ الكويتي عبدالعزيز الرشيد صاحب مجلة (الكويت) قال فيها : (دخل علي السرور ما الله به عليم في التعرف بكم وظفري بصاحب مثلكم، وذلك أن قلبي موجع من غربة العلم والدين وأهله وقلة أنصاره. وإيضاح هذا: أني لست أعني بالدين الدين الذي قنع به أكثر طلبة العصر والمنتسبين إلى العلم في الشرق والغرب من كل مذهب من مذاهب أهل السنة.

سارت مشرِّقة وسرت مغرباً   شتان بين مُشـرِّق ومغرِّب

ولكني أعني بالعلم والدين علم السنة، وما الدين إلا اتباعها وإيثارها على عصارات الآراء وهجومة المتفقهة، وما التوحيد إلا توحيد السلف الصالح، وأما غيره فأشبه بالضلالات وزلقات الهفوات.. ومن اللطائف أن في الشهر الأول والثاني من انفتاح البصيرة، ألقي إلي في مبشرة منامية قوله تعالى {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 142] والحاصل فما ذكر لكم من تلك المناقب لم ألبس منها ثوباً قط، وإنما أنا محب لأهلها، وذاب عنهم، وناصر لهم، ولعله يشملني حديث (المرء مع من أحب)[2] فمن وصفني بما زاد على ذلك، فقد استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضرم)[3]

---

[1] المرجع السابق، ص 113-115.

[2] صحيح البخاري (8/ 48)

[3] مجلة الكويت، الجزء 10 العدد الأول، ورسالة : المكي بن عزوز - حياته وآثاره، للأستاذ على الرضا الحسيني.

الشيخ عبد الكريم بن التارزي:

هو الشيخ عبد الكريم بن التـارزي بن محمـد بن عـزوز الـبرجي (ت بعـد 1344 هــ - 1926م)، من الأسـرة العزوزيـة الشـهيرة بالجنوب الجزائري والجنوب التونسي، وقد كان عالما فاضلا فقيها محدثا صوفيا، ولـد بنفطـة وأخـذ العلم عن والـده العـالم الفاضـل الولي الكامل الشيخ التارزي بن عزوز، وعن الشيخ محمــد المكي بن عزوز، وعن شيوخ زاوية نفطة وتولى التدريس بها فترة، قـرظ كتاب (السيف الرباني في عنق المعـترض على الغـوث الجيلاني)، سنة 1309 هـ.

انتقل مع والده إلى المدينة المنـورة، وأخـذ عن شـيوخها منهم: الشــيخ محمــد بن ســليمان حســب الله (ت 1335 هــ)، تــولى التـدريس بـالحرم المـدني في بدايـة القـرن العشـرين، كـان على علاقــة علميــة متينــة مــع الأســرة القاسـمية، أجـاز أيضـا الشـيخ مصطفى القاسمي في جميع تآليف الشيخ يوسـف النبهـاني، وفي إعطــاء ورد الطريقــة الرحمانية، وذلــك في صــفر 1343 هــ= 1925م. توفي بعد 1344 هـ = 1926م.

الشيخ الطاهر العبيدي:

هــو الطــاهر بن علي بن أبي القاســم بن العبيــدي[1] (1885-1968م) أحد علماء وادي سوف المشهورين، بل أحد كبـار علمـاء الجزائر، ومن علماء الطريقة الرحمانية، وله فيها رسالة منظومــة في الــدعوة إلى الطريقـــة العزوزيـــة الرحمانية المعروفـــة بـ (النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية)،

يقول في مطلعها[2]:

[1] انظر في ترجمته الدكتور سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 100، ومقال بعنوان (العلامة الشيخ الطاهر العبيدي الفقيـه الصـوفي) منشـورة بجريـدة العقيـدة عدد 76 : الأربعاء 1 شعبان 1412 هـ / الموافق ل 8 فيفري 1992 م بقلم الاسـتاذ أحمد بن السائح، ومحاضرة مطبوعة بعنوان : " الشيخ العبيدي بمناسبة يوم العلم " ألقيت يوم الجمعة 14 افريل 1983 م بالمسـجد الكبـير بتقـرت، من إعـداد حفيـده (ابن بنته) الأستاذ سليماني عبد السلام.

[2] انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص6.

إن تــرد عــزة وفضــل مزيه   فتلـــــق الطريقـــــة العزوزية

بالإضافة إلى منظومة أخرى بعنوان (نصـيحة الشـباب المريحـة للسحب والضباب)، و(منظومة جريان المدد في الاعتصـام برجـال السند) في 856 بيت، و(رسـالة السـتر)، و(رسـالة في الـرد على الطبيعيين)، و(رفع الإبهام عن مسائل الصـيام)، وتفسـيره للقـرآن الكريم الذي كتب منه بعض تلامذته اجـزاء لا تـزال مخطوطـة في كراريس، والكثير من الفتاوي والبحوث الاصولية لكنها مع الأســف مبعثرة عند تلامذته وحفدته والكثير منها ضاع.

ولد بمدينـة الـوادي، وتعلم بكتاتيبهـا، ثم أخـذ عن عبـد الـرحمن العمودي ومحمد العربي بن موسـى، أجـازه الشـيخ محمـد المكي بن عزوز من الآستانة، انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس ومكث فيه ثلاث سنوات، رجع إلى بلاده واسـتقر بتقـرت أين تـولى التـدريس بالجامع الكبير بها لسنوات طويلة، وكان يتنقل هنا وهناك في زوايا وادي ريغ وطولقة والهامل وغيرها، واعظـا ومدرسـا، تخـرج عليـه المئات من طلبة العلم الشريف.

و من ابرز العلماء الـذين أخـذ عنهم من الجـامع الأعظم الإمـام محمــد بن الطــاهر بن عاشــور، والعلامــة محمــد الخضر حســين، والشيخ أحمد بن مراد والشيخ حسن بن يوسف، وفضـيلة الأسـتاذ محمــد النجــار، والشــيخ أحمــد البــنزرتي والأســتاذ الكبــير صــالح الهواري، والشيخ خليفة بن عروس، والشـيخ بن محمـود، والشـيخ النخلي وغيرهم مكن الشيوخ.

و يعتبر الشيخ العبيـدي عـالم منطقـة ورقلـة وفقيههـا المجتهـد ومثقفها الأكبر لا يشاركه في ذلك مشاركة طيلة ستين سنة، وفي خلال هذه المدة استطاع أن يفسـر القـرآن الكـريم، وفي العاشـر من محـرم سـنة 1353 هــ الموافـق ل 17 ابريـل 1934 هــ ختم تفسيره للقرآن الكريم، وعاشت تقرت مهرجانا عظيما بالمناسبة.

و قد ذكر الدكتور سعد الله أنه كان بين الشـيخ العبيـدي صـحبة مع الشيخ عبد الحميد بن باديس أيام طلبه للعلم بالزيتونـة، يقـول في ذلـك: (و هنـاك أوجـه شـبه واختلاف بين ابن بـاديس والشـيخ العبيدي، من ذلك صداقتهما أيام الطلب في تونس، وهو مـا يشـير اليه ابن باديس في رسالته بعبارة (قديم التذكار) رغم أنهـا عبـارة

غير صريحة في هذا المعنى)[1]

وقد ذكر الدكتور عبد الله حمادي في كتابه (دراسات في الأدب العـربي القـديم) رسـائل من الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس إلى الشـيخ الطـاهر العبيـدي[2]، وهي رسـائل خطـيرة في موضـوعها، وربما تكون محـل شـك في صـحتها، وسـنتعرض لهـا بتفصـيل في الفصل التالي لهذا الفصل عنـد الحـديث عن العلاقـة بين الجمعيـة والطرق الصوفية.

وما يهمنا منها هنا هو ذلك الثناء الذي أثنى بـه ابن بـاديس على الشيخ الطـاهر العبيـدي فممـا جـاء فيهـا قولـه: (إلى حضـرة علم العلم والفضـل، ومعلم الكـرم والنبـل، التقي الطـاهر، الأثـواب السري البارع للأدب، مستحق الشكر منا بما لـه علينـا من سـابق الأيدي العلامة الشـيخ سـيدي أبي الطيب الطـاهر العبيـدي، أدامـه الله بدرا طالعا في هالة درسه، وغيثا هامعا في ربع العلم، من بعد طمسه حـتى وحشـة قطـره بأنسـه، ويحقـق من بسـاتين تلاميـذه ثمرات غرسه آمين) [3]

المطلب الثالث: الطريقة التيجانية

هي طريقة صوفية ظهرت في أواخر القرن الثـامن عشـر على يد مؤسسها الشيخ أحمـد التيجـاني المكـنى بـابي العبـاس أحمـد محمد التيجاني الشريف، وقـد تواجـدت مراكزهـا في الجزائـر في العهـد العثمـاني في : عين ماضـي وتيماسـين والأغـواط وتـوقرت وورقلة ووادي سوف[4].

أولا ـ مؤسس الطريقة:

تنسب التيجانية إلى صاحبها الشيخ أبي العباس احمد بن محمـد

---

1) تجارب في الأدب والرحلة، ص 101.

2) انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص6.

3) انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، ص6.

4) فيلالي مختار الطاهر : نشأة المرابطين والطـرق الصـوفية وأثرهمـا في الجزائـر خلال العهد العثماني، ص 51.

التيجاني الحسيني، ولد سنة 1737م، بدائرة عين ماضي بولاية الاغواط الجزائرية، لقب بالتيجاني نسبة للقبيلة التي تنتمي لها والدته وأخواله (بنو توجين)، نشأ في بيت صلاح وتقوى ووسط عائلي محافظ، حفظ القرآن الكريم برواية نافع عن أستاذه أبي عبد الله محمد بن حمو التيجاني المضاوي وعمره لم يتعد سبع سنوات، ثم اشتغل بطلب العلوم الأصولية والفرعية حتى تفرس فيها على يد الأستاذ الخبير والمرشد البصير الشيخ البركة المبروك ابن أبي عافية التيجاني المضاوي[1].

وبعد وفاة والده غادر عين ماضي وراح يتنقل بين مناطق عدة منها (بوسمغول-توات-لبيض سيد الشيخ-تلمسان...) وفيها كان يتصل بالعلماء والفقهاء يأخذ عنهم ويستفيد منهم ثم انتقل إلى المغرب الأقصى ونزل بمدينة فاس، التي كانت ولا تزال حاضرة العلم، وهناك التقى بأعلام التصوف، فاجتمع بهم وتحاور معهم واخذ عنهم تعاليم التصوف ومبادئ التربية الروحية.

وكان من أول أساتذته الشيخ أحمد بن حسان القادري من مدينة فاس ثم تتلمذ على يد الشيخ مولاي الطيب الوزاني شيخ الطريقة الطيبية، وقد دام مكوث الشيخ التيجاني بمدينة فاس حوالي 18سنة كان خلالها يدرس ويتفقه في شتى العلوم الدينية والشرعية[2].

وفي سنة 1773م بدأ الشيخ التيجاني في رحلته إلى الحج مواصلا تتبعه للطرق الصوفية، ولما بلغ قرية آيت إسماعيل ببلاد القبائل نزل عند الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأزهري وأخذ عنه الطريقة الرحمانية الخلوتية، ثم واصل رحلته إلى أن بلغ مقصده في شهر يناير سنة 1188هـ/1774م، هناك اتصل بشيخ هندي يدعى أحمد بن عبد الله وهو صوفي ورع وتقي زاهد فجالسه مدة شهرين أثنائها توفي الشيخ الهندي، وخلف للتيجاني عمله ومعارفه في الطريقة الصوفية.

---

[1] سالم الحبيب التيجاني، نبذة عن حياة الشيخ سيدي احمد التيجاني، 1999م، ص ص2-3.

[2] صلاح مؤيد العقبي، الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر تاريخها ونشاطها، بيروت، لبنان، دار البراق، 2002م، ص175.

وفي رحلة العودة مـر التيجـاني بالقـاهرة وهنـاك التقى الشـيخ محمد الخيضري الـذي فوضـه لنشـر تعـاليم الخلواتيـة في شـمال إفريقيا، فانطلق مباشرة إلى مدينـة فـاس حيث مكث مـدة يتعلم ويعلم علوم الدين وأسس الطريقة الصـوفية الخلواتيـة، ثم انتقـل إلى مدينة تلمسان ومنهـا توجـه إلى قصـري بوسـمغون والشـلالة بالصحراء الشرقية وهناك بنى خلوة له وانقطع للعبادة فقضـى لـه الله بالفتح الأكبر، حيث رأى الرسول ﷺ يقظة لا مناما فلقنه الورد الشريف الذي أصبح أسس الطريقة التيجانية ويشتمل على: (مائة من الاستغفار ومائـة من الصـلاة على النـبي المختـار ﷺ ، ثم أمـر بتلقينه لكل من طلبه من المسلمين والمسلمات[1].

مكث الشيخ التيجـاني في زاويتـه بقصـر بوسـمغون مـا يقـارب ثمانية عشر سـنة داعيـاً إلى مذهبـه، ثم اخـذ ينتقـل بين المنـاطق الصحراوية الفاصلة بين توات والسودان الغربي وتونس يدعو إلى الإسلام وينشر تعاليم طريقته الصـوفية، فكـان كلمـا نـزل بمكـان استأنسه أهله أطال المكوث عندهم مربيا ومرشدا ويؤسس هناك زاوية له يعين عليها مقدم يكلفه بتلقين طريقته[2].

واستمر الشيخ التيجاني ينشر دعوته إلى أن وافته المنيـة سـنة 1815م بمدينة فاس المغربية، وكان قد اسـتقر بهـا بعـد مطـاردة باي وهران (محمـد الكبـير) لـه واسـتلائه على قريـة عين ماضـي، وترك ذخرا كبيرا من المؤلفات الدينية أهمها: (الإرشادات الربانيـة بالفتوحـات الإلهيـة من فيض الحضـرة الأحمديـة التيجانيـة)، وهي شرح لقصيدة الهمزية للبوصيري في مـدح الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، و(جـواهر الحقـائق في شـرح الصـلاة المسـماة ياقوتـة الحقائق والتعريف بحقيقة سيد الخلائق)

وقـد خلـف ولـدان بـاران تقيـان زاهـدان وهمـا (محمـد الكبـير) و(محمد الحـبيب) الـذي واصـل نشـر مـذهب والـده وجمـع حولـه

---

[1] عبد اللـه الحـاج مكي التيجـاني، اليـواقيت والجـواهر المضـيئة، مخطـوط بمكتبـة الشيخ محمد السالم المغيلي، الحي الغربي، ادرار، ص11.

[2] عمـار هلال، الموسـوعة التاريخيـة للشـباب (الطـرق الصـوفية ونشـر الإسـلام والثقافـة العربيـة في غـرب إفريقيـا السـمراء)، ط1، الجزائـر، منشـورات وزارة السياحية والثقافة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، 1984م، ص112.

العديد من المريدين والأتباع[1].

ثانيا – مشايخ الطريقة التيجانية:

تشـتهر الطريقـة التيجانيـة بكـثرة علمائهـا ومشـايخها، وكـثرة مؤلفـاتهم[2]، ولكن مـع ذلـك فإنـه لاشـك أن أكـثرهم تـأثيرا في التيجانيين الجزائريين إبان عهد الجمعية شخصـيتان مهمتـان لازال تأثيرهما في الطريقة ساريا، وكلاهما من غير الجزائر، أما أحـدهما فمن المغرب، وهـو الشـيخ أحمـد سـكيرج العياشـي، والثـاني هـو الشيخ محمد الحافظ، وقـد كـان لكليهمـا زيـارات للجزائـر، وكـان لكليهمـا – كـذلك - بعض الـردود على الجمعيـة، وهـذه ترجمـة مختصرة لهما:

الشيخ أحمد سكيرج العياشي :

هو العلامة، الفقيـه، القاضـي سـيدي أحمـد بن الحـاج العياشـي سكيرج، ولد بفاس سنة 1259هـ، وقرأ القرآن على الفقيه محمـد بن الهاشمي الكتامي، ثم التحق بـدروس العلم بمسـجد القـرويين بفاس، برع في الفقه والنحو واللغة والسيرة والحـديث والتصـوف والأدب والحسـاب والشـعر، تقلـد مناصـب مختلفـة أهمهـا نظـارة الأحباس والقضاء، خاصـة بمدينـة سـطات أخـذ الإذن بـالأوراد عن محمـد قنـون بمحـراب زاويـة التيجـاني، وقـرأ الفتوحـات المكيـة والإنسان الكامل، كانت بمراكش سنة 1363هــ، ويعتـبر من أكـثر أتباع التيجاني كتابة وتأليفا إذ بلغت مؤلفاته أكثر من مـائتي تـأليف غالبها في الطريقة التيجانية، وفي مـدح المصـطفى عليـه الصـلاة والسلام في قصائد تناهز إحداها العشرين ألف بيت.

من أهم مؤلفاته: كشف الحجـاب عمن تلاقى مـع التيجـاني من الأصحاب، ورفع النقاب (في أربع مجلدات)، وتطييب النفوس بمـا كتبته من بعض الدروس والطروس، والكـوكب الوهـاج، والـذخيرة

---

[1] صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص178.

[2] من العلماء الذين يعتبرهم التيجانيوون من أتباع الطريقة: الشيخ محمـد بن احمـد بن محمد حمدان لونيسي شيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ عبد القادر بن الشـيخ عبد الله الملقب بالمجار، والشاعر محمد العيد آل خليفة، وغيرهم كثير (انظر: كتاب (دليـلُ الحَـائِر إلى صـور ومواقـف من جهـاد التيجـانيين في الجزائـر) للبـاحث في الطرق الصوفية: الأستاذ ديدي السعيد)

للآخـرة (ديـوان قصـائد تقـارب السـبعين في مـدح الرسـول ﷺ) (تجـاوز 2000 بيت)، والقصـيدة الكافيـة بتضـمين الهمزيـة في كاملية كافية (456 بيتا)، والوصية الشافية (وهي منظومـة طويلـة في الحكم والعلوم) (أبياتها 3042)، والذهب الخالص في محاذاة كبرى الخصائص (وهو نظم الخصائص الكبرى للحافظ جلال الـدين السـيوطي، في نحـو 19150 بيتـا، وقـف في نظمهـا عشـية يـوم الخميس 22 رجب 1363 وتوفي بعد ذلك رحمه الله بشـهر، وقـد أتم نظمها أخوه الفقيه سيدي محمد سكيرج رحمه الله[1].

الشيخ محمد الحافظ التيجاني:

هو الشيخ محمـد الحافظ بن عبـد اللطيـف بن سـالم التيجـاني المصري المالكي الحسيني[2]، ولد عـام 1315هــ في ربيـعٍ الثـاني، في بلدة (كفر قورص) مركز (أشـمون) بــ (المنوفيـة) في مصـر، قــرأ القــرآن الكــريم، واللغــة، والتفســير، والفقــه، والحــديث، والأصول ... وغيرها، على كبار علماء عصره، وصحب الكثيرين من العلماء، وكان يلازم العالمَ حتى يحصل على كل ما معه من العلم، ويدخل مكتبته فلا يخرج منها إلا بعد أن يقرأ جميع ما فيهـا ممـا لم يَسبق له قراءته.

وقد كـان لـه دور كبـير في توضـيح الحقـائق الصـوفية وتقريبهـا بالإضافة إلى دفاعه الشديد عن كل ما ينسب للطريقـة التيجانيـة، ولذلك سنستعين بردوده وتوضيحاته في بعض مناقشـات الجمعيـة مع الطرق الصوفية.

ولقد كان للشيخ علاقـة طيبـة بجماعـة الإخـوان المسـلمين في بادئ الأمر، فإنه كـان يـرى أن تكـون هنـاك دعـوة عامـة للإسـلام بصرف النظر عن الـدعوات الخاصـة، وكـانت للأسـتاذ حسـن البنا صـلة قويـة بالشـيخ من قبـل أن يبـدأ نشـاط الجماعـة، ثم قـامت الجماعــة وأنشــئت، وكــان الشــيخ يــرى أن لا تشــتغل الجماعــة بالسياسة الحزبية، بل تدعو للعمـل بالكتـاب والسـنة بين جمـاهير

---

[1] انظر ترجمتـه وجميـع كتبـه في موقعـه على الإنـترنت: (http://www.cheikh-skiredj.com)

[2] انظـر ترجمتـه في: لمجلس الأعلى للشـؤون الإسـلامية، موسـوعة أعلام الفكـر الإسلامي، دار السلام، ص(928 – 929)

الأمة، وتترك كلًّا على مذهبه السياسي الذي يعتنقه، فإذا اقتنعت جماهير الأمة برأي وانضمت إليه، فإنهم في الانتخابات سينتخبون الأقرب للعمل بمبادئهم من نفس حزبهم السياسي. وبالتدريج سيكون في المجلس النيابي أعضاء من جميع الأحزاب، إما من الجماعة، أو من المقتنعين برأيها، أو من مؤيديها، وهكذا سيأتي اليوم الذي يصبح فيه أغلبية النواب من سائر الِأحزاب من أنصار الجماعة، وسيأتي اليوم الذي يطلب فيه البرلمان العمل بالكتاب والسنة، ويضع التشريعات اللازمة لذلك.

بالإضافة إلى هذا، فقد كان الشيخ أحد القادة في ثورة سنة 1919م في مصر ضد الإنجليز، وحاربهم بشدة، وكان من قواد إحدى المعارك في أسيوط ضدهم، وقد قبض عليه الإنجليز وأودعوه أحد السجون.

من مؤلفاته: ترتيب وتقريب (مسند الإمام أحمد)، وترتيب (ذخائر المواريث) للنابلسي، وترتيب تخريج أحاديث (الإحياء) على حروف المعجم، وأمام كل حديث تعليق السيد مرتضى الزبيدي، وتخريج أحاديث (جواهر المعاني)، وتخريج أحاديث كتاب (اللمع) لأبي نصر الطوسي، وتحقيق الأحاديث الضعيفة في (سنن الترمذي)، و(أهل الحق العارفون بالله السادة الصوفية)، و(سلطان الدولة التيجانية بغرب إفريقيا: الحاج عمر بن سعيد الفوتي، وجهاده مع الكفار)، و(علماء التزكية هم أعلم الناس بالكتاب والسنة والصحبة الروحية لرسول الله r)، وهو عبارة عن ثلاث رسائل في الرد على المنكرين على أهل الحق، و(رؤية النبي ﷺ في اليقظة)، و(الإنصاف في رد الإنكار على الطريق)، و(التعليق على الإفادة الأحمدية)، و(قصد السبيل في الطريقة التيجانية)، و(أصفى مناهل الصفاء في مشرب خاتم الأولياء)، و(فصل المقال فيما يرفع الإذن في الحال)، و(شروط الطريقة التيجانية)، و(مجموع الأوراد في الطريقة التيجانية)، و(الإسراء يقظة بالروح والجسد)، و(التوفيق بين الطوائف الإسلامية المعاصرة في الأصول)، ومعنى قوله ﷺ: (تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) [1]

توفي منتصف ليلة الاثنين 29 جمادى الآخر 1398هـ، الموافق 5 يونيه سنة 1879م.

---

[1] سنن الترمذي (5/ 26)

المطلب الرابع: الطريقة العلاوية

وهي من أشهر الطرق الصوفية الجزائرية المعاصرة، ومن أكثرها علاقة مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بل يكاد يحصر التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية في هذه الطريقة، ولهذا سنرجع إليها كثيرا عند مناقشة المسائل المختلفة.

وسنتحدث هنا باختصار عن مؤسس الطريقة وكبار مشايخها ممن كانت لهم علاقة بالجمعية، أما التفاصيل المرتبطة بتوجهها الفكري والسلوكي ومواقفها المختلفة، فسنتحدث عنها بتفصيل في أكثر المحال في هذه الرسالة.

أولا ـ مؤسس الطريقة:

هو الشيخ أبو العباس أحمد بن مصطفى بن عليوة المعروف بالعلاوي المستغانمي[1] مولدا ونشأة، ولد بمستغانم عام 1869، وتوفي بها سنة 1934، تعلم مبادئ الكتابة والقرآن الكريم على يد والده الحاج مصطفى الذي كان معلما للقرآن الكريم، فانتهى به الحفظ إلى سورة الرحمن، ثم اضطر إلى ممارسة التجارة ليعول عائلته خاصة بعد وفاة والده، وهو في سن مبكرة, إلا أن ذلك لم يمنعه من الانكباب على ملازمة الدروس ليلا رفقة جماعة من الطلبة في الفقه، والتوحيد، والتفسير على يد جماعة من مشايخ المدينة، إلى أن التقى بأستاذه الروحي الشيخ سيدي محمد بن الحبيب البوزيدي، فلازمه إلى أن وافته المنية سنة 1909، وكان قد قضى في صحبته نحو خمس عشرة سنة، فبويع بعده بالخلافة على رأس الطريقة الدرقاوية بمستغانم ونواحيها، حوالي عام 1909، وخلال بداية العقد الثاني من القرن العشرين، أسس الطريقة العلاوية، معلنا بذلك عن ميلاد طريقة روحية جديدة في أساليبها.

وقد اشترى ابن عليوة مطبعة للزاوية، وأسس صحفا كانت تنشر نشاطه كما كانت ترافع عن الزاوية ضد مخالفيها ومن أشهر صحفه أسبوعية (لسان الدين) و(البلاغ الجزائري)، حيث كان لهما آراء صريحة لتأييد الجامعة الإسلامية واليقظة الوطنية، وقد وقفت

---

[1] انظر ترجمته المفصلة في موقع (جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية) على هذا الرابط (http://ar.asso-alawi.org)

ضد الاندماج وأنصاره وضد التجنيس ودافعت بشدة عن اللغة العربية.

وقد عمل الشيخ على إبراز الزاوية في شكل يتلاءم ومستجدات العصر الحديث مع الحفاظ على دورها التربوي الروحي، فسارع إلى بناء زاوية جديدة تجمع جملة من المرافق من أجل تبليغ رسالته التربوية والاجتماعية كأقسام الدراسة والمطبعة والمخبزة، واستقطب إليها نخبة من العلماء في التفسير، والحديث، وأحكام الفقه، واللغة العربية.

من مؤلفاته: الرسالة العلاوية في البعض من المسائل الشرعية، ومبادئ التأييد في بعض ما يحتاج إليه المريد، وقواعد الإسلام بالفرنسية، ونقد وردود ورسائل، ورسالة الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف، والقول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، والقول المعتمد في مشروعية الذكر بالإسم المفرد، وأعذب المناهل في الأجوبة والرسائل، ورسالة القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ومنهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، ويتضمن كتبا ثلاثة هي: 1) النموذج الفريد المشير لخاص التوحيد، 2) لباب العلم في سورة (والنجم)، 3) مفتاح علوم السر، في تفسير سورة (والعصر)، والبحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور (جزآن)، والمواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية (جزآن)، والمنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية، والنور الضاوي في حكم ومناجاة الشيخ العلاوي، ودوحة الأسرار في معنى الصلاة على النبي المختار، ونور الأثمد في سنة وضع اليد على اليد في الصلاة، ومنهاج التصوف والتعرف إلى حقيقة التصوف، ومعراج السالكين ونهاية الواصلين، ومفتاح الشهود في مظاهر الوجود، والأبحاث العلاوية في الفلسفة الإسلامية، ومظهر البينات في التمهيد بالمقدمات.

ثانيا ـ مشايخ الطريقة العلاوية:

مع أن الطريقة العلاوية من الطرق المعاصرة إلا أنها بسبب انتشارها الواسع في كثير من الدول العربية وغيرها حظيت بالكثير من الباحثين والمثقفين بالإضافة إلى مشايخ الطريقة الذين خلفوا الشيخ العلاوي.

وسنذكر هنا باختصار بعض النماذج عن الشخصيات الكبرى في الطريقة العلاوية.

الحاج عدة بن تونس:

هـو الشـيخ عـدة بن تـونس ابن (بن عـودة) ولـد بحي تجـديت بمدينـة مسـتغانم (الجزائـر) عـام 1898، تعلم وسـلك في شـبابه بالزاويـة العلاويـة الكـبرى، على يـد الشـيخ أحمـد بن مصـطفى العلاوي، الذي أذن له في الرحيل إلى جامع الزيتونة، فمكث هناك نحو العامين ثم عاد إلى مستغانم فلازم شيخه ملازمـة مكنتـه من المعرفة التامة بأحوال الشـــيخ العلاوي ونشاطه الديني والـروحي حـتى وفاتـه عـام 1934 بعـد أن أوصـى بالخلافـة ورعايـة شـؤون الزاويـة الكـبرى للشـيخ عـدة بن تـونس، فقـام بمهـام الطريقـة العلاوية وفق المنهج الذي رسمه أستاذه أحسن قيـام، حيث عمـل على نشر الطريق والدعوة إلى الله، وأنشـأ عـددا من الزوايـا في الجــــزائر وخارجــــها، مـن أجـل الـتربـيــــة والــتـعـــلـيـــم، والتوجـيـــــــــــه والإرشاد، رغم الظروف القاسية التي شلت كل نشاط ديني واجتماعي، أثناء الحرب العالمية وبعدها.

من أهم ما قـام من أعمـال إصـداره عـدة جرائـد منهـا: جريـدة لسان الدين الثانيـة من 1937 إلى 1939 (حيث أصـدرت جريـدة لسـان الـدين الأولى في عهـد الشـيخ العلاوي)، ومجلـة المرشـد الشـــهرية بـــاللغتين (العربيـــة والفرنســـية) من 1946 إلى 1952 للدفاع عن تعاليم الإسلام، وتبليغ مبادئه لغير المسلمين إلى جانب مجلـة أحبـاب الإسـلام الناطقـة بالفرنسـية الـتي أسسـها لنفس الغرض.

إلى جـانب ذلـك قـام الشـيخ بإنشـاء مؤسسـة لإعـادة تأهيـل الشباب المنحرفين (1940) تحتـوي على أربـع ورشـات للتكـوين: الميكانيكا، النجارة، الطباعة والمخبزة.

من مؤلفات الشيخ: الروضة السنية في المـآثر العلاويـة، وتنبيـه القـراء إلى كفـاح مجلـة المرشـد الغـراء ،و هي مجمـوع مقالاتـه الصحفية صدرت تحت هذا العنوان، والدرة البهية في أوراد وســند الطريقة العلاوية، ووقاية الذاكرين من غوايـة الغـافلين، ومجـالس التذكير في تهذيب الروح وتربية الضمير، وفك العقال عن تصــرف الأفعال.

وقد أسهم في نشر معظم التراث المخطوط الذي خلفه الشيخ العلاوي، وأشرف بـنـفـسه عــلى تـحـقـيـقـه وطبعه.

ومن الجمعيات التي أسسها الشيخ: (جمعية الشـبيبة العلاويـة)، و(جمعية التنوير)، و(جمعية أحباب الإسلام) التي تنشط حتى اليوم

بأروبا.

توفي سنة 1952 وهو في الرابعة والخمسين، وعهد بالخلافة لولده الشيخ بن تونس محمد المهدي[1].

الشيخ محمد بن خليفة المدنى:

ولد الشيخ محمد المدني بن خليفة بن حسين بن الحاج عمر خلف الله بقصيبة المديوني ولاية المنستير عام 1888 ميلادية, درس في جامع الزيتونة، ومن مشايخه فيها الشيخ محمد بن يوسف وشيخ الإسلام المالكي بلحسن النجار والعلامة محمد طاهر بن عاشور.

عندما حلّ الشيخ ابن عليوة بتونس ليطبع له كتاب (المنح القدسية في شيخ المرشد المعين بالطريقة الصوفية) أعجب به الشيخ (محمد بن خليفة المدني، وأصرّ أن يسافر مع شيخه إلى الجزائر، وهناك تفانى في خدمته وقرّبه وأدناه، حتى صار من أعزّ الخواص وقد اقتضى نظره إلى أن يوجهه إلى نشر الطريقة في 11 ذي الحجة 1329هـ، وبقي في خدمة شيخه نحو ثلاث سنوات استكتبه فيها لتأليف رسائله، ثم أجازه في تلقين الورد العام والاسم الخاص والمفرد، وتلقين أسرار التوحيد وأذنه في نشر الطريقة بالقطر التونسي.

وقد ذكر الشيخ المدني صحبته للشيخ ابن عليوة، فقال: (أما إجتماعنا بالأستاذ رضي الله عنه وأرضاه فقد كان في أول زيارة تشرفت به حاضرة تونس في سنة 1328 هجرة من بعث على أكمل وصف, وكنت أظن أن الأستاذ كغيره من مشائخ زماننا المدعين، ولكن ما لبثت بعد إستماع تذكيره ولطيف تعبيره وصولة كلامه وسطوة معانيه وأفهامه أن قلت كما قال ابن عبد السلام مع الشاذلي: (هذا الكلام قريب العهد من رب العالمين)، فعند ذلك تشرفت بالتسليم عليه والمثول بين يديه, فلقنني ورد طريقته العام بطريق المصافحة, ثم لقنني الإسم المفرد وأذنني في ذكره بكيفية خاصة بعد أن أدخلني الخلوة, ولكن ما لبثت في الذكر زمنا يسيرا حتى فتح الله على عين قلبي فحصلت على الفتح المبين ببركة الاستاذ رضي الله عنه والمنة لله, وقد بقيت

---

[1] انظر ترجمته المفصلة عنه في كتاب: (الشيخ سيدى عدة بن تونس عبر مؤلفاته ومآثره وشهادات حية لمجموعة من الكتاب والشخصيات الادارية، وبعض معاصريه من الاتباع والمحبين)، نشر جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية.

في خدمته بعد الذكر نحو الثلاث سنين متفرقة منها سنة متصلة استكتبني في تلك المدة لتآليفه ورسائله, فكنت أستفيد منه في كل وقت وحين من أسرار التوحيد ودقائق تفسيره في القرآن العظيم ورقائق شرحه للحديث الشريف, وما سمعت منه مدة إقامتي عنده كلمة إلا فيما يعود بالنفع ظاهرا وباطنا, ثم أجازني في تلقين الورد العام والاسم المفرد الخاص لمن فيه أهلية للمزيد وتلقي أسرار التوحيد ففتح الله على كثير من الفقراء ببركة إذنه المبارك والله يزيدنا من فضله فإن الفضل بيده يؤتيه من يشاء من عباده وهو على كل شيء قدير)

وقد امتثل الشيخ للإذن ونشر الطريق في عدة بقاع، وقضى 49 سنة في التذكير إلى أن توفي بأحد مستشفيات سوسة، وذلك في 14 ماي 1959 م[1].

---

[1] انظر ترجمته المفصلة في الموقع الرسمي للطريقة المدنية على هذا الرابط: (http://www.madaniyya.com)

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ــ أن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يعتــبر من من أدق المنجــزات التاريخيــة في الجزائــر، باعتبــار الظــروف الاستعمارية التي كـانت تمـر بهـا الجزائـر حينئـذ، وباعتبـار الواقـع الديني الذي كـان يشـكل فيـه المحـافظون نسـبة أكـبر بكثـير من نسبة الإصلاحين، وباعتبارات أخرى كثـيرة، ومـع ذلـك، فقـد كـانت هناك عوامل كثيرة ساعدت على تأسيسـها من آثـار دعـوة الإمـام محمد عبده التي تـأثر بهـا المصـلحون الجزائريـون، ومنهـا الثـورة التعليمية الـتي أحـدثها الشـيخ عبـد الحميـد ابن بـاديس بدروسـه، ومنهــا التطــور الفكــري الطي مــان من مخلفــات وآثــار الحــرب العالميــة الأولى، ومنهــا رجــوع طائفــة من المثقفين الجزائــريين الذين كـانوا يعيشـون في المشـرق العـربي ولا سـيما في الحجـاز والشام والذين من أبرزهم الإبراهيمي والعقبي.

2 ـــ أن المــؤرخين للجمعيــة اختلفــوا حــول البدايــة الحقيقيــة للتفكــير في تأسيســها، وبنــاء على ذلــك اختلفــوا في المؤســس الحقيقي لها، ولو أن أكثرهم يميـل إلى اعتبـار الشـيخ ابن بـاديس هو أول من فكر في ذلك، وأسس له.

3 ــ من أهم منجزات المرحلة الباديسية، وهي الفترة التي ولي فيهـا ابن بـاديس قيـادة جمعيـة العلمـاء اسـتبعاد المحـافظين من الجمعية، والذين يشملون خصوصـا على رجـال الطـرق الصـوفية، والذين كانوا يشكلون جزءا مهما من الجمعية عند تأسيسها.

4 ـــ يعتــبر حضــور الجمعيــة في عهــد ابن بــاديس للمــؤتمر الإسلامي في شهر جوان 1936 من أهم الأنشطة السياسية الـتي قامت بها الجمعية، والـتي لقيت في نفس الـوقت جـدلا في مـدى جدواها وتأثيرها.

5 ــ بعد وفاة ابن باديس تولى الإبراهيمي رئاسـة الجمعيـة بنـاء على أن القانون الأساسي للجمعية يقضي بتولية النـائب في حالـة وفاة الرئيس، وقد اشتد الصراع في عهده بينه وبين رجال الطرق الصوفية، بالإضافة إلى مساهمته في بناء المدارس.

6 ــ يعتبر الشيخ العربي التبسي من الشخصـيات المهمـة الـتي كـان لهـا الـدور الكبـير في الجمعيـة ابتـداء من تأسيسـها، وانتهـاء بحلها، وقـد تـولى الرئاسـة الفعليـة لجمعيـة العلمـاء من (1952-1956)، وقد تحمل في هذه المرحلة ما تنوء الجبال بحمله ، وذلك

باعتراف كل رجال الجمعية بما فيهم الشيخ البشير الإبراهيمي نفسه، إلى أن أوصل الجمعية إلى حل نفسها يوم 07/01/1956م كي لا تتورط مع الإدارة الاستعمارية في الدخول في المفاوضات والطروحات الاستسلامية[1].

7 ـــ تشكل الطرق الصوفية جزءا مهما من تاريخ الجزائر الديني والثقافي والاجتماعي، بل والسياسي، ولهذا نجد المستعمر الفرنسي قد أولاها أهمية كبرى، فأرشيفه يحتوي على تفاصيل كثيرة عن أعدادها وزواياها ومشايخها، بل حتى توجهاتها الروحية والفكرية.

8 ـــ أن هناك أربعة طرق كبرى، هي (القادرية، والرحمانية، والتيجانية، والعلاوية) كان لها دور فاعل في التاريخ السياسي والثقافي الجزائري، وكان لها جميعا صلات خاصة مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

9 ـ أن الطريقة العلاوية من أشهر الطرق الصوفية الجزائرية المعاصرة، ومن أكثرها علاقة مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بل يكاد يحصر التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية في هذه الطريقة.

[1]) الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

الفصل الثاني
العلاقة بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والطرق الصوفية

لقد تبين لنا مما سبق أن من الأهداف الكبرى التي تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأجلها مواجهة الطرق الصوفية، بل محاربتها، واستئصالها، بل تقديم استئصالها على استئصال الاستعمار نفسها، باعتبارها أخطر تأثيرا منه.

ولكن هذا الهدف مع وضوحه وشهرته لا يمكن أن نستنبط منه العداء المطلق للطرق الصوفية من ناحيتين:

الناحية الرسمية: ذلك أنه حصل بين الجمعية والطرق الصوفية –كما عرفنا سابقا- نوع من الوفاق بينهما عند أول تأسيس الجمعية، وبسببه تأسست الجمعية، وانتشر صيتها، ثم حصل بعد ذلك، وبعد سنة واحدة الانقلاب، ولسنا ندري من المنقلب، ومن المنقلب عليه، وهذا يحوجنا إلى التحقيق التاريخي في ذلك بالإضافة إلى التحقيق في النتائج التي ترتبت على ذلك الفصام، والأسباب التي دعت إليه.

الناحية الشخصية: ذلك أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ضمت أعضاء مختلفي المشارب، وقد جعلهم ذلك يختلفون في سلوكهم مع الطرق الصوفية بين معتدل ومتشدد، بل ومتسامح، وقد عبرنا عنه بكونه شخصيا لأنا رأينا أعضاء الجمعية يختلفون كثيرا في سلوكاتهم ومواقفهم من الطرق الصوفية، وهذا ما جعلنا نبحث عن تصنيف المواقف، ثم تصنيف أعضاء الجمعية على أساسها.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن البحث في كلا الأمرين يعتمد على التاريخ أكثر من اعتماده على تحليل الأفكار ودراستها باعتبار أنا سنخص الباب التالي لهذا الباب لدراسة التوجهات الفكرية وأثرها في التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

بناء على هذا، فقد قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: العلاقة الرسمية بين جمعية العلماء والطرق الصوفية

المبحث الثاني: العلاقة الشخصية بين جمعية العلماء

والطرق الصوفية

المبحث الأول: العلاقــة الرســمية بين جمعيــة العلماء والطرق الصوفية

على الرغم من أن جمعية العلماء المسلمين الجزائــريين أعلنت قبل تأسيسها وبعده معاداتها للطرق الصوفية، بل حربهــا لهــا، بــل تقــديمها لحربهــا لهــا على حــرب الاســتعمار نفســه - كمــا يــذكر الإبراهيمي - ويعلله بأن استعمار الطــرق أخطر[1]، ومــع ذلــك فقــد رأينــا في الفصــل الســابق أن الجمعيــة ضــمت في أول تأسيســها كثيرا من رجال الطرق الصوفية، فما سر ذلك؟

وما سر ذلك الشقاق الذي دب إلى الجمعيــة بعــد أول ســنة من تأسيسها؟

وهل كانت الطرق الصوفية تريد أن تستلب الجمعية من رجالهــا لتحولها إلى مؤسسة لتسويق البدع والدعوة لها – كما يرى رجــال الجمعية والموالون لهم-؟

أم أن الأمر على عكس ذلك، وهو أن رجال الجمعية اســتخدموا رجال الطرق الصوفية واحتالوا عليهم ليصــلوا بهم إلى أغراضــهم، ثم يطــردوهم بعــد ذلــك شــر طــردة، ــ كمــا يــرى رجــال الطــرق الصوفية، والموالون لهم؟

ثم ما كان نتائج ذلــك الفصــام النكــد الــذي حصــل بين الجمعيــة والطرق الصوفية؟ وما أسبابه؟ وهل كانت هنــاك محــاولات لــرأب الصدع، أم الأمر بقي كما هو؟

هذه أسئلة كثيرة تفــرض نفســها، ولا يمكننــا أن نعــرف العلاقــة

---

[1] وقد علل ذلك بقولــه: (ولقــد تفرســنا فيهم فصــحت الفراســة، وبلونــاهم فصــدق الابتلاء، وجربنــاهم فكشــفت التجربــة على أنهم لا يعرفــون الأمــة إلا في مواقــف الاستعباد وابتزاز الأموال، فإذا مسها الضر وتنكر لهــا الــدهر تنكــروا لهــا وتجاهلوهــا، وإن علاقتهم بالأمة علاقة الســيد بعبــده والمالــك لمملوكــه لا علاقــة المســلم بأخيــه المسلم، يحب له ما يحب لنفسه، وأنهم مطايا الاستعمار الذلل وأيديه الباطشة؛ بــل القنطرة التي هونت عليه العبور، وانهم كانوا ولا زالوا على خلاف ما وصــف اللــه بــه عباده المؤمنين أعزة على الأمة أذلــة على المســتعمرين والحكــام المســتبدين، وأن ليس في صحائفهم السوداء موقــف يعــز الإســلام أو يرفــع المســلمين) (آثــار الإمــام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 297))

الرسمية بين الجمعية والطرق الصوفية دون الإجابة عليها.

وقد حاولنا ذلك عبر ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مرحلة التوافق وأسبابها

المطلب الثاني: مرحلة الاختلاف وأسبابها

المطلب الثالث: نتائج الاختلاف

المطلب الأول: مرحلة التوافق وأسبابها:

ربما يكون تعبيرنا عن الفترة القصيرة التي سادت فيها بعض الألفة المحتشمة بين الجمعية والطرق الصوفية بكونها (مرحلة) نوعا من المجاز، أو نوعا من التجني على الحقيقة، فلم يحمل أعضاء الجمعية وخصوصا المتشددون منهم – كما سنرى- في أي يوم من الأيام أي نية صادقة للتوافق مع الطرق الصوفية، وكيف يفعلون ذلك، وهم يعتبرونها شرا محضا، في نفس الوقت الذي يعتبرون فيه أنفسهم خيرا وصلاحا وإصلاحا محضا، ولا يمكن للخير والشر أن يتوافقا أبدا.

ومع ذلك فقد حصل نوع من التوافق المصلحي للجانبين، فقد كانت الجمعية بحاجة إلى الطرق لتعبر من خلالها إلى السلطات من جهة، وإلى كثير من أفراد المجتمع المتشبث بالطرق الصوفية من جهة أخرى.

وفي نفس الوقت كانت الطرق الصوفية بحاجة إلى هذا التوافق لتكف تلك الحرب التي أعلنت عليها منذ دخول ما يسمونهم بـ (الوهابية) أو (العبداوية)[1] إلى الأرض التي كانت خالصة لهم في فترات تاريخية كثيرة.

بناء على هذا نحاول في هذا المطلب أن نتعرف على تلك الفترة القصيرة التي ساد فيها هذا التوافق المحتشم، ثم نتعرف على أسبابه وخلفياته الفكرية والتاريخية.

أولا ــ بداية التوافق ومدته:

في سنة 1925، وبعد أن أدرك ابن باديس صعوبة تأسيس ما كان يصبو إليه من إصلاح من خلال النخبة القليلة التي كانت تشاركه آراءه وتوجهاته الإصلاحية من العلماء الأحرار الذين تخرجوا في المدارس والمعاهد الحرة، ومن الجامعات الإسلامية

---

[1] يقصد بهذا المصطلح أتباع (محمد عبده)، وقد ذكره الإبراهيمي في معرض ذكره للحرب التي ووجهت بها الجمعية (انظر: آثار الإبراهيمي: 1/123)

في وقتها مثل الزيتونة، والأزهر، والقرويين أو درسوا بالحجاز.

ورأى أن جمعا كبير من العلماء لا يتوافق معه في هذا السـبيل، أو لا يفكـر معـه هـذا التفكـير، وهم إمـا من الـذين تتلمـذوا في المدارس الرسمية الحكوميـة الـتي تكـون وتخـرج المـوظفين في القضاء والإفتاء والإمامـة، والـذين كـان جلهم يظهـرون ولاءً كبـيرًا وطاعة عمياء لإدارة الاحتلال.

أو من الـذين تتلمـذوا في مدرسـة الزوايـا الـتي تخـرج شـيوخاً يعلمـون بالزوايـا، ويتفرغـون لخـدماتها، مـع جمـود على طرائقهـا وحالتها، التي هي عليها منذ أمد بعيد[1].

بعد أن رأى هذا وأدرك صعوبة تحقيـق ذلـك الغـرض الإصـلاحي الذي يصبو إليه مع نفر قليل من المصلحين تخلى عن بعض الحدة التي كان يخاطب بهـا المخـالفين لـه خصوصـا من رجـال الطـرق الصوفية، ونشر– عبر جريدة الشهاب- نـداء إلى العلمـاء الراغـبين في الإصلاح من كل الجهات والتوجهات يقول فيه:: (أيها السـادة الأدباء المؤيدين للإصلاح، المتواجدين في مناطق متفرقـة مختلفـة في الجزائر، هلموا، اتّحدوا وتعاونوا، وأسسـوا حزبـا وثيقـا (حـزب ديـني محض)، من أجـل تنقيـة الـدين من الشـوائب والبـدع الـتي لحقت بـه من السـذج والجـاهلين، وذلـك بـالرجوع إلى المصـادر القرآنية، وأحـاديث الرسـول، وتقاليـد القـرون الثلاثـة الأولى، نحن نتمنى أن يقبل كل شـخص هـذا الاقـتراح، وأن يلـبي نـداء العلمـاء ومؤيـدي الإصـلاح الـذين يؤيـدون هـذه الصـحيفة، وأن يغـادروا أفكارهم القديمة، وإذا حصلنا على شـهادة استحسـان وقبـول من عدد كاف، سنشرع في تكوين الحزب، والله الموفق)[2]

وهذا النداء من خلال عباراته لا يدل على اختصـاص الإصـلاحيين به، فالطرقيون – كما سنرى عنـد الحـديث عن تـوجههم الفكـري- ينكرون البدع ويحاربونها على حسـب تصـورهم لحقيقتهـا، ومثلهم الإباضيون، وغـيرهم، فالكـل يتفـق على إنكـار البـدع، ويحمـل في

---

[1] عبد رشيد زروقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913 ـ 1940)، دار الشهاب، بيروت، ط1، 1420 هـ / 1999 م، ص 126

[2] عبد الحميد بن باديس: نداء إلى العلماء الإصلاحيين (جريدة الشهاب، العـدد (3)، 26 نوفمبر 1925)

نفس الوقت تصوره الخاص بها، فلذلك لقي هـذا النـداء قبـولا من الجميع.

وبعد أن نضـج ذلـك التوافـق، قـرر ابن بـاديس ومن معـه ممن يحمل فكره وتوجهـه إنشـاء هـذا الحـزب الـديني الإصـلاحي، وقـد أعلن ذلك في مارس1931 م حيث خرجت الشهاب ببيان تضـمن دعوة عامة إلى تكوين جمعيـة العلمـاء، ويصـرح الإبـراهيمي بأنهـا كانت دعـوة عامـة لجميـع العلمـاء الجزائـريين بمختلـف مـذاهبهم وتوجهاتهم، فيقـول: (دعونـا فقهـاء الـوطن كلهم، وكـانت الـدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمـة كلهـا ليس فيهـا اسـمي ولا اسم بن باديس، لأن أولئك الفقهـاء كـانوا يخافوننـا لمـا سـبق من الحملات الصـادقة على جمـودهم، ووصـفنا إيـاهم بـأنهم بلاء على الأمة، وعلى الدين لسكوتهم على المنكرات الدينية، وبأنهم مطايـا الاستعمار، يذل الأمة ويستعبدها باسمهم)[1]

فالإبراهيمي يصرح هنا بأن عبـارات النـداء كـانت عامـة تشـمل الجميـع، وذكـر في نفس الـوقت أنـه والشـيخ ابن بـاديس كانـا يقصدان ذلك بدليل أنهما لم يذكرا اسميهما في النداء، مخافـة أن لا يلبي الدعوة الكثير من الجهات.

وإلى هنا فإن القصد – كما هو ظاهر - نبيل، واللغة التي عبر بها عن المقصـد كـانت واضـحة غايـة الوضـوح، ولـذا نجحت في أن تجذب إليها أكبر كم من العلماء بمختلف مذاهبهم ومشـاربهم، من (مـالكيين وإباضـيين، ومصـلحين وطرقـيين، ومـوظفين وغـير مـوظفين، كمـا حضـر الاجتمـاع طلبـة العلم من مختلـف جهـات الوطن)

ولم يكن ذلك من أثر تلك النداءات الموجهة عبر الشهاب فقط، بل كانت هناك مراسلات خاصة شملت أغلب العلماء ورجال الدين الذين كانوا من خريجي المعاهد العليا، أو أن يكونـوا من المشـهود لهم بالعلم أو من الذين يتبوؤون مركزا دينيا مهما بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية أو الطرقية أو الإصلاحية[2].

---

[1] مجلة مجمع اللغة العربية، ج21 سنة 1966، ص : 143.

[2] أحمـد الخطيب، جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين و أثرهـا الإصـلاحي في الجزائر، ص 108.

وقد وصف الشيخ الإبراهيمي نجاحه مع رفيقه ابن باديس في هذه المهمة، فقال: (فاستجابوا جميعًا للدعوة واجتمعوا في يومها المقرر ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام)[1]

بل فوق ذلك يذكر الإبراهيمي، كيف أن أصحاب الطرق مع علمهم بشدته وشدة ابن باديس عليهم لم يجدوا إلا التسليم لهم، بل الموافقة على إدارتهم للجمعية، وقد علل ذلك بتمكنه العلمي وتمكن المصلحين معه مقارنة بمشايخ الطرق وعلمائها الذين وجدوا أنفسهم كالتلاميذ بالنسبة لهم، يقول في ذلك: (ولما تراءت الوجوه، وتعالت أصوات الحق أيقن أولئك الفقهاء أنهم مازالوا في دور التلمذة، وخضعوا خضوع المسلم للحق، فأسلموا القيادة لنا فانتخب المجلس الإداري من رجال أكفاء، جمعتهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة... ووحدة المناهضين للاستعمار. وقد وكل المجتمعون ترشيحهم إلينا فانتخبوهم بالإجماع وانتخبوا بن باديس رئيسًا.. وأصبحت الآن الجمعية حقيقة واقعة قانونية، وجاء دور العمل)[2]

هذه أول العلاقة الرسمية بين الجمعية والطرق الصوفية، وهي علاقة - كما رأينا- لم تؤسس على أساس صحيح، ولذلك سرعان ما انهارت، فالتوجهات الفكرية كانت مختلفة، بل متناقضة، ولهذا لم لم تستمر العلاقة إلا قليلا، يقول سعد الله: (وكان تأسيس الجمعية على هذا النحو يعتبر (شهر عسل) بالنسبة لرجال الدين عامة، وهو الشهر الذي استمر عاما فقط، لأن أهداف الجميع لم تكن واحدة) [3]

ثانيا ــ أسباب التوافق:

من خلال العرض السابق للفترة التي ساد فيها بعض التوافق بين الجمعية والطرق الصوفية، ولو شكلا، نحاول هنا باختصار أن نتعرف على أسباب ذلك التوافق، وهل هو تنازل من الجمعية، واستسلام من الطرق الصوفية، أم أن الأمر كان فيه مصلحة لكلا

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 281)

[2] مجلة مجمع اللغة العربية، ج21 سنة 1966، ص : 143.

[3] سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ص 84.

الجانبين؟

أم أن كلا الطرفين أو أحدهما كان صادقا في نيته، ولم يكن له من مقصد سوى الاهتمام بخدمة البلد الذي كان في أمس الحاجة إلى اتحاد جميع أبنائه بمختلف توجهاتهم ومذاهبهم؟

سنحاول هنا - باختصار - أن نجيب على هذه الأسئلة من خلال طرح المصالح المترتبة على ذلك التوافق للأطراف جميعا.

1 ـــ مصالح الجمعية المتعلقة بالتوافق:

يكاد يتفق أكثر الباحثين في ذلك التوافق الذي حصل بين الجمعية والطرق الصوفية في تلك السنة القصيرة على اعتباره نوعا من التوافق المؤقت المحدود - كما يعبر الدكتور أبو القاسم سعد الله - بدليل المناصب الهامة التي تولاها المصلحون[1].

وبرر ذلك بأن الواقع المحرج الذي كان يعيشه أعضاء الجمعية لا يسمح لهم بتحقيق أهدافهم الإصلاحية إلا باستعمال بعض الطرق والأساليب الخاصة، فقال:(ومن هنا يتضح أن موقف العلماء لم يكن سهلا، فقد كانوا يمشون على البيض كما يقول المثل الأجنبي، فهم من جهة كانوا يريدون تحقيق مبادئهم وأهدافهم بأية وسيلة مشروعة، ومن جهة أخرى كانوا واقعين تحت طائلة إجراءات استثنائية مستعدة لعرقلة سيرهم، بل وضعهم في قفص الاتهام، لذلك كانوا يناورون ما وسعتهم الحيلة والمناورة ويجاملون ولكنهم لا يتنازلون عن مبادئهم، ومن أجل ذلك اصطدموا مرات بالإدارة)[2]

وقد ذكر محمد الأخضر السائحي الطريقة التي قامت بها الجمعية لإخراج الطرق الصوفية من الجمعية، أو لعدم تمكينهم من أي موضع فيها، وذلك أنهم دبروا خطة تتمثل في تغيير أوراق الانتساب إلى الجمعية، وذلك بناء على امتحان يقوم به شيخان من العلماء لإثبات علمية المتتسب أو جهله.

وقام الشيخ أبو اليقظان بطبع الأوراق الجديدة ذات اللون الأزرق عوضا عن الأوراق القديمة ذات اللون الأصفر، وخاف

---

[1]) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ص 83..

[2]) الحركة الوطنية: 3/93.

الطرقيون من الامتحان، وبذلك فشلت محاولتهم بصورة قانونية[1].
وهذا هو الواقع الـذي مارسـته الجمعيـة في كثـير من مراحلهـا، فهي تشتد مـع المخـالفين إذا أتيحت لهـا الفرصـة لـذلك التشـدد، وتلين كلما وجدت نفسها في مواقف حرجة لا تسـتطيع أن تحقـق أهدافها الإصلاحية إلا من خلالها.
وكمثـال على ذلـك موقــف رجـال الجمعيـة بـوادي سـوف – باعتبارها من المناطق التي تنتشر فيها الطرق الصوفية بكثرة من قادرية وتيجانية ورحمانيـة (عزوزيـة)، وشـابية وعلويـة - وهـذا مـا جعل الشيوخ يتخذون مواقـف مختلفـة: إمـا التسـامح مـع الجميـع دون إبداء التعصب لطريقة دون أخرى مثلما فعل الشـيخ إبـراهيم بن عامر، أو الالتزام بطريقة معينة مثلما كان يقوم به شيوخ بلـدة قمار مثل الشيخ محمد بن البرية ومحمد الصالح بن الخوصـى من خلال انتمائهم للطريقة التيجانية.
كما كـان هنـاك طائفـة أخـرى من العلمـاء الـذين حـاولوا تجنب الطــرق الصــوفية في الســعي والتحــرك على مســتوى التعليم والوعظ، والإرشاد، وهم علماء عديدون أهم علماء حاضرة الـزقم، حيث كانت الطرق الصوفية أقل عنفوانـا، بالإضـافة إلى عمـار بن الأزعر الذي كان صاحب موقف واضح من الطـرق الصـوفية الـتي كــان يعــدها من بين الأســباب الرئيســية في تكــريس التخلــف بالمنطقة، كما كـانت بينـه وبين محمـد بن البرية مشـاحنات، حيث كان محمد بن البرية مدافعا عن الطرق الصـوفية، وهـذا من خلال مــا كتبــه هــذا الأخــير من مقــالات في الجرائــد كجريــدة (البلاغ الجزائري) وجريدة (النجاح) معاديا الشيخ عمار بن الأزعر[2].
بل إن الاستاذ حمزة بوكوشه يذكر أنه كـان من رجـال الجمعيـة من (ينتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية يحتمي بهــا، وتحتمي به، وينتسب إليهـا وتنتسـب إليـه سـواء كـان ذلـك منـه عن إيمـان

[1]) محمد الأخضر السائحي، محمد الأمين العمودي الشخصية المتعددة الجـوانب ،ط 2،دار هومه للطباعة والنشر. بوزريعة، الجزائر: 2001 م،ص 32

[2]) محمـــد الطـــاهر تليلي : من تـــاريخ وادي ســـوف، ص 77، نقلا عن: (الحركـــة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1930)، إعداد الطالب: موســى بن موسى، 2005)

وإعتقاد أو عن تقية أو مجاراة للعوام الـذين من أصـول اعتقـادهم أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه)[1]

2 ــ مصالح الطرق الصوفية المتعلقة بالتوافق:

وقد عبر عن هذه المصالح الشـيخ الإبـراهيمي، فقـال: (لم يكن تأسيس جمعية العلمـاء المسـلمين خفيـف الوقـع على الجماعـات التي ألفت اسـتغلال جهـل الأمـة وسـذاجتها وعاشـت على موتهـا، ولكن التيـار كـان جارفًـا لا يقـوم لـه شـيء، فمـا كـان من تلـك الجماعات إلّا أن سايرت الجمعية في الظـاهر وأسـرت لهـا الكيـد في الباطن، وكان المجلس الإداري الذي تألف بالاختيار في السنة الأولى غير منقح ولا منسجم لمكان العجلـة والتسـامح، فكـان من بين أعضائه أولو بقية يخضعون للزوايا وأصحابها رغبًا ورهبًا، وكـان وجـودهم في مجلس الإدارة مسـليًا لشـيوخ الطـرق ومخففًـا من تشاؤمهم بالجمعية لسهولة استخدامهم لهم عند الحاجـة، فإمـا أن يتخذوهم أدوات لإفساد الجمعية وإسقاطها، وإمـا أن يتـذرعوا بهم لتصريفها في مصالحهم وأهوائهم)[2]

ومن خلال هــذا النص يتــبين لنــا أن الطــرق الصــوفية لم تكن راضية عن تلك الشحناء الـتي كـانت منصـبة عليهـا، ولـذلك كـانت تلتمس كل السـبل لتتقي هجومـات الإصـلاحيين عليهـا، ومن أدلـة ذلك ما سنراه من دعوات للإصلاح بين الطرفين.

3 ــ مصالح الجزائر المتعلقة بالتوافق:

لقد عرفنا في الفصل الأول أن المجتمـع الجزائـري منـذ قـرون طويلة كان مرتبطا في نواحيه جميعا الدينية والاجتماعية والثقافيـة بـل حـتى السياسـية بـالطرق الصـوفية ارتباطـا شـديدا، ولـذلك اسـتطاع رجـال الطـرق أن يجنـدوا بسـهولة أتبـاعهم لمحاربـة المستعمر، وكان لها السبق في ذلك.

بالإضافة إلى سبقها في الحفاظ على الهوية العربيــة الإســلامية للجزائريين، وقد أقر الإبراهيمي بهـذا ناقـد لـه، فقـال: (ولكن أنّى للأمة الجزائرية باجتماع العلمـاء وتـآخيهم في العلم، وإن الطائفـة التي يطلق عليها هذا الاسم حقيقة أو ادعاء بهذا القطر هي طائفة

---

[1]) علي غنابزية، العلامة إبراهيم العوامر، ص 11.

[2]) آثار الإبراهيمي: 1/188.

متنافرة متنابذة، كأن من كمال العلم عند بعضـها أن يبغض العـالم العالم، ويجفـو العـالم العـالم، شنشـنة مُعْظَم الشـر فيهـا آت من الزوايـا الطرقيـة الـتي تعلم فيهـا أولئـك العلمـاء أو علّمـوا فيهـا، والكثرة الغالبة في علمـاء الجزائـر قبـل اليـوم تعلمت بالزوايـا أو علمت العلم في الزوايا، فمن الزوايا المبدأ وإليها المصـير. وزوايـا الطرق في باب العلم كمـدارس الحكومـات هـذه معامـل لتخـريج المــوظفين، وتلــك معامــل لتخــريج المســبحين بحمــد الزوايــا والمقدسين) [1]

وما ذكره الإبراهيمي كان يدعوه في الأصل كما يـدعو الجمعيـة جميعا إلى استغلال هذه الطاقـات في الطـرق الصـوفية لتوجيههـا لمصلحة البلـد الجـاثم تحت الاسـتعمار، ثم تـترك مسـائل الخلاف بعدها لمحلها الخاص بعد التخلص من العدو المشترك الأكبر.

لكن الجمعيــة لم تكن ترضــى بهــذا، فقــد كــانت تتصــور أن الاستعمار الطرقي أخطر من الاستعمار الفرنسي، بـل إن الشـيخ الطيب العقبي – وهو أكثر الأعضـاء تشـددا في الجمعيـة - عـارض المطالبة بالاستقلال قبل التحرر من الاستعمار الطرقي، فقـد ورد في البصائر تلخيص لخطـاب ألقـاه الشـيخ العقـبي سـنة 1937 م يوضح هذا المعنى، يقول كاتبه: (وبين أنه لا يوافق السـيد مصـالي الحاج ومن معه من الإخوان على فكرة الاستقلال الـذي هـو بعيـد عن الأمـة الجزائريـة، وهي بعيـدة عنـه مـا دامت لم تسـتقل في أفكارها وكل مقومات حياتها، ومـا دامت لا تقـدر أن تحـرر نفسـها من ربقـة بعض المـرابطين واسـتعبادهم لهـا باسـم الـدين فكيـف يطير من لا جناح له ولا ريش)[2]

بل إن بعض كتاب الجمعية كتب في جريـدة (الشـريعة النبويـة) يفضــل المستشــرقين على أصــحاب الطــرق، ففي مقــال تحت عنـوان (الـدّين الإسـلامي بين المبشـرين والمبتـدعين)[3] لكـاتب

---

[1] آثار الإبراهيمي: 1/186.

[2] البصائر: 1/ ع 31 / ص 1.

[3] جريدة الشريعة النّبويّة في عددها السّادس , الصّادر يوم الاثنين 29 ربيع الثـاني 1352 للهجرة الموافق ل 21 أوت 1933.

يدعى (محمد جير فودة) يقول فيه: (لست أذيع سرا إذا ما جاهرت عن يقين ثابت وعقيدة راسخة بأن المسلمين الآن بين شقي الرحى, تضغطهم أعمال المبشرين التي ذاع أمرها واستفاض خبرها, وتصرفات المبتدعين الذين يدخلون في الدين ما ليس منه, ولئن حمدت للأمة اهتمامها بأمر المبشرين وانتهاج الوسائل المؤدية إلى الحد من طغيانهم والقضاء على أغراضهم, فإنه لا يزال عالقا بنفسي أثر سيء مما يأتيه المبتدعون هادما لبنيان الدين, وناقضا لتعاليمه من أساسها, ولو أحسنت الحكومة صنعا لعملت على تحرير الدين مما علق به بفعل جماعة من المسلمين لا يعنيهم من أمر دينهم غير أن تشبع بطونهم وتمتلئ جيوبهم, أولئك على الدين أشد ضررا وأكثر خطرا من المبشرين) [1]

ثم بين وجه تفضيله للمبشرين على الطرقيين بقوله: (ذلك لأن جماعة المبشرين إنما يدعون إلى الخروج على الدين إطلاقا ويروجون لاعتناق دين غيره، وتلك دعوة ينبني على مجرد الجهر بها النفور عنها اللهم إلا عند نفر قليل تدفعهم الحاجة إلى الاستسلام وتغريهم الفاقة بالاستكانة, وهؤلاء لا يلبثون أن يصدوا عن الدعوة ويرجعوا إلى الهدى عندما يرون بأعينهم أن المنشآت التي أعدت لهم بين أهل دينهم ستغنيهم عن التردد على أماكن المبشرين فتكتب لهم النجاة من المهاوي السحيقة التي كانوا على وشك التردي فيها, ولكن ما ظنك بجماعة ليسوا من المبشرين حتى نجتنبهم, ولا يدعون للخروج على الإسلام حتى نتحاشاهم, وإنما هم مسلمون أولا, يلبسون لباس الإسلام, ويتزيون بزيه وجاءوا تحت ستار لباسهم الزائف يجتذبون نفرا من المسلمين, ينفثون فيهم سموم خرافات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان بدعوى أن تلك الخرافات من الدين وأن من لم يتبعها وينسج على منوالهم فيها يبوء بغضب من الله ورسوله ويكون من الكافرين.. لا شك أن هؤلاء أشد ضررا على الإسلام من

---

[1] جريدة الشريعة النّبويّة في عددها السّادس , الصّادر يوم الاثنين 29 ربيع الثاني 1352 للهجرة الموافق ل 21 أوت 1933، ص6.

المبشرين الذين قـدمنا أن معالجـة أمـرهم بـاتت وشـيكة النجـاح, وأن دعوتهم عند الكثيرين لا تصادف ما قدر لها من رواج) (1)

هذا هو التصور الذي طرحته الجمعية وبموجبه كانت تــرفض أي دعوة للصـلح أو تخفيـف الحـدة مـع الطرقـيين، بـل تـرفض حـتى الجلـوس معهم في طاولـة الحـوار، أو العمـل معهم في المتفـق عليه.

ونحب أن نذكر هنا دعوة ملحة قامت بها الطريقة العلاوية الـتي لاقت حربا شديدة من الجمعية، فقـد تكـررت دعواتهـا للمصـلحين بالاجتمـاع معهـا على الأهـداف المشـتركة، وتـرك الخلاف لمحلـه الخاص به، سواء قبل تأسيس الجمعية أو بعدها.

ومن الأمثلــة على ذلــك البلاغ الــذي نشــرته صــحيفة البلاغ الجزائري، والذي تـدعو فيـه إلى (رفض الطعن في أي طبقـة من طبقات الأمة وفي أي مذهب من مذاهبها، ما دام لا أحد يمكنه نيل إجماع الأمة، فيكون محـل ثقتهـا ومرجعيتهـا الوحيـدة، والكـل في دعواه ومذهبه يدعي الاستناد إلى القـرآن والسـنة وإجمـاع الأمـة، وعليه فلم يبق إلا أن نحسن الظن ببعضنا بعضـا مراعـاة لمصـالح الأمة فمن صلاح الأمة وإصلاحها أن لا يتسـاهل في تنقيص سـلفها ولا يمس بسوء أي مذهب من مذاهبها ما دام الجميـع متحـدا على كلمـة الإخلاص وإقـام الصـلاة وإيتـاء الزكـاة وصـوم رمضـان وحج البيت وإن اختلفوا فيما عدا ذلك من الفروع) (2)

وفي محل آخر كتبت نفس الصـحيفة تتسـاءل: (مـا الـذي يمنـع الناس من الاتفـاق والتعاهـد على تأسـيس الأنديـة والتعاضـد على تأسـيس الأنديـة للاجتمـاع والمـدارس الخصوصـية لتعليم العربيـة وآدابها الراقية ونشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة.. كمـا تسـاءلت عن ما يمنع الناس من صرف أموال الولائم والمآتم والموائد والزوائــد في تعليم أبنائهم القراءة والكتابة والحسـاب وفـق النظم الحديثـة

---

[1] المصدر السابق، ص6.

[2] الإدارة: البلاغ، البلاغ الجزائري،ع: 19، مستغانم: 4 ذي القعـدة 1345، الموافـق لـ 6 ماي 1927، نقلا عن أضاميم المد الساري، ج 1، ص 60.

المعمول بها في العالم) [1]

وقد كان هذا - على حسب اطلاعنا - سلوك شيخها عبر رسـائله ومقالاته وكل ما نشر له، فلم نـر منـه إلا الـدعوة لتوحيـد الجهـود للإصلاح، ونبذ التعصب والخلاف، ولعـل من أهم مواقفـه في هـذا، إرساله في احتفال للطريقة سنة 1928، دعوة خاصة إلى العلماء الإصلاحيين بلغته البسيطة يقول فيها: (إليكم أيها السـادة الكـرام، والعلماء الأعلام، أوجه خطـابي وأنهي كلامي، بصـفتكم داعين إلى الكتاب وسنة رسول الله ﷺ، ويا ما أسعدنا وأسعدكم بإقامة هاتـه الـدعوة، والعمـل على مـا تقتضـيه التقـوى، وطالمـا تكـررت على مسامعنا وأسماع غيرنا، وها هو قد هيأ اللـه لنـا أسـباب الاجتمـاع، وطرق الانتفاع، بحلول اجتماع العلويين المقبل، فهيا نشـد العضـد ببعضنا، للتمييز بين الصحيح والفاسد، فهيا بنا نتحد على ما يوافـق صريح النقول، ثم نتفاهم فيما وراء ذلك بما هـو معقـول، فهيـا بنـا نمد لبعضنا يد المسـاعدة، فيمـا نـراه صـالحا لنفـع الأمـة، ومفيـدا لتشييد صروح الملة. فهلم لتنظروا أحوال إخوانكم العلـويين، ومـا هم عليـه في اجتماعـاتهم وتـذكيراتهم، فـإن كـانوا على الجـادة والصراط المستقيم، تشكروهم وتوازروهم وتتخـذوهم عضـدا وان كانوا على غير ذلك فذكروهم بـألطف عبـارة وارق أسـلوب..فهلم إلينا نتفاوض فيما يزيل من بيننا تلك الفوارق القاضية على جمعنـا ومجموعنا، فهلم إلينا ننهي دور القول، ونشرع في دور العمل)[2]

لكن الإصلاحيين للأسـف لم يقبلـوا هـذا، إلا أن الشـيخ أبـا يعلى الـزواوي خـالفهم في ذلـك، وقـد انتقـد انتقـادا شـديدا من الجمعية بسببه.

ومما ذكره في شهادته على استعداد الطرقيين للإصلاح والحوار قوله: (صاحبي ابن عليوة..أشـهد الآن بين يـديكم أني مـا عرضـت وما أمرت ولا نهيت الشيخ العليوي إلا استحسن وسلم حتى قـال: إن حملاتك إن كانت علينا مقبولة وإن كـانت لنـا فهي أحسـن لنـا،

---

1) (الإصلاح الإصلاح)، البلاغ الجزائـري، ع: 68، مسـتغانم: 14 ذي القعـدة 1346-4 ماي 1928. .

2) عدة بن تونس : الروضة السنية، المطبعة العلاوية، مستغانم، ص 66.

ويخاطبني قائلا: إنك بنظريتـك السياسـية والاجتماعيـة ننقـاد إليـك ونعمل بإشارتك، وما زال ومـا زلت طامعـا في، وطامعـا فيـه، أي بأن نتفق على كتاب الله وسنة رسوله، وصرح لي أمـام جمـع أنـه إذا ظهر لكم – معشر الإخوان- في الـدين والـوطن والجنس – أن نتفـق على جميـع مـا يخص المسـلمين والوطنـيين ... ولم أر ولم اسـمع من غـيره من الشـيوخ الـذين عـرفتهم إلا الصـدود وتعـير الخدود ومقتي بأني كافر بهم وببدعهم، وقلت لكم وما زلت أقـول أنه – أن الشيخ ابن عليوة يقول لكم: (مروا جميع رؤسـاء الطـرق لنجتمع ونتفق على الموافق للكتاب والسنة وللأمة)[1]

ويذكر أبو يعلى الزواوي أن الشيخ ابن عليـوة كـان يـرى أن (لا نهوض لأمتنا إلا بتوحيد التربية والتعليم وتعميمهمـا، فينشـأ النشـء الجديـد على دين واحـد، ومـذهب متحـد في النهضـة والإصـلاح، لتتقرب المدارك والمقاصد، وتكون التعـاليم صـحيحة ذات تسـامح ديـني، وذات اجتمـاع وحسـن العشـرة والمعاملـة مـع الموافـق والمخالف في الدين؛ ذلك أن أوروبا وأمريكا مخالفون لنا وغالبون متقدمون علينا، ولا مـانع لنـا من الـدين أن نقسـط إليهم ونـبرهن لهم بأن ديننا دين مدنية، وعشرة، ومساعدة، ولا إكراه فيه...)[2]

---

[1]) أحمد حماني: صراع بين السـنة والبدعـة، دار البعث، قسـنطينة: 1984، ط 1، ج 2، ص 71.

[2]) أحمد حماني: صراع السنة والبدعة، ج 2، ص 79.

المطلب الثاني: مرحلة الخلاف وأسبابها:

يصور رجال الجمعية ومن وافقهم، وهم أكثر الباحثين والكتـاب، حادثة الانشقاق التي حصلت بين الجمعية والطرق الصوفية بنـادي الترقي يوم 23 ماي 1932 على أنها حادثة مشؤومة كـان الهـدف منها هو استيلاء الطرقيين على الجمعية لخدمة مآربهم.

وقد عبر الزاهري - الذي كان حينها عضوا إداريا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقبل انشقاقه هو الآخر عن الجمعيـة - عن ذلك بعد سنة من حصوله، فقـال: (كـان يـوم 23 مـاي من السـنة الماضية من أشد الأيام على هذا الوطن شؤما وسوادا, ففيه جمـع المفسـدون أمـرهم وشـركاءهم ثم تقـدموا إلى جمعيـة العلمـاء المسـلمين فأثـاروا عليهـا غـارة شـعواء, من الشـغب والفوضـى وأرادوا بها كيدا فكانوا هم الأخسرين)[1]

ثم حكى القصة بتفصيل، ونحن – مع عدم ثقتنا المطلقة بكل ما ذكره فيها من أحداث- نذكرها هنا كما ذكرها لاعتبارين:

الأول: أن مـا ذكـره ليس أحـداثا سـردية فقـط، كمـا يـذكر المؤرخـون الأحـداث عـادة، وإنمـا هـو يـذكر الأحـداث الظـاهرة، ويحللها، ويبني على تحليلاته بعد ذلك ما يشاء، ونحن لا نعتب عليه تحليله للأحداث، ولكن نعتب عليه تحليل الأحداث من خلال التوجه الفكري والمذهبي، لا من خلال ما توحيه الأحداث نفسها.

والثاني: أن أكـثر من اطلعنـا عليـه من البـاحثين يأخـذون مـا ذكره مأخذ الجد والصواب الذي لا يمكن أن يرد أو يرفض، ويبنون على ذلـك بـأن الطـرق الصـوفية بـوحي من الاسـتعمار أرادت أن تسيطر على الجمعية لتخدم من خلالها المشاريع الاستعمارية.

بناء على هذين الاعتبارين نسـرد الحـدث كمـا سـرده الزاهـري، حيث ذكر أنه في نحو الساعة السادسـة من صـباح يـوم 23 مـاي 1932 مضى بعض الإصلاحيين من علمـاء الجمعيـة إلى دار إحـدى الجمعيات في الجزائر (العاصـمة) , (فوجـد هنالـك جموعـا غفـيرة من الناس قـد تجمهـروا أمـام الـدار, وتجمعـوا داخلهـا حـتى ملأوا صحنها وغرفها وحجراتها، فظن أنه أمام مكتب من المكـاتب الـتي

[1] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريـدة الشـريعة النبويـة، السـنة الأولى، العدد الثاني، قسنطينة يوم الاثنين 01 ربيع الثاني 1352، ص6.

يفتحها المترشحون لأحد الانتخابات لشراء الأصوات!! ودخل الـدار فوجد أن شـيخ الحلـول[1] قـد جلس في صـدر المجلس على هيئـة بـارزة تسـتلفت إليـه الأنظـار, وكـان مريضـا مثقلا لا يسـتطيع أن يجلس طـويلا فأحيـط - لـذلك - بكثـير من المسـاند والوسـائد والمخدات, وكان إلى جانبـه ثلاثـة أشـخاص يوزعـون على النـاس الأوراق والوصولات، أما الوصـولات فكـانت زائفـة مصـطنعة وهي من الفئـة ذات العشـرة فرنكـات الـتي تعطيهـا جمعيـة العلمـاء أعضاءها العاملين الذين لهم حـق الانتخـاب, وأمـا الأوراق فكـانت تشـتمل على قائمـة بأسـماء الـذين رشـحوا أنفسـهم لكي يكونـوا أعضاء المجلس الإداري لجمعيـة العلمـاء المسـلمين، وهم ليسـوا بعلماء ولكن كانوا لأنفسهم يظلمون)[2]

ونحب أن ننبه هنـا إلى أن أسـاس الخلاف الإداري الـذي حصـل بين الجمعية والطرق الصوفية انطلق من تصور كلا الفريقين لنوع التعليم الذي يسمح لصاحبه بأن يكـون عالمـا، فللجمعيـة تصـورها في هذا، وللطرق الصوفية تصورها الخاص.

بـل إن هنـاك من أعضـاء الجمعيـة من اختلـف معهـا في هـذا التصور، وهو الشيخ أبو يعلى الزواوي الذي حصلت مناوشات بينـه وبين الجمعيـة بسـبب ذكـره في بعض مقالاتـه أن في الطـرق الصوفية علماء، وسنرى ذلك عند ذكر المواقف الشخصية لأعضـاء الجمعية.

بناء على هذا يذكر الزاهري أن الإصلاحي فـوجئ بتلـك القائمـة وتقدم – كما يذكر – (من شيخ الحلـول وعاتبـه على هاتـه الأوراق والوصولات الزائفة التي يوزعها مجانا بلا أدنى مقابـل على الـذين لم تتوفر فيهم الشروط التي تؤهلهم لكي يكونوا بجمعيـة العلمـاء أعضاء عاملين)[3]

ويـذكر الزاهـري هنـا نص الحـوار الـذي جـرى بينهمـا بطريقتـه الأدبية الفنية، وهي نفس الطريقة التي كتب بها قصـته المشـهورة

---

[1] يقصد أعضاء الجمعية في كتاباتهم بشيخ الحلول عـادة (الشـيخ ابن عليـوة)، وقـد يقصدون به كذلك غيره من رجال الطرق الصوفية، وخصوصا الحافظي.

[2] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

(اعترافات (طرقي) قديم) [4]، والتي لا يمكن التسليم بكل ما ذكــر فيها مطلقا أيضا باعتبارها أميل إلى الجانب الأدبي الفني منها إلى الجانب التأريخي.

حيث يذكر أن الإصلاحي خـاطب الطـرقي الحلـولي بقولـه: (إن هذا هو عمل من يسعى لهـدم هـذه المؤسسـة المباركـة الـتي لم يخلـــق مثلهـــا في البلاد, ومـــا ينبغي لـــك - وأنت في شـــيبتك وشـــيخوختك - أن تكـــون في يـــد (فلان) آلـــة من آلات الهـــدم والتخـريب والإفسـاد, على أن هـذه الجمعيـة هي جمعيـة علمـاء, وليست جمعية متصوفة ولا جمعية أشياخ طرق, فمـا يكـون لـك - أنت المتصوف - أن تدخل فيها!)

فيرد عليـه الطـرقي، أو كمـا يحلـو للزاهـري أن يسـميه (شـيخ الحلـول): (إن بيـني وبين الشـيخ ابن بـاديس عـداوة شـديدة مـا أنساها لـه أبـد الـدهر, وأمـا العلمـاء الآخـرون فليس بيـني وبينهم شيء إلا أنهم أصحاب الشيخ بن باديس وإخوانه)

فيسأله الإصلاحي: وماذا بينكما؟

فيجيب الطـرقي، وهـو يقصـد الشـيخ ابن عليـوة نفسـه: كنت نشرت كتابا واستشـهدت فيـه ببعض الأحـاديث النبويـة الـتي قلت عنها أنها واردة في صحيح البخاري وصحيح مسلم، والحقيقـة أنهـا لم تـــرد لا في البخـــاري ولا في مســـلم, وإنمـــا أنـــا الـــذي غلطت وأخطـأت, فمـا كـان من الشـيخ بـاديس إلا أن نشـر في الشـهاب انتقادا شديدا فضحني فيـه، وحـط من قيمـتي بين أتبـاعي وأظهـر أغلاطي وأخطائي، أو قل أظهر للناس أكاذيبي.

فيجيبـــه الإصـــلاحي: لـــو لم تكن أنت نشـــرت كتابـــك محشـــوا بالأغلاط والأخطاء لكان حقا لك على الشيخ ابن بـاديس أن يسـتر عليك جهلك، وأن لا يفضحك أمام النـاس، أمـا وقـد طبعت كتابـك ونشرته بين الناس فمن واجب الشيخ بن بـاديس ومن واجب كـل عالم يغار على السنة النبوية أن يصحح أغلاطك وأخطـاءك للنـاس حتى لا يضلوا بها؛ وعلى كل حال فهذه مسألة شخصـية لا يحسـن

---

[3] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

[4] سنحلل القصة ومحتوياتها في الفصل الخاص بأساليب الجمعية في التعامل مـع الطرق الصوفية.

بك أن تتخذها حجة وذريعة لهدم هذا المشروع العمومي العظيم.

وهنا يذكر الزاهري - على طريقتـه في الأسـلوب الـذي لا يمكن التمييز فيـه بين الحقيقـة التاريخيـة، والتعبـير الأدبي الفـني - بـأن (شـيخ الحلـول - تحـرك- من مكانـه وتحلحـل, ثم قـال في لهجـة الواثق بنفسـه: (فـات الحـال! لا بـد لنـا أن نسـتولي على جمعيـة العلماء، ولا بد أن نطرد عنها كل عالم من العلماء وكل طالب من طلبة علم, ولا بد أن تكون هذه الجمعية خالصة لنا من النـاس، ولا يمكن لنـا بحـال أن نرجـع عن محاربـة جمعيـة يرأسـها الشـيخ بن باديس) [1]

بعد هذا، وبعـد ذكـر الزاهـري أنـه اسـتطاع أن يكتشـف بـأن رجال الطرق الصوفية قدموا رشاوى للناخبين لأجل أن ينتخبـوهم، ذكر أنه - وبحلول الساعة التاسـعة من صـباح ذلـك اليـوم – افتتح ابن باديس الجلسة الأولى من جلسات الاجتماع العمومي لجمعيـة العلماء بخطاب وصفه الزاهري بكونه (آية من آيات البلاغـة، وجـاء جامعـا لكـل معـاني الموعظـة والـذكرى, فخشـعت لـه القلـوب وفاضت له الأعين من الدمع، ولكن الذين طبـع اللـه علـة قلـوبهم فلا تنفع فيها الذكرى, وجعل في آذانهم وقرا فهم لا يسـمعون قـد كرهوا هذا الخطاب وقالوا: لا تسمعوا له والغوا فيه لعلكم تغلبون, فهاجوا وماجوا, وأكـثروا من اللغـط والضوضـاء, وكـانوا مـأجورين على أن يحدثوا في هذا اليوم الفتنة والشغب والفوضى) [2]

ويذكر الزاهري كيف بدأ الشيخ ابن عليوة حديثه - متهكمـا بـه - بقوله: (وانتصب (الجاهل الأمي) كزعيم لهؤلاء المشـاغبين وجعـل (يروث من فمه) ويسيء الأدب بحق هذا الاجتماع الحافل بالعلماء والأعيان, وكان الأستاذ باديس يخاطبه قائلا: (يا سيدي فلان) بكـل هذا اللطف والأدب, ولكنه هو كان يقول للـرئيس: (يـا ابن بـاديس (أي بضم نون ابن) فكان العلماء يضحكون من جهل هذا المخلوق,

---

[1] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

[2] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

ويعجبون من وقاحته وقلة حيائه, وكان كل واحـد إذا أراد أن يتكلم رفع يده وطلب من الرئيس أن يأذن لـه بـالكلام إلا هـذا المخلـوق فإنـه كـان يتكلم بلا اسـتأذن ونصـب نفسـه للـرد على كـل أحـد وللجواب عن كل كلام, وكان يقول الكلمات الجارحة حتى اضطره الرئيس مرارا عديـدة إلى أن يسـحب كلامـه وأن يبـادر بالاعتـذار, وذات مـرة أراد أن يكـون نظاميـا متأدبـا لا يخـرق سـياج الأدب والنظام، فرفع يده وقال للـرئيس: (أطلِيب الكلام) (بضـم الهمـزة وكسـر اللام الممـدودة) فلج الحاضـرون في الضـحك وقضـوا من العجب)[1]

بهذا الأسلوب التهكمي الساخر ذكر الزاهري أخطر حدث حصل في تـاريخ الجمعيـة، وهـو يشـير إلى مـا كـان يغلب على أعضـاء الجمعية من تقديم أصحاب اللسان والفصـاحة والبلاغـة باعتبـارهم وحدهم العلماء، أما من كان ضعيفا في هذه النواحي، فهو عنـدهم جاهل أمي يستحق أن يضحك عليه ويسخر منه.

ونـرى بوضـوح - أيضـا- كيـف أنـه ذكـر سـوء أدب الطرقـيين ومشاغبتهم، مع عدم ذكره ما شاغبوا به وما شاغبوا لأجله، وغفـل في نفس الـوقت عن ذكـر سـوء أدب الإصـلاحيين الـذين يتتبعـون سقطات الألسن، فيمتلئون منها ضحكا، ويقضون منها عجبا.

والأعجب من هذا كلـه أن الزاهـري المعـروف بنقلـه للحـوارات المفصلة لم يذكر ما قاله هذا (الجاهل الأمي) بزعمه، حتى نعـرف أساس الخلاف، وإنما اكتفى بكونه لا يعرف كيف يعـرب المنـادى، في نفس الوقت الـذي كـان فيـه كلام ابن بـاديس (آيـة من آيـات البلاغة)، وكـأن الجلسـة كـانت جلسـة مبـاراة في الكلام لا جلسـة للبحث عن الحلول التي تصلح بها أحوال الأمة.

بعـد هـذا التعقيب الـذي رأينـا أنفسـنا مضـطرين لـذكره[2] ذكـر الزاهري كيـف أن (القـوم – أي رجـال الطـرق الصـوفية- تواصـوا بالشـر, وتواصـوا بـالمكر, واتفقـوا فيمـا بينهم على أن يشـاغبوا

[1] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

[2] باعتبار أن أكثر الباحثين للأسف يمرون على الأحداث مرور الكرام، بل يسلمون لما قاله باعتباره الحق المطلق.

ويغلطــوا إذا تكلم الأســتاذ بن بــاديس أو غــيره من العلمــاء, وأن يتظاهروا بالقبول والرضى إذا تكلم واحد من خمسة من أصحابهم قد عينـوهم للكلام في هـذا الاجتمـاع, وقـد لقنهم بعض النـاس أن يقولوا (صواب, صواب) لكل متكلم من هؤلاء الخمسة)[1]

ولم يذكر الزاهري مصدره على هذه المعلومة، ولم يـذكر معهـا كذلك ما قاله هؤلاء الطرقيون لنرى هل كان مـا قـالوه صـوابا، أم لم يكن كذلك.

والأغـرب من كـل هـذا أن الزاهـري أديب الجمعيـة وشـاعرها استطاع أن يلج في صدور أولئك الطرقيين ليتعرف على المقاصـد الخسيسـة الـتي يحملونهـا للجمعيـة، فهم – كمـا يـرى الزاهـري- (يحملـون في صـدورهم لجمعيـة العلمـاء أسـوء المقاصـد, وأخبث النوايا)، وهم (يريدون أن يستولوا على جمعية العلمـاء، وإلا فـإنهم عزموا على إحداث فتنة عمياء تسيل فيها الدماء, وحينئـذ يمكنـون للحكومة أن تحل الجمعية وأن تغلق نـادي الـترقي, ولكنهم خـابوا في كلتا الأمنيـتين {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَـالُوا خَيْـرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [الأحزاب: 25])[2]

هذا ما ذكره الزاهري عن الحادثة بعـد مـرور سـنة عليهـا، وقـد رأينا أنه - للأسف – لم يذكر ما جـرى في ذلـك الجمـع، ومـا قالـه الطرفان، وأن كل ما ذكره مجرد تحامـل خطـابي على الطرقـيين ورميهم إما بالمقاصد الخسيسة، وإما بالعي والحصر وعدم القدرة على البيان والبلاغة شأن رجال الجمعية الإصلاحيين.

ونفس الأمــر يكــاد يــذكره – ولــو بصــياغة أخــرى أكــثر أدبــا- الإبراهيمي، فهو عنـد استعراضـه لـذلك المجلس المشـؤوم الـذي تصدع فيه شمل الجمعية، لم يذكر ما قيـل ومـا حصـل بالتفصـيل، وإنما اكتفى بذكر قدرات الإصـلاحيين مقارنـة بقـدرات الطرقـيين، ونيات المصلحين وأغراضهم مقارنة بنيات الطرقيين وأغراضهم.

فتحت عنوان (جمعية العلماء حقيقة واقعـة) كتب يقـول: (رأيت

[1] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

[2] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

الآن أن السر في تأسيس جمعية العلماء بتلك السهولة وبتلك المحاولة الهينة هو استعداد الأمة لظهور هذا المشروع العظيم فيها. فانقادت إليه بشعرة، وانجرت إلى بناء صرحه بنملة، وعلمت مما أجملناه لك من مراحل هذا المشروع أن الشعور به كان من نصيب طبقات مخصوصة وهم المتأثرون بالإصلاح، وفي ناحية محدودة من القطر وهي إقليم قسنطينة، ثم تغلغل في الأقاليم الثلاثة في بضعة أعوام وتحوّل التفكير في مكان التأسيس من قسنطينة التي هي الجناح إلى الجزائر التي هي القلب، ومعنى هذا كله أن الأمة الجزائرية استيقنت سفه الأيدي التي كانت تقودها باسم الدين فصممت على التفلت منها وإلقاء المقادة إلى أيدي العلماء لتبتدئ السير في نهضتها على هدى وبصيرة، فقالت للعلماء اجتمعوا فاجتمعوا)[1]

بهذا الحكم المبدئي الذي ينطلق من تبيان الأثر الكبير للإصلاحيين، وخصوصا من كان منهم في إقليم قسنطينة، ينطلق الإبراهيمي ليعتبر أن كل من لم يكن من هذين الصنفين، فلا حق له في التفكير في الإصلاح، أو لا طاقة له في التفكير فيه.

وبشدته المعروفة يتحدث كيف أن قوة الإصلاحيين استطاعت أن تدحر أولئك الطرقيين أصحاب النيات السيئة واللسان الكليل في أول جلسات الجمعية، يقول في تأريخه لذلك: (لم يكن تأسيس جمعية العلماء المسلمين خفيف الوقع على الجماعات التي ألفت استغلال جهل الأمة وسذاجتها وعاشت على موتها، ولكن التيار كان جارفًا لا يقوم له شيء، فما كان من تلك الجماعات إلّا أن سايرت الجمعية في الظاهر وأسرت لها الكيد في الباطن، وكان المجلس الإداري الذي تألف بالاختيار في السنة الأولى غير منقح ولا منسجم لمكان العجلة والتسامح، فكان من بين أعضائه أولو بقية يخضعون للزوايا وأصحابها رغبًا ورهبًا، وكان وجودهم في مجلس الإدارة مسليًا لشيوخ الطرق ومخففًا من تشاؤمهم بالجمعية لسهولة استخدامهم لهم عند الحاجة، فإما أن يتخذوهم أدوات لإفساد الجمعية وإسقاطها، وإما أن يتذرعوا بهم

---

[1] آثار الإبراهيمي: (1/187)

لتصريفها في مصالحهم وأهوائهم)[1]

مـع العلم أن هـؤلاء الـذين ذكـرهم الإبـراهيمي، والـذين كـانوا أعضاء في الجمعية أول تأسيسها لم يكونوا أقل شأنا في النواحي العلمية والأدبية من الإصلاحيين أنفسهم، فالشيخ مولود الحـافظي -كمـا سـنرى -كـان عالمـا أزهريـا يحمـل الكثـير من المشـاريع الإصلاحية التي لا تقل شأنا عن المشاريع التي حملتها الجامعية.

ومـع ذلـك فإنـه - في تصـور الإبـراهيمي - لم يـرق إلى مرتبـة الإصلاحيين باعتباره خاضعا للزوايا رغبة أو رهبة بخلاف المصلحين الـذين (صـرحوا من أول يـوم بـأنهم سـائرون بهـذه الجمعيـة على المبدأ الـذي كـانوا سـائرين عليـه من قبلهـا، ومنـه محاربـة البـدع والخرافات والأباطيل والضلالات ومقاومة الشر من أي ناحية جاء) [2]

ويـــذكر الإبـــراهيمي نفس مـــا ذكـــره الزاهـــري من قـــدرات الإصلاحيين مقارنـة بقـدرات غـيرهم، وكيـف أنـه (انقضـت السـنة الأولى.. وبدأت الأعمال تظهر مراتب الرجال، فاضطلع المصلحون وحدهم بالأعمال التمهيدية- وما هي بالحمل الخفيف-) [3]

ولعل الإبراهيمي يشير هنا إلى ما ذكره في موضع آخـر، فقـال: (كلّفني إخـواني أعضـاء المجلس الإداري في أول جلسـة أن أضـع للجمعية لائحة داخليـة نشـرح أعمالهـا كمـا هي في أذهاننـا لا كمـا تتصوّرها الحكومة وأعوانها المضلّلون منا، فانتبذت ناحية ووصـلت طرفي ليلة في سبكها وترتيبهـا، فجـاءت في مائـة وسـبع وأربعين مـادة، وتلوتهـا على المجلس لمناقشـتها في ثمـاني جلسـات من أربعة أيـام، وكـان يحضـر الجلسـات طائفـة كبـيرة من المحـامين والصحافيين العرب المثقفين بالفرنسية، فأعلنوا في نهايـة عـرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات، وأنهـا أصـلح لغـة لصـوغ القوانين ومرافعات المحامين، وكأنما دخلوا في الإسـلام من ذلـك اليوم، وخطب الرئيس عند تمام مناقشة اللائحة وإقرارها بالإجماع

---

[1] آثار الإبراهيمي: (1/188)

[2] آثار الإبراهيمي: (1/188)

[3] آثار الإبراهيمي: (1/188)

خطبة مؤثّرة أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان مما قال: عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضلّ في دين أو يخزى في دنيا، أو يذلّ لاستعمار. ثم خاطبني بقوله: وري بك زناد هذه الجمعية)[1]

ولسنا ندري ما الحرج في أن يضطلع الإصلاحيون وحدهم بالأعمال التمهيدية ما دامت لهم القدرة على ذلك، بل إن في ترك الطرقيين للإصلاحيين وحدهم الحرية في الاضطلاع بهذا الجانب وعدم مزاحمتهم فيه دليل على حسن النية، لا على سوئها.

لكن الأمر من وجهة نظر الإبراهيمي لم يكن كذلك، ويستدل على ذلك بأن الطرقيين في السنة التالية أرادوا – وعبر الانتخابات التي نص عليها قانون الجمعية – أن يكون لهم مكان في ريادة الجمعية، ولا ينبغي لهم – على حسب الإبراهيمي – أن يحلموا هذا الحلم أو يفكروا هذا التفكير.

يقول الإبراهيمي – بلغته الأدبية – مصورا الحادثة، باعتبارها مؤامرة خبيثة، لا باعتبارها حقا قانونيا لكل منتسب للجمعية: (ولما جاء أجل الانتخاب للدورة الثانية هجم العليويون ومن شايعهم على ضلالهم تلك الهجمة الفاشلة بعد مكائد دبروها، وغايتهم استخلاص الجمعية من أيدي المصلحين، وجعلها طرقية عليوية واستخدامهم هذا الاسم الجليل في مقاصدهم الخاطئة كما هي عادتهم في إِلباس باطلهم لباس الحق، ووقف المصلحون لتلك الهجمة وقفة حازمة أنقذت الجمعية من السقوط ومحصتها من كل مذبذب الرأي مضطرب المبدأ، وتألف المجلس الإداري من زعماء الإصلاح وصفوة أنصاره، ورأى الناس عجيب صنع الله في نصر الحق على الباطل)[2]

بالإضافة إلى هذين التأريخين للحادثة نجد تأريخات كثيرة سواء من أعضاء الجمعية المباشرين، أو ممن يوالونها ولاء مطلقا، ونراها جميعا تنهج نفس النهج من الشدة والعنف واعتبار الآخر متآمرا وعميلا، ولا طاقة له بالإصلاح، ولا غرض له فيه.

وهؤلاء جميعا يتناسون حدثا مهما وخطيرا حصل في ذلك اليوم، لا ينبغي للمؤرخ النزيه أن يتركه، ثم له بعد ذلك أن يبرره بما شاء

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/281)

[2] آثار الإبراهيمي: (1/188)

من المبررات.
وهذا الحدث الخطير هو أن الشيخ عبد الحميد بن باديس – باعتباره رئيس الجمعية- وبعد أن رأى أن الجو لم يعد مناسبا بسبب ما حدث من فوضى الجانبين قام باستدعاء الشرطة إلى نادي الترقي للمحافظة على الأمن، وقد انتقد في ذلك نقدا لاذعا وليم على استدعاء الشرطة (الفرنسية طبعا) لفض تنازع العلماء، لكن ابن باديس دافع عن الشرطة بحرارة[1].
وكان من ضمن ما قال في دفاعه: (ارتباط الجزائر بفرنسا اليوم صار من الأمور الضرورية عند جميع الطبقات، فلا يفكر الناس اليوم إلا في الدائرة الفرنسية، ولا يعلقون آمالهم إلا على فرنسا مثل سائر أبنائها ورغبتهم الوحيدة كلهم هي أن يكونوا مثل جميع أبناء الراية المثلثة في الحقوق كما هم مثلهم في الواجبات وهم إلى هذا كله يشعرون بما يأتيهم من دولتهم مما يشكرونه ومما قد ينتقدونه وقد كنا نؤكد لهم هذا التعلق ونبين لهم فوائده ونبين لهم في المناسبات أن فرنسا العظيمة لا بد أن تعطيهم يوما- ولا يكون بعيداً- جميع ما لهم من حقوق وكنا لا نرى منهم لهذا إلا قبولا حسنا وآمالاً طيبة)[2]
وقد دافع سعد الله عن هذا الموقف الحرج الذي وقع فيه ابن باديس والجمعية، فقال: (ومن هنا يتضح أن موقف العلماء لم يكن سهلا، فقد كانوا يمشون على البيض كما يقول المثل الأجنبي، فهم من جهة كانوا يريدون تحقيق مبادئهم وأهدافهم بأية وسيلة مشروعة، ومن جهة أخرى كانوا واقعين تحت طائلة إجراءات استثنائية مستعدة لعرقلة سيرهم، بل وضعهم في قفص الاتهام، لذلك كانوا يناورون ما وسعتهم الحيلة والمناورة ويجاملون ولكنهم لا يتنازلون عن مبادئهم، ومن أجل ذلك اصطدموا مرات

---

[1] انظر: الشهاب، ج 8، م 8، ص 401 - 409 غرة ربيع الأول 1351ه - أوت 1632م، وانظر: آثار ابن باديس: 4/321.
[2] الشهاب: ج 8، م 8، ص 401 - 409 غرة ربيع الأول 1351ه - أوت 1632م، وانظر: آثار ابن باديس: 4/321.

بالإدارة)[1]

بنــاء على هــذا نحــاول في هــذا المطلب أن نتلمس الأســباب الحقيقيــة في هــذا الانشــقاق بعيــدين عن منطــق قــراءة مــا في الصدور، ملاحظين الواقع من حيثياته المختلفة.

وقد رأينا أنه يمكن إرجاع أسباب ما حصــل إلى خمســة أســباب نلخصها فيما يلي:

أولا ــ الأحداث السابقة على تأسيس الجمعية:

وهي أحداث كثيرة كانت ممتلئة بالصراع بين الجمعيــة والطــرق الصوفية، ذكرها الإبراهيمي فقال: (وقــد لقيت – أي الجمعيــة- في تاريخ حياتها خصومات عنيفة وواجهت خصومًا أقويــاء، وكــانت في جميع ذلــك مظلومــة واحتملت من الأذى والكيــد والعــدوان والتهم الباطلة ما تنوء به الجبال)[2]

بغض النظر عن مدى صدق كــون الجمعيــة لهــا المظلوميــة في كل ما ذكر من أحداث أم لا إلا أن ذلك كان مؤثرا تأثيرا كبــيرا في علاقتها بالطرق الصوفية بما حصل بعــد ذلــك من صــراعات كــانت تظهر كل حين.

وكمثــال على تلــك الأحــداث نــذكر هنــا أكــبر حادثــة ســبقت التأسيس، وكان لها دورها الفاعل في توسيع الهــوة بين الجــانبين، وهي اتهام الجمعية للطرق الصوفية بمحاولــة اغتيــال ابن بــاديس، وما أثارته من ضجة كبرى، وما أسالته من حبر كثير[3].

ونحب أن نــذكر ببعض التفصــيل[4] هــذه الحادثــة لنقرأهــا قــراءة واقعية بعيدة عن التحليل الذي ينطلق من توجيــه الاتهــام من غــير توفر الأدلة الكافية.

والحادثة قد تم تدوينها بكــل تفاصــيلها في مجلــة الشــهاب عــام 1926 م بقلم ابن بــاديس ومبــارك الميلي بالإضــافة إلى صــحيفة

---

[1] الحركة الوطنية: 3/93.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 268)

[3] سنتعرض لهذا بتفصيل عند الحديث عن أسلوب المواجهة العاطفية الذي مارسته الجمعية مع الطرق الصوفية.

[4] انظر: محمــد الصــالح بن عــتيق، أحــداث ومواقــف في مجــال الــدعوة الإصــلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، ص 60.

(لاديباش دو كونستونتين) في عددها الصادر يوم 30 جويلية 1927 م بقلم صحفي فرنسي رمز لاسمه بالحرفين (ن.ل)، وكتب عن الحادثة بتفصيل الأستاذ الأمين العمودي وعاد إلى تدوينها الشيخ محمد الصالح بن عتيق والشيخ أحمد حماني في كتابه (صراع بين السنة والبدعة) الذي خصصه للحديث عنها، وللحديث عما أفرزته من كتابات وخطابات وأشعار كثيرة.

وقصة الحادثة هي أنه في يوم 14 ديسمبر 1926 م عندما كان ابن باديس عائد إلى بيته بعد منتصف الليل، كمن له الجاني – وهو فقير علاوي من زاوية الجعافرة وصفته الشهاب بأنه (ابن ملجم) القرن العشرين- في منحدر (مايو)، وأقدم على تنفيذ محاولة اغتياله، فلما دنا منه هوى عليه بهراوة وأصابه بضربة على رأسه وصدعه، فشج رأسه وأدماه، لكن ابن باديس استطاع، وهو الضعيف النحيل، أن يمسك به، بل ويصعد به في الدرج إلى الطريق العام[1]، ويصيح مستغيثا فتبلغ صيحته جماعة كانت بمكان قريب منه، فيهرعون إليه.

أما الجاني فقد أمسكت به جماعة النجدة وساقوه إلى الشرطة فأوقفته وفتشته فوجدت عنده سبحة وتذكرة ذهاب وإياب بتاريخ ذلك اليوم (من مستغانم إلى قسنطينة) زيادة على الخنجر والعصا، واتضح أثناء التحقيق أنه من سكان برج بوعريريج ومن منطقة جعافرة – وهي أحد معاقل العلاويين – وكان اسمه (محمد الشريف مامين)، واعترف أنه كان يريد القضاء على ابن باديس بدعوى أنه يحارب الإسلام ولا يعترف بكرامات أولياء الله الصالحين، وأنه مبعوث خاص من الزاوية العلوية بمستغانم لأجل قلته.

وقد قام بالتحقيق في القضية قاضي الاستنطاق (أودوانو) من محكمة قسنطينة الذي أمر بتحويل الجاني إلى محكمة الجرائم التي أصدرت في شأنه الحكم بخمس سنوات سجنا رغم أن ابن باديس عفا عنه في المحكمة قائلا : (إن الرجل غرر به، لا يعرفني ولا أعرفه، فلا عداوة بيني وبينه.. أطلقوا سراحه)، ولكن الزبير بن باديس المحامي (شقيق الشيخ بن باديس) قام باسم العائلة يدافع عن شرفها، ويطالب بحقها في تنفيذ الحكم قائلا : (إن أخي

[1] وقد نقل الكثير من الموالين للجمعية هذا الحدث باعتباره كرامة لابن باديس،

بفعل الصدمة لم يعد يعي ما يقول)

وبعد أن قضى الجاني المدة التي حكم بها عليه عاد إلى مستغانم وعاش فيها ثلاث سنوات ثم عاد إلى حوزته في برج بوعريرج، أين أنشأ مركزًا للطريقة العلوية[1].

ونحب قبل أن نعلق على الحادثة أن نذكر ما كتبه الإبراهيمي عنها وعن أسبابها وملابساتها، فقد قال فيها: (وإذا نسي الناس فإنهم لم ينسوا حادثة الاعتداء على الأستاذ عبد الحميد بن باديس الذي هو رئيس هذه الجمعية منذ تأسست إلى اليوم، فقد تآمر العليويون على اغتياله حيث ثقلت عليهم وطأة الحق الذي كان يقوله ولا زال يقوله فيهم وفي أمثالهم، وانتدب أشقاها لقتله في قسنطينة وضربه الضربة القاضية لولا وقاية الله ولطفه، ففي ذلك المشهد الذي تطيش فيه الألباب وتتفشى فيه روح الانتقام قوى الله الأستاذ- وهو أعزل- فأمسك خصمه الفاتك المسلّح ولبّبه بثيابه، ثم تجلّى على قلبه المطمئن بالرحمة فقال- وجرحه يثعب دمًا- للجمهور المتألّب المتعطّش لدم الجاني: (إياكم أن يمسّه أحد منكم بسوء) حتى تسلموه للمحافظة، ولولا هذه الكلمة لقطعوا الجاني إربًا إربًا))[2]

ومثله كتب الكثير من أعضاء الجمعية نثرا وشعرا، بل كتب غيرهم أيضا داخل الجزائر وخارجها[3]، ولا زالت الأقلام تكتب عن الحادثة إلى الآن، وتوجه التهمة فيها إلى الطرق الصوفية جميعا مصورة لها على أنها دبرت مؤامرة كبرى لا تقل عن المؤامرة التي قام بها الخوارج لقتل الإمام علي رضي الله عنه.

مع أن الحادثة قام بها شخص واحد ينتمي لطريقة واحدة، ولا دليل على أنه كان في ذلك مأمورا من مشايخ الطريقة ولا أهل الرأي فيها، وإلا كان في إمكانهم أن يوفروا ظروفا أفضل من

---

[1]) محمد الصالح بن عتيق، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، ص 63.

[2]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 268)

[3]) سنستعرض نماذج مما كتب في الفصل الخاص بأساليب تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية.

الظروف التي وقعت فيها، ليبعدوا عن أنفسهم التهمــة، وليحققــوا غرضهم من جهة أخرى.

بالإضافة إلى هـذا، فإنـه لم يكن للطرقـيين والعلاويين خصوصـا أي حاجة في تلويث أياديهم بقتـل ابن بـاديس أو غـيره، فقـد كـان لهم – كما يـذكر الإصـلاحيون والموالـون لهم - علاقـة وطيـدة مـع الاسـتعمار، وكـان الاسـتعمار ظالمـا طاغيـا يسـتطيع أن يـدبر أي مكيــدة لمن يشــاء وكيــف شــاء، وكــان في إمكــانهم اســتغلاله واستغلال صداقتهم له لتحقيق هذا الغرض.

بالإضافة إلى هذا، فقـد حصـلت أحـداث أخطـر، وكيـل للطـرق الصــوفية وخصوصــا العلاويــة تهم أعظم، وكــان أفــراد الجمعيــة يتحركون بكـل حريـة في أمـاكن تواجـد الطرقـيين، ومـع ذلـك لم يحصل أي اختراق لهذا.

بالإضــافة إلى هــذا، فقــد حصــل اعتــداء على رجــال الطــرق الصوفية من طرف بعض العوام، ومع ذلـك لم يصـور الإصـلاحيون ولا الموالــون لهم الأحــداث إلا على اعتبــار أنهــا أحــداث تنم عن تفاعل المجتمـع مـع الجمعيـة لا على تـآمر الجمعيـة على الطـرق الصوفية.

ونحب أن نـذكر أمثلـة هنـا على ذلـك على اعتبـار أنهـا من نـوع العلم المكتـوم الـذي لا ينشـر حرصـا على سـمعة الجمعيـة، فقـد تعرض مامي إسماعيل[1] رئيس تحرير جريدة النجاح[2]، وهو لا يقـل في مكانتة العلمية عن أي عضو من أعضاء الجمعية، بـل كـان في

---

[1] هـو مـامي إسـماعيل بن علاوة بن عبـدي، وغالبـا مـا يلقب "ابن عبـدي"، ولـد بقسنطينة في 18 أكتـوبر 1899م وتعلم في مسـجدها على يـد شـيوخ أجلاء أمثـال الشيخ عبد الحميد بن باديس ثم شد الرحال إلى تونس وبالضبط في جامع الزيتونة، إلا أنه غادره بسرعة ولم يتمم دراسته، وأثناء عودته اتصل بالشـيخ عبـد الحفيـظ بن الهاشمي واشترك معه في العمـل بجريـدة النجـاح فكـان رئيس تحريرهـا، ثم مـدير مطبعتها ومكتبتها، وكان كثير الترحـال تـارة مكلفـا من قبـل مـدير الجريـدة لـترويج الجريـدة وجمـع الاشـتراكات، وتـارة مشـاركا في ملتقيـات لرؤسـاء الزوايـا أو أثنـاء الاحتفالات الدينية المختلفة كالمولـد النبـوي الشـريف، عاشـوراء، أول محـرم الخ .. وقد اتسع نطاق الجريدة بفضل رحلاتـه الكثـيرة والـتي كـانت تـدوم لفـترات طويلـة (انظر: محمد ناصر; المرجع السابق، ص33)

يوم من الأيام من المؤيدين لها، لكنه بسبب مخالفته للجمعيـة في منهجها تعرض لضرب شديد من قبل الشيخ أحمد بوشمال[1]، وقــد سجل الشيخ حماني هذا الحادث مثنيا عليه، فقـال: (وبلـغ بالسـيد مـامي — عفـا اللـه عنـه — أن صـار يسـخر بالشـيخ ابن بـاديس ويخـترع على لسـانه محـاورات، فبلـغ السـيل الزبـا، واشـتد غيض الشهيد أحمد بوشمال ولم يملك نفسه ذات يــوم في 1938م، أن ارتمى عليه في نهج تجاري مزدحم وأعطـاه (طريحـة)؛ أي ضـربة كانت كافية لكفه النهائي عن التعرض لشخصية الشيخ ابن بـاديس بسوء حتى مات رحمه الله)[2]

بهذا المنطق برر الشـيخ أحمـد حمـاني هـذا الاعتـداء من شـيخ الجمعية الكبير، لا من فرد من أفرادها البسـطاء في نفس الـوقت الذي كتب فيه مجلدا ضخما ممتلئـا بالسـباب والتكفـير لـركن من أركان المجتمع الجزائري بناء على تصرف فرد واحد.

ولسنا ندري لم لم يعذر ذلك الفقير العلاوي على اعتبـار أنـه لم يسمع إهانات فقط تتعلق بشيخه، بل سمع تكفيره وتضليله، وليتـه لو لم يعذره، لم يحمل جنايته على الطرق جميعا.

هذا مثال على الاعتداء المرتبط بالأفراد، أمـا الاعتـداء المرتبـط بالجماعات، فهو أخطر وأشد، ونسوق مثالا هنا على مـا صـار إليـه

---

[2]) وكان قد تعرض قبلها لمحاولة اغتيال في أم البواقي يوم03 سبتمبر سنة 1930، ولكن بما أنه كان حينها مؤيد للجمعية أدين الاعتـداء عليـه في مجلـة الشـهاب، تحت عنوان " اعتداء فظيع وتوحش شنيع " (قسم التحرير ; اعتداء فضيع وتوحش شــنيع، الشهاب، المجلد 6، يوم أكتوبر 1930، ص 573)

[1]) أحمد بوشمال (1899 - 1958م)، ولد بمدينة قسنطينة وبها حفظ القرآن الكريم بجامع سيدي ياسمين بالقرب من رحبة الصـوف ثم اشـتغل بصـناعة الأحذيـة، وكـان يحضر دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس ولازمه ملازمة شديدة. ولما أزمع الشـيخ ابن باديس تأسيس الصحافة الإسلامية العربية الحرة تبرع له أحمد بوشـمال بمحلـه التجاري ليكون مقر المطبعة الإسلامية الجزائرية. وصار هو مـدير أعمـال، وصـاحب الامتياز لصحف الجمعية، وجمعية التربية والتعليم بقسنطينة .. انظر: أحمـد حمـاني، صراع بين السنة والبدعة، ج 2، ص 270.

[2]) أحمد حماني ; المرجع السابق، ص131.

المجتمع الجزائري المتسامح الموحد بعد تلك الأفكار التي نشـرتها الجمعية، فقد ورد في جريدة النجاح هذا لخـبر: (في يـوم الجمعـة 15 ماي 1930 م بينما كـانت قبيلـة أراس من سـكان فج أمزالـة عائدة من زيارتها الاعتيادية لمقام القطب الرباني الشيخ الـزواوي بالروفاك مارة بميلة إذ بأتباع المرابط الشيخ مبارك الميلي العضو وأمين مـال جمعيـة العشـور[1] ينهـالون على الـزوار المـذكورين بالسب والشتم ولـولا تـدخل الفرنسـيين وفرقـوهم وإلا تقـع بينهم ملحمة عظيمة)[2]

ولا نتعجب بعـد هـذا من اتهـام الطرقـيين للإصـلاحيين بكـونهم وهابيين، فأي فارق بين ما كان يمارسه الوهـابيون في ذلـك الحين من هدم للأضـرحة وتعـرض للزائـرين لهـا، وبين مـا مارسـته هـذه العصابة التي تنتسب للشيخ مبارك الميلي؟

ثانيا ــ الأهداف الداعية للتأسيس:

عرفنا في الفصل السـابق أن الإجمـاع يكـاد ينعقـد على اعتبـار الشـيخين عبـد الحميـد بن بـاديس والإبـراهيمي همـا المؤسسـان الحقيقيان للجمعية، وعرفنا أن المؤسس الحقيقي هو الـذي يحـق له أن يضع أهدافها، ويخطط برنامجها.

وعلى ضوء ذلك نبحث هنـا عن الأهـداف الحقيقيـة الـتي كـانت وراء دعوتهما لتأسيس الجمعية.

وقد ذكر الإبـراهيمي بتفصـيل مهم جـدا هـذه الأهـداف، وأنـواع المشـاريع الـتي كـان يمكن أن تقـوم الجمعيـة على أساسـها ولتحقيقها، وكيف اختارت بعد ذلـك الجمعيـة المنهج الـذي ظهـرت به، والذي به حصل الصـراع الشـديد بينهـا وبين الطـرق الصـوفية

---

[1]) يقصد بذلك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لأنها كـانت تطلب من الفلاحين أن يعطوا زكاتهم للجمعية لخدمة التعليم فيها، بـل كتب العـربي التبسي فتـوى ينص فيها على جواز أخذ الفقهاء من الزكاة (إذا كان أولئك الفقهـاء قـد حبسـوا جهـودهم وعلومهم وحياتهم للجهاد في سبيل الإسلام، ونشره، والدفاع عنه. أما فقهاء السـوء طلاب الدنيا فإننا لا نقول بجواز أخذهم من الزكاة) (انظر: جريدة البصائر، السلسلة الثانيـة، السـنة الثالثـة، عـدد 119، الاثـنين 15/مـاي/1950م الموافـق 28/رجب/ 1369هـ، ص 2)

[2]) مامي إسماعيل;فتنة ميلة، النجاح، العدد1871، يوم20 ماي 1936، ص2.

بسببه.
ونحب أن نلخص هنا ما ذكره لأهميته القصوى، فهو يرينا المدى الـذي تريـد الجمعيـة أن تـذهب إليـه في صـراعها مـع الطـرق الصوفية.
فقد كتب تحت عنوان (نشوء الحركـة الإصلاحية في الجزائـر)[1] يذكر أن الأوساط الإصلاحية في ذلك العهد كان يتجاذبها رأيان يلتقيان في المقصد ويختلفان في المظهر العملي للإصلاح وكيف يكون؟
أما أولهما، فيرى (صرف القوّة كلها وتوجيه جهود متضافرة إلى التعليم المثمر، وتكوين طائفة جديدة منسجمة التعليم مطبوعة بالطابع الإصلاحي علمًا وعملًا، مسلحة بالأدلة، مدربة على أساليب الدعوة الإسلامية والخطابة العربية، حتى إذا كثر سواد هذه الطائفة وكان منها الخطيب ومنها الكاتب ومنها الشاعر ومنها الواعظ ومنها الداعي المتجول، استخدمت في الحملة على الباطل والبدع على ثقة بالفوز)[2]
ولعله يشير بهذا الرأي إلى المدرسة السلفية التنويرية وإلى كثير من الحركات الإسلامية التي تبنت منهجها، وقد ذكر الإبراهيمي أن (هذا رأي له قيمته وخطره، وكان كَاتِبُ هذه الأسطر من أصحاب هذه الفكرة في ذلك الوقت)
وأما الثاني، فهو رأي استئصالي هجومي ينطلق من (أخذ المبطلين مغافصة والهجوم عليهم وهم غارّون، واسماع العامة المغرورة صوت الحق فصيحًا غير مجمجم)[3]، وهذا الرأي هو الذي تبناه -كما سنرى بتفصيل - التوجه السلفي المحافظ الذي أحياه الشيخ محمد بن عبد الوهاب.
وقد انتصر الإبراهيمي لهذا الرأي الثاني باعتبار أن تلك (البدع والمنكرات التي يريد الإصلاح أن يكون حربًا عليها هي أمور قد طال عليها الأمد، وشاب عليها الوالد، وشبَّ عليها الولد وهي بعد شديدة الاتصال بمصالح ألفها الرؤساء حتى اعتبروها حقوقًا لهم،

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 181)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 183)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 184)

وأنس بها العامة حتى اعتقدوها فروضًا عليهم، فلا مطمع في زوالها إلّا بصيحة مخيفة، تزلزل أركانها، ورجة عنيفة تصدع بنيانها واعصار شديد يكشف الستر عن هذا الشيء الملفف، والسر الذي يأبى أن يتكشف، ليتبينه الناس على حقيقته، وأقل ما يكون من التأثير لهذا العمل أن تضعف هيبته في نفوسهم وتضؤل رهبته في صدورهم، وهنالك يسهل العمل في نقضه، وتخف المئونة في هدمه)[1]

ثم ذكر ما قام به مع ابن باديس لتحقيق هذا الرأي الثاني، فقال: (وقد رجح الرأي الثاني لمقتضيات لله من ورائها حكمة، فأنشئت جريدة (المنتقد) بقسنطينة لهذا الغرض، وكان اسمها نذيرًا بالشر لأهل الضلال فإنه مُتَحَدٍّ لما نهوا عنه، وهاتك لحرمة ما شرعوه في كلمتهم التي حذروا بها العامة وهي قولهم: (اعتقد ولا تنتقد)، وانبرت للكتابة في (المنتقد) أقلام كانت ترسل شواظًا من نار على الباطل والمبطلين، ثم عطل المنتقد فخلفه الشهاب (الجريدة) ثم أسست جريدة الإصلاح ببسكرة فكان اسمها أخف وقعًا وإن كانت مقالاتها أسد مرمى وأشد لذعًا.. ثم تطور الشهاب الأسبوعي فأصبح مجلة شهرية استلمت قيادة الحركة من أول يوم وورثت الأقلام التي كانت تكتب في الجرائد قبلها، ولم تهن لمجلة الشهاب في حرب الباطل وأهله عزيمة ولم تفل لها شباة..)[2]

وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الهدف كان في نفس ابن باديس والإبراهيمي منذ فترة طويلة سبقت تأسيس الجمعية، فقد ذكر الإبراهيمي في معرض حديثه عن الأيام الأولى التي بدئ فيها بالتفكير في تأسيس الجمعية، في مسامرتهما بالمدينة المنورة سنة 1913 م أنهما اهتديا إلى أن (البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، يمتصان دمه ويفسدان عليه دينه ودنياه : استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي.. واستعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 183)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 184)

الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه، والمتجرون باسم الدين، والمتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية. وقد طال أمد هـذا الاستعمار الأخير، وثقلت وطأته على الشعب، حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى.. خوفًا من الله بزعمـه. والاسـتعماران متعاضـدان، يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته، وغرضهما معًا تجهيل الأمة، لئلا تفيق بالعلم.. وتفقيرهـا، لئلا تسـتعين بالمـال على الثـورة.. وإذن فلقـد كـان من سـداد الـرأي أن تبـدأ الجمعيـة بمحاربـة هـذا الاسـتعمار الثاني لأنه أهون وهكذا فعلت)[1]

وبناء على هذا التحليل والتشخيص، بدأت الجمعيـة بمحاربـة مـا تسـميه الاسـتعمار الثـاني، وارتـأى ابن بـاديس والإبـراهيمي ومن وافقهما من الإصلاحيين بداية العمل الإصلاحي بإعلان الحرب على الطرق الصوفية قبل إعلان الحرب على الاستعمار نفسه.

ثالثا ــ التنافر بين الاتجاهات الفكرية:

وهـذا في الحقيقـة هـو السـبب الأكـبر في كـل مـا حصـل بين الجمعية والطرق الصوفية، وقد خصصنا الحديث عنـه بتفصـيل في الباب الثاني، ومن خلاله سنعرف نـوع التوجـه السـلفي للجمعيـة، ونـوع التوجـه الصـوفي للطـرق الصـوفية، وعلاقـة ذلـك بـالخلاف بينهما.

ولكنـا نحب أن ننبـه هنـا إلى أن هـذا السـبب كـان في الإمكـان تجاوزه لو حسنت النيـات، فقـد كـان الاسـتعمار جاثمـا على أرض الجزائر – كما عرفنـا في الفصـل الأول- يسـتغل خيراتهـا، وينتهـك حرماتهـا، ولم يكن الوضـع مناسـبا في ذلـك الحين ليكتب أعضـاء الجمعية وعلماؤها في الصـحف القليلـة - الـتي كـانت هي المنهـل الوحيد للكثير من الجزائـريين ليتحـرروا ويتثقفـوا - في قضـايا هي من فروع الفقه يجادلون فيها، ويبدعون من خالفها.

وسنرى نماذج كثيرة على هذا في الباب الرابع، ونرى من خلالها أن كل ما طرح من قضايا لم يكن يعدو قضـايا طـرحت في جميـع التاريخ الإسلامي، ولم تسل من المداد، ولم تنشر من الأحقـاد مـا حصل في عهد الجمعية.

رابعا ــ الأسباب النفسية:

لقد كـان من الحـرج الشـديد أن نعتـبر من أسـباب الخلاف بين

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/282)

الجمعية والطرق الصوفية - منـذ بدايـة تأسيسـها - هـذا النـوع من الأسباب لولا أنـه بحسـب تصـورنا هـو السـبب الأبـرز، إن لم يكن أصل الأسباب ومنبعها.

وقد دعانا إلى اعتبار هذا السبب ما ذكره أبو حامد الغزالي عند بيانه لـ (آفات المنـاظرة ومـا يتولـد عنهـا من مهلكـات الأخلاق) [1]، فقد قـال: (اعلم وتحقـق أن المنـاظرة الموضـوعة لقصـد الغلبـة والإفحام وإظهار الفضـل والشـرف والتشـدق عنـد النـاس وقصـد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبـع جميـع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عـدو اللـه إبليس، ونسـبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسـد والمنافسـة وتزكيـة النفس وحب الجـاه وغيرهـا كنسـبة شـرب الخمـر إلى الفـواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسـرقة، وكمـا أن الـذي خـير بين الشرب والفواحش وسائر الفواحش استصغر الشـرب فأقـدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكـاب بقيـة الفـواحش في سـكره فكـذلك من غلب عليـه حب الإفحـام والغلبـة في المنـاظرة وطلب الجـاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة)[2]

وللأسف فإن هذا الكلام مع شدته صحيح إلى حد بعيـد، فالـذي حصل بين الجمعية في ذلك اليوم المشؤوم، وما حصـل بعـده من نتائج خطيرة زادت المجتمع الجزائري تفكيكا يعود في نصيب كبير منه إلى تلك الآفـات الباطنـة في نفـوس كـل من رجـال الجمعيـة ورجال الطرق الصوفية.

وقد كفانا رجال الجمعيـة البحث عن الأسـباب النفسـية لرجـال الطرق النفسية، حين ذكر الإبـراهيمي هـذا فقـال:(ولقـد تفرسـنا فيهم – في الطرق الصوفية- فصحَّت الفراسـة، وبلَوْنـاهم فصـدق الابتلاء، وجرَّبْناهم فكشفت التجربة على أنهم لا يعرفـون الأمـة إلا في مواقف الاستعباد وابتزاز الأموال، فإذا مَسَّـها الضـر وتنكَّر لهـا الدهر تنكَّروا لها وتجاهَلُوها، وإن علاقتهم بالأمة علاقة السيد بعبده والمالك لمملوكـه لا علاقـة المسـلم بأخيـه المسـلم، يحب لـه مـا

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، (1/ 45)

[2] إحياء علوم الدين (1/ 45)

يحب لنفسه، وأنهم مطايا الاستعمار الـذُّلُل وأيديـه الباطشـة؛ بـل القنطرة التي هوَّنت عليه العبور، وانهم كانوا ولا زالـوا على خلاف مـا وصـف اللـه بـه عبـاده المؤمـنين أعـزة على الأمـة أذلـة على المســتعمرين والحكــام المســتبدين، وأن ليس في صــحائفهم السوداء موقف يعـز الإسـلام أو يرفـع المسـلمين. وهـذا تـاريخهم الماضي الملحود، وتاريخهم الحاضر المشهود يسـجلان عليهم أنهم أعوان على هذه الأمة للدهر، وحلفاء عليها للفقر، وإِلْبٌ على دينها مع التبشير بالكفر، وانهم هم الـذين أَمَـاتُوا رهبـة الإسـلام ونخـوة الإسلام بخضوعهم واستسْلامهم، كمـا أمَـاتُوا حقائقـه بأسـاطيرهم وأوهـامهم، وأنهم مـردوا على الملـق والمداهنـة المزريـة بشـرف الإسـلام في المواقـف الـتي تسـمو عن المجاملـة وتقتضـي نهايـة الصدق في المعاملة)[1]

إلى آخر تلك الأوصاف الكثيرة التي اعتبرها الإبراهيمي الســبب في كل تلـك السـلوكات الـتي يمارسـها رجـال الطـرق الصـوفية، والتي يراها بدعة وضلالة وكفرا.

وما ذكره ربما يكون صحيحا من جهة انطباقه على بعض رجــال الطـرق أو حـتى مشـايخها، أمـا تعميم ذلـك، فيحتـاج إلى فراسـة أعظم من الفراسة التي تفرس بهـا، ذلـك أن الطـرق كمـا عرفنـا في الفصل الأول، وكما يشهد التاريخ كان لهم أثـرهم الفاعـل في جميع أنواع المقاومات العسكرية والدينية والثقافية، وغير ذلك.

ونحن لا نريـد أن نناقش هنـا هـذا، وإنمـا نريـد أن ننبـه إلى أن الجمعية كانت تعرف جيدا أن للأسباب النفسية تأثيرهـا الكبـير في جميع الانحرافات الحاصة في الطرق الصوفية.

ولكن الذي لم تنتبه لـه - للأسـف - هـو سـلوكها النفسـي تجـاه المخالفين لها من رجال الطرق الصوفية، وكيف كانت تنظـر إليهم بنوع من التعالي والاحتقار، لأنهم ليس لهم من الفصـاحة مـا كـان لرجال الجمعية، أو لأن شيخهم كان – كما يذكر الزاهري – (تـاجرا يبيع الأحذية، ويصنعها فأفلس احتيالا وأكل أموال النـاس، ثم ارتـاد تجارة كلها ربح، ورأس مالـه فيهـا النصـب والاحتيـال، يحتـال على الفقراء المسـاكين، فيسـلب أمـوالهم، ويسـتغل أبـدانهم ويختلس

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 297)

يتمانهم، ومن ذلك فهو يحترف طريقة التصوف ويستغلها ماديا، ولا يعرف من التصوف إلا أنه باب من أبواب الرزق، وسبب من أسباب المعاش، ووسيلة من وسائل الاكتساب)[1] إلى آخر تلك الأوصاف الكثيرة التي حاول الزاهري أن يعرف بها الشيخ ابن عليوة.

وقد حالت هذه الأوصاف بين الجمعية وبين الحوار مع الكثير من رجال الطرق الصوفية، والذين كانت لهم شهرتهم على المستوى العالمي، وقد عرفنا في الفصل السابق بعض النماذج عنهم من الطرق الصوفية المختلفة، لكن الجمعية لم تكن تعترف بهم، ولا بعلومهم.

وسنرى النماذج الكثيرة عن أسلوب الحوار جمعية مع المخالفين، بحيث تنتقل من الحوار في القضية الخلافية بغية الوصول إلى الحق فيها إلى الحوار في شخص المحاور، ومحاولة إسقاطه، وكأنه إذا أسقط أسقطت القضية معه.

خامسا ــ المؤامرة الاستعمارية:

فقد كانت مصالح المستعمر منوطة بتفرق الجزائريين وصراعهم فيما بينهم، ولهذا انتهجت فرنسا – كما عرفنا سابقا- سياستها المعروفة (فرق تسد)، وقد مارست هذه السياسة مع الجميع، فهي لا يهمها طرقي أو مصلح، المهم عندها كما عند كل مستعمر أن تتنافر النفوس، وأن يجهز بعضهم على بعض، حتى يتمكن من تحقيق أهدافه[2].

---

[1]) الزاهري؛ شيخ علماء الجزائر، أم شيخ الحلول؟ الشهاب. مج9. ج11. أكتوبر 1933. ص 494

[2]) نحب أن ننبه هنا إلى أن الجنرال الفرنسي (هنري جاكين) نشر كتابا بباريس سنة 1977 تحت عنوان (الحرب السرية في الجزائر)، كشف فيه عن الكثير من الشخصيات المهمة التي كانت تعمل في خدمة المصالح الفرنسية في الجزائر، ومن بينهم ذكر أحمد توفيق المدني من جمعية العلماء المسلمين الذي كان عميل الحاكم العام، وأحمد بن بلة الذي كان مخبرا سابقا للأمن العسكري الفرنسي، وفرحات عباس الذي كان لمدة طويلة مراسلا محترما لشرطة الاستعلامات العامة، ومصالي الحاج الذي أصبح منذ 1945 تحت الاسم المستعار ''ليون'' (Léon)، مخبرا ثمينا للشرطة الفرنسية.

ويذكر الكثـير من البـاحثين بنـاء على هـذا أن الإدارة الفرنسـية كانت تستعمل الطرق الصوفية لتحقيق أهـدافها وخدمـة مصـالحها عبر استعمال العملاء وتوجيههم في خدمة مصالحها، ولعل أحسـن مثـال على هـذا مـا كتبـه مصـالي الحـاج في مذكراتـه، من أن جاسوسا فرنسيا كان يسمى ليون روش[3] Léon Roche- ألف كتابـا سنة 1884 تحت عنوان (ثلاثون سنة داخل الإسلام)(Trente ans à travers l'Islam)، يقص فيه أن هدفه الوحيـد من اعتناقـه الظـاهري للإسلام كان يتمثـل في الحصـول على فتـوى من القـادة الـدينيين لوقف القتال ضد الاستعمار، وقد تحصل على تلك الفتـوى مقابـل

---

[3] هـو ليـون روش من مواليـد قرونوبـل وُلـد سـنة 1809 م، تحصـل على بعض الشـهادات، كـان والـده من المُشـاركين في الحملـة الفرنسـية على الجزائرعـام 1830 . بعد سنتين من الاحتلال الفرنسي قَدِمَ ليـون روش الى الجزائـر ليكـون في خدمة الاستعمار الفرنسي، بعد وصـوله الى الجزائـر سـنة 1832 م بـدأ ليـون يتعلم اللغـة العربيـة حـتى أتقنهـا، هـذا الاتقـان سـاعده على العمـل مُترجمـا في الجيش الفرنسي، يُقال أنه أسلم واعتدل اسلامه في نظر المسلمين ورحل بعد اسلامه الى الأمير عبد القادر مُبديا لـه يـد المعونـة. وكـان ذلـك سـنة 1837 حيث أصـبح اسـمه الجديد عُمر .

كلفه الجنرال بيجو الحاكم العسكري للجزائـر بمسـاعدة الزاويـة التيجانيـة والطيبيـة المغربية في الجزائر بالسفر الى تونس ومصر والحجاز للحصـول على فتـوى تـدعوا أهل الجزائر الى قَبول الحكم الفرنسي مقابل أن يَحترم هـذا الحُكم دينهم وعـادتهم وتقالدهم .

ورحل روش ومعه نص الفتوى ويُقال أنه حصل على مُصادقة علمـاء جـامع الزيتونـة في تونس وعلماء الأزهر في مصر، وعلماء المسلمين المجتمعين في مدينة الطائف بالحجاز حيث مقر الشريف الأكبر شـريف مكـة المكرمـة، وقـد وصـل الحجـاز أثنـاء موسم الحج فأراد أن يشهد هذا الموسم، لكن بعض من الجزائريين تعرف عليـه في وقفة عرفات ورفعوا أصواتهم استنكارا لوجوده، وكاد أن يفقـد حياتـه لـولا الحـراس الذين كلفهم الشريف بمراقبتـه سـرا اذ قـام هـؤلاء باختطافـه ومضـوا بـه الى جـدة ومنها الى مصر ومنها الى أوروبا (انظر: ليون روش، ثلاثون سنة في رحاب الاسلام، مذكرات ليون روش عن رحلته الى الحجاز، ترجمة: الدكتور محمد خير البقاعي، دار جداول للنشر)

دفعه نقودا من الذهب إلى قادة الزوايا أو الطرقية.

وبناء على هذا يعتبرون الطريقة العلاوية خصوصا أداة من أدوات الاستعمار مستدلين على ذلك برضا المستعمر عنها، والسماح لها بأداء نشاطها بحرية كبيرة.

ونحن - كما نعتقد حصول هذا الاختراق بين صفوف الطرق الصوفية - فإنا نعتقد كذلك أن الجمعية لم تكن بمنأى من هذا الاختراق، وأنها في بعض نواحي سلوكها كانت تنفذ مؤامرة فرنسية شعرت بها أو لم تشعر.

ولذلك – كما يصرح ابن باديس نفسه – فتحت لها الحكومة الفرنسية كل الأبواب لتؤدي أدوارها بحرية أكبر، وقد ذكر ابن باديس هذا مثنيا عليه، فقال: (للحكومة – الفرنسية طبعا- الفضل العظيم بفتحها السبل لهذه الجمعية حتى تتوصل إلى نشرهما باتصال رجالها من أهل العلم بالأمة في مساجدهم ومجامعهم وحيثما كانوا، فللحكومة في هذا من الفضل بقدر ما فيه للأمة من النفع، ولقد كان رجال الحكومة الذين لقيناهم في جميع البلدان يلاقوننا بمزيد الإكرام، ويزودوننا بعبارات التأييد والتنشيط، ويقول لنا الكثير منهم: (إننا مستعدون لمساعدتكم في كل ما تريدونه بدائرتنا)، ولا شك أنهم يتكلمون بلسان الحكومة ويعربون عن نياتها ومقاصدها، وأي مقصد أشرف وأي نية أنفع من تعاون الحكومة من العلماء لتهذيب الأمة وتعليمها)[1]

ويعقب على ذلك بقوله: (هذا أعظم ما قامت به فرنسا في أول القرن الثاني نحو أبنائها المسلمين الجزائريين الذين كانوا معها في جميع المواقف مواقف الحياة ومواقف الموت) [2]

ولا نريد أن نعلق على هذه العبارة التي لم نجد من الباحثين من ينقلها مع صراحة نسبتها لابن باديس، لكنه لو قالها بعض رجال الطرق لنشرت، واستعملت أسوأ استعمال.

بل إن ابن باديس يذكر كيف كان للإعلام الفرنسي دوره في الاهتمام بالجمعية والتعريف بها، فيقول تحت عنوان (فضل الصحافة العربية والفرنسية): (كانت الصحف الفرنسوية تتبع

---

[1] آثار ابن باديس (4/ 322)

[2] آثار ابن باديس (4/ 322)

رحلتنا وتنشر الفصول عنها وتذكر الجمعية بكل تعظيم وتبجيل مثل ما كانت تفعله مع أكبر جمعية فرنسوية ورئيسها فبرهنت على أن الفكر العام الفرنسي يقدر للمسلمين مشاريعهم ويساعدهم عليها ويرد لهم الرقي والتقدم، وقد كانت الصحافة العربية النجاح والنور والمرصاد قامت بواجبها نحو قومها وملتها فلجميع الرصيفات الفرنسية والعربية شكر الأمة والوطن وشكر الجمعية والعلم) [1]

قد يقال بأن فرنسا كانت تصادر صحف الجمعية، وتضيق عليها، والجواب على هذا بسيط جدا من جهتين:

الجهة الأولى: أنها لم تكن تضيق عليها إلا فيما يرتبط بمصالحها، أما ما كانت تنشره الجمعية مما يصدع الوحدة الاجتماعية والثقافية والدينية، فقد كانت راضية عنه أتم الرضى، بل إنها كانت تشجعه أعظم تشجيع.

الجهة الثانية: هي أن الكثير من المضايقات للجمعية كانت مضايقات شكلية، لا حقيقية، فعند منع الصحيفة في الصباح تصدر صحيفة أخرى بنفس المنهج ونفس الشدة في المساء، وليس من خلاف بينهما إلا في الاسم.

بالإضافة إلى هذا، فقد كتب الإبراهيمي في العدد 61 من جريدة (البصائر)، بتاريخ 27 ديسمبر سنة 1948 مقالا طويلا تحت عنوان (إلى الزاهري) حمل فيه حملة شديدة على الرجل الذي كان في يوم من الأيام بالنسبة لهم مصلحا أو معولا خطيرا من أهم معاول هدم الطرق الصوفية، لكنه بعد أن كشفت حقيقته تبين لهم أنه كان كاذبا وخائنا، بل فوق ذلك عميلا من عملاء الاستعمار[2]، ومما جاء في ذلك المقال قوله له يذكره ببعض

---

[1] آثار ابن باديس (4/ 322)

[2] وقد أيده في هدا حسين آيت أحمد، في كتابه ('ذكريات مكافح)، فقد ذكر فيه أن مصالي الحاج نصب الشيخ الزاهري مديرا لأسبوعية (المغرب العربي) لسان حزب الشعب، وأنه كان جاسوسا للمخابرات الفرنسية، وعندما تم اكتشاف حقيقته من طرف جبهة التحرير التاريخية، قاموا بإعدامه قي بداية حرب التحرير كما جاء ذلك في كتاب محمد حربي (جبهة التحرير الوطني: سراب وحقيقة) نقلا عن (

مواقفه في الجمعية: (أتذكُر يوم ضاقت بك الحيل فعرضت همّتـك وذمّتك وقلمك في المزاد العلني فكنّا أزهـد المشـترين فيـك؟ كن شريفًا ولو لحظة من عمرك واعترف بهـذه الحقيقـة. ألم ننصـحك نصيحة لو أحيا الله أبويك لما نصحاك بمثلها؟ ولكنهـا ضـاعت كمـا تضيع المِنّة عند غير شاكر. ألم تفترص الفرصة حين خاطبنـاك في صندوق الحروف الذي تملكه لنطبع به (البصائر)، بالبيع أو بالكراء، فأخذت منّا عشرة آلاف فرنك لتفكّ بها رهن الصندوق من الطـابع الإسباني، وكنت عاجزًا عن فكّه بستة آلاف فرنـك؟ فلمـا حصـلت عليه اشتططت وشرطت قرض مائتي ألف فرنك في مقابلة كراء الحروف، فلما يئست منا عرضت نفسك على دكتوريْن لهما مـاضٍ عريق في خيانة الوطن لتخدم ركابهمـا وتزكيهمـا في الخيانـة، في مقابل قناطير من الورق منَّياك بها، فلما لمناك على ذلك قلت لنـا بالحرف: (ما نكذبش عليكم، أنا نتبع مصلحتي المادية حيثما كانت) والجملـة الأولى هي لازمتـك المعروفـة عنـد جميـع النـاس، وهي لازمة كل كـذّاب، إذ لا يكـثر من نفي الشـيء إلا المتّصـف بـه، ثم كنت متشوّقًا إلى خدمة مَن تُسمّيهم اليوم باللائكيين، ولو أعاروك التفاتة، أو أشاروا إليك بغمزة، لكنت اليوم من عبيدهم المطيعين، ولكانت اللائكية، في نظرك ملائكية، ثم عـرّجت على الشـيوعيين، ولهم معك ماضٍ معروف، فوجدتهم أيقاظًا، ذاكـرين لـذلك العهـد، مثنين عليـك بمثـل ريح الجـورب، ولـو آنسـتَ في ذلـك العهـد من جانب الطرُقيّة نارًا، لقلت في غير تردّد: إني أجـد على هـذه النـار هدى. ثم وقع بك الحظ على هؤلاء القوم أو وقـع بهم عليـك، وهم لم ينسوا ماضيك معهم، وإنما يتناسونه لأمر ستنجلي عنه الغيابــة، يوم ينكفئ القدر بما فيه من صبابة. فهل فكّرت بعد هذه الأطــوار أن تستقلّ بجريدة لا تناصر بهـا حركـة ولا سـكونًا، ولا تعتمـد فيهـا على شخص ولا على حزب؟ وهيهات)[1]

المطلب الثالث: نتـائج الخلاف بين الجمعيـة والطـرق الصوفية

(http://www.djelfa.info/vb/showthread.php?t=210205)

[1] آثار الإبراهيمي: 3/562.

لقد عبر ابن باديس عن تبعات ذلك التفرق الذي حصل بين الجمعية والطرق الصوفية بعد سنة من التأسيس، فقال: (ها هو القانون الأساسي للجمعية كما وضع أول مرة منذ خمس سنوات، وقد كان الذين وضعوه شطرهم مع الطرقيين، ولكنهم ما أكملوا السنة الأولى حتى فروا من الجمعية وناصبوها العداء واستعانوا عليها بالظلمة ورموها بالعظائم وجلبوا عليها من كل ناحية بكل ما كان عندهم من كيد، ذلك لأنهم وجدوا كثيراً من الآفات الاجتماعية التي تحاربها الجمعية هم مصدرها وهي مصدر عيشهم، ووجدوا قسماً منها مما تغضب محاربته سادتهم ومواليهم وقد شاهدوا مظاهر الغضب بالفعل منهم فما رفضتهم الجمعية ولا أبعدتهم ولكنهم هم أبعدوا أنفسهم)[2]

ونحن، وإن كنا لا نسلم باللغة الشديدة التي تحدث بها ابن باديس من تحميله تبعات ما حصل على الطرقيين وحدهم إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نستنبط من كلامه الكثير من النتائج السلبية التي أعقبت ذلك الحادث، والتي نحاول سرد بعضها هنا باختصار:

أولا ـ زيادة شدة الخلاف:

لقد كان الخلاف – كما ذكرنا سابقا- موجودا مشهورا بين الجمعية والطرق الصوفية قبل تأسيسها، ولكنه كان خلافا لا يعدو أفرادا من الإصلاحيين، ولم يتعد إلى مستوى التجمعات، ليصل إلى أكبر تجمعين عرفتهما الجزائر في ذلك الحين: تجمع الجمعية، وتجمع الطرق الصوفية.

وعند تصفح صحف الجمعية في ذلك الحين نجد أنه لم يكن لها دور إلا النفخ في نار الفرقة، فصحيفة الشريعة والصراط وغيرها مع قلة أعدادها، ومع كونها كانت فرصة لتعليم الجزائريين وتوجيههم وتوحيد صفوفهم إلا أنا للأسف نجدها صارت مملوءة بصفحات كثيرة جلها سباب وأحقاد.

وكمثال على ذلك التهييج والإثارة بيان نشرته جريدة الشريعة تحت عنوان (براءة القبائليين من شيخ الحلول وتلميذه الحافظي ومن تبعهما)، وهو بيان خطير وقع عليه 135 من تلك البلاد التي كان للطريقة العلاوية فيها وجود واسع، وقد ضم هذا البيان أمثال

---

[2] آثار ابن باديس: 2/549.

هذه الأفكار التفكيكية والاستئصالية، والتي عبروا عنها بقـولهم: (.. بناء على هذا فنحن الواضعين خطـوط أيـدينا هنـا من عـرش ذراع اقبيلة الذي يعد بالنسبة إلى بلاد القبائل أقل تقدما من غـيره, قـد أدركنا مـا عليـه الأمـة الجزائريـة اليـوم من تشـويش المشوشـين ومشاغبة المشـاغبين الـذين كتب اللـه عليهم الشـقاوة في الـدنيا والآخرة, فأشفقنا على أنفسنا وعلى إخواننا المسـلمين من سـائر أولئك المجرمين, فعملنا لرفـع الـنزاع بكـل وسـيلة نافعـة دون أن تضر, فما زيد في نار القوم إلا اضطراما حتى أيسنا ولم نرج منهم سلاما, ثم إن مثير الفتنة واحد لا ثـاني معـه إلا من كـان لـه أجـيرا وما في معناه)(1)

بـل إن هـؤلاء الـذين حملـوا كـل هـذه الأحقـاد على الطـرق الصوفية، وعلى الشيخ الحافظي، عندما يتحـدثون عن فرنسـا في نفس البيـان يقولـون عنهـا: (بقي الآن علينـا أن نـؤدي شـهادتنا لحكومـة افرانسـه الفخيمـة العادلـة المنصـفة وأن هـذه الطائفـة المخذولة التي تكذب على جمعية العلمـاء المسـلمين الجزائـريين مرة بعد أخرى بإلصاق السياسة لها وبالتدخل في غير أمور الـدين والواقـع يفنـد مفترياتهـا والحكمـة نفسـها تـرى بعين الـرأس من المشـاغب ومن المهيج، ومن الـذي يكتب في جرائـده السياسـة وينشرها في الناس بعكس ما يتظاهر به للحكومة) (2)

وحتى نكتشـف خطـورة هـذا البيـان وتـأثيره في تفكيـك وحـدة المجتمع الدينية والثقافية، بل والسياسـية نحب أن نـذكر أنـه كـان للزوايا والطرق الصوفية في تلك المنطقة خصوصا تأثير كبـير في مواجهـة التبشـير والحفـاظ على الهويـة إلى درجـة أنـه صـدر من الجمعيـة قـرار سـري – ذكـره الشـيخ خـير الـدين - يقضـي بمنـع مقاومة الزوايا والمرابطين في بلاد القبائـل الـتي كـانت للكنيسـة نشاط تخريبي هدام منظم، ما يتحتم توظيف تلـك الزوايـا في بث

[1] الشريعة النبوية المحمدية، السنة الأولى / العدد 6، قسنطينة يوم الاثنين 29 ربيع الثاني 1352، ص8.

[2] الشريعة النبوية المحمدية، السنة الأولى / العدد 6، قسنطينة يوم الاثنين 29 ربيع الثاني 1352، ص8.

الوعي الديني الإسلامي ورد شبه المنصرين عمليا[1].

ومثله كتبت الصراط بيانا أمضاه (أربعمائة من جميع طبقات الأمّة من أهل العلم وأهل الفلاحة وأهل الصّناعة وأهل التّجارة وغيرهم) يقول أصحابه: (إنّ سكّان بلدة باتنة وأحوازها الواضعين إمضاءاتهم أسفله يشكرون العمل الصّالح الذي قامت به جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين لِرفع حالة إخوانهم المسلمين من الجهة الأدبيّة والأخلاقيّة والذي هو روح الفكرة الفرنسويّة ويُوجّهون لرئيس الجمعيّة المذكورة الوجيه الأستاذ عبد الحميد بن باديس احترامهم ويشكرون سعيه ويضمنون له الاتّحاد معه في هذا العمل)[2]

مع العلم أن باتنة في ذلك الحين كانت معقلا للطرق الصوفية، وخصوصا الطريقة الرحمانية، وكان دورها لا يقل عن دور الطريقة العلاوية أو الرحمانية في بلاد القبائل، سواء من الناحية العلمية أو الناحية السياسية والعسكرية، كما سنرى ذلك بتفصيل عند الحديث عن المشروع الإصلاحي للطرق الصوفية.

وقد كان لهذا الشحن الطائفي آثاره الخطيرة على وحدة المجتمع الجزائري، وعلى تسامحه مع المخالف، وتعدى الأمر الكلام ليصل إلى العنف بمختلف أشكاله، كما سنرى في الباب الثالث.

ثانيا ـ تضييع المكاسب والطاقات:

فقد كان في إمكان الجمعية في حال التوافق أن تكتسب الكثير من المواقع المهمة والطاقات التي تستطيع من خلالها أن تؤدي رسالتها، وأن تصل إلى أكبر عدد من الجزائريين، لكنها للأسف فرطت فيها بناء على نظرتها الاستئصالية الإقصائية.

ونحب أن نذكر هنا نماذج عما خسرته الجمعية، وخسره معها الشعب الجزائري من مكاسب وطاقات كان يمكن توظيفها في التثقيف والتهذيب والإصلاح، لكنه بسبب التسرع في المواقف تحولت إلى أدوات للصراع.

تضييع المكاسب:

---

[1] خير الدين، المذكرات: 2/118.

[2] جريدة الصراط العدد الخامس، قسنطينة يوم الاثنين 26 جمادى الثانية 1352، الموافق ل 16 أكتوبر 1933، ص3.

لا يمكن تعداد المكاسب التي كان يمكن للجمعية أن تستفيد منها في خدمة هدفها الإصلاحي، والتي حال بينها وبين تحقيقها ما حصل من شقاق، ولكنا مع ذلك سنكتفي – من باب المثال- على الناحية الإعلامية التي كان لها تأثير كبير في توجيه الرأي العام في الصالح العام.

ولعل أحسن مثال على هذه الناحية ذلك الشقاق الذي حصل بين الجمعية و(جريدة النجاح) باعتبار أن صاحبها كان من أبناء الطرق الصوفية[1]، ولذلك تخلت عن دعمها للجمعية بعد أن ناصرتها في بداية تأسيسها، بل تحولت إلى مواجهتها والصراع معها.

مع العلم أنها أتاحت المجال لابن باديس لنشر مقالاته الإصلاحية – مع علمها بتوجهه الفكري- قبل أن يحصل ما حصل[2]، فقد كان يكتب فيها تحت عنوان (خطرات الأسبوع) فقرات مختصرة طرح فيها الكثير من القضايا الإصلاحية، واستمرت لأكثر من سنتين[3]، وكان يمضي فيها باسم مستعار هو (العبسي)[4]

---

[1] يقول الشيخ أحمد حماني : (أما جريدة النجاح فإنها من أوائل الجرائد العربية بروزا إثر الحرب العالمية الأولى أسست عام 1919 م بمدينة قسنطينة ومؤسسها هو السيد عبد الحفيظ بن الهاشمي من آل زاوية (سيدي علي بن عمر) بطولقة الرحمانية) (أحمد حماني: صرا ۶ بين السنة والبدعة أو القصة الكافة للسطو بالإمام عبد الحميد بن باديس، ج1، ص 128)

[2] يذكر البعض أن ابن باديس كان من المؤسسين لها، وهذا غير صحيح، فقد كان مجرد كاتب فيها.

[3] وكان آخر عدد لها يوم 28 مارس 1925، العدد 201، وقد ورد في جريدة النجاح هذا العنوان:(خطرات الأسبوع، تحت هذا العنوان رغب منا أحد الكتاب أن نفسح له مجالا يكون درسا جامعا للعبر والحوادث والانتقادات واللمح التاريخية وغير ذلك من القواعد المتنوعة خدمة للعلوم والحقائق وسعيا وراء الواجب الذي يقضي بالعمل المتواصل، وعليه فقد لبينا هذا الاقتراح الجليل تحت الإمضاء أسفله (العبسي) (فسم التحرير ; خطرات الأسبوع، النجاح، ع 172 يوم 12 سبتمبر 1924، ص 2)

[4] وقد كان إمضاء مستعارا لابن باديس في النجاح وغيرها، انظر: أحمد حماني ; الصراع بين السنة والبدعة، ص 128.

تضييع الطاقات:

وهي كثــيرة جــدا، من المثقفين وغــيرهم من أبنــاء الزوايــا أو المؤيدين لها، والذين انلقبوا على الجمعيـة بمجـرد إعلان صـراعها مع الطرق الصوفية.

وكمثال على ذلك (مامي إسماعيل) رئيس تحرير جريدة النجاح الذي أشرنا إليه سابقا، والذي استطاع باجتهـاده أن يصـل بجريـدة النجاح إلى نواح كثيرة في الجزائر، وكانت الشهاب تثني عليه، بـل كان ابن باديس نفسه يستفيد منه، كما قال الشيخ أحمـد حمـاني: (كان يحب الشيخ ابن باديس (يقصد مامي) ويأتيه بأسرار الإدارة الفرنسية ويطلعه على بعض ما يدبر من مكائد، وهـذا مـا جعلـه لا يقطع صلته به)[1]

وكان هو أيضـا من مؤيـدي تأسـيس جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين إذ كتب مقالا حولها بعنوان (جمعية العلمـاء منـة كـبرى يجود بها القرن العشرون) وقـال : (إذا جـاء موسـى وألقى العصـا فقـد بطـل السـحر والسـاحر)[2] ويعـني بـذلك أن جمعيـة العلمـاء المسلمين هي عصا موسـى الـتي تلتهم كـل الجمعيـات أو تقضـي عليها.

لكنه بعد الذي حصل تراجع، وكان من الطبيعي أن يــتراجع، فلا يمكن أن يظل على تأييده لجهة لا تريد إلا استئصاله.

ثالثا ـ تأسيس جمعية علماء السنة :

مـع أن تأسـيس هـذه الجمعيـة الإصـلاحية لا يمكن اعتبـاره من النتائج السلبية، لكنـا جارينـا الواقـع المعمـول بـه في اعتبـاره من الآثار السلبية، لنطرح فيه موقف الجمعية منها.

وقبل أن نطرح موقفهـا منهـا نقـدم لهـا بتعريـف مختصـر، فقـد تأسست جمعية علماء السـنة رسـميا بتـاريخ 15سـبتمبر 1932م، وكان السـاعي إلى تأسيسـها الشـيخ المولـود الحـافظي الأزهـري الذي كان عضوا في المجلس الإداري لجمعيـة العلمـاء المسـلمين

---

[1] أحمد حماني : صراع السنة والبدعة، ص 131.

[2] مامي إسماعيل: جمعية العلماء منة كبرى يجـود بهـا القـرن العشـرين، النجـاح، العدد1229، يوم09-09-1931

الجزائريين عند تأسيسها سنة 1931م، وكان يمثل اتجاه الطرقيين في الجمعية في ذلك الحين، لكن بعد تلك الأحداث التي حصلت يوم 23 ماي 1932م اجتمع رؤساء الزوايا والموظفين الدينيين في الإدارة الحكومية وأسسوا هذه الجمعية، ومن مبادئها التي أعلنوها في قانونها الرسمي أنها (جمعية إسلامية تعليمية خيرية.. وأنها تمتنع عن الخوض في الأمور السياسية، وعن كل ما يمكن أن يثير الاضطراب بين الفئات الدينية، والعصبية.. وأنها تهدف إلى إحياء السنة، والتقاليد، ونشر لفضيلة والتمسك بالأخلاق وفقا لما جاء في الكتاب والسنة، وتعاليم المذاهب الأربعة، ومبادىء الفقه والتصوف والدين الإسلامي)[1]

انطلاقا من هذا، وقبل أن نذكر مواقف رجال الجمعية منها نحب أن نبين الموقف الحضاري المفترض من جمعية تأسست على مبادئ واضحة مقبولة، بعد أن رأت نفسها لا تنسجم مع جمعية أخرى، وهو ما يحدث كثيرا في الواقع، بل ما تمليه طبيعة النفس والمجتمع المبنية على التعدد.

كان الموقف الحضاري - كما نتصور - يتطلب من كلتا الجمعيتين أن تتعاونا في الأهداف المشتركة، وأن تترك كل جمعية للأخرى ميدانها الذي تريد أن تتخصص فيه.

لكن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعاملت مع القضية على خلاف ما يمليه هذا السلوك الحضاري، وكان مبدأ ذلك اعتبار انشقاقها وكأنه انشقاق عن جماعة المسلمين التي لا يحل مخالفتها ولا الخروج عليها.

ونحن لا نستطيع في هذا المحل الضيق أن نستعرض جميع ما كتب في الموضوع، ولذلك نكتفي برأس من رؤوسها الكبار، بل منظرها الأكبر الشيخ البشير الإبراهيمي، فقد ذكرها وأرخ لها، ونحب أن نقتطع هنا من حديثه عنها بعض المقاطع لنرى من

---

[1]) انظر : أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، 1985م، ص 180.

خلالها كيف يتعامل الإبراهيمي، وكيف تتعامل الجمعية مع المخالف لها الذي استعمل حقا شرعيا وقانونيا، ومن باب التبسيط، وتيسير التعليق نضع ذلك على شكل عناوين وعناصر:

1 ـ **اتهامها في أهدافها**: وأنها أسست لأجل محاربة جمعية العلماء ومضارتها على الرغم من أن قانون الجمعية لا ينص على ذلك، يقول الإبراهيمي: (لم يقف العليويون وأذنابهم عند حدّ ذلك الهجوم الذي كان أوله كيدًا وآخره فضيحة، بل أجمعوا أمرهم وشركاءهم وقرروا في اجتماع تولى كبره رئيسهم الأكبر أحمد بن عليوه محاربة جمعية العلماء بكل وسيلة وبكل قوّة، وتقاسموا على ارتكاب ما يحل وما يحرم في هذا السبيل، وانفتقت لهم الحيلة بإرشاد بعض أذناب الإدارة على تأسيس جمعية طرقية في معناها وحقيقتها، حلولية في باطن باطنها، علمية في ظاهرها وما يراه الناس منها ليوهموا العامة أنهم يحاربون العلم بالعلم، لا العلم بالجهل، فبثوا في الزوايا وعبيدها دعوة جامعة إلى تكوين هذه الجمعية التي وصفوها بأنها جبهة قوية تقف في وجه الإصلاح وتنازل جمعيته وجهًا لوجه ودارًا لدار بعد أن لم يبق أمل في إسقاطها بالحيلة، أو الاستيلاء عليها بالمكر)[1]

هذا ما ذكره الإبراهيمي للأسف، بهذه اللغة الممتلئة بالاتهامات الجزاف الخالية من أي منهج علمي، ولا أدلة علمية، بل إن الأدلة العلمية من أصحاب هذه الجمعية تناقض ما ذهب إليه، وسنرى ذلك بتفصيل عند الحديث عن محاولات الصلح التي قام بها الحافظي، ورفضت جميعا.

2 ـ **اتهامها في أعضائها**: وأنها أسست من (علماء مأجورين، وطلبة مدحورين، من كل من في عنقه للزوايا مِنَّةُ الخبز، ولها عليه فضل التعليم الأشل، وله فيها رجاء العبد في سيده، من تلك الطائفة التي لا ترعى للعلم حرمة، ولا تشعر له في نفوسها بعزة ولا كرامة)[2]، وغير ذلك من الأوصاف الكثيرة لأعضائها مع كون الكثير منهم علماء لا يزالون محترمين، وكتاباتهم

---

[1] آثار الإبراهيمي: (1/188)

[2] آثار الإبراهيمي: (1/188)

تشهد لهم بذلك.
فقد حضر مجلسها التأسيس علماء محترمون من جميع أقطار الجزائر، فبالإضافة إلى رئيسها الشيخ المولود الحافظي الأزهري الشهير بالفلكي حضر الشيخ العربي التواتي من غليزان، والشيخ ابن الهاشمي بن بكار من معسكر، والشيخ علي بن السنوسي الشطي من معسكر، والشيخ حسين بن قريد من معسكر، والشيخ أحمد بن قيطون، والشيخ أحمد الشاذلي بن الشيخ عبد الرحمن الميسومي من قصر البخاري، والشيخ أحمد لكحل شاعر العاصمة وهو ابن السيد يحيى لكحل رئيس اللجنة التنفيذية للجمعية في الجزائر العاصمة، والشيخ إبراهيم بن شناف من الأغواط، والشيخ الجيلالي يبن عبد الحكيم من العطاف، والشيخ محمد الفضيل الزواوي من الأربعاء ناث ييراثن، والشيخ ابن إبراهيم أحمد بن الحاج مصطفى من قرية تاحميرت بفرندة، والشيخ محمد الشريف بن السعيد من زاوية سيدي منصور بتيزي وزو، والشيخ محمد العيد مفتي سور الغزلان، والشيخ محمد العشي من زاوية سيدي الحسين بن الحسن بضواحي قسنطينة، والشيخ مصطفى بن المكي بن عزوز من عين البيضاء، والشيخ ابن شعبان الحاج محمد القريشي إمام مسجد الأربعين شريفا وشيخ الزاوية الحنصالية بقسنطينة، والشيخ حسن الطرابلسي من عنابة، والشيخ مصطفى بن الفخار مفتي المدية آنذاك[1].
والخطر الأكبر في هذا الاتهام أنه لا ينصب فقط على أعضاء الجمعية، بل ينصب على جميع المثقفين الجزائريين ممن لم تتح لهم الفرصة ليذهبوا للزيتونة والأزهر، مع كون التعليم في الزوايا في ذلك الحين لا يقل عن التعليم في الزيتونة والأزهر.
لكن السر كما ذكرنا سر نفسي، يعود إلى احتقار الجمعية للتعليم الجزائري، واعتبارها أن المتعلم هو ذلك الذي وصفه رسول الله ﷺ، فقال: (إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال

---

[1] للتعرف المفصل على تراجم هؤلاء العلماء وآثارهم انظر: محمد بن إسماعيلي، مشايخ خالدون وعلماء عاملون، ط4، 1421-2001.

الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها[1][2]

3 ـ **اتهامهـا في نياتها**: وأن أعضـاءها - بعلمـائهم وطلبـة علمهم - (اجتمعوا كلهم على النداء من كل صـوب كضـوال الإبـل، وحشروا في غمـرة من الـذهول أوهمتهم أنهم سيصـبحون بفضـل سـادتهم مشـائخ الطـرق، وبجـاه مـوالاتهم للحكومـة مـوظفين (مُنَيْشَنِين[3][4]

بعد هذه الاتهامات يسـخر الإبـراهيمي من هـذه الجمعيـة لكـون رئيسها خرج (إلى الأمة يسألها المال والتأييد، فقابلته بما يسـتحق من طرد ومقت، ولم يمض إلّا قليل حتى حلّ الله مـا عقـدوا، وتَبَّرَ ما شـيدوا، ورأى النـاس عـبرة العـبر في انهيـار الباطـل وانخـذال أهله، وعدوها من عجائب صـنع اللـه لجمعيـة العلمـاء المسـلمين، وقرأوا قوله تعالى: { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ } [الرعد: 17])[5]

ومن العجيب أن ينكر الإبراهيمي عليهم هذا السلوك مع كونـه - مـع أعضـاء جمعيتـه جميعـا - يمارسـونه، بـل إن الشـيخ العـربي التبسي ذهب إلى أعظم من ذلـك حين أبـاح لفقهـاء الجمعيـة أن يستفيدوا من الزكاة حـتى لـو كـانوا أغنيـاء مـا دامـوا (قـد حبسـوا جهودهم وعلـومهم وحيـاتهم للجهـاد في سـبيل الإسـلام، ونشـره، والدفاع عنه. أما فقهـاء السـوء طلاب الـدنيا فإننـا لا نقـول بجـواز أخذهم من الزكاة)[6]

---

[1] التخلـل في الكلام : التشـدق وتفخيم اللسـان فيـه. تخلـل البـاقرة : البقـرة أي التشدق في القول ولفه كلف البقرة للكلأ.

[2] أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة – القاهرة، 3/165.

[3] من (النيشان) وهو الوسام، أي مُوَسَّمِين.. حاملى الأَوْسِمة

[4] آثار الإبراهيمي: (1/189).

[5] آثار الإبراهيمي: (1/189).

[6] انظـر: جريـدة البصـائر، السلسـلة الثانيـة، السـنة الثالثـة، عـدد 119، الاثـنين 15/ماي/1950م الموافق 28/رجب/1369هـ، ص 2.

ثم هـل هنـاك جمعيـة في الـدنيا لا تبحث عن المعونـات حـتى تحقـق أهـدافها، ولـو طالعنـا جرائـد الجمعيـة من هـذه الناحيـة، واهتمامها بجلب المعونات المادية لألفنـا في ذلـك أسـفارا كثـيرة، ويطيب لنا هنا أن نستعمل أسلوب الإبراهيمي في ضرب الأمثـال، فنقول: (رمتني بدائها وانسلت)[1]

بعد هذا نحب أن نبين أثرا خطيرا لهذا الذي طرحه الإبـراهيمي، وهو مرتبط بواقعنا لنعرف من خلاله أننـا لا زلنـا أسـارى لتقـديس الأشخاص لا لتقديس المبادئ.

وهـو موقـف مؤسـف من رجـل أكـاديمي يـتزعم الآن جمعيـة العلماء المسلمين الجزائـريين، وهـو الـدكتور عبـد الـرزاق قسـوم الذي أدلى بتصريح لجريدة واسعة الانتشـار بين العـوام والمثقفين يقــول فيــه: (إن الخلاف بين الجمعيــة (يقصــد جمعيــة العلمــاء المسلمين) والزوايا يعـود إلى زمن تأسـيس جمعيـة العلمـاء الـتي ضمت جل علماء الأمـة، بمـا في ذلـك بعض شـيوخ الزوايـا الـذين تصدوا لمحاربة الاستعمار الفرنسـي، فعمـد هـذا الأخـير إلى شـق الصـف بإنشـاء جمعيـة (السـنة)، كـان المعـنيون يتهمـون جمعيـة العلمـاء المسـلمين بكونهـا جمعيـة سـلفية، بعيـدة عن نهج السـنة العطرة.. وفرنسا عملت على بعث جمعية مناهضة لجمعية العلماء من خلال استعمال مصطلح يحقق إجماع المسلمين، هي السنة)[2]

ولسنا ندري ما مصدره على هذه المعلومة الخطيرة، وهي كون فرنسـا هي الـتي أوحت للحـافظي وللشـيخ ابن عليـوة ولمشـايخ الهامل وغيرهم من مشـايخ الزوايـا بـأن يسـموا جمعيتهم (جمعيـة السنة)؟ ثم متى كانت السنة حكرا على جمعية العلماء أو غيرهـا؟ ثم متى حوسب الناس على الأسماء التي يختارونها لأشخاصـهم أو

---

[1]) هو مثل يضرب لمن يعير صاحبه بعيب هو فيـه، فيلقي عيبـه على النـاس ويتهمهم بـه، ويُخـرج نفسـه من الموضـوع، انظـر المثـل في أبـو القاسـم محمـود بن عمـر الزمخشـري، المستقصـى في أمثـال العـرب، دارالكتب العلميـة – بـيروت، الطبعـة الثانية، 1987، 2/103.

[2]) راجع مقال زهية منصر في الشروق اليومي حول الطرق الصوفية والسياسة في الجزائر، بتاريخ : 22 - 12 - 2011.

لأي شيء يشاءونه؟، ثم هل العبرة بالأسماء أم بمحتوياتها؟
نـترك هـذه الأسـئلة جميعـا للبـاحثين لينصـفوا هـذه الجمعيـة المظلومة التي ظلمتها جمعية العلماء السابقة واللاحقة، والعجيب رميها بكونها صناعة استعمارية، ولو كانت صـناعة اسـتعمارية لمـا أجهضت بعد شهور من تأسيسها، ثم يستشـهد رئيسـها من طـرف الاستعمار لا من طرف جبهة التحرير الجزائرية[1].
ونــرى من خلال بعض البحث في هــذه الجمعيــة أن الاسـتعمار كان هو السبب في توقفها، فلم يكن يرضى بحال من الأحــوال أن تعود للطرق التي حاربته أي سلطة في المجتمع خاصــة إذا دعمت تلك السلطة بالوسائل والأساليب الحديثة.

المبحث الثاني

[1] لا ينكر على الحافظي وطنيته الصادقة، فهو الذي عكف على دعـوة النـاس إلى الوحدة ونبذ الفرقة، ورفض الواقع الذي فرضه الاحتلال الفرنسـي وأن يصـروا على التغيير بقدر استطاعتهم وأن ينهضوا فوق الأحداث ويهتموا بتربية أبنائهم حتى يكونوا عدة للمستقبل، داعيا في سلسلة مقالاتـه الـتي نشـرها تحت عنـوان (العلم والأدب وحالــة الجزائــر) عن الإصـلاح والمصـلحين إلى معرفــة أدواء الأمــة والإخلاص في معالجتها، كما عني بالتجنس الذي قال فيه: (بنصرة الدين وتقـوى اللـه وطاعـة اللـه ورسـوله فيمـا جـاءت بـه الشـريعة السـمحة، هي شـروط العـزة والسـيادة والقـوة والسلطان والذين ضـيعوا عـزة اللـه وضـاعت منهم العـزة وهي في متنـاول أيـديهم وفي إمكانهم الحصول عليهـا أصـبحوا يتطلبونهـا بطريــق التجـنيس علهم أن يكونـوا أعزاء مثل الذين يلحقون بهم وينتسبون إليهم في عزتهم، ولكن الله سبحانه وتعالى مكر بهم ورد كيدهم في نحـورهم بجعلهم أذلاء وأذنابـا للـذين حـاولوا المسـاواة بهم في عــزتهم فــإن القــانون الآن اعتــبر التجنس في درجــة متوســطةبين الأهلي غــير المتجنس وبين الفرنســي الأهلي، فالفرنســي الأصــلي أكــبر مقامــا من المتجنس المتفرنس وهذا أق منه بكثير، بل الأدهى والأمر أن المسـلم التجنس المتفـرنس أق شأنا ن اليهودي والاسبنيولي والطلياني والمالطي المتجنس المتفـرنس ...) (انظـر: الأستاذ محمد الصالح الصديق، أعلام من المغرب العربي، الجزء الأول، موفم للنشر والتوزيع- الجزائر 2000، ص386)

العلاقة الشخصية بين الجمعية والطرق الصوفية

بعـد تعرفنـا على المواقـف الرسـمية للجمعيـة من الطـرق الصوفية، وما ساد فيها من أجواء مشحونة بالحرب والصراع، فـإن المنهج العلمي يقتضـي منـا أن لا نحكم على كـل أعضـاء الجمعيـة بتلك الخلال التي سبق ذكرها إلا بعد دراسـة المواقـف الشخصـية لكل فرد من الجمعية، وذلك لسببين:

الأول: أن أعضـاء الجمعيـة – كمـا ذكرنـا سـابقا- لم تقتصـر تلمذتهم على مدرسة واحدة، وبالتالي اختلفت مواقفهم شدة ولينا بحسب ما أشـربوا من أفكـار، ذلـك أن الكثـير منهم إنمـا انتسـب للجمعية بناء على اقتناعه بمشروعها الإصـلاحي أكـثر من اقتناعـه بتوجهها الفكري، وقد ذكرنـا في الفصـل السـابق مثـالا على ذلـك بالشـيخ العيـد القـادري، والـذي حـول من زاويتـه إلى مدرسـة للإصلاح، وليس لنا أي مصدر يدل على أن الشيخ تـرك تيجانيتـه أو توجهه الصوفي.

والثاني: أن المواقف الشخصية ترتبط بسلوك الشخص وأدبـه مـع المخـالف، أكـثر من ارتباطهـا بـالنواحي العلميـة أو التوجهـات الفكرية، والتي سنرى أن أعضاء الجمعية يكادون يتفقون عليها.

وقد وجدما لنـا من خلال اسـتقراء المواقـف المختلفـة لجمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين من أصـحاب الطـرق الصـوفية موقفين متباينين أحدهما متشدد، والثاني معتدل، ولكليهما درجات مختلفة قوة وضعفا.

والمعيـار الـذي وضـعناه لهـذا التقسـيم لا علاقـة لـه بالأفكـار والتوجهات الإصلاحية، ذلك أنا قد ذكرنا اتفاق الجميـع على اعتبـار وقوع الانحراف في الطرق الصوفية، وبعـدها بالتـالي عن الإسـلام الصحيح.

ولكن الفـرق بين هـذه التوجهـات الشخصـية يتمثـل في كيفيـة التعامـل مـع الآخـر، سـواء على المسـتوى الفكـري، أو المسـتوى الشخصي.

فعلى **المستوى الفكري**، نجد المتشـددين المغـالين يصـمون آذانهم عن سماع ما يطرحه الآخر من أفكار وأدلـة، لأنـه يعتـبر أن كل ما يأتي به المخالف كفرا وضلالا وبدعـة، ويـرى لأجـل هـذا أن

منهج التعامل معه هو الاستئصال والتشهير لا الإصلاح والتوجيه، بينما نجد المعتدلين أخف حدة، وأكثر إقبالا على تقبل الآخر ومناقشته.

وعلى **المستوى الشخصي** نرى المتشددين يميلون إلى استعمال العنف اللفظي والأحكام المشددة على خلاف المعتدلين الذين هم أكثر لينا وسماحة.

ونحب - قبل أن نذكر نماذج عن هذين الموقفين ودوافعها – أن ننبه إلى صعوبة التصنيف العلمي الدقيق لرجال الجمعية بهذا الاعتبار، وذلك لسببين:

السبب الأول: أن البعض ممن نعتبرهم معتدلين يقفون في بعض المواقف مواقف المتشددين من حيث عدم سماع الآخر، أو عدم احترامه، والعكس صحيح، وكمثال على ذلك موقف ابن باديس والزاهري من الطريقة التيجانية.

فعلى الرغم من اعتبار الشيخ ابن باديس عند أكثر الباحثين من المعتدلين في مواقفهم إلا أنه في موقفه من التيجانية خصوصا كان متشددا غاية التشدد، فقد أفتى بكفرهم في رسالته التي خصصها عنهم، والتي يقول فيها بعد أن بسط الأدلة كما تصورها وكما سئل عنها، من غير أن يرجع إلى ما يقول علماء التيجانية في الإجابة عنها: (لهذه وغيره نقول أن الطريقة التيجانية ليست كسائر الطرق في بدعها، والمشاهد اليوم من أضرارها، ودعنا من حديث ماضيها بما فيه، بل هي طريقة موضوعة لهدم الإسلام تحت اسم الإسلام، فإن كتبها وأقوال أصحاب صاحبها مطبقة على هذه الأفكار وأكثر منها فلا تجد في كتبهم ما هو خالص منها حتى يمكن أن يكون هو الأصل وأن غيره مدسوس وإنك لتجد هذه الكتب محل الرضى والقبول والتقديس عند جميع أتباع الطريقة عالمهم وجاهلهم. ولو كان عالمهم بالكلمة المنسوبة إلى صاحب الطريقة، والله أعلم بصحة نسبتها: (زنوا كلامي بميزان الكتاب والسنة) - لأعدموا تلك الكتب أو حرموا على جماعتهم قراءتها أو حذفوا منها هذه الكفريات والأضاليل وأعلنوا البراءة منها للناس لكن شيئا من ذلك لم يقع. وإنما يطنطنون بتلك الكلمة قوليا ويقرون تلك الكتب وما فيها علميا. وماذا يفيد القول مع التقرير والعمل. ولهذا رغم من كان في هذه الطريقة من أناس مشهورين بالعلم كالشيخ الرياحي فإن الحالة هي الحالة وتلك

الكفريات والأضاليل فاشية منتشرة في اتباع الطريقة إلى اليوم)[1]
وفي المقابل نجـد الزاهـري الـذي يعتـبر من المتشـددين، وفي الفـترة الـتي كـان فيهـا في قمـة عنفـوان تشـدده يكتب مؤيـدا التيجانية، ويثني على شيخها، بل يعتـبره من المتـأثرين بالمدرسـة الوهابية[2].

السبب الثاني: أن الكثير من أعضاء الجمعية تغيرت مواقفهم لأسباب مختلفة، وبالتالي يمكن اعتبارهم في مرحلة من المراحـل ضمن المتشددين، وفي مرحلة أخـرى ضـمن المعتـدلين، والعكس صحيح، ونحب أن نذكر لهذا مثالين، أحدهما عن انقلاب المعتـدلين إلى متشددين، والثاني عن انقلاب المتشددين إلى معتدلين:

المثال الأول: نشرت جريدة الشـهاب في العـدد 82 الصـادر يوم الخميس 30 رجب 1345 هـ/ 3 فيفـري 1927 م، استفسـارا وتسـاؤلا من مـواطن رمـز لنفسـه باسـم (مسـتبين) تحت عنـون: (طلب الحقيقة)، ومما جاء فيه: (.. منذ اجتماع العلويين في جامع سيدي رمضان ونحن في حيرة والتماس حقيقة مما صدر من أحـد أعيان العاصمة وهو الشيخ محمـد الشـريف الزهـار الإمـام بجـامع جـده (رضـي اللـه عنـه) من وقوفـه بـذلك المحفـل وإلقائـه لتلـك الخطبة التي كادت أن تنشق لها السموات ومدحه لـذلك الشـيخ[3] مدحا مفرطا أدهش الحاضرين، ودونك أيها القـارئ ملخص قولـه: (أيها السادة إني قد كنت قبل الاجتمـاع بهـذا الرجـل العظيم أنكـر عليه أقواله وأفعاله واقدح فيه وأسبه وأقول لأتباعـه: إن شـيخكم لَّدعي زنـديق بـل كـافر، ومـا أشـبه ذلـك والآن لمـا اجتمعت بـه، والحمد لله فقد ظهر لي ما كان خافيا عني من الأسـرار والأنـوار، وها أنا تائب مما قلته واشهد انـه ولي كامـل زاهـد... الخ)، فباللـه متولي السرائر هـل كـانت حقيقـة اعتقـادك أيهـا الإمـام في ذلـك القطب ما فهمت به الجمهور، أم كان نطق لسانك مغايرا لجنانـك فأصدقنا أرشدك الله حتى ترتفع عنا الحيرة وننجو من الوقوع في

[1] آثار ابن باديس: (3/148)

[2] كمثال على ذلك انظر: الزاهـري؛ هـل كـان الشـيخ التيجـاني وهابيـا؟ حقـائق من التاريخ لا يعلمهن كثير من الناس. الصراط. ع7. س1. 30-1933 - 10. ص 4.

[3] يقصد الشيخ ابن عليوة.

المحــذور اقتــداء بــك حيث كنت إمــام مســجد شــريفا بــل نقيب الأشراف، وابن عائلة موصوفة بالصدق والكمـال، فكيـف محضـت في هذا المجال فعجل بالجواب على كل حال)

وقد جاء الرد سريعا من الشيخ محمد الشريف الزهار، فلم يكد يصدر العدد التالي[1]، أي بعـد أسـبوع من صـدور الاستفسـار حـتى كتب ردا بعنـوان (الجـواب بـالبراءة)، يقـول فيـه: (الشـهم الغيـور مــدير جريــدة الشــهاب الأغــر... ســلاما واحترامــا.. اطلعت في جريـدتكم السـمحا عـدد 82 على سـؤال عنوانـه (طلب الحقيقـة) بإمضاء (مستبين) مضمنه اجتماع العلويين بمسجد سيدي رمضان، وخطبتي في ذلـك الاجتمـاع ومـدحي لـذلك الشـيخ مـدحا مفرطـا وطلب مني الكاتب حقيقة اعتقادي.. فأقول ولا أخشـى لومـة لائم لتظهر الحقيقة وضاحة الجبين، وأشهد الله الذي يعلم خائنة الأعين ومــا تخفي الصــدور أنــني بــرئ من بــدع المبتــدعين وخــزعبلات المتصوفين وشعوذة المشعوذين ونصرة السفاكين...أحب العلمـاء العاملين والأوليـاء المتقين طريقـتي الكتـاب والسـنة.. بلغـني عن الطائفــة العليويــة وشــيخهم (المــربي) من الأســرار والأنــوار مــا شــوقني إلى مشــاهدة رؤيتهم فــاجتمعت بالشــيخ وأصــحابه في مسجد جدي محمد الشريف الزهار (رضي الله عنه)، فكان كلامــه في الصلاح والإرشاد والوقوف على حدود الشـريعة ونفـع العبـاد.. فأعجبني ذلك وحمـدت اللـه على وجـود رجـل مثـل هـذا في هـذا الزمـان، خطبت خطبـتي الـتي لا أنكرهـا، ولكن لمـا أطلعت على حقيقــة أمــرهم وحللتهـا تحليـل الحكيم الكيمـاوي، تمثلت بالمثـل السائر (ما أنت أول سار غـره قمـر) فتـبين لي الرشـد من الغي، وظهر الأمر على خلاف ما كنت أظن من أمور مصـادمة للشـريعة لا ينبغي السكوت عنها، ولا يسـع إنكارهـا، وبَّختهم عليهـا مشـافهة وحذرتهم من سوء عاقبتها عملا بقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَـإِنَّ الـذِّكْرَى تَنفَــعُ الْمُــؤْمِنِينَ } [الــذاريات: 55] فــأبو وأصــروا على فعلهــا، فتكلمت مع الشيخ نفسه ليزجرهم عن ذلك فتبسم وسكت، فلمــا علمت أن القوم اتفقوا على الضلالة نبذتهم نبـذ النـواة، وهجـرتهم

[1] الشهاب، العدد 83 : الخميس 7 شعبان 1345هـ/ 10 فيفري 1927م.

وقطعتهم، وقلت لهم: هذا فـراق بيـني وبينكم لأن الحب في اللـه والبغض في الله، فقد تحققت صدق مـا هـو شـائع عنكم من هتـك الدين باسم الدين، وحمدت الله حيث أخرجـني من الظلمـات إلى النور وشاهدت الأمـر عيانـا فليس من رأى كمن سـمع.. فتأسـفت على ما صدر مني واستغفرت الله عسى أن يغفر لي ورجعت إلى الحق أفضل من الباطل، هذا هو اعتقادي أيهـا السـائل، وهـذا هـو ديني الذي أدين الله به، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (1)

المثال الثاني: وهو عن انقلاب المتشددين إلى معتدلين، وهو يمثل كثيرا من أفراد الجمعية، والذين يمكن تصنيفهم في المراحل الأولى من حياتهم ضمن طائفة المتشددين المغالين في تشددهم، ولعل أوضح مثال على هؤلاء الشـيخ محمـد سـعيد الزاهـري، فقـد كـان من المتحـاملين المتشـددين في تحـاملهم على التصـوف والطرق الصوفية، فقد كان - مثلا- يرمي الشيخ ابن عليوة بـالكفر والشرك والإلحاد، فيقول عنه: (يكفر عن تقليد ويشرك عن تقليد، ويلحد عن تقليد، فليس لـه مـذهب، ولا رأي فيمـا يكفـر، ولا فيمـا أشرك، ولا فيما ألحد، ولا فيما آمن، إن كـان يـزعم أنـه يكـون في بعض الأحيان من المؤمنين) (2) بالإضافة إلى النعوت الكثـيرة الـتي كان ينعته بهـا، والـتي سـبق الإشـارة إلى بعضـها، لكنـه بعـد ذلـك تراجع تماما عن هذه الرؤيـة، بعـد أن انشـق على جمعيـة العلمـاء عـام 1937، ثم أسـس عـام 1938 جريـدة الوفـاق، وشـارك في مؤتمر الزوايا.

ومثله أحمد توفيق المدني الذي كتب في (كتاب الجزائر) يشـيد بـابن عليـوة وزاويتـه، ويعتـبره معينـا على نشـر الفضـيلة وحفـظ الرابطة القومية الإسلامية، وينقل عنه إنكاره على حـزب الإصـلاح عنفه وشـدته في مهاجمـة الطرقيـة، وخصوصـا العلاويـة، أمـا في مذكراته - وباستثناء الوثائق المتعلقة بنازلة آذان غرداية- فقد غـير

---

1) جريـدة الشـهاب رقم العـدد 83 : الخميس 7 شـعبان 1345هـ/ 10 فيفـري 1927م.

2) تأبـط شـرا: قـوارص!... أيتهـا الفلتـاء المتشـردون. الـبرق. ع7، س1، 17/10/1927، ص3.

موقفه إلى النقيض تماما؛ وقد عبر عن ذلك التحـول عمليـا عنـدما أصبح وزيرا للأوقاف في الجزائر المستقلة[1]؟

بناء على هذا التنبيه نحـاول في هـذا المبحث أن نصـنف أعضـاء الجمعية الكبار على هذا الأساس مع محاولة التعرف على أســباب وخلفيات ذلك التوجه.

وقد قسمنا المبحث على هذا الأساس إلى قسمين:

المطلب الأول: الموقف المعتدل:

وقد أشرنا إلى أن الضابط في هذا الموقف هو قبـول الآخـر، أو التعامل بلين معه، ولو في بعض المواقف، ومن خلال استقراء مـا كتبه وما قام به كبار رجال الجمعية وجدنا أن هذا الوصـف ينطبـق أحســن انطبــاق على شخصــيتين من كبــار أعضــاء الجمعيــة المؤسسين، وهما الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ أبــو يعلى الزواوي.

بالإضافة إلى هذا هناك شخصيات كثيرة كالشيخ العيد القــادري، ومبروك التبسي وغيرهما، وهذه الشخصيات – كمـا ذكرنـا – يمكن تصنيفها في إطار آخر، وهو التصوف الإصلاحي، فهم لا يتفقون مع الجمعية إلا في مشروعها الإصلاحي، ويختلفون معها اختلافا جذريا في توجهها الفكري.

بناء على هذا سنذكر هنـا - باختصـار - بعض الأدلـة على التوجـه المعتدل لكلا الشخصيتين السابق ذكرهمـا، مـع محاولـة بيـان سـر الاعتدال فيهما.

الشيخ عبد الحميد بن باديس:

عند مقارنة المواقف التي وقفها الشيخ عبد الحميـد بن بـاديس مع مواقف أكثر أعضاء من اطلعنا على تراثهم من رجال الجمعيــة يمكن اعتباره أكثرهم اعتدالا، وأحسنهم أدبا مع المخالف.

بــل إني أشـعر – من غـير أن أسـتطيع إثبـات ذلـك بدقـة – أن الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس كـان معرضـا لضـغوط من طـرف المتشددين من رجال الجمعيـة الكبـار، والـذين كـان يحـرص على

---

[1] غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعـة منتوري قسنطينة، قسم التاريخ والآثار، د.ط، د.ت، ص4.

إرضائهم، ولذلك كان يظهر أحيانا بصورة المتشدد، فلذلك كانت لغته في الخطاب مع المخالف أكثر لينا بكثير من مثيلاتها من سائر رجال الجمعية.

والذي قد يشير إلى هذا، إن لم يصح اعتباره دليلا ما ذكره الشيخ أحمد حماني عند حديثه عن الشيخ الطيب العقبي الذي كان في ذلك الحين – بسبب قدراته الخطابية – لا يقل شهرة عن ابن باديس، فقد قال: (كان أحد أقطاب الحركة الإصلاحية، وكتابها النابهين، وكان يميل في أسلوبه إلى الشدة والعنف والصراحة المريرة، بينما كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يجنح نوعا ما إلى الأخذ بالرفق واللين والدعوة بالتي هي أحسن، ويعز عليه ما وصلت إليه الحال بين كتاب الطرفين، وبعد 18 عددا من المنتقد ومثلها من الشهاب نشر الأستاذ ابن باديس في عدد الشهاب 19 مقالا تحت عنوان: (في سبيل الوفاق والتفاهم) قال عنه ابن باديس في عدد 75 (أردنا به جمع الكتاب على نقطة خاصة من الإصلاح وإيقاف ذلك التيار القوي من الكتابة الإصلاحية) ولكن هذه الدعوة لم ترق بعض الكتاب، وعلى رأسهم ـ فيما يقول الشهاب ـ العلامة المصلح الشيخ العقبي لأنه عده تحجيرا تاما ومنعا صريحا لكل كتابة في الإصلاح الديني، أو ما حام حوله، وبقي الأستاذ العقبي مصرا على المقاطعة والامتناع التام عن الكتابة، ولم يقتنع بما ذكره الشهاب من مبررات، فاضطر الشهاب إلى زيادة بيان في مقال آخر نشره تحت عنوان (في سبيل الدعوة والرشاد)، ودعا الكتاب المصلحين إلى العودة (للكتابة في نقد الدحل والدجالين، وأنه لم ولن يحجر على الكتاب الخوض في نقد أعمال الطرقيين، وإنما أوقفنا ذلك التيار القوي حيث رأينا أنه بلغ حده، ووصل إلى منتهاه)[1]

فعند ملاحظة هذا التراجع السريع من ابن باديس من موقفه الداعي إلى الاعتدال دليل أو أمارة على أنه كان حريصا على بقاء الشيخ الطيب العقبي معه لأهميته في جلب الكثير من الأعضاء للجمعية، ولكن مع ذلك لم يرض بيان التراجع الشيخ العقبي الذي بلغ به الغضب أشده بعد الحادثة التي ذكرناها من الاعتداء على ابن باديس، وحينها أعلن الشهاب بهذا الإعلان الذي توجه به للشيخ العقبي، والذي يقول: (ونحن نؤكد لحضرته ولكل من كان

---

[1]) أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة: ج2، ص26.

على شاكلته أننـا أضـربنا على ذلـك المقـال الـذي زال بـزوال مـا اقتضاه من الأحوال ورجعنا إلى خطتنا القديمة)

وقد كان لهذه الكلمة المبيحة للعودة إلى العنف في القـول أثـر كبير على الشيخ العقبي، فنشر مقالا عنوانه: (أما الآن فنعم. وقد وجب الرجوع)، وبين فيه مقدار مـا وصـل إليـه سـوء التفـاهم مـع إدارة الشهاب، وما جرى بينه وبينها من كلام[1].

هذا ما ذكـره شـاهد عيـان بنـوع من الرضـا عن موقـف الطيب العقبي، ونوع من المعاتبة لابن باديس، وهـذا مـا يـدل على البيئـة التي كان يتعامل معها ابن باديس، التي اضطرته فيما نـرى أحيانـا على بعض التشدد.

ومن ذلـك أنـه لمـا توطـدت العلاقـة بين العقـبي وابن بـاديس فراسـله ابن بـاديس سـنة 1924، مباركـا أعمالـه ومجهوداتـه في الإصـلاح، أقلـق هـذا الموقـف أصـحاب الطـرق الصـوفية، لأن ابن باديس في نظرهم كان أكثر ليونـة، ولم يرغبـوا في أن يصـير ابن باديس كالعقبي[2].

ويـذكر المؤرخـون للجمعيـة في هـذا أن ابن بـاديس سـعى الى إخمـاد نـار الفتنـة بين العقـبي والطـرق، وزاره في بسـكرة لكنـه فشل في مساعيه لصلابة موقف العقبي[3].

بالإضافة إلى هذا، فقـد عرفنـا في المبحث الأول أن الـذي قـام بالطرق المختلفة لصرف رجال الطـرق الصـوفية من الجمعيـة لم يكن ابن بـاديس، وإنمـا كـان بعض الأعضـاء ممن تـبرأت الجمعيـة منهم بعد ذلك.

بالإضافة إلى هذا عند مقارنة ألفاظ السخرية والبذاءة التي كان يعـبر بهـا الإبـراهيمي أو الزاهـري عن الطـرق الصـوفية نجـد بونـا شاسعا جدا، وسنرى هذا ببعض التفصيل عند الحديث عن أسـلوب التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

ولعل هـذه المواقـف المعتدلـة من الطـرق الصـوفية تعـود إلى نشأة ابن باديس الأولى التي كان لهـا علاقـة بالطريقـة الرحمانية، وقد ذكرنا في الفصل السابق العلاقة الحميمية الـتي كـانت تربـط

---

[1]) أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة: ج2، ص26.

[2]) بعلي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، ص168..

[3]) أحمد مريوش: العقبي، ص83..

ابن باديس بتلك الطريقة، فقد أشرف على تصحيح الطبعة الثانيــة لـ (المنظومة الرحمانية في الأسباب الشرعية المتعلقـة بالطريقـة الخلوتية) التي ألفها الشيخ عبد الرحمن باش تارزي.

وقــال في آخــر تصــحيحه للطبعــة: (نــدبني الشــيخ المــذكور مصطفى باش تـارزي إلى إعانتـه على نشـر المنظومـة الرحمانية بالوقوف على تصحيحها فلبيت طلبه راجيا من وراء ذلك أن يتـذكر الإخـوان مـا عليهم في هـذا الطريـق الشـرعي من الأدب العملي والعلمي، ويعلمـــوا أنهم لا يكفيهم في ترقيـــة نفوســـهم مجـــرد الانتسـاب الإسـمي، فيـدعوهم ذلـك إلى العلــم والتعلم اللـذين لا سعادة في الدارين بدونهما ولا تقدم، فيفقهوا حينئذ حقيقـة الـدين وينتفعوا بنصائح المرشدين، ويكونوا يوم ذلك إن شـاء اللـه تعـالى من المهتدين)

بل إنه في خاتمة الطبع بقلمه كتب يقـول: (تم طبـع المنظومـة الرحمانية ذات الأسرار الربانية الجامعة لأصول الطريقة الخلوتيـة، وآداب التربية الشرعية الدالـة على علم ناظمهـا وبركتـه بمـا نفـع الله بها من أتباعه وتلامذته)

إلى أن قال مثنيا على شيخ الطريقة الرحمانية في ذلـك الحين: (فقام بـذلك على نفقتـه العـالم البركـة الخـير الثقـة شـيخ شـيوخ الطريقــة الخلوتيــة بقســنطينة اليــوم المتحلى من أخلاق أســلافه بالنفائس الغالية السوم الشيخ سيدي مصطفى ابن الشيخ ســيدي محمود ابن الشيخ سيدي الحاج محمـد ابن الشـيخ سـيدي محمـود ابن الشيخ الأكبر سيدي الحاج عبد الرحمن باش تـارزي زاده اللــه من بره وتوفيقه وسدده في سلوك طريقه بمنه آمين)

بل أثنى عليه ثناء عطرا، فقال: (لا زال هذا الرجـل معروفـا من شبابه بجمـال العفـة، وحسـن السـمت، ومكـارم الأخلاق، والحيـاء التام، والتواضع الفطري مع جميع الناس) [1]

ولم يكن ثنـاء الشـيخ ابن بـاديس قاصـرا على رجـال الطريقـة

[1] انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، ص5.

الرحمانية، بل إنه أثـنى على الكثـير من رجـال الطـرق الصـوفية[1] مما لا نجد مثله عند أي عضو آخر من أعضاء الجمعية.

ومن الدلائل على هذا السمو الأخلاقي الذي كان يتمتـع بـه على الرغم من توجهه الإصلاحي ما ذكره عند وصـفه لرحلتـه إلى بعض المناطق في الغرب الجزائـري، فعنـدما ذكـر مسـتغانم، وعـد من لقي فيها من العلماء والمشايخ ذكر الشيخ ابن عليوة، بل قدم لـه بهذا الوصف: (من غده دعا للعشاء معنا أعيان البلـد منهم فضـيلة الشـيخ المفـتي سـيدي عبـد القـادر بن قـارة مصـطفى وسـماحة الشيخ سيدي أحمد بن عليوة شيخ الطريقة المشهورة وكـان هـذا أول تعرفنا بحضرتهما فكان اجتماعا حافلا بعدد كثير من الناس)[2]

وقد ذكر ما حصل في ذلك المجلس وبعده، ونحب أن ننقله هنـا كمـا وصـفه ابن بـاديس لأنـه يـبين كيـف كـان يمكن للعلاقـة بين الجمعية والطرق الصوفية أن تستمر لولا وجود أولئك المتشـددين

---

[1] من المشايخ الآخرين الذين أثنى عليهم ابن باديس الشيخ العلامة محمد بن عبد القادر بن عـدة البوعبدلي شيخ الزاوية الشـاذلية الدرقاوية بغليزان، وقـد قـال ابن باديس في حقه : (أول من اجتمعنا به من فضلائها الأخ الشيخ مولاي محمد أحد أهل العلم وشـيخ الزاويـة بهـا وهـذا من شـيوخ الزوايـا الـذين لهم رغبـة في نشـر العلم وهداية الناس وسعة صدر في سماع الحق وأدلته)

ومنهم (الشـيخ العـالم سـيدي مصـطفى بن طكـــوك شـيخ الزاويــة الشــاذلية السنــــوسية ببوقـيراط (مسـتغانم)، وقـد صـفه ابن بـاديس فقـال: (فــأكـــــرم نــزولنا وبتنا ليلة وودعناهم في صبيحتها، وحدثناه عن الجمعية فأظهـــر ابتهاجه بهـا وقــدم مائتي فرنك لإعانتها)

ومنهم العلامة الفقيه العــارف بالله سـيدي بوعبـد اللـه بن عبـد القـادر البوعبـدلي شيخ الطريقة الشاذلية الدرقـــاوية البوعبدلية ببطيـــوة _ ارزيو، وهـــران، وقد أكـثر ابن باديس من الثنـــاء عليه وعلى سعة تبحره في العـــــلوم فيقـــول : (نــــزلنا ضيـــوفا على العـــالم الأديب الشـيخ أبـو عبـد اللـه آل أبي عبـد اللـه، عـالم فصـيح اللســـان، صحيح الإدراك، مسـتقيم الفكــــر، مهيب الطلعـة، معـترف لـه بـالعلم والفضـــل) (انظر هذه الروايـات جميعهـا في مجلـة الشهــــاب : غــــرة شعبــان 1350 هـ / ديسمبر 1931 م)

[2] آثار ابن باديس (4/ 311)

من المتشربين للأفكار الوهابية.

ونحن لا ننقلها من باب إثبات مدى اعتدال ابن باديس فقط، وإنما ننقلها لبيان مدى اعتدال مشايخ الطرق الصوفية وخصوصا الشيخ ابن عليوة.

يقول ابن باديس واصفا ذلك المجلس، وكيف أتيح له الكلام فيه في حضور المفتي وشيخ الطريقة، وهو موقف يدل على مدى احترامهما له:(ولما انتهينا من العشاء ألقيت موعظة في المحبة والأخوة ولزوم التعاون والتفاهم على أساسهما وأن لا نجعل القليل مما نختلف فيه سببا في قطع الكثير مما نتفق عليه، وأن الإختلاف بين العقلاء لا بد أن يكون ولكن الضار والممنوع المنع البات هو أن يؤدينا ذلك الاختلاف إلى الافتراق وذكرنا الدواء الذي يقلل من الاختلاف ويعصم من الافتراق وهم تحكيم الصريح من كتاب الله والصحيح من سنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم-. فاستحسن الشيوخ الحاضرون ذلك وحل من الجميع محل القبول، والحق يقال أن أغلب الناس ممن رأينا صاروا يشعرون بألم الافتراق وينفرون منه ويصغون إلى دعوة الوفاق والتحاب)[1]

ثم يذكر ابن باديس دعوة الشيخ ابن عليوة له، فقال: (وما افترق المجلس حتى دعانا الشيخ سيدي أحمد بن عليوة إلى العشاء عنده والشيخ الحاج الأعرج بن الأحول شيخ الطريقة القادرية إلى الغداء فلبينا دعوتهما شاكرين، فكانت حفلة الغداء في دار الشيخ سيدي الحاج الأعرج ثم كانت حفلة العشاء عند الشيخ سيدي أحمد بن عليوة حضرها من أعيان البلد ومن تلامذة الشيخ ما يناهز المائة وبالغ الشيخ في الحفاوة والإكرام وقام على خدمة ضيوفه بنفسه فملأ القلوب والعيون وأطلق الألسنة بالشكر)[2]

ثم إن من دلائل اعتداله أنه قعد معهم في مجلس من مجالس الذكر، وبالهيئة التي يذكرون بها، فقال: (وبعد العشاء قرأ القارىء آيات، ثم أخذ تلامذة الشيخ في إنشاد قصائد من كلام الشيخ ابن

---

[1] آثار ابن باديس (4/ 311

[2] آثار ابن باديس (4/ 312

الفارض بأصوات حسنة ترنحت لها الأجساد، ودارت في أثناء ذلك مذاكرات أدبية في معاني بعض الأبيات زادت المجلس رونقا) (1)

وقد أثنى كثيرا على أدب الشيخ ابن عليوة، ومما قاله في ذلك: (ومما شاهدته من أدب الشيخ مضيفنا وأعجبت به أنه لم يتعرض أصلا لمسألة من محل الخلاف يوجب التعرض لها على أن أبدي رأيي وأدافع عنه فكانت محادثاتنا كلها في الكثير مما هو محل اتفاق دون القليل الذي هو محل خلاف. لكن السيد أحمد بن اسماعيل صاحب مخازن الاتاي- وكان جالسا على شمالي في المجلس- شاء أن يخرق هذا السياج ويدخل في موضوع ليس حضرته- وله الاحترام- من أهل الكلام فيه فقال: هؤلاء المفسدون الذين يسمون أنفسهم مصلحين ينكرون الولاية، فرأيت في وجه الشيخ أحمد بن عليوة الإنكار لهذا الكلام الخارج عن الدائرة ووجدت نفسي مضطرا للبيان فقلت له: إسمع يا سيد أحمد الولاية الشرعية قد جاءت فيها آية صريحة قرآنية" وتلوت له قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ} [يونس: 62]، وتكلمت على شيء من معناها، فمن أنكر هذه الولاية. فلفظة مفسد قليل في حقه وحقه أن يقال فيه ملحد. وأما لفظة مصلح فهي أعلى من هذا وأشرف من هذا كله)(2)

ثم ذكر ابن باديس كلاما طويلا حكاه لهم في بيان موقفه من الولاية ختمه بقوله: (فلو أن إخواننا المنتمين للتصوف قبلوا أن يوزن كلام الشيوخ بميزان الكتاب والسنة مثل غيرهم من علماء الإسلام ورضوا بالرجوع الحقيقي لقوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59] لبطل الخلاف أو قل)(3)

ثم أخبر عن تأثير هذا الكلام في الحاضرين، بما فيهم الشيخ ابن عليوة نفسه، فقال: فرضي أهل المجلس هذا الكلام، وسكت

[1] آثار ابن باديس (4/ 312)

[2] آثار ابن باديس (4/ 312)

[3] آثار ابن باديس (4/ 313)

السيد أحمد بن اسماعيل، وقال الشيخ سيدي أحمـد: (هـذا ممـا لا يخالف فيـه أحـد، فقلت لـه: مثلكم من يقـول هـذا، وتكلم الشـيخ المفتي بما فيه تأييد لما قلناه)[1]

ثم ذكر كيف عاد المجلس إلى الإنشاد والمذاكرات الأدبية (حتى انتهت السـهرة، وانصـرف المـدعون ونحن من جملتهم شـاكرين فضل حضرة الشيخ وأدبه ولطفه وعنايته كما شـكرنا أدب تلامذتـه وعنايتهم بضيوف أستاذهم وخصوصا الشيخ عبده ابن تونس تلميـذ الشيخ الخاص)[2]

هذا شـاهد من شـواهد اعتـدال ابن بـاديس، ونحب أن نـبين أن هذه الرحلة قام بها ابن باديس في سنة 1931، وفيه رد بليغ على من يـزعم بـأن الطريقـة العلاويـة هي الـتي أرادت أن تغتـال ابن باديس.

بعد هذا نتأسف أن تكتم مثـل هـذه الشـهادات من البـاحثين ثم يقتصر فقط على تلك الأوصاف الشـنيعة الـتي وصـف بهـا الشـيخ الزاهري الشيخ ابن عليوة، ولسنا ندري أيهما أحكم وأعقل، وأيهما أقرب تمثيلا للجمعية: هل هو ابن باديس أم الزاهري؟ ولكن الكثير من الباحثين للأسف ينتهجون منهج الانتقاء، فيرفعون من يشـاءون رفعه، ويخفضون من شاءوا خفضه.

بالإضافة إلى هذا، فقد كـانت لابن بـاديس علاقـة طيبـة بـالكثير من الزوايـا، كالزاويـة الدردوريـة لأن أحـد أبنـاء هـذه العائلـة وهـو الشيخ عمر دردور[3] الذي كان من تلاميذ ابن باديس ثم من وجــوه الإصلاح في الأوراس بعد ظهور الجمعيـة، والإمـام ابن بـاديس قـد زار العائلة الدردورية في حيدوس، ونزل ضيفا عند دار الشيخ عمر

---

[1] آثار ابن باديس (4/ 313)

[2] آثار ابن باديس (4/ 313)

[3] عمـر دردور: من مواليـد 1913 في قريـة حيـدوس بـوادي عبـدي وفيهـا حفـظ القـرآن، درس بالزاويـة العثمانيـة بطولقـة، ثم اتجـه الى قسـندلينة ليلتحـق بطلبـة الجامع الأخضر، والأخذ عن الإمام ابن باديس الذي لازمـه مـدة 5سـذوات، مؤسـس الشعبية الأوراسية لجمعية العلماء سنة1936، (انظر: صلاح مؤيد، الزوايـا والطـرق، ص803. علي عزوزي: زاوية ال دردور، ص39)

دردور 1933 في إطار جولة قام بها الى المنطقة.

بالإضافة إلى هذا كله، فإنا نرى أن الكثير من مواقف ابن باديس تختلف اختلافا جذريا عن التوجه السلفي المحافظ، بل تجعله أميل إلى التصوف منه إلى السلفية، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

1 ــ من المتفق عليه عند السلفية عموما إنكار التوسل إلى الله، بل اعتباره شركا، لكن ابن باديس يخالف ذلك، بل يروي الحديث الذي يجمع السلفية على كتمانه، وكان في إمكانه أن يختار غيره من الأحاديث ليشرحه، وقد كان ما ذكره فيه من إيراده له وشرحه مثار سخط من السلفية الحديثة التي تعتبر القول بشرعية التوسل كالقول بشرعية الشرك.

والحديث المشار إليه هو ما حدث به عثمان بن حنيف: أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت، فهو خير لك. قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي اللهم فشفعه في)[1]

وقد بدا ابن باديس في شرحه للحديث كالصوفية المحدثين الذين ينتصرون لأمثال هذه النصوص، فقد حاول جهده أن يبين صحته، وكأنه يرد بذلك على من يريد تضعيفه، فهو يقول – تحت عنوان (رتبة الحديث العلمية والعملية): (قال فيه الترمذي: حسن صحيح غريب)

ثم شرح هذه المصطلحات، وحاول من خلالها أن يركز على غرابته كما يفعل الاتجاه السلفي، ولكنه عكس ذلك تماما، بل قال:(وما يقول فيه أبو عيسى الترمذي: حسن صحيح أقوى مما يقول فيه حسن فقط، لأن وصفه بالصحة مع وصفه بالحسن يفيد أن خفة الضبط في بعض رجاله تكاد لا تؤثر عليه حتى كأنها لم تحطه عن رتبة الصحبح التام.. وأما الغريب فهو ما انفرد بروايته راو فقط وإذا كان ذلك المنفرد ثقة فذلك الانفراد لا يضر فالغرابة لا تنافي الصحة والحسن.. وصححه أيضا ابن ماجة والحاكم

[1] محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون، (5/ 569)

والبيهقي والطبراني)[1]

ثم خلص من دراسة السند إلى نتيجة عبر عنها بقوله: (فبعدما عرفنا من حال سنده وتصحيح هؤلاء الأئمة له حصل لنا العلم الكافي- وهو الظن الغالب- بثبوته، وحيث كان بهذه المنزلة من الثبوت فإنه صالح لاستنباط الأحكام الشرعية العملية منه)[2]

بعد دراسة الشيخ ابن باديس للسند وتصحيحه له، كان في إمكانه أن يؤول الباء في المتن كما يفعل السلفيون، ولكنه لم يفعل، بل نص على أن الباء تفيد الاستعانة، بل تفيد التوسل، فقال: (و (الباء) في بنبيك وفي اني توجهت بك هي باء الاستعانة، والمستعان به هو السبب الحصل للمستعان عليه ولذلك جعل بعضهم باء الاستعانة من باء السببية، فالنبي- صلى الله عليه وآله وسلم- مستعان به على السؤال أي على نجح السؤال بحصول الشيء المسؤول من الله تعالى، ومستعان به على التوجه بمعنى القصد أي على نجح ذلك القصد بحصول المطلوب منه تعالى فهو متوصل به إلى نجح السؤال ونجح القصد، وكل ما يتوصل به إلى الشيء يقال فيه وسيلة إليه، فالسؤال به توسل به، فيمكن أن تسمي هذه الباء باء التوسل، وهي الداخلة على ما هو وسيلة في حصول شيء)[3]

وكان في إمكانه بعد هذا أن يقصر التوسل على النبي ﷺ في حياته فقط، ويعتبر التوسل به بعد وفاته شركا كما يرى ابن تيمية والسلفيون، ولكنه لم يفعل بعد ذكر القولين جميعا، واعتبرهما وجها في الحديث، فقال: (ثم انه توسل بذاته بحسب مقامه عند ربه وهذا على الوجه الأول من الوجهين المتقدمين في فصل التراكيب أو توسل بدعائه، وهذا على الوجه الثاني منهما. فمن أخذ بالوجه الأول قال يجوز التوسل بذاته، ومن أخذ بالوجه الثاني قال إنما يتوسل بدعائه، ثم ان من أخذ بالوجه الأول فهذا الدعاء حكمه باق بعد وفاته كما كان في حياته، ومن أخذ بالوجه الثاني لا يكون بعد وفاته. لأن دعاءه إنما كان في حياته لمن دعا له. فالوجهان المتقدمان- كما ترى- هما مثار الخلاف في جواز

---

[1] آثار ابن باديس: 3/188.

[2] آثار ابن باديس: 3/188.

[3] آثار ابن باديس: 3/188.

التوسل بذاته وعدم جوازه، فمن أخذ بالوجه الأول جـوز ومن أخـذ بالثاني منع)[1]

بـل إن الشـيخ ابن بـاديس لم يكتـف بمناصـرة التوسـل، بـل مارسه، واعتقد تأثيره، فقد حدث عن نفسه قال: (نصحني سـيدي الطالب إذا يسر الله لي زيارة القبر الشريف أن أسأله عليه وآلـه الصلاة والسلام الشفاعة، وقد يسر الله لي ذلك وله الحمد والمنة منـذ عشـرين سـنة، وقـد دعـوت اللـه وحـده وتوسـلت لـه بنبيـه وتوجهت إليه به أن يميتني على ملته، ويجعلـني من أنصـار سـنته، وأهل شفاعته، إلى أشياء أخرى قد استجاب الله تعالى بعضه، وأنا أرجو الاستجابة في الباقي)[2]

وهكذا عند حديثـه عن أدب العـارفين مـع رسـول اللـه ﷺ، فقـد قال: (اعلم أن السادة العارفين هم أرسخ الناس قـدما في محبـة النـبي - صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم- وتعظيم حرمتـه، ومراعـاة شريف جانبه، وتعزيزه وتوقيره وبره. تجد ذلك في صلواتهم عليه، وفي أدعيتهم لله تعالى عند ذكره، والتوسل به، وفي مناجاتهم لـه عند الشوق إليه، وفي تأليفهم عنـد الكلام في حقـه. وهـذه أشـياء مرويـة عنهم، معروفـة منهم، لا تحتـاج إلى شـاهد ولا تخفى على طالب بل هم أكثر الناس أدبا مع شيوخهم ومربيهم ومريديهم، بـل هم آدب الناس من جميع الناس)[3]

وبناء على هذا ذكرنا أنـه لـو كـان الأمـر لابن بـاديس صـرفا في رئاسة الجمعية لما أصـبحت عـدوا لـدودا للطـرق الصـوفية، ولمـا انشغلت بما انشغلت به من جزئيات، ولقبلت الصلح مع المخالف، أو على الأقل قبلت المناظرة معه.

2 ـ مخالفتـه للاتجـاه السـلفي الـذي يعتـبر القـول بـأن والـدي رسـول اللـه ﷺ في النـار من مقتضـيات العقيـدة السـلفية، وقـد خالفهم ابن باديس في هذا، وشنوا عليه حملة شديدة بسبب هـذا، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: {وَمَـا كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15] ، و{أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَـذِيرٍ فَقَـدْ جَـاءَكُمْ بَشِـيرٌ وَنَـذِيرٌ } [المائـدة: 19]، وغيرهمـا، ثم قـال:

---

[1] آثار ابن باديس (2/ 191)

[2] آثار ابن باديس (3/ 37)

[3] آثار ابن باديس (3/ 160)

(وكلها آيات قواطع في نجاة أهل الفترة، ولا يستثنى من ذلك إلا من جاء فيهم نص ثابت خاص كعمر بن لحي أول من سيب السوائب وبدل في شريعة إبراهيم وغير وحلل للعرب وحرم فأبوا النبي ﷺ ناجيان بعموم هذه الأدلة)[1]

ثم إنه رد الحديث الوارد في ذلك مع علمه بأنه ورد في صحيح مسلم، وهذا ما أثار عليه سخط الاتجاه السلفي، فقال: (ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس: أن رجلا قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار. فلما قفا الرجل دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار)[2]

ثم علل ذلك بكونه (خبر آحاد فلا يعارض القواطع وهو قابل للتأويل، يحمل الأب على العم مجازا يحسنه المشاكلة اللفظية ومناسبته لجبر خاطر الرجل وذلك من رحمته ﷺ وكريم أخلاقه)[3]، وذلك نفس ما يقوله الصوفية ومن هو على شاكلتهم تماما.

3 ــ لاحظت عليه أدبا عظيما عند ذكر رسول الله ﷺ فهو لا يكتفي بالصلاة العادية عليه، وإنما يشفعها دائما بالصلاة على آله، بل أفرد فصلا خاصا بالصلاة عليه وعلى آله، وهو يشبه في هذا الصوفية تماما في تعظيمهم لآل بيت النبوة[4].

4 ــ أن ما كتبه من فتاوى في الرد على الصوفية – وإن ذكرنا شدته فيه، وبعده عن مقتضيات المنهج العلمي من التحقيق والتوثيق[5] - إلا أنه كان فيه من حيث القصد صحيح، فقد دافع فيه عن رسول الله ﷺ ضد من تصور أنه أساء إليه، كما سنرى ذلك بتفصيل في محله.

5 ــ أنه لم يتحدث بتلك اللهجة الشديدة التي تحدث بها الشيخ مبارك الميلي أو العقبي أو غيرهما حول ما يفعله الصوفية من

---

[1] آثار ابن باديس (2/ 72)

[2] مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، 1/191.

[3] آثار ابن باديس (2/ 72)

[4] آثار ابن باديس: 1/305.

[5] سنتحدث عن فتاواه بتفصيل في الفصل الخاص بأساليب التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

زيارة الأضرحة، ونحوها، بل نجد بعض النقول من مصادر موثوقة، بأنه كان يرى شرعية زيارة الأضرحة، كشأن الصوفية، وكشأن الكثير من العلماء المرتبطين بهم، وأعتذر للقارئ قبل تلك إيراد تلك الروايات على أني أعتمد فيها فقط على ما ذكره الشيخ عبد القادر عثماني شيخ الزاوية الرحمانية بطولقة[1]، والتي كان لابن باديس علاقة بها، وثقتي فيه لا تقل عن ثقتي في أبناء الجمعية الذين حاولوا أن يصوروا ابن باديس وهابيا جلفا غليظا، ومما ذكره الشيخ عبد القادر عثماني، بل ردده كثيرا في محاضراته أن من مراسلات الشيخ ابن باديس للشيخ الطاهر العبيدي الصوفي الذي سبق أن تحدثنا عنه – وكان أحد كبار علماء الجزائر وسيد من سادات الطريقة الرحمانية، وقد سبق ذكره وترجمته – رسالة مهمة أسدل عليها ثوب النسيان.

ونحب أن نذكر الرسالة هنا كاملة لنكتشف من خلالها الجانب الخفي من شخصية ابن باديس، والذي لم يتح له أن يظهر بسبب الوضع الذي كان فيه، قال في الرسالة: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، إلى حضرة علم العلم والفضل، ومعلم الكرم والنبل، التقي الطاهر، الأثواب السري البارع للأدب، مستحق الشكر منا بما له علينا من سابق الأيدي العلامة الشيخ سيدي أبي الطيب الطاهر العبيدي، أدامه الله بدرا طالعا في هالة درسه، وغيثا هامعا في ربع العلم، من بعد طمسه حتى وحشة قطره بأنسه، ويحقق من بساتين تلاميذه ثمرات غرسه آمين.

وبعد : سلام كما تفتحت الأزهار في نسمات الأسحار، وتحية تحيي قديم التذكار وإن شطت الديار، فإني كتبته إليكم من حضرة قسنطينة، يوم قدومي من رحلة كنت أعملتها من ناحية الجزائر وتلمسان، لزيارة الأحياء والأموات من العلماء والصلحاء وأعيان الزمان، فتشرفت بسادات كثيرين منهم العلماء والصالحين، ومن أعظم الجميع قدرا وأشهرهم ذكرا، سيدي أبي مدين الغوث، وسيدي محمد السنوسي بتلمسان، وسيدي محمد بن عبد الرحمن، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر، ودعونا للمومنين عامة وإخواننا أمثالكم خاصة، بما نرجو من الله تعالى

[1] عبد القادر عثماني: الزوايا والتعليم الديني، مجلة الامام مالك بن أنس ع، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة 2002، ص 20.

فيه القبول وبلوغ المأمول، وذكرت لكم هذا لما أعلمه فيكم من محبة الصالحين، وإن أمكنت لي الفرصة إن شاء الله تعالى كاتبتكم عن هذه الرحلة بمزيد تفصيل، ووافى كتابكم في غيابي في هذه الرحلة ،، فلما قدمت وقبلته كرمته على غيره وقبلته، وكان ما داخلني من السرور، لكون خطابه مخففا لما غشيني من الخجل لمرّ عتابه، ولك العتبى يا سيدي فيما ذكرته ومنك الفضل فيما به ابتدأت وتفضلت فقد باغتتني القصيدة الغراء التي راقت ورقت واستوجبت الحمد، واستحسنته، فنظرت إلى أوصافك الكريمة، فحليتني بها ونسبتني إليها، ببركة محبتك الخالصة ما ظننت، ويجازيك بالخير الجزيل على ما فعلت، هذا وإني ما أخرت الجواب متهاونا – أستغفر الله – ولا متكاسلا، ولكن حسبت أني أجبتكم فيمن أجبت، حتى جاء كتابكم فعلمت أنني غالط فيما ظننت، فبادرت بها متحاملا على حلمك، معتمدا على فضلك، والعفو يا سيدي من شيم أمثالكم لا أعدمني الله من أفضالكم، وأقول :

إن كنت قد قصرت في الكتابة ... والله ما ملت عن ودادي

وإنما كان ذلك مني ... عن غفلة ليس عن مرادي

فسامحوا طاهري بفضل ... وحسبكم مسكنا فؤادي

ويعود من العبد وجماعته السلام عليكم وعلى جماعتكم، وأحبائكم كلهم لديكم، وكثير الدعاء لكم بالخير، طالبا منكم مثله، أخوكم وشاكر فضلكم ومملوك إحسانكم)[1]

وقد ذكر الدكتور عبد الله حمادي – على حسب ما يذكر الشيخ عبد القادر لأني لم أطلع على المصدر مباشرة- أن ابن باديس وجه هذه الرسالة للشيخ الطاهر العبيدي عام 1916 م أو 1917 م تقريبا، و(أن عبد الحميد بن باديس كان في شبابه كثير التردد

[1] العياشي دعدوعة: الطريقة الرحمانية علمية جهادية إصلاحية، جريدة الأحرار، عدد 721، 15 جويلية 2000، ص16

على أضرحة الأولياء والصالحين، وذلك للتبرك بهم) [1]

وذكر الشيخ عبد القادر عثماني أن الشيخ عبد الحميد بن باديس زار طولقة وبرجها، للتبرك بضـريح الشـيخين ابن عـزوز وعلي بن عمر، وربما كان ذلـك في حـدود 1925 م أو 1926 م وممـا قالـه في زيارته:

عوجوا نحيي منـازل الأمجـاد	ونــؤدي حــق زيـارة الأسـياد
و نحــط أرجلنــا بــدار كرامة	مبذولــة الروضــات للــرواد
فهي الملاذ لكل جان خــائف	وهي الشـــفا من وصـــمة الأنكـــاد
مــا بين طولقــة فــبرج حيث	تبصــر نــور أهــل اللــه في إصـــعاد

بالإضافة إلى هذا كله، فقـد عـبر ابن بـاديس – وكأنـه يـرد على المتشددين من علماء الجمعيـة- عن المنهج الصـحيح في التعامـل مع الكافر أو المبتدع، فقال: (فلا يقـال للكـافر عنـد دعوتـه: (إنـك من أهـل النـار)، ولكن تـذكر لـه الأدلـة على بطلان الكفـر وسـوء عاقبته، ولا يقال للمبتدع: (يا ضال)، وإنما تبين له البدعـة وقبحهـا) [2]

هذه بعض الأدلة الدالـة على مـدى اعتـدال ابن بـاديس، وهي لا تعني أنه لم ينكر ما يتصوره بدعا، ولم يقف أحيانا مواقف شـديدة بسبب ذلك كموقفه الصارم من دعوة الصلح بين جمعيـة العلمـاء وبين الطـــرق الصـــوفية، وبين في رده أن الصـــلح من الأمـــور المحمودة التي دعا إليها الإسـلام، ولكن الصـلح لا يكـون صـلحا إلا إذا لم يحرم حلالا ولم يحل حراما، ولم يمت سـنة ولم يحي بدعـة ولم يقر منكرا ولم ينكر معروفا[3].

[1] عبد القادر عثماني: الزوايا والتعليم الـديني، مجلـة الامـام مالك بن أنس ع، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة 2002، ص 20.

[2] آثار ابن باديس: 1/286.

[3] الصراط، عدد08، السنة الأولى 29 ماي 1933، ص01.

إلا أنا نرى أن ما فعله من مثل هذه المواقف كان مـدفوعا فيـه من طرف بطانة من المتشددين كانت تحيط به، ولهذا نجد اختلافا كبيرا في مواقفه قبل توليه رئاسة الجمعية، وبعدها، مـع كونـه في كلتا الحالتين يميل إلى الاتجاه السلفي بنوعيه، ولكنه في المرحلة الأولى كان يضم إليه بعض التصوف المعتدل.

6 ــ أنـه أثـنى على الطريقـة السنوسـية خصوصـا مـع كونهـا تمـارس نفس مـا تمارسـه الطـرق الصـوفية الأخـرى، وتعتقـد عقائـدها، ولكنهـا أكـثر انضـباطا، فقـال في مقـال تحت عنـوان (الصوفي السني بين الحكومة السنية والحكومة الطرقيـة)، وممـا جاء فيه قوله: (أما الصـوفي السـني فهـو الإمـام المجاهـد السـيد أحمـد الشـريف السنوسي الـذي توفـاه اللـه منـذ أشـهر بالمدينـة المنورة فقد كان على جانب عظيم من التمسك بالكتـاب والسـنة والتخلق بأخلاق السلف الصالح وكـانت دعوتـه إلى اللـه وإرشـاده للعباد بهدايتهما وكانت تربيته لأتباعه مبنية على التفقـه في الـدين والتزام العمل به والزهد والصبر وحفظ الكرامة)[1]

ثم ذكر أن الحكومة الطرقية (هي حكومـة مصـر الـتي تشـارك المشــاركة الرســمية في بــدع المواليــد وتؤيــد تأييــدا رســميا الاجتماعات الصوفية بما فيها من مناكر وقبح مظاهر وسوء مناظر مما تضج منه صحافتها كل يوم فضـلا عن العلمـاء المصـلحين من أمتها. ويواطؤها على هذا علماؤها الرسميون بسكوتهم وإقــرارهم وأحيانا بدفاعهم وتأويلاتهم)[2]

وهـذان النصـان يـدلان على المنهج الباديسـي في التعامـل مـع الطرق، فهو ينكر منكراتهـا، لا أصـلها، ونحسـب أنـه لـولا البطانـة المتشددة التي كانت محيطة به لمد يده للشيخ ابن عليوة والشيخ الحافظي وأسسا كيانـا يسـتحيل اختراقـه، كيانـا لا يخـدم الجزائـر وقت الاستعمار فقط، ثم يسلم الراية، بل يظل مستلما لها.

الشيخ أبو يعلى الزواوي:

لا يقــل الشــيخ أبــو يعلى سـعيد بن محمــد الــزواوي[3] عن ابن بـاديس اعتـدالا، فهـو مـع كونـه يصـرح كثـيرا بكونـه سـلفيا إلا أن

---

[1] آثار ابن باديس: 3/48.

[2] آثار ابن باديس: 3/49.

السلفية التي يقصدها – على حسب ما أرى – هي سلفية الإصلاح، والوقوف في وجه البدع والانحرافات لا المنهج الاستئصالي الذي كان ينادي المتشددون من أعضاء الجمعية.

ولعل السر في هذا الاعتدال هو نفس السر في اعتدال ابن باديس، وهو كونه مولودا في بيئة صوفية، فقد صرح في أحد مقالاته بقوله: (نعم كنت قبل أربعين سنة خلوتيا) أي حوالي سنة 1907، وبالتالي عاين ممارسات الطرق الصوفية عن كثب لا عن وصف بعيد، فقد درس في زاوية الشيخ عبد الرحمن الإيلولي المشهورة في فترة كان التصوف هو السائد فيها، وفي تلك المناطق عموما[1].

بالإضافة إلى كون الشخصيات التي لقيها أو استفاد منها أو تأثر بها هي الشيخ محمد بن سعيد بن زكري الذي تأثر به أبو يعلى كثيرا، والشيخ محمد بن بلقاسم البوجليلي والعلامة طاهر

---

[3] ولد سنة 1866 في ناحية عزازقة ولاية تيني وزو حاليا، كان أبوه إماما في تلك القرية فتتلمذ على يده، أخذ عنه الفقه والقراءات والنحو ثم انتقل إلى زاوية عبد الرحمن الإيلولي المشهورة في فترة كان التصوف هو السائد في تلك المناطق، بعدها انتقل إلى دمشق وأخذ عن كثير من علمائها وعمل فيها ثم انتقل إلى مصر في أوائل الحرب العالمية الأولى وكان من شيوخه فيها الشيخ محمد بن سعيد بن زكري الذي تأثر به أبو يعلى كيرا والشيخ محمد بن بلقاسم البوجليلي والعلامة طاهر الجزائري ومن أقرانه رشيد رضا والشيخ محمد الخضر ومحمد كرد وشكيب أرسلان ومحمد عبده، ثم عاد إلى الجزائر سنة 1920 فأسندت إليه وظيفة الإمامة في مسجد سيدي رمضان، وأخذ الشيخ يناضل فيه عن فكرته الإصلاحية.انظر في ترجمته: الأفكار الإصلاحية في كتابات الشيخ أبي يعلي الزواوي، محمد أرزقي فراد، دار الأمل، ط. 2009، وتاريخ الجزائر الثقافي، من كتبه (الخطب) و(الإسلام الصحيح) و(تاريخ زواوة) و(جماعة المسلمين) وله مؤلفات أخرى، عاش الشيخ قرابة ستة وثمانين سنة وتوفي.بمرض البروستاتة أول جوان سنة 1952 الموافق ل 08 رمضان 1371 ه، انظر في ترجمته: أبو القاسم سعدالله، ج 8 ص 121-125، دار البصائر الجزائر، ط. 2007، وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث، أبو القاسم سعد الله، ج 2 ص 145، عالم المعرفة الجزائر، ط. 2009.

[1] أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج 2، ص 71.

الجزائري، والشيخ رشيد رضا، والشيخ محمد الخضر ومحمـد كـرد وشكيب أرسلان ومحمد عبده، وغيرهم من التنويريين، ولهذا فـإن توجهه تنويري أكثر منه سلفي.

ومما يدل على هذا التوجه التنويري أنـه يـدافع عن حـق المـرأة في الميراث منتقدا أوضاع الزواوة في ذلك كمـا دعـا إلى تعليمهـا وتربيتها، ودعـا إلى إصـلاح التعليم في الزوايـا جملـة وتفصـيلا من حيث المواد التي تدرس فيها ومنهج إلقائها والنظام الـذي يجب أن تكون عليه، كما كانت له إسـهامات في السياسـة حـتى قيـل: إنـه أول سياسـي طـالب باسـتقلال الجزائـر حيث راسـل بعـد انتهـاء الحــرب العالميــة الأولى (1914-ـ 1918) الــرئيس الأمــريكي ولسون.

بالإضـافة إلى هـذا كـان مهتمـا بـالعلم الـذي يقتضـي المطالعـة والدراسـة والبحث على عكس المتشـددين من أعضـاء الجمعيـة والذين كانوا أميل إلى الأدب والخطابة[1] والشـعر منهم إلى العلم، ولهذا كان من رجـال الفتـوى في الجمعيـة إذ وكلتـه إدارة جريـدة (البصائر) في مهدها على رئاسة لجنة الفتوى فيها.

ومن مواقفه الدالة على اعتداله:

1 ــ قولـه عن الشـيخ ابن عليـوة الـذي تشـدد معـه الكثـير من أعضاء الجمعية : (صاحبي ابن عليـوة...أشـهد الآن بين يـديكم أني ما عرضت وما أمرت ولا نهيت الشيخ العليوي إلا استحسن وسـلم حتى قال: إن حملاتك إن كـانت علينـا مقبولـة وإن كـانت لنـا فهي أحسن لنا، ويخاطبني قائلا: إنـك بنظريتـك السياسـية والاجتماعيـة ننقاد إليك ونعمل بإشارتك، وما زال وما زلت طامعا في، وطامعـا فيه، أي بأن نتفق على كتاب الله وسنة رسـوله، وصـرح لي أمـام جمـع أنـه إذا ظهـر لكم – معشـر الإخـوان- في الـدين والـوطن والجنس – أن نتفق على جميع مـا يخص المسـلمين والوطنـيين ...

ولم أر ولم اسمع من غيره من الشيوخ الذين عرفتهم إلا الصـدود وتعير الخدود ومقتي بأني كافر بهم وببدعهم، وقلت لكم وما زلت أقول أنه – أن الشيخ ابن عليـوة يقـول لكم: (مـروا جميـع رؤسـاء

---

[1]) وهذا لا يعني أنه لم يكن خطيبا، فقد عرف الشيخ بخطبه المرتجلة الحماسية مع القدرة العجيبة في الإقناع.

الطرق لنجتمع ونتفق على الموافق للكتاب والسنة وللأمة)(1)

2 ـ قوله بأن في الطرق الصوفية علماء، وهو ما أثار عليه سخط الكثيرين، مما اضطر بعض رجال الجمعية للدفاع عنه، وممن دافع عنه الشيخ الطيب العقبي في مقال نشر في الشهاب ردا على من انتقص الشيخ جاء فيه: (ألا ما أشفقتما عليه أو رحمتما شيخوخته وسلفيته الصادقة، وتركتماه لنا عضدا قويا وشيخا سلفيا ...وهو من قد عرفتماه فضلا ومعرفة وسبقا إلى مذهب السلفية، كما عرفتما مقدار مقدرته في الكتاب وبحثه وتنقيبه)

وقال الشيخ مبارك الميلي: (الشيخ الجليل العالم السلفي الأستاذ أبي يعلى الزواوي الذي لقبه الأخ الشيخ الطيب العقبي شيخ الشباب وشاب الشيوخ وكل من عرف هذا الشيخ وأنصفه اعترف له بهذا اللقب وسلم له هذا الوصف)

وقال أحمد توفيق المدني: (وإذا ذكرت الرجال بالأعمال فإني أذكر العلامة الكبير الشيخ سيدي أبا يعلى السعيد الزواوي، أذكره بتأليفه القيم الإسلام الصحيح الذي نسف به الخرافات والأوهام في الأفكار العامة) (2)

المطلب الثاني: الموقف المتشدد:

وهو الذي يرى التصوف شيئا واحدا، وأنه كله زندقة وضلال وكفر، وأنه بدعة حادثة لا تحتاج إلا إلى الاستئصال من الجذور، وهذا الموقف – في الحقيقة - يكاد يصير الموقف العام للسلفية الحديثة بغض النظر عن توجهاتها المختلفة، وللأسف كان من أعضاء جمعية العلماء من يميل إلى هذا الرأي، وينتصر له.

وهو ليس موقفا حديثا، بل كان هناك في كل جيل من يحمل مثل هذا التصور، ولهذا نجد في سير أعلام الصوفية وطبقاتها الكثير من الأذى والاضطهاد الذي لم يصب فقط المغالين فيهم، وإنما أصاب المعتدلين أيضا الذين تكاد تتفق الأمة على صلاحهم.

وقد اشار الإبراهيمي الى وجود هذا النوع من المتشددين

---

(1) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج 2، المصدر نفسه. ص 71.

(2) نقلت هذه النصوص من موقع الموسوعة الحرة في ترجمة أبي يعلى الزواوي، (http://ar.wikipedia.org)

ومطالبة الطرق الصوفية بعزلهم، فقال: (وهم يقولون عنّا لو أسقطوا من حسابهم فلانًا وفلانًا لـ ... ولا يأتون في جواب (لو) هذه بشيء سديد ونحن يحقّ لنا أن (نكاشف) ولو مرة في العمر فدعوني آخذ نوبتي في المكاشفة عن جواب (لو) هذه وهاكم تركيب الجملة (لو أسقطوا من حسابهم فلانًا وفلانًا (لاثنين) لقلنا لهم أسقطوا فلانًا وفلانًا لاثنين آخرين حتى لا يبقى ... وفاتهم أننا تسعة كما يقولون وهذا الإسقاط الذي يطلبونه يتناول اثنين اثنين، فلا بدّ من بقاء واحد. والسر في ذلك الواحد ... وما قولكم في ذلك الواحد إذا صاح صيحة الحق فاجتمع عليه تسعمائة وابتدأ الأمر بأشدّ مما انتهى به. ألا يكون ذلك أنكى عليكم؟ أم تظنون أن تنويمكم ضرب على المشاعر الحسّاسة كلّها، وإن ذكركم ملأ الآذان حتى لم تعد تسمع صيحة الحق، ومتى أنار الدنيا هلال مقنع؟ يا قوم، اظهروا ما تجمعون به وتعالوا نتساقط على الكيف لا على الكم كما تريدون ونحن تسعة كما تقولون وأنتم تسعة آلاف ... فيوشك إن فعلتم أن لا يسقط منا اثنان حتى تسقطوا جميعًا لأن نسبتكم من العمل الذي تدعونه نسبة الزؤان من القمح وعند الغربال الخبر اليقين. إنها لخدعة الصبي على اللبن كما يقول علي، كرّم الله وجهه)[1]

ثم بين الشيخ الإبراهيمي أن المسألة ليست مسألة أشخاص، وإنما مسألة مبادئ، فقال: (على أن المسألة ليست مسألة أشخاص، فنحن نرى أن الإصلاح مبدأ وفكرة وأنتم ترونه زيدًا وعمرًا.. ونحن نرى أن هذه الفكرة أو هذا المبدأ إن لم يقم بفلان قام بغيره وأنتم ترون أنه إن لم يكن فلان لم يكن مبدأ. ونحن نرى أن فرقًا بين جمعية تتكوّن حول مبدإ اقتضاه تدبير الاجتماع الإنساني فهي مترابطة بجاذبية مبدإ وهي ذائبة في مبدإ وهي دائبة في العمل للمبدإ وبين جمعية تتكوّن حول نفسها لتنصر نفسها بنفسها فتنصر مدبرًا بمدبر وتدافع ما لا يدفع بما لا يدفع ويكون من أول أكاذيبها على الناس أن تكذب في اسمها)[2]

بناء على هذا نحاول أن نذكر هنا بعض النماذج عن المتشددين

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 126)

من رجال الجمعية، مع العلم أننا سنتحدث عن مواقفهم المختلفـة بتفصيل في محالها المناسبة من هذه الرسالة.

الشيخ الطيب العقبي:

نرى من خلال مواقف وكتابات الشيخ الطيب العقـبي أنـه أكـثر علماء الجمعية تشددا، بحيث لا يجاريه في تشـدده أحـد، بـل نـرى أنه عدى بتشدده الكثير من أعضـاء الجمعيـة، لمـا كـان يحظى بـه من قدرات مكنته لا من التسلط على قلوب العوام فقط، بل على قلوب الخواص أيضا، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

ولهذا اعتبره الشيخ الإبراهيمي (من أكبر الممثلين لهـديها ــ أي الجمعية ـ وسيرتها والقائمين بدعوتها، بل هو أبعد رجالها صيتا في عالم الإصلاح الديني وأعلاهم صوتا في الدعوة إليـه... وإنمـا خلـق قوالا للحق أمارا بالمعروف، نهاء عن المنكر وقافا عند حدود دينه، وإن شدته في الحق لا تعدو بيان الحق وعدم المداراة فيـه وعـدم المبالاة بمن يقف في سبيله)[1]

والسر في تشدده بسيط، فقد عاش في الحجاز في فـترة كـان للوهابيين فيها سلطة وسطوة سواء على المسـتوى السياسـي أو الدعوي[2]، وكان له نشـاط صـحفي إصـلاحي قبيـل انـدلاع الحـرب العالمية الأولى، وعند عودته إلى الجزائر سنة 1920 قـرر إصـدار جريـدة عربيـة إصـلاحية بعنـوان (الإصـلاح) تنشـر فيهـا أفكـاره الإصلاحية وترد على الطرق الصوفية متأسيا في ذلـك بمـا رآه في الحجاز من تشدد ومبالغة، فأقام حربا شعواء على الطرق.

وقد ذكر الإبراهيمي الأثر الكبـير الـذي أحدثتـه جريدتـه، فقـال: (فكان اسمها أخف وقعـا، وإن كـانت مقالاتهـا أسـد مـرمى وأشـد لذعا)[3]

وكتب عنهـا الشـيخ ابن بـاديس، وبشـر بقـرب صـدورها فقـال: (ستصدر تحت الاسـم أعلاه جريـدة لخطيب السـلفيين وشـاعرهم

---

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 126)

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 267)

[2] على الرغم من كونه كان مع الشريف حسين لا مع الوهابيين، ولكنه مع ذلك تـأثر بالكثير من أفكارهم التي كانت تنتشر في العالم الإسلامي أجمع في ذلك الحين.

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 184)

الزعيم الكبير الشيخ الطيب العقبي، بحسبي التنويه بما ستجمل به الإصلاح الصحافة الجزائرية من آيات البيان، وغرر البلاغة، وفنون الكلام، وبديع الأساليب، وما تخدم به حزب الإصلاح الديني من آيات الحكمة وقواطع الحجة في أبواب الدعوة ومطارح الجدل، بحسبي ذلك أن أقول إنها للأستاذ العقبي، فقد عرفه الناس في مجالسه وما نشرته الصحف من كلامه، الخطيب المفوه، والكاتب الضليع)[1]

وقال فيه – ملمحا إلى تشدده - : (الأستاذ العقبي أشهر من أن نعرف به، ونتحدث عن ثباته، وإخلاصه وصراحته وجراءته، ولقد كان منذ أيام الحجاز وحل ببلدة سيدي عقبة معلنا بكلمة الحق داعيا إلى الكتاب والسنة، منكرا لشرك القبوريين، وبدع الطرقيين، وكان له من جراء ذلك أعداء، وكان له خصوم، وكانت له معهم مواقف وكانت له عليهم ردود)[2]

وقد سببت له تلك الشدة الكثير من المعاناة مع سكان بسكرة، حتى أنه عانى لاستصدار جريدته، ويدل لذلك أن العدد الأول من صحيفته صدر في 12 ربيع الأول 1346 هـ ولم يصدر العدد الثاني إلا في أول سنته الثالثة 2 ربيع الثاني 1348 هـ.

وقد ذكرنا من قبل وصف وصفه الشيخ أحمد حماني له بقوله: (كان أحد أقطاب الحركة الإصلاحية، وكتابها النابهين، وكان يميل في أسلوبه إلى الشدة والعنف والصراحة المريرة)[3]

الشيخ مبارك الميلي:

هناك أدلة كثيرة يمكن من خلالها اعتبار الشيخ مبارك الميلي[4]

---

[1] الشهاب العدد 106 / جويلية 1927 ص 7.

[2] الشهاب العدد 115 ص 17

[3] صراع بين السنة والبدعة: ج2، ص26.

[4] انظر في ترجمته: رواد النهضة والتجديد في الجزائر (1889 - 1965)، د. عبد الكريم بن صفصاف، ص 98-110، دار الهدى، عين مليلة، ط.2007، وأحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية للحركة الوطنية بالجرائر، محمد الصالح بن عتيق، ص 49-54، منشورات دحلب الجزائر، نبذة مختصرة عن العلامة الشيخ مبارك الميلي، محمود أبو عبد الرحمن، مجالس الهدى للإنتاج والتوزيع الجزائر، ط

من المتشددين من أعضاء الجمعية، بل هو من خلال مـا كتبـه في (رسالة الشرك ومظاهره) كـان صـوت الوهابيـة في الجزائـر، بـل كـان لـه فـوق ذلـك أتبـاع يقومـون بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، مثلما كان للشيخ محمد بن عبد الوهاب تماما.

وسنذكر هنا باختصار بعض أدلة تشدده:

1 ــ عنـد حديثـه عن التصـوف يحـاول أن يجـرده من مصـدره الإسلامي ليربطـه بـأي مصـدر آخـر، وقـد أثـار هـذا الاختيـار بعض الباحثين في التصوف من المعاصرين، فكتب يقـول عنـه: (يسـعى الشيخ مبارك بن محمد الميلي، وهو يعـرف الطريقـة أو الصـوفية إلى تجريـدها من أي وجـود ممكن فاعـل، ففي البـدأ يعـدم هـذا الوجود لغويا أو لسانيا، نافيا أن تكون لكلمة تصوف وجـود لسـاني أصيل في اللغـة العربيـة مـادامت الكلمـة هي في الأصـل منتميـة وجوديا أو لسانيا إلى المجموعة اللغويـة اليونانيـة، ثم ينتقـل ليعلم التصـوف فيقطـع أي جـذر اجتمـاعي قـد يربطـه بالفضـاء العـربي الإسلامي.. هكذا يبـدو تعريـف مبـارك بن محمـد الميلي للتصـوف تعريفا إقصائيا متحاملا على وجه العموم على الطريقة أو الصوفية غايته إخراج وطرد لهذه الظاهرة من الفضاء العربي الإسـلامي أو قل من الكيان الإسلامي)[1]

2 ــ تحامله على الزوايا والطرق الصوفية، حتى الرحمانية التي كانت – كما ذكرنا – محل احترام من الشيخ ابن باديس[2].

3 ـ تأثره الشديد بمدرسة محمد بن عبد الوهاب، وحكمه لأجل ذلك على العوام بالوقوع في الشرك نتيجية زيارتهم للأضرحة كمـا سنرى ذلك في محله.

الشيخ محمد السعيد الزاهري:

وهو – في المرحلة الأولى – من حياته من أكثر أعضاء الجمعيـة تشددا، بـل استـعمل في تشـدده كـل مـا أوتيـه من قـدرات أدبيـة

1، 2002.

[1] مقاربة حول التصوف والطريقة بين التنظير والممارسة. الطريقة البلقائدية مثـالا مريدي الطريقة بالعين الصفراء تمثيلا، د.ط، د.ت، ص51.

[2] انظر كمثال على ذلك: مبارك الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى (1422هـ - 2001م) ص211.

شعرا ونثرا مما لم يؤت مثله الكثير من أعضاء الجمعية(1).
ومن خلال اطلاعي على مـا كتبـه أعضـاء الجمعيـة وجـدت أن المـائلين منهم للأدب، أكـثر تشـددا من غـيرهم من المـائلين إلى التحقيق العلمي، وهكذا كان الزاهري، ولهذا اسـتعمل كـل قدراتـه الأدبية في مواجهة الطرق الصوفية.
ولأجل هذا حرص عليه أعضاء الجمعية مـع إنكـارهم الكثـير من تصرفاته، كما عرفنا ذلك من موقف الشيخ الإبـراهيمي منـه، وقـد عبر عن هذا الحرص رئيس جريدة البرق محمد الرحمـوني عنـدما قال: (فرجال الإصلاح يحسبونه هو القوة الفاعلة في هذه الحركـة الناهضة إلى التجديد والإصلاح، لأن الله رزقه الجرأة والاقتـدار مـا لم يتم لأحد سواه من شباب الجزائر الناهض)(2)
لكنه لم يستمر على هذه الحـال طـويلا، بـل انقلب إلى العكس حيث أصبح من ألد أعداء الجمعية، وحتى بعض التيارات السياسـية الوطنية كانتقاده لحزب الشعب الجزائري(3).
وبعد اختلافه مع الجمعية انسحب منها وسـاند الطـرق الصـوفية الـتي كـان يحاربهـا أشـد المحاربـة، ثم تقـرب من حركـة انتصـار الحريات الديمقراطية بزعامة مصالي الحاج، وأعاد إصـدار جريـدة (المغرب العربي) التي كانت تتكلم باسم هذه الحركة(4).
وكانت هذه المواقف سببا في إصدار حكم بإعدامه من طــرف جبهة التحرير الوطـني يـوم 21مـاي 1956م في سـاحة الشـهداء بالجرائر العاصمة.
يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني: (الزاهري الذي كـان شـاعرا فحلا، وكاتبا مقتدرا، وكـان في سـلوكه وفي سياسـته قـوس قـزح

---

[1] سنرى الأمثلة الكثـيرة عن ذلـك عنـد ذكـر أسـاليب تعامـل الجمعيـة مـع الطـرق الصوفية في الباب الثالث من هذه الرسالة.

[2] محمد رحموني; محمد السعيد الزاهري، جريدة البرق، العدد، 16 يوم 18جويليـة 1927، ص 2.

[3] زهير إحـدادن; أعلام الصـحافة الجزائريـة الأمـير خالد والزاهـري وأبـو اليقظـان، مؤسسة أحددن للنشر والتوزيع، الجزائر 2002، ،ص 25.

[4] زهير أحدادن ; المرجع السابق، ص25

يتحلى كـل حين بلـون جديـد، إلى أن جـاءت الثـورة الجزائريـة الكبرى، وكان يُصدر بالعاصـمة الجزائريـة صـحيفة، من الحكومـة مالُها وفكرُها، فحكمت عليه الثورة المطهرة بالإعدام، وأردته قتيلا قرب ساحة الحكومة)[1]

وقد تحدث عنه بتفصيل الشيخ أحمـد حمـاني منكـرا عليـه، بـل راميا له بما كان يرمي به الطـرق الصـوفية ممـا نتـنزه عن ذكـره هنا[2]، ونحب أن نذكر بعض تفاصيل حياته، وخاصة بعـد تحولـه عن الجمعية لنؤكد في ذلك أمرا طالما نبه الصـوفية عليـه، وهـو عـدم الاكتفاء بالعلم واللغة والفصاحة، بل لابد من إضافة إكسير الإيمان والتربية والروحية وإلا صارت اللغة والعلم وبالا على صاحبه.

يقـول الشـيخ أحمـد حمـاني[3]: (ولمـا تأسسـت جمعيـة العلمـاء المسلمين عام 1931م، انتخب في مجلس إدارتها سـنة 1932م، وفي إجتماعها العام سنة 1934م أنشد قصيدة رنانة مطلعها:

حي العروبة في جمعيـة العلما ... وحي – ويحـك – فيهـا الـدين والشـيما

وتولى مع الشيخ العقبي رئاسة تحرير صحفها السنة والشـريعة والصراط وآخرهـا البصـائر في سلسـلتها الأولى[4]، ولكن لم يجـدد انتخابه لعضوية مجلس إدارتها أثناء اجتماعها العـام سـنة 1936م، فكان ذلك بدايـة منعـرج خطـير في حياتـه، إذ اتهم بعض أعضـائها بالعمل ضده[5]، وأخذ يقول عنهم السوء وينشره.. ثم تجاوز القـول

---

[1] أحمد توفيق المدني : المذكرات، 02/195

[2] انظر: أحمد حماني، صراع السنة والبدعة، ص 137.

[3] نقلنا هذا النص بطوله لأهميته في التعرف على شخصية الزاهري، والذي كان من أهم أعضاء الجمعية الذين تعرضوا للطرق الصوفية، والنص موجود في كتاب الشـيخ أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، ص133، وما بعدها.

[4] كيف لا تتهم الجمعية بالتشدد، وقد رأس تحرير جرائدها هذان المتشددان اللـذان لم يستمرا معها طويلا، ولكنهما أثرا فيها كثيرا، بل انحرفا بمسارها انحرافا خطيرا.

[5] نحتـاج هنـا أن نتـذكر ذلـك الموقـف الـذي وقـف فيـه ضـد الطـرق الصـوفية في الاجتماع الذي حصل فيه انشقاق الطرق، ويمكننـا من خلال موقفـه هـذا إدراك سـر

إلى العمـل فأسـس الجرائـد الخاصـة بـه، وكتب ضـدهم ثم ضـد الجمعية، من ذلك أنه أسس جريدة الوفاق فلم ترج، وردها الباعـة ورفضها القراء ولم يستسيغوا أن يتنكر لمبادئه ولإخوانـه، فـآل بـه الأمـر الى مـا آل إليـه أمـر (النجـاح) و(البلاغ الجزائـري)، وأخـذ يصانع أعداءه القدامى وخصوم مبدئـه الإصـلاحي بـالأمس، ويثـني على بعض شـيوخ الزوايـا والطـرق، وقـد كـان من أشـد كتـاب المصلحين ضـدهم، ثم بلـغ بـه الأمـر أن انضـم سـنة 1939م إلى الحلفاء – وفيهم فرنسا – أثناء حربهم ضد ألمانيا وحلفائها، وكـانت تغلب عليه نزعة ضد النازية، وهذا خلاف ما صنعته جمعية العلمـاء ورئيسها ابن باديس الذين قرروا الحيـاد والسـكوت قـائلين – كمـا سـمعت بـأذني فحـواه من ابن بـاديس – (إن قلنـا مـا يحب اللـه ورسوله ويرضى الشعب أغضبنا فرنسا، وإن قلنا ما يرضي فرنسا غضب الله علينا ولم يرض الشعب عنا فلنسكت) وحاولت فرنسـا أن تنطقهم فلم تستطع، أما الزاهري فنطـق بمـا أحبـوا أن يقـول في هتلر وحزبه، ولم يكن نطـق الزاهـري مفهومـا أو معللا بعلـة معقولة.. ولا يتهم الزاهـري في وطنيتـه لأنـه كـان متطرفـا، لكنـه سوء تدبير منه لترخص له الرقابة في إصـدار جريدتـه،ومن عجيب أنني قرأت له في أحـد أعـداده زعمـه أن الشـعب الجزائـري كلـه بجانب الحلفاء في الحرب مع أن عواطف الشـعب لم تكن كـذلك لما يقاسيه منها، بل كانت مائلة إلى جانب خصوم فرنسا بغضا لها لا حبا فيهم ولا إقرارا لمبادئهم.

وإثر الحرب العالمية الثانيـة اسـتمر في خطتـه وأسـس جريـدة (المغـرب العـربي) مهاجمـا فيهـا العلمـاء، مادحـا الطرقيـة والطرقيين، هاجيا بشدة الشيخ البشـير الإبـراهيمي، الـذي سـكت عنه كثيرا محتسبا، ثم كتب عنه مقالا نشره في البصائر[1]، وأخيرا اضطرت الحركة الوطنية إلى جريـدة وحـروف عربيـة فاسـتعارت

موقفه ذاك؟

[1] عنـوان المقـال: إلى الزاهـري، نشـره الإبـراهيمي في العـدد 61 من جريـدة «البصائر»، 27 ديسمبر سنة 1948، انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبـراهيمي (3/ 558)

ذلك منـه لمـدة، قبـل ان يخرجـوا جريـدتهم العربيـة الخاصـة بهم، ووجـد نفسـه في خدمـة الحركـة الوطنيـة الصـريحة، ولمـا وقـع الانشـقاق داخـل الحركـة لم يحسـن الاختيـار وانحـاز إلى الآيـة الممحوة، فكانت عاقبة أمره خسرا، فإنه لما نشبت الثورة سـكت مدة ثم أخرج جريدته من جديد، وشرع يلمـز الجبهـة وينتقـد بعض تصرفاتها، أذكر من ذلك أنه شنع بقتل خائن أعدم بالمسجد الكبير بعدما عاث فسادا في جهـة تـابلاط واحتمى بالمسـجد، وقـد أهـدر رسول اللـه ﷺ دمـاء قـوم أذن في قتلهم بالمسـجد الحـرام، ومن ذلك انه انتقد انتقـادا مـرا سـفر وفـد فيـه السـيد فرحـات عبـاس للالتحـاق بـالثورة وبـأمر من القيـادة، وكتب عن ذلـك كلمـة في جريدتـه عنوانهـا: (وفـد مـريب في مهمـة مريبـة) وغـابت عنـه السياسة الحكيمـة الـتي انتهجتهـا جبهـة التحريـر في قبـول جميـع المواطنين – اذا نصحوا – في صفوفها، ثم تجرا أخيرا ونشر صورة كبرى غطت كامـل الصـفحة الاولى من جريدتـه للسـيد.... (لعلـه مصالي) الذي كان رمـز الخلاف، وزعم أنـه زعيم الشـعب الأكـبر، وصادف أن كانت الفتنة في أشدها بين فدائي الجبهـة وبين أتبـاع الحركة الوطنية، فكان هذا الانحياز المعلن عنه بمثابـة الحكم على نفسـه بالإعـدام، وذات يـوم من أيـام سـنة 1956م، خـر الشـيخ الزاهري صـريع خمس رصاصـات من يـد فـدائيين في مـدخل نهج زبانة (لا لير آنذاك) قـرب جـامع كتشـاوة، فـذهب ضـحية تهـوره، وسـوء تصـرفه وإصـراره على الخطـأ، وعسـى أن يلقى عنـد ربـه خيرا مما لقي من الناس)[1]

ومع هذا التقلب في مواقفه إلا أنـا اعتبرنـا الغـالب فيهـا، أو مـا وصل إلينا منها، أو ما انتشر، لأن كتاباته المؤيدة غير منتشـرة، ولا مشـتهرة بالإضـافة إلى محـدوديتها، بالإضـافة إلى أن الحقيقـة لا يمكن الاطلاع عليها إلا من الاطلاع على جريدة (المغرب العربي)، أو مـا أصـدره بعـد خروجـه من الجمعيـة، ولم يتسـن لي للأسـف الاطلاع على ذلك[2].

---

[1]) صراع السنة والبدعة ص 136

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

وهو – مع ما يـذكر من عقلـه وحكمتـه وفقهـه- إلا أنـه في هـذا الباب خصوصا كـان شـديدا متحـاملا غايـة التحامـل، لا يكـاد يقـر بمكرمة لا للتصوف ولا للطرق الصوفية، بل فوق ذلك لا يقبــل أي هدنــة أو صــلح، بــل ولا منــاظرة مــع الآخــر، بــل لا يرضــى إلا الاستئصال، لأنه يعتبر التصوف دخيلا منـذ بـدأ التصـوف، ولم يقـل مثل ما قال غيره بطروء الانحراف عليه بعد أن كان سليما صالحا.

وقد عبر عن ذلك بصـراحة عنـدما أرخ لبـدء تفـرق المسـلمين، فقد اعتبر التصوف سرا من أسرار البلاء الذي نزل بالأمة، فقال – وهو يـؤرخ للفـترة الأولى من التصـوف-: (أمـا المـذاهب الصـوفية فهي أبعـد أثـرًا في تشـويه حقـائق الـدين وأشـد منافـاة لروحـه، وأقوى تأثيرًا في تفريق كلمة المسلمين، لأنها ترجع في أصلها إلى نزعة غامضـة مبهمـة، تسـترت في أول أمرهـا بالانقطـاع للعبـادة والتجـرد من الأسـباب والعـزوف عن اللـذات الجسـدية والتظـاهر بالخصوصية، وكانت تأخذ منتحليها بشـيء من مظـاهر المسـيحية، وهو التسليم المطلق، وشـيء من مظـاهر البرهميـة وهـو تعـذيب الجسد وإرهاقه توصلًا إلى كمال الروح زعموا. وأين هـذا كلـه من روح الإسلام وهدي الإسلام؟ ولم يتبين الناس خيرها من شرها لما كان يسودها من التكتم والاحتراس، حتى جـرت على ألسـنة بعض منتحليها كلمات كانت ترجمة لبعض ما تحمل من أوزار)[1]

فهذا النص صريح في اتهامه للصوفية الأوائل الـذين لم يسـتطع حتى ابن تيمية مـع تشـدده أن يتهمهم في نيـاتهم لكن الإبـراهيمي يعتبر أنهم كانوا يستعملون (التكتم والاحتراس) لنشر مذهبهم.

ولم يكتف بـرمي الصـوفية الأوائـل، بـل راح يـرمي من بعـدهم ممن كـانوا يشـتملون على كبـار المتكلمين كالقشـيري والغـزالي وغيرهمـا، حيث قـال: (فـراب أئمـة الـدين أمرهـا، وانفتحت أعين حـراس الشـريعة فوقفـوا لهـا بالمرصـاد، فلاذ منتحلوهـا بفـروق مبتدعـة يريـدون أن يثبتـوا بهـا خصوصـيتهم كالظـاهر والبـاطن،

[2] ذكـر لي الـدكتور أحمـد عيسـاوي أن الجريـدة لا تـزال موجـودة في أرشـيف قسنطينة.

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

والحقيقة والشريعة، إلى ألفاظ أخرى من هذا القبيل لا تخـرج في فحواها عن جعل الدين الواحد دينين.. وما كاد السـيف الـذي سـلّ على الحلّاج وصـرعى مخرقتـه يغمـد ويـوقن القـوم أنهم أصـبحوا بمنجـاة من فتكاتـه، حـتى أجمعـوا أمـرهم وأبـدوا للنـاس بعض مكنونـات أسـرارهم ملفوفـة في أغشـية جميلـة من الألفـاظ، ومحفوفة بظواهر مقبولة من الأعمال. وحـاولوا أن يصـلوا نحلتهم تلك بعجرها وبجرها بصاحب الشريعة أو بأحد أصحابه فلم يفلحـوا، وافتضحت حيلتهم وانقطع الحبـل من أيـديهم، فرجعـوا إلى ادعـاء الكشف وخرق الحجب والاطلاع على ما وراء الحس إلى آخر تلـك (القائمة) التي لا زلت تسمعها حتى من أفـواه العامـة وتجـدها في معتقداتهم)[1]

وهذه الكلمات الشديدة موجهة إلى كـل العلمـاء الـذين اقتنعـوا بمنهج الغـزالي، فراحـوا يجمعـون بين العلم الشـرعي والسـلوك الصوفي، والإبراهيمي بهذه الكلمات الشديدة القاسـية يـرمي كـل أولئـك العلمـاء، وكـل الـتراث الـذي خلفـوه بـالانحراف المقصـود المضاد للدين.

ثم راح يتحدث عن مرحلة ثالثة، وهي المرحلـة الـتي نشـأ فيهـا التصوف العرفاني، فقال: (ثم أَمِرَ أمر هذه الصوفية وتقـوّت على الزمن، والتقت مع الباطنية وغيرها من الجمعيات التي تبني أمرها على التسـتر على طبيعـة دساسـة وعـرق نهـل ومـزاج متحـد. واختلطت تعاليم هذه بتعاليم تلك، وتشـابهت الاصـطلاحات وابتلي المسلمون من هذه النحل بالداء العضال)[2]

والعجيب أن الإبـراهيمي لا ينـاقش هـذه المسـائل الخطـيرة مناقشة علميـة، فيحـدد المـرادين، ويسـتثني غـيرهم، ويفـرق بين الوقوع في الخطأ، وتعمد الخطأ، بل والتآمر على الخطأ.

فهـو في هـذا الحـديث من أولـه إلى آخـره يتحـدث عن عصـابة تتآمر على الدين، وهي تعرف أنهـا تتـآمر عليـه، ولكنهـا تصـر على ذلك رغبة في حربه.

ولم يكتـف بـذلك، بـل راح يعتـبر الصـوفية محلا لكـل انحـراف،

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

فقـال: (وقـد اتسـع صـدرها بعـد أن تعـددت مـذاهبها، واختلفت مشـاربها في القـرون الوسـطى والأخـيرة من تـاريخ الإسـلامء فانضوى تحت لوائها كل ذي دخلة سيئة وعقيدة رديئة حـتى أصـبح التصوف حيلة كل محتال، وحلية كل دجال)[1]

ثم تطرق إلى الطرق الصوفية، فجمعها جميعا في سلة واحـدة، ولم يستثن أحدا منها، ولم يعترف لها بأي منقبة، يقول: (وإن هـذه الطـرق المنتشـرة بين المسـلمين، والـتي تربـو على المـذاهب الفقهيـة عـدًّا، كلهـا، على مـا بينهـا من تبـاين الأوضـاع، واختلاف الطباع، وتنافر الأتباع، تنتسـب إلى هـذا التصـوف. ولكنـه انتسـاب صوري اسمي، وشتان ما بين الفرع وأصـله. فمبـنى التصـوف في أغلب مظـاهره- كمـا أسـلفنا- على الانقطـاع والزهـد في الـدنيا، والتجـرد والتقشـف ورياضـة النفس على المشـاق وفطمهـا عن الشـهوات. ومبـنى هـذه الطـرق في ظـاهر أمرهـا وباطنـه على حيوانية شرهة لا تقف عنـد حـدّ في التمتـع بالشـهوات، والانهمـاك في اللذائذ واحتجان الأموال من طريق الحرام والحلال، واصـطياد الجاه وحب الظهور والاختلاط بأهل الجاه وإيثارهم والتزلف إليهم)[2]

وما ذكرناه من تحامله الشديد على المتقدمين والمتـأخرين من غـير اسـتثناء لقي على مـا يبـدو إنكـار ممن يسـميهم الإبـراهيمي (بعض الناس)، فقد ذكروا أنهم يقولون: (إن ما ذكرتمـوه من آثـار الطرق السيئة كله صحيح وهو قليل من كثـير، ولكن هـذه الطـرق لم يعترها الفساد والافساد إلّا في القرون الأخـيرة، وأنتم- معشـر المصـلحين- تـذهبون في إنكـاركم إلى مـا قبـل هـذه القـرون، وتتنـاولون فيمـا تكتبـون ومـا تخطبـون ومـا تدرسـون المحـدثين والقدماء والأصول البعيدة والفروع القريبة. حتى بسطتم ألسنتكم بالسوء إلى مقامات وأسماء كانت قبل اليوم كحمام الحرم. ولعل خصومكم يكونون أدنى للرجوع إلى الحق لو سـكتم لهم عن هـذه

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

الأسماء) [3]

وقــد رد الإبــراهيمي على هــذا التعقيب بمــا يــرد بــه عــادة المتشـددين من دعـاة الوهابيـة خصوصـا، وهـو أن (حجـة الإسـلام قائمــة، وميزانــه منصــوب، وآدابــه متمثلــة في ســيرة الصــحابة والتابعين، واننا لا نعـرف في الإسـلام بعـد قرونـه الثلاثـة الفاضـلة ميزة لقديم على محدث، ولا لميت على حي، وإنمـا هـو الهـدى أو الضلال، والاتباع أو الابتداع، وليست التركـة الـتي ورثناهـا الإسـلام عبارة عن أسماء تطفو بالشهرة وترسب بالخمول ويقتتــل النــاس حولها كالأعلام، أو يفتنون بها كالأصنام. وإنما ورثنا الحكمة الأبديــة والأعمال الناشئة عن الإرادة، والعلم المبني على الدليل) [1]

ثم يذكر أن تلك الأسماء التي أجمع المسلمون على احترامها لا يصح احترامها (لأنهم غلـوا في تعظيم بعض الأسـماء غلـوًا منكـراً، فأداهم ذلك الغلو إلى نوع غريب من عبادة الأسـماء نعـاه القـرآن على من قبلنا ليعظنا ويحذرنا ما صنعوا)[2]

ثم بين موقفه المتشدد من الطرق الصوفية وخصوصـا مـا كـان منهـا في الشـمال الإفـريقي لا يسـتثني في ذلـك أي طريقـة، بـل يرميها بما يتفق الصـديق والعـدو على كذبـه من كونهـا كـانت بابـا للاستعمار مع أنها أول من حاربه، يقول في ذلك: (مع أننا نعلم أن الطرق منتشـرة في العـالم الإسـلامي وأن آثارهـا فيـه متشـابهة، وأنها هي السبب الأقوى في كثير مما حل به من الأرزاء والنكبات، وكثيرًا ما كانت مفتاحًا لاستعمار ممالكـه، فـإن حربنـا موجهـة أولًا وبالـذات إلى طرقيـة الشـمال الافـريقي، وبينهـا من الوشـائج مـا يجعلها كالشيء الواحد. فعلى مقدار هـؤلاء الـذين نعـرف جنسـهم وفصلهم، وفرعهم وأصلهم نفصل القول، وإلى هذا الهـدف نسـدد السهام)[3]

---

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 169)

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 169)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 169)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

ثم ذكـر الشـيخ المراحـل الـتي مـر بهـا في حربـه لهم – مـع الجمعية- وكيف استطاعوا أن ينتصروا عليهم، فقال: (والأمـر بيننـا وبينهم من يوم شنت الغارة دائر على أحوال وسـائر على مراحـل ينتقلون بنا من إحداها إلى الأخرى ولا نزال نطاردهم وهم يلتجئون من ضيق إلى أضيق إلى الآن.. وذلك أننا لما أنكرنا عليهم بـاطلهم الذي يرتكبونه باسم الـدين، زعمـوا أن الطريـق هي الـدين، ولمـا نقضنا لهم هذه الدعوى تنزلوا فزعمـوا أن لهـا حبلًا واصـلًا بالـدين وسندًا متصلًا بالسلف، ولما بينا لهم أن الحبل مقطـوع وأن السـند منقطـع قـالوا إن هـذه الطرقيـة مـرت عليهـا قـرون ولم ينكرهـا العلماء، فبينا لهم أن عـدم إنكـار العلمـاء الباطـل لا يصـيره حقًـا، ومرور الزمن عليه لا يصيره حقًـا، وقلنـا لهم إذا كـان سـلفكم في الطرقيـة يعملـون مثـل أعمـالكم فهم مبطلـون مثلكم، وإذا كـانوا على المنهاج الشـرعي فليسـوا بطرقـيين، ونحن نعلم من طريـق التاريخ لا من طريق الشهرة العامة أن بعض أصحاب هذه الأسماء الدائرة في عالم التصـوف والطـرق كـانوا على اسـتقامة شـرعية وعمـل بالسـنة ووقـوف عنـد حـدود اللـه. فهم صـالحون بـالمعنى الشرعي، ولكن الصلاح لم يأتهم من التصوف أو الطرق وإنما هـو نتيجة التدين، وفي مثل هؤلاء الصالحين الشرعيين إنما نختلف في الأسماء، فنحن نسميهم صالحي المؤمنين وهم يسـمونهم صـوفية وأصحاب طرق، فيا ويلهم إن طريقة الإسـلام واحـدة، فمـا حاجـة المسلمين إلى طرق كثيرة)[1]

ولسنا ندري أين جرت هـذه الحـرب الـتي تحـدث عنهـا، وكيـف خرت الطرق صرعى لحـربهم، والمؤسـف في كـل ذلـك هـو ذلـك التعميم الذي لا علاقة له بالمنهج العلمي، ولكن الرجل – للأسف – غلب عليه البيان الأدبي على البيان العلمي، فلهذا نــراه يبحث عن الألفاظ أكثر من بحثه عن الحقائق، فهـو لم يـورد مثـالا واحـدا ولا دليلا واحدا، وإنمـا خطب خطبـة عصـماء في هجـو الطـرق، يمكن مقارنتها بخطب الحجاج وابن زياد في فصاحتها وفي شدتها، ولكن لا يمكن مقارنتها بأي مقال علمي.

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 174)

وأمـر التشـدد يبلـغ بـالإبراهيمي غايتـه القصـوى حين لا يكتفي بإنكار الطـرق، بـل ينكـر التصـوف أيضـا، وهـو مـا لم يتجـرأ كبـار السلفيين على إنكاره، فهـو يقـول: (ثم مـا هـذا التصـوف الـذي لا عهد للإسلام الفطري النقيّ بـه؟ إننـا لا نقـره مظهـرًا من مظـاهر الـدين أو مرتبـة عليـا من مراتبـه، ولا نعـترف من أسـماء هـذه المراتب إلّا بما في القاموس الديني: النبـوة والصـديقية والصـحبة والاتباع ثم التقوى التي يتفاضل بها المؤمنون، ثم الولاية الـتي هي أثر التقوى، وإن كنا نقره فلسفة روحانيـة جاءتنـا من غـير طريـق الدين ونرغمها على الخضوع للتحليل الديني)[1]

بل إنه يضيق ذرعا حتى بلفظة التصوف، مع أنـه لا مشـاحة في الاصطلاح، يقول في ذلـك: (هـل ضـاقت بنـا الألفـاظ الدينيـة ذات المفهوم الواضح والدقة العجيبة في تحديد المعـاني حـتى نسـتعير من جرامقـة اليونـان أو جرامقـة الفـرس هـذه اللفظـة المبهمـة الغامضة التي يتسع معناها لكل خير ولكل شر؟)[2]

بل إنه يقسم لو أن الأمر كان بيده لحرم هذه الكلمة، يقول في ذلك: (ويمينًا، لو كان للمسلمين يوم اتسـعت الفتوحـات، وتكـونت (المعامـل) الفكريـة ببغـداد ديـوان تفـتيش في العواصـم ودروب الـروم ومنافـذ العـراق العجمي، لكـانت هـذه الكلمـة من (المـواد الأولية) المحرمة الدخول)[3]

ثم بين أن التصـوف لم يضـم في أحضـانه إلا المنحـرفين، فقـد أصبحت هذه الكلمة – كما يذكر –(أمًّا ولودًا تلد الـبر والفـاجر. ثم تمادى بها الزمن فأصبحت قلعـة محصـنة تـؤوي كـل فاسـق وكـل زنديق وكل ممخرق وكل داعر وكـل سـاحر وكـل لص وكـل أفـاك أثيم.. فكل راقص صوفي، وكل ضارب بالطبل صوفي، وكل عابث بأحكام الله صوفي، وكل ماجن خليع صوفي، وكل مسلوب العقـل صوفي، وكل آكل للدنيا بالدين صوفي، وكل ملحـد في آيـات اللـه

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 174)

صوفي، وهلم سحبًا)[4]

بعـد هـذا الموقـف المتشـدد من التصـوف سـلفه وخلفـه سـنيه وبدعيه تساءل مستنكرا: (أفيجمل بجنـود الإصـلاح أن يـدعوا هـذه القلعــة تحمي الضــلال وتؤويــه أم يجب عليهم أن يحملــوا عليهــا حملة. صادقة شعارهم (لا صوفية في الإسـلام) حـتى يـدكوها دكًـا وينسفوها نسفًا ويذروها خاوية على عروشها؟)[1]

هــذا هــو الشــعار الــذي دعــا إليــه الإبــراهيمي (لا صــوفية في الإسلام)، ولم أجد مع اهتمامي بالتصوف من دعا بهذه الدعوة من المتقدمين أو المتأخرين غـيره، مـا عـدا السـلفية الحديثـة، والـتي أعجبت بموقفه هذا أيما إعجاب، ولهذا نرى هـذا العنـوان منتشــرا في النوادي والمواقع، وكأنه آية قرآنية أو حديث نبوي.

والإبــراهيمي – للأســف – يشــبه رجــال الصــوفية ومشــايخهم باليهود والنصاري من أصحاب الصوامع والأديـرة، ولكنـه لا يحفـظ لهم الحرمة التي تحفظ لهؤلاء، ويعلل ذلك بأن (احـترام الصــوامع والأديــرة- لأن فيهــا قومًــا فحصــوا أرؤســهم وحبســوا نفوســهم- مشروط بما إذا لم تكن مأوى للمقاتلة، وإلا زال احترامها)[2]

ثم يختم هذه الجولة القاسية بإخبـاره أن محركـه في هـذا ليس إلا الغيرة للدين والإخلاص له، فقال: (إننا لا نحمل لهؤلاء المشـائخ ولا لأولادهم ولا لأحفادهم حقدًا ولا نضطغن عليهم شيئًا، ولا ننفس عليهم مالًا من الأمة ابتزوه، ولا جاهًا على حسابها أحــرزوه، وليس بيننا وبينهم ترات قديمة، ولا ذحول متوارثـة، ولا طوائـل مغرومـة. وإنما هو الغضب لله ولدينه وحرماته انطقنا فقلنـا، وشـنناها غـارة شعواء على الآباء والأبناء)[3]

ونحن لا ننكـر عليـه إخلاصـه – مـع أنـه لا يكفي في مثـل هـذه المسـائل - بـل ننكـر عليـه تقصـيره في البحث العلمي، لأن هـذه المسـائل الخطـيرة، والـتي يتعلـق بهـا مصـير مئـات الملايين من

---

[4] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 177)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

المسـلمين في جميـع الأعصـار لا ينبغي أن نتناولهـا في قـالب إنشائي أدبي، وإنما نتناولها في قالب بحثي علمي يحاول أن يفرق بين المناسب وغير المناسب، والشرعي وغير الشرعي.

والإبـراهيمي – لغلـوه الشـديد في هـذا البـاب – يحمـل حملـة الشديدة على ما اتفق كل الباحثين عليه، وهو الدور العظيم الـذي قامت به الطرق الصوفية وزواياها من الحفاظ على الهوية واللغـة العربية، وما تنشره من العلوم الشرعية واللغوية، والـتي لا علاقـة لها بالتصوف:

ولكن الإبراهيمي لم يرضه هذا، وهو يريد هدمه، كما يريـد هـدم التصـوف سـواء بسـواء، فيقـول: (وزوايـا الطـرق في بـاب العلم كمدارس الحكومات هذه معامل لتخريج الموظفين، وتلـك معامـل لتخريج المسبحين بحمـد الزوايـا والمقدسـين، أمـا العلم وحقيقتـه وصراحته وحريته فلا رائحة لها في هذه ولا في تلك)[1]

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ــــ من الأهــداف الكــبرى الــتي تأسســت جمعيــة العلمــاء المســلمين الجزائــريين لأجلهــا مواجهــة الطــرق الصــوفية، بــل محاربتهــا، واستئصــالها، بــل تقــديم استئصــالها على استئصــال الاستعمار نفسها، باعتبارها أخطر تأثيرا منه.

2 ــ أنه حصل بين الجمعية والطـرق الصـوفية نـوع من الوفـاق عنـد أول تأسـيس الجمعيـة، وبسـببه تأسسـت الجمعيـة، وانتشـر صيتها، ثم حصل بعد ذلك، وبعد سنة واحدة الانقلاب.

3 ــ أن أعضاء الجمعية لم تقتصر تلمذتهم على مدرسة واحدة، وبالتالي اختلفت مواقفهم شدة ولينا بحسب ما أشربوا من أفكار، ذلــك أن الكثــير منهم إنمــا انتســب للجمعيــة بنــاء على اقتناعــه بمشــروعها الإصــلاحي أكــثر من اقتناعــه بتوجههــا الفكــري، مثــل الشيخ العيد القادري، الذي حول من زاويته إلى مدرسة للإصلاح.

4 ــ على المستوى الفكري، نجد المتشددين المغـالين يصـمون آذانهم عن سماع ما يطرحه الآخر من أفكار وأدلـة، لأنـه يعتـبر أن كل ما يأتي به المخالف كفرا وضلالا وبدعـة، ويـرى لأجـل هـذا أن منهج التعامل معه هو الاستئصـال والتشـهير لا الإصـلاح والتوجيـه، بينمـا نجـد المعتـدلين أخـف حـدة، وأكـثر إقبـالا على تقبـل الآخـر ومناقشته.

5 ــــ على المســتوى الشخصــي نــرى المتشــددين يميلــون إلى استعمال العنف اللفظي والأحكام المشددة على خلاف المعتـدلين الذين هم أكثر لينا وسماحة.

6 ـــــ أن البعض ممن نعتـــبرهم معتـــدلين يقفـــون في بعض المواقف مواقف المتشددين من حيث عدم سماع الآخـر، أو عـدم احترامه، والعكس صحيح.

7 ــ أن الكثـير من أعضـاء الجمعيـة تغـيرت مـواقفهم لأسـباب مختلفة، وبالتالي يمكن اعتبارهم في مرحلـة من المراحـل ضـمن المتشددين، وفي مرحلة أخرى ضمن المعتدلين، والعكس صحيح.

8 ــ أن ضابط الاعتدال هو قبـول الآخـر، أو التعامـل بلين معـه، ولو في بعض المواقف، ومن خلال استقراء مـا كتبـه ومـا قـام بـه كبار رجال الجمعية وجدنا أن هذا الوصـف ينطبـق أحسـن انطبـاق على شخصيتين من كبار أعضاء الجمعية المؤسسين، وهما الشـيخ

عبد الحميد بن باديس، والشيخ أبو يعلى الزواوي، بالإضافة إلى هذا هناك شخصيات كثيرة كالشيخ العيد، ومبروك التبسي وغيرهما، وهذه الشخصيات – كما ذكرنا – يمكن تصنيفها في إطار آخر، وهو التصوف الإصلاحي، فهم لا يتفقون مع الجمعية إلا في مشروعها الإصلاحي، ويختلفون معها اختلافا جذريا في توجهها الفكري.

9 ـ عند مقارنة المواقف التي وقفها الشيخ عبد الحميد بن باديس مع مواقف أكثر أعضاء من اطلعنا على تراثهم من رجال الجمعية يمكن اعتباره أكثرهم اعتدالا، وأحسنهم أدبا مع المخالف، بل رأينا أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان معرضا لضغوط من طرف المتشددين من رجال الجمعية الكبار، والذين كان يحرص على إرضائهم، ولذلك كان يظهر أحيانا بصورة المتشدد، فلذلك كانت لغته في الخطاب مع المخالف أكثر لينا بكثير من مثيلاتها من سائر رجال الجمعية.

10 ـ لا يقل الشيخ أبو يعلى سعيد بن محمد الزواوي عن ابن باديس اعتدالا، فهو مع كونه يصرح كثيرا بكونه سلفيا إلا أن السلفية التي يقصدها – على حسب ما أرى – هي سلفية الإصلاح، والوقوف في وجه البدع والانحرافات لا المنهج الاستئصالي الذي كان ينادي المتشددون من أعضاء الجمعية.

11 ـ يظهر من خلال مواقف وكتابات الشيخ الطيب العقبي أنه أكثر علماء الجمعية تشددا، بحيث لا يجاريه في تشدده أحد، بل نرى أنه عدى بتشدده الكثير من أعضاء الجمعية، لما كان يحظى به من قدرات مكنته لا من التسلط على قلوب العوام فقط، بل على قلوب الخواص أيضا، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

12 ـ رأينا أن الشيخ البشير الإبراهيمي– مع ما يذكر من عقله وحكمته وفقهه- كان شديدا متحاملا غاية التحامل، لا يكاد يقر بمكرمة لا للتصوف ولا للطرق الصوفية، بل فوق ذلك لا يقبل أي هدنة أو صلح، بل ولا مناظرة مع الآخر، بل لا يرضى إلا الاستئصال، لأنه يعتبر التصوف دخيلا منذ بدأ التصوف، ولم يقل مثل ما قال غيره بطروء الانحراف عليه بعد أن كان سليما صالحا.

13 ـ أن هناك أدلة كثيرة يمكن من خلالها اعتبار الشيخ مبارك الميلي من المتشددين من أعضاء الجمعية، بل هو من خلال ما كتبه في رسالة الشرك ومظاهره كان صوت الوهابية في الجزائر،

بل كان له فوق ذلك أتبـاع يقومـون بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، مثلما كان للشيخ محمد بن عبد الوهاب تماما.

14 ـ أن الشيخ الزاهري كان– في المرحلة الأولى – من حياتـه من أكثر أعضاء الجمعية تشددا، بـل اسـتعمل في تشـدده كـل مـا أوتيه من قدرات أدبية شعرا ونـثرا ممـا لم يـؤت مثلـه الكثـير من أعضاء الجمعية.

15 ـ أنه كان في إمكان الجمعية في حال التوافق مـع الطـرق الصوفية أن تكتسب الكثـير من المواقـع المهمـة والطاقـات الـتي تستطيع من خلالها أن تؤدي رسالتها، وأن تصل إلى أكبر عــدد من الجزائــريين، لكنهــا للأســف فــرطت فيهــا بنــاء على نظرتهــا الاستئصالية الإقصائية.

16 ـ رأينا أنه يمكن أن يكون للاستعمار عبر عملائه دخل فيمــا حصل بين الجمعية والطرق الصوفية من خلاف، فقد كانت مصالح المستعمر منوطة بتفرق الجزائريين وصـراعهم فيمـا بينهم، ولهـذا انتهجت فرنسـا – كمـا عرفنـا سـابقا- سياسـتها المعروفـة (فـرق تسـد)، وقـد مارسـت هـذه السياسـة مـع الجميـع، فهي لا يهمهـا طرقي أو مصلح، المهم عنـدها كمـا عنـد كـل مسـتعمر أن تتنـافر النفـوس، وأن يجهـز بعضـهم على بعض، حـتى يتمكن من تحقيـق أهدافه.

الفصل الثالث
وسائل التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية

مع التضييق الشديد الذي كان يمارسه الاستعمار على الشعب الجزائري بطبقاته جميعا إلا أنا نجده قد وضع كثيرا من الفسحة للجمعية وللطرق الصوفية لنشاطهما، وخاصة ما كان منه داخليا فيما بينهما.

وهذا ما أتاح لكل الطرفين أن يتحرك بحرية أكبر على المستويات المختلفة، والذي تجلي في استعمالهما لكل الوسائل في ذلك الحين.

أما ما قد يتوهمه البعض تضييقا، فلا نراه كذلك، لأن الذي يريد أن يضيق يقطع المدد من أصله، خاصة إن كان جهما غليظا مثل الاستعمار الفرنسي، أما أن يغلق صحيفة في الصباح، ثم تخرج هي نفسها بعنوان مخالف في المساء، فلا نعتبره تضييقا، بل نراه نوعا من الإشهار المجاني، لأن الشعب الجزائري كان يبغض المستعمر، وكان بالتالي يبغض كل من يتوهم أنه يبغض الاستعمار.

ونحن لا نقول هذا تحكما، وإنما نقوله عن دراية وخبرة، فأكثر تلك الصحف وأكثر تلك التنقلات لم تساهم لا في تثقيف الجزائري، ولا في تربيته، ولا في تعليمه، ولا في توعيته، بل الكثير منها ما علمه إلا لغة الإقصاء للآخر، ولغة الغلو والتشدد التي لم ننل من ثمارها بعده الاستقلال سوى الفرقة التي مكنت للعلمانيين واللادينيين ليوجهوا المجتمع.

بناء على هذا، ومحاولة لإثباته، سندرس في هذا الفصل الوسائل التي استعملها كلا الطرفين في التعامل مع الآخر ومواجهته.

وقد قسمنا الفصل – على حسب عنوانه- إلى مبحثين:

المبحث الأول: وسائل تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية

المبحث الثاني: وسائل تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية

المبحث الأول: وسائل تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية

اختلف خبراء الاتصال والعلاقات العامة في تقسيم وسائل

الاتصال، فمنهم من قسمها إلى مجموعتين رئيسيتين[1]:

الأولى: ويسمونها (مجموعة الكلمات المكتوبة)، ويمثلون لها بالصحف والمجلات والنشرات والكتب والملصقات بأنواعها.

الثانية: ويطلقون عليها (مجموعة الكلمات المنطوقة)، وتتضمن الراديو والتلفزيون، والمسرح، والمحاضرة وغيرها.

بينما يقسمها فريق آخر إلى الأقسام التالية:

1 ـ وسائل مقروءة: كالصحف والمجلات، والكتب.

2 ـ وسائل سمعية: كالإذاعة.

3 ـ وسائل بصرية: كاللوحة الفنية.

4 ـ وسائل سمعية بصرية: كالمسرح والسينما والتلفزيون.

5 ـ وسائل شخصية: كالمقابلة الحوارية.

ويصنف المفكر الأمريكي(مارشال ماكلوهان) وسائل الاتصال إلى قسمين[2]:

وسائل باردة: مثل، السينما والتلفزيون، ويعرفها بانها الوسائل التي لا تحافظ على التوازن في استخدام الحواس،بل تركز على حاسة واحدة(السمع،البصر).كما أنها تقدم المضمون الإعلامي جاهزاً الى حد ما مما يقلل من حاجة الإنسان للخيال.

وسائل ساخنة: مثل الصحافة والكتب والإذاعة، ويعرفها بأنها الوسائل التي تحافظ على التوازن بين الحواس،وتحتاج لقدر كبير من الخيال.فالمحاضرة(مثلا) تسمح بمساهمة أقل من الندوة أو الملتقى أو الحوار أو الحديث.

بناء على هذه التقسيمات، وبناء على ما أتيح للجمعية من وسائل في ذلك الحين، فقد آثرنا أن لا نراعي بدقة ما ذكر من هذه التقسيمات، وإنما قسمناها بحسب الوسائل، لا بحسب نوعها، أو نوع تأثيرها، ويمكن للقارئ أن يضم ما شاء لما شاء، فلا مشاحة في التصنيفات.

---

[1] انظر: مقال بعنوان: وسائل الاتصال والإعلام ودورها في ترقية المجتمع على هذا الرابط: (http://1bac.medharweb.net/modules.php?name=News&file=article&sid=216)

[2] انظر: مقال بعنوان: تكنولوجية وسائل الأعلام وتأثيرها على المجتمعات (نظرية مارشال ماكلوهان)، على هذا الرابط: (http://kenanaonline.com/users/masscommunication/posts/142661)

وقد رأينا من خلال استقراء وسائل الجمعية التي استعملتها في التعامل مع الطرق الصوفية أنها ثلاثة أنواع:

النوع الأول: هـو حركـات وتنقلات وتجمعـات الجمعيـة لأجـل توعية المجتمع بمواقفها من الطرق الصوفية.

النوع الثاني: هو ما أصدرته الجمعية من صحف سـواء كـانت رسمية، أو كانت تابعة للشخصيات المؤسسة للجمعية، أو التي لها علاقـة بهـا، ولهـذا، فلم نكتـف عنـد الحـديث عن صـحف الجمعيـة بالصـحف الرسـمية، أو الصـحف الـتي تلت التأسـيس، بـل تناولنـا الصحف جميعا، باعتبارها كانت تهدف إلى هدف واحد.

النوع الثالث: هو ما ألفتـه الجمعيـة من كتب ورسـائل ترتبـط بتعاملها مع الطرق الصوفية.

وقد خصصنا كل نوع منها بمطلب خاص.

المطلب الأول: التنقلات والتجمعات

من أهم الوسائل التي اسـتعملتها الجمعيـة في تحقيـق أهـدافها الإصلاحية، وخاصة هدفها الأكبر مواجهـة الطـرق الصـوفية هـو مـا كان يقوم بـه أعضـاؤها من تنقلات إلى المنـاطق المختلفـة سـواء لأجل إحياء مناسبات معينة، واستثمارها، أو لغير ذلك.

ومنها كذلك إقامة أعضـاء الجمعيـة لتجمعـات حركيـة محـدودة، يمكن أن تعتـــبر كنـــوع من التنظيمـــات الـــتي تخـــدم الأهـــداف الإصلاحية.

وقد كان لكلا الوسيلتين تأثيره الكبير في نشر الدعوة الإصلاحية على ربوع كثـيرة من الجزائـر، خاصـة إذا علمنـا أن نسـبة الأميـة، ونسبة الفقر، المتضخمتين لا تتيحان لأكثر النـاس الاطلاع على مـا تكتبه الجمعية في صحفها أو رسائلها.

بالإضافة إلى ما لهذا النوع من الوسائل، والتي ذكرنا أن المفكر الأمريكي (مارشـال ماكلوهـان) يطلـق عليهـا (الوسـائل البـاردة)، ويذكر أن أهميتها تكمن في تقديم المضمون الإعلامي جـاهزاً الى حد كبير مما يقلل من حاجة الإنسان للخيال، بالإضافة إلى ما فيها من دور تفاعلي يتيح للجماهير فهم الرسائل الإعلاميـة الـتي تريـد الجمعية إرسالها بكل سهولة.

بنـاء على هـذا سـنحاول في هـذا المطلب أن نـذكر اسـتخدام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هاتين الوسيلتين في تعاملهـا مع الطرق الصوفية.

أولا ــ التنقلات:

نريد بـ (التنقلات) تلك الحركة الـتي يقـوم بهـا أعضـاء الجمعيـة داخل الجزائـر أو خارجهـا إذا مـا اقتضـى الحـال لخدمـة الأهـداف الإصلاحية.

ومن خلال دراسة ما قام به أعضاء الجمعية سواء كـانوا فـرادى أو على شـكل جماعـات إلى المنـاطق الجزائريـة المختلفـة، فإنـه يمكن أن نقسمها إلى قسمين:

1 ــ تنقلات عامة، لا علاقة لها بأي مناسبة.

2 ــ تنقلات ترتبط بمناسبات خاصة كالمولد النبوي الشريف، أو غيره.

وسنتحدث عن كلا القسمين في العنوانين التاليين:

1 ــ تنقلات عامة:

لقد كان التنقل سمة بارزة في أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سواء كان تنقلهم خارج الجزائر للتعلم أو للسياحة، أو داخل الجزائر، لأجل أسباب كثيرة أهمها الدوافع الإصلاحية.

وقد ذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس في خطاب لـه ألقـاه في الاجتماع العام الذي عقدته الجمعية في سـبتمبر 1933م النشـاط المرتبط بهذا الجانب[1]، فقال: (أوفدت الجمعية من رجالها للوعظ والإرشاد وفودا لبلـدان القطـر في العمـالات الثلاث، وقـامت تلـك الوفود بمهمتها خير قيـام، وكـانت تتلقى من رجـال الحكومـة كمـا تتلقى من الأمة بكل إكرام)[2]

ولكنه ذكر في نفس الوقت بعض العراقيل التي كانت تصادفها، وهي ذلك التضييق الذي صـدر من الإدارة الفرنسـية بمنـع أعضـاء الجمعية من الوعظ والإرشاد بالمسـاجد، والـذي (كـان شـطر بلاء وعناء على الجمعية ورجـال مجلس إدارتهـا فمن تنمـر وجـره إلى إلصــاق تهم، إلى خلــق عراقيــل إلى اســتثمار ذمم. ومن وعــد وترغيب إلى وعيد وترهيب)[3]

ثم ذكر ثبات رجال الجمعية رغم هذه العراقيل الإدارية، والتي – شـجعها رجـال الطـرق الصـوفية كمـا عرفنـا سـابقا- فقـال: (هـذا

---

[1] الشـهاب: ج 10، م 9، ص 387 ـ 393 غـرة جمـادى الأولى 1352ه - سـبتمبر 1933م

[2] آثار ابن باديس (3/ 523)

[3] آثار ابن باديس (3/ 523)

والجمعية ورجال مجلس إدارتها ثابتون ثبوت الجبال ثقة من أنفسهم بأنهم دعاة حق وقصاد خير وعمال لصالح هذا الوطن بأمته وحكومته وجميع ساكنيه فانسلخت هذه السنة وأعمال الجمعية هي هذه؛ ما قام به وفودها من وعظ وإرشاد - وما قام به رجالها من تعليم في عدة بلدان - وما نشره كتابها في جريدة الجمعية - جريدة السنة النبوية المحمدية التي لقيت - بحمد الله من المسلمين غاية الإقبال - هذا كله قام به رجال الجمعية ولا غرابة أن يقوموا به فهم من أهل العلم وما أهل العلم إلا الذين ينشرون العلم بدروسهم ومحاضراتهم وخطبهم ومنشوراتهم)[1]

ومثل ذلك ما ذكره الشيخ العربي التبسي – باعتباره الكاتب العام لجمعية العلماء المسلمين - في تقريره الذي نشره عن الجلسة العادية للمجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في جريدة البصائر[2]، فقد ذكر أن (المجلس الإداري للجمعية قرر في جلسته الإدارية المنعقدة في 15/رجب/1355هـ إيفاد وفود إلى البلدان التي ستذكر فيما بعد للقيام بهمة الوعظ والإرشاد، ولدعوة الأمة إلى تعليم أبنائها، بإنشاء المكاتب والمدارس لمقاومة الأمية، وتبليغ الدين الإسلامي تبليغا علميا.. وقد جعل يوم 15/اكتوبر/1936م موعد اجتماع أعضاء الوفد ببلدة (برج أم نائل) لتكون مبدأ رحلتهم، ومنها يتوجهون إلى (تيزي وزو)، ومنها إلى (ميشلي)، و(ذراع الميزان)، و(الأربعاء) وغيرها من البلدان)

ثم ختم التقرير بقوله: (وبما أن هؤلاء المشايخ موفدون من جمعية العلماء، وهم من أعضائها وقد ذهبوا لخدمة الدين الإسلامي والمسلمين. فإننا نرجو من إخواننا أهل البلدان المذكورة أن يستمعوا إلى نصائحهم، وأن يعملوا بوصاياهم التي يبلغونها باسم الدين الإسلامي)

بناء على هذا، سنحاول هنا، وباختصار أن نذكر بعض النماذج عن تنقلات أعضاء الجمعية، والمواضيع التي كانت تطرح فيها، وعلاقتها بالطرق الصوفية، وقد نعرف من خلال ذلك سر تأييد

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 523)

[2] نشر: جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الأولى، عدد 38، الجمعة 09/10/1936م الموافق 23/رجب/ 1355هـ، ص 3.

الطرق الصوفية لقرار المنع الذي استهجنه ابن باديس والجمعيــة، واعتبروا الطرق على أساسه موالية للاستعمار.

النموذج الأول:

وهو حول تنقل الشيخ محمد البشير الإبـراهيمي الـذي كـان من أكثر أعضاء الجمعية نشاطا في هـذه الناحيـة، ولكنـا سـنكتفي في هذا النموذج على تنقله في الغرب الجزائري، لنعرف ما كان يـدور في تلك اللقاءات الجماهيرية للجمعية مع المجتمع.

وقد نقلت وصف هذه الحركـة الدعويـة من شـاهد عيـان عـرف نفسه بقوله[1]: (محمد الصغير الشافعي مول السهول، كان عمري 22 سنة، وبإذن من والدي رافقت الشـيخ البشـير الإبـراهيمي في جولته لعمالة وهران سنة 1934 من أجل تأسيس لجـان الجمعيـة ونشر الفكرة الإصلاحية)

ثم تحــدث عن زيــاراتهم إلى ســيدي بلعبــاس، ثم وهــران، ثم المحمدية، ثم غليزان ثم مستغانم، ولم يظفـروا في هـذه المحـال جميعا بأي نتيجة، وهو يـدل على استعصـاء المنـاطق الغربيـة على الجمعية بسبب انتشار الطرق الصوفية.

ثم ذكر تنقلهم إلى غليزان، وهنـاك اسـتطاعوا أن يلتقـوا بـاثنين من التلمسـانيين (محمـد الصـغير بن شـنهو وبوعبـد اللـه، كـاتب الضـبط بالعدالـة)، وقـد اقترحـا على الشـيخ الإبـراهيمي أن يلقي محاضرة في ناديهما، لكن المفاجأة أن النادي كـان ينتمي للزاويـة العلاوية، ومـع ذلـك لم يمنـع هـذا النـادي – رغم انتمائـه للطريقـة العلاوية – الشيخ من إلقاء محاضرته، فحدد موعد المحاضــرة بعــد يـومين على السـاعة العاشـرة صـباحا، وكـان موضـوعه التوسـل، ولأجل ذلك لقي إقبالا من رجال الطرق الصوفية.

ويذكر الشاهد أنه عندما اقترب موعد المحاضرة أمر الشـيخ أن نذهب إلى أحد التجار بغلـيزان اسـمه (ولى المـيزابي) لكي يبعث

---

[1]) ذكـرت هـذه الشـهادة في كتـاب: (مسـيرة الحركـة الإصـلاحية بتلمسـان: آثـار ومواقف) جمع وإعداد: (خالد مرزوق-المختار بن عامر)، نقلا عن : محمد بدر الــدين سيـفي، جهود رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة القرآن الكـريم تعليما- وعملا –ودعوة، دط، ص27.

لنا عشرة من الرجال الأقوياء الأشداء يلتفون حوله أثناء المحاضرة ويكونون سندا له عند الحاجة.

كان في إمكان الشيخ – خاصة في موضوع مثل هذا - أن يتناوله كما تناوله الشيخ ابن باديس، كما ذكرنا ذلك سابقا، خاصة في حضور رجال الطرق الصوفية، لكن الشيخ الإبراهيمي – كما يذكر الشاهد - افتتح درسه بقوله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21)} [يس: 20،ــ 21]، ثم بدأ يشرحها، فقام إليه أحدهم من تلمسان، وأوقفه قال له: ما جئت لأسمع حماقاتك؛ ثم قال: ها هو أحد شيوخنا يطرح عليك سؤالين فأجبه، فقام هذا الأخير وسأله: إن كان يعترف بدور العلويين؟ وهل يؤمن بالتوسل والوسيلة؟

فأجابه الإبراهيمي – كما يذكر الشاهد- بقوله: (إن الإنسان يتوسل إلى الله بعمله الصالح)[1]، وذكر قصة النفر الثلاثة الذين أغلق عليهم في الغار[2]، وبدأ كل واحد منهم يتوسل بعمله الصالح،

(1) جهود رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة القرآن الكريم تعليما- وعملا –ودعوة، ص28.

(2) نص الحديث كما روي في بعض رواياته هو قوله ﷺ: (إن ثلاثة نفر انطلقوا في سفر، فآواهم الليل إلى غار، فوقعت صخرة على باب ذلك الغار، فقال بعضهم لبعض : لستم على الطريق، وقد بليتم بأمر عظيم لا يمكنكم فيه إلا أن تدعوا الذي أبلاكم به أو كلمة نحوها، فلينظر كل رجل منكم أفضل عمل عمله فليذكره ثم ليدعو الله، فقال أحدهم : اللهم إنك تعلم أنه كانت لي بنت عم لم يكن في الأرض أحد أحب إلي منها، فأردتها على نفسها وجعلت لها مئة دينار، فلما جلست منها مجلس الرجل من امرأته، استقبلتها رعدة، وقالت : إني والله ما عملت خطيئة قط وما حملني عليه إلا الجهد، فقمت وقلت : هي لك، اللهم إن كنت تعلم أني إنما قمت عنها التماس مرضاتك ومخافة سخطك، فافرج عنا هذا الحجر، فانحط الحجر حتى رأوا الضوء، وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان، وكانت لي غنم أرعى قريبا، وإني تباعدت فجئت ذلك ليلة وقد احتبست، فحلبت إناء من لبن، وأتيت أبوي فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما من نومهما، فبات الإناء على يدي حتى استيقظا متى استيقظا اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك التماس مرضاتك

وهو في هذا ينقل لهم نفس ما يقوله الاتجاه السلفي المحافظ من قصر التوسل على مثل هذه المعاني.

وقد أثارت إجابته – كما يذكر الشاهد- سخط الحاضرين، حيث (بدأ الغليان والتشويش والهرج والمرج، وكان من بين الحاضرين شرطي يهودي فقام وقال للناس: (من أراد أن يستمع للشيخ فليجلس ومن أراد التشويش فعشرة أيام حبس)

عندها – كما يذكر الشاهد- قام السيد برّاقي (مستشار بلدي من غليزان) وأوقف الحوار وقال للحاضرين: (من لا تهمه المحاضرة فعليه بالخروج)، ثم اتجه إلى الشيخ الإبراهيمي ليشجعه وتلا الآية الكريمة: { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى } [يس: 20]، ثم قال له: إن هذا الرجل الذي جاء يسعى لمدينة غليزان هو أنت!.. وتتابعت المحاضرة، وبعد نهايتها دعانا السيد قاسم سعادة للعشاء، وسررنا بذلك، ثم ركبنا القطار المتجه نحو تلمسان من العاصمة ليلا)[1]

ومخافة سخطك، فافرج عنا هذا الحجر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فانقض الحجر حتى رأوا الضوء ورجوا، قال الثالث : اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت رجالا بأجر معلوم، وكان فيهم رجل يعمل عمل رجلين، فلما أعطيتهم أجورهم قال : أعطني عمل رجلين، فقلت : إنما لك عمل رجل، فأبى وتركه عندي وذهب، فلم أزل أعمل له فيه حتى اجتمع ستون من بين ثور وبقرة وعبد وأمة، فجاء بعد حين فقال : يا عبد الله، أما آن لك أن تعطيني أجري ؟ قلت : من أنت ؟ قال : أنا الذي عملت معك عمل رجلين فلم تعطني إلا عمل رجل واحد فتركته، فقلت : هذه ستون من بين ثور وبقرة وعبد وأمة، قال : حبستني ما حبستني وتسخر بي، قلت : هو لك فخذه فأخذه، اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك التماس مرضاتك ومخافة سخطك، فافرج عنا هذا الحجر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فزال الحجر وانطلقوا يمشون) (انظر: صحيح البخاري (3/ 119)، صحيح مسلم (8/ـ 89،ـ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، مسند البزار (البحر الزخار)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة : الأولى، (8/ 230))

[1]) جهود رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة القرآن الكريم تعليما- وعملا –ودعوة، ص29.

هذه هي الشهادة، ولسنا ندري السبب الذي من أجله ضيع الإبراهيمي تلك الفرصة التي أتيحت له للقاء أهل غليزان وللقاء من يطلق عليهم الطرقيين بعد ذلك الجهد الذي بذله في مناطق كثيرة من الغرب الجزائري، ومنع منها جميعا.

كان في إمكانه – إن استعمل أسلوب الحكمة – أن يجر الطرقيين وغير الطرقيين إلى الخط الإصلاحي من غير أن يصطدم معهم، خاصة في قضية خلافية، ابن باديس ينتصر للصوفية فيها.

ولسنا ندري فوق ذلك كيف يذكر حديث النفر الثلاثة الذي يورده الاتجاه السلفي المتشدد عند بيان موقفه من التوسل مع عدم صراحة النص فيه، ويترك الحديث الصريح والصحيح في التوسل والذي سبق ذكره.

إن النتيجة التي نخلص إليها من هذا التصرف، وما نتج عنه أنه كان في أعضاء الجمعية رجال كانوا - مع علمهم وفقههم - تنقصهم الحكمة والمقاصدية التي طالما تغنوا بها، وتصوروا أنها حكر عليهم.

النموذج الثاني:

وهو حول تنقل الشيخ العربي التبسي الى خنشلة، ولا نفتقر في هذا النموذج إلى شاهد قد يغفل عن بعض الأحداث، أو قد يدخل في الأحداث بعض تفسيراته وتحليلاته، بل إنا ننقل الشهادة من صاحب القضية نفسه، وهو الشيخ العربي التبسي.

بدأ الشيخ العربي التبسي شهادته بقوله: (شاء الله أن أهبط بلدة خنشلة في صيف هذا العام، وشاء أن أتخذها محل إقامة خمسا وعشرين ليلة، وقدر لي أن اجتمعت أثناء هذه الليالي بأقوام يمثلون أغلب طبقاتها، واستطلعت آراء عقلائها ومفكريها في حالتنا الدينية وما أصابها من تدهور)[1]

هذا ما ذكره الشيخ العربي التبسي حول هؤلاء العقلاء والمفكرين الذين التقى بهم والذين أشاد بهم كل هده الإشادة، وكان من المتوقع أن يتحدث مع هؤلاء في قضايا تهم الأمة جميعا، وتوحد صفها وتجمع كلمتها، لكن الأمر لم يكن كذلك، فقد غلبت

---

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 5)

الجزئية في حديثهم وبحثهم على المقاصدية، كما غلبت الطائفية المذهبية على الوحدة الإسلامية.

يقول الشيخ العربي التبسي: (وكانت نتيجة البحث مع العقلاء الذين حفظهم الله من بدعة الطرقيين استحسان الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه سلف الأمة، وإلى ترك ما أحدثه المحدثون، وهذه الظاهرة الدينية من أفهم الأدلة على أن أمتنا سدد الله خطى علمائها والعاملين لخير مفتها من الأمم التي أشربت حث دينها المحفوظ) [1]

ثم ذكر الشيخ بعض ما كان يدور في تلك المجالس من أحاديث، وجله حول التهوين من شأن شيوخ الصوفية، بل اعتبارهم كرجال الدين المسيحي، يقول الشيخ: (وكنت أفضي إلى من أجتمع به بما يتطلبه منا دين لا ببوية ولا قساوسة ولا رهبان ولا كهنوتية فيه، وأجد من فضلائها وأهل الروية والثقافة العلمية بتلك البلدة الإسلامية رجالا يقدرون الدين حق قدره ويعلمون أنه دين رب العالمين، لا صنع رجال يصرفونه كيف شاءوا وشاءت مآربهم) [2]

وقد ذكرنا عند حديثنا عن الشيخ المربي الجهد الكبير الذي بذلته الجمعية للتهوين من شأن مشايخ الصوفية، بل من شأن مشايخ العلم الذين يخالفونها، وقد عرفنا نتيجة ذلك في مستقبل الجزائر القريب من خروج الأمر من أيدي أصحاب العمائم إلى أيدي أصحاب الطرابيش، في الوقت الذي كان يستطيع أي شيخ صوفي أن يجيش الجيوش ليقتحم بهم ما يشاء.

وكشأن أصحاب الاتجاه السلفي لا يمكنهم أن يحلوا محلا دون أن يحدث الشقاق فيه، وهذا ما حصل، وقد قدم له الشيخ العربي التبسي بقوله: (. وقد منيت دعوة رجال الإصلاح الديني كما في كل مبدأ صحيح قبلها بأقوام يناهضون الحق بسلاح الأوهام ويعادون أهله، لا لأنهم شاقوا معصوما أو حاربوا صحيحا بل لأنهم سفهوا عوائد وطرحوا مألوفا تبين أنه لم يأت من طريق التوفيق) [3]

ثم ذكر كيف التقى برجلين من أهل خنشلة من أتباع الطرق

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 5)

[2] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

[3] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

الصوفية، فقال: (وفي بلدة خنشلة لساناان من ألسنة فلول الطرائق وخزائن الأخبار المحرفة والأقاويل المضطربة- وقد حدثت عن هذين الأخوين في النسب والجهل بما يأتيان به من تنفير الناس من دعوة المصلحين والتقول عليهم بما يذكر بالقصص الإسرائيلي، فحاولت أن أجتمع بهما اجتماعا يمكنني من مفاوضتهما) [1]

وهكذا تيسر الأمر للشيخ العربي التبسي أن يلتقي بهذين الطرقيين، وهي مناسبة عظيمة لرأب الصدع، وتوحيد الصف، لكن الشيخ العربي – للأسف – كشأن التيار السلفي عموما لا يحلو له الحديث إلا في المختلف فيه، فقد ذكر الموضوع الذي تحدث معهما فيه، فقال: (فجمع الله بيننا أمام قهوة عربية، فجاذبتهما الحديث في شؤون، منها إعطاء العهود الموجودة بيننا من رؤساء الطرائق ،وتحديد الأذكار للأمة على هذا الوجه بدعة لا يعرفها السلف، ولا يقبلها الشرع، فزعما أن هذه العهود وما لف لفها قد نقلت عن الحسن البصري) [2]

وصدقا في ذلك، فهناك روايات تدل على هذا يتناقلها الصوفية، وهي صحيحة عندهم[3]، لكن الشيخ – كالتيار السلفي – لا يؤمن إلا

---

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

[2] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

[3] من النصوص التي يستدل بها الصوفية على هذا ما رواه يعلى بن شدّاد قال: حدّثني أبي شدّاد بن أوس ؛ وعبادة بن الصامت حاضر يصدّقه قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فقال:((هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ؟ يعني من أهل الكتاب. فقلنا: لا يا رسول، فأمر بغلق الباب. فقال: إرْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا: لا إله إلا الله، ثم وضَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يدَه ثم قال: الحَمْدُ للهِ، الَّلهُمَّ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الكَلِمَةِ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا، وَوَعَدْتَنِي عَلَيهَا الجَنَّةَ، وَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ. ثم قال: أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ) الحديث أخرجه أحمد والطبراني والبزّار. (مسند أحمد بن حنبل (4/ 124)، مسند البزار 18 (7/ 156)، وقد استدل بهذا الصوفية على أنّ في هذا الحديث دليلا لما يفعله الشيوخ من تلقينهم للذكر لجماعة معا.

ويستدلون للتلقين الإفرادي بما روي عن عليّ كرَّم الله وجهه أنه سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله: يا رسول الله دلّني على أقرب الطرق إلى الله، وأسهلها

بالأحاديث التي تمر على غرباله الخاص، أما ما يورده سـائر الأمـة من الأحاديث، فهي عنده إما منكرة أو شاذة، لأن راويها لا يتوافـق مع هذا التيـار الـذي لا يريـد أن يحتكـر الـدين فقـط، بـل يريـد أن يحتكر رسول الله ﷺ أيضا.

وقد ذكر الشيخ إجابته لهما، فقال: (فأجبتهما بـأن من نقـل هـذا عنه أراه قد كذب عليه)[1]

هكـذا بكـل بسـاطة، ومن غـير بحث، ومن غـير تعليـل حكم بالكـذب، وهـذا مـا ذكرنـاه من تسـرع رجـال الجمعيـة في إطلاق الأحكام، ثم ذكر أن (مسألة كمسألة العهود وتحديد الأذكـار ووضـع الطرائـق للأمم ليس بسـر من الأسـرار حـتى يمتـاز بهـا الحسـن، ومحـال أن يفعـل شـيئا لم يتلقـه عمن قبلـه ولـو فعلـه من قبلـه- والمسـألة لهـا خطرهـا- لنقلت شـائعة ذائعـة كمـا هي الآن وهـذه الكتب الصحاح التي غيرت رجالها وفحصت أخبارها لا يوجد فيها ما يصلح أن يكون دليلا أو شبه دليل)[2]

لكي ندرك قيمـة هـذه المناقشـات لابـد أن نستحضـر دائمـا مـا ذكرناه حول الواقع الجزائـري الخطـير في عهـد الاسـتعمار، وهـل كان يسمح لهذه القضايا الفرعية أن تطـرح في ذلـك الحين، وهـل كان من المقاصدية أن تكمم أفـواه أولئـك الـذاكرين الـذين لقنـوا المستعمر أروع دروس التضـحية والفـداء، بفضـل مـا تحدثـه تلـك الأوراد في قلوبهم من قوة إيمانية.

ويواصل الشيخ حديثه بما تعودنا سـماعه م رجـال الجمعيـة من كونهم دائما هم المنتصرون في مناقشـاتهم مـع المخـالف، فقـال:

على عباده، وأفضلها عنده تعالى، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: عليك بمداومـة ذكر الله تعالى سرّاً وجهراً، فقال سيّدنا علي: كلُّ الناس ذاكـرون. فخصَّـني بشـيء؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل ما قلته أنـا والنـبيّون من قبلي: لا إلـه إلا الله، ولو أنّ السموات والأرضين في كفّة. ولا إله إلا الله في كفـة. لـرجحت بهم، ولا تقوم القيامة وعلى وجـه الأرض من يقـول: لا إلـه إلا اللـه، ثم قـال سـيّدنا علي: فكيف أذكر؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: غَمِّضْ عينيـكَ. واسـمع منّي لا إلـه إلا الله ثلاث مرّات، ثم قلها ثلاثاً وأنا أسمع، ثم فعل ذلك برفع الصوت. (أخرجـه الإمـام أحمد، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" رجاله موثوقون ج1/ص42])

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

[2] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

(فلما سدت في وجوههما مناهج التضليل انقلبا إلى السباب والفضاضة والفحش والإذاية، فأعرضت عنهما ومررت بكلامهما مر الكرام، ووعدت الحاضرين بالكتابة في بدعة الطرائق في الإسلام)[1]

هذا هو النموذج الثاني، وهو يدل على المواضيع التي كان يحلو لأعضاء الجمعية إيرادها، ونحب قبل أن نترك هذا النموذج أن نذكر بأن هذا العملاق من عمالقة جمعية العلماء، ونتيجة ما جبل عليه من تسامح ومحبة وسلام لم يفت بما أفتى به جماهير العلماء – حتى ابن تيمية نفسه – من كفر من سب الله أو سب رسوله، بل اعتذر له وبرر له سلوكه، كما ذكرنا ذلك سابقا.

بل إنه – على حسب ما نعرفه من هذا التيار السلفي- يفضل ذلك الذي سب الله وسب رسوله على ذلك الذي يحمل مسبحة ويأتي بالأوراد، لأن الأول أخطأ، والثاني ابتدع، والمخطئ أهون حالا من المبتدع.. ثم نتساءل بعد هذا: أين ذهب رجال الدين بعد استقلال الجزائر، وقد قتلناهم بأيدينا؟

النموذج الثالث:

وهو حول تنقل الشيخ مبارك الميلي إلى ميلة ونواحيها سنة 1933، والذي نقلته صحيفة (الشريعة النبوية) بتفاصيله[2]، ونحن نتعجب من سر ذكر تلك التفاصيل الكثيرة في صحيفة رسمية قليلة الصفحات، كان يمكن أن تستغل فيما يفيد القارئ، ولكنا نجد فيها مثل هذا الكلام الكثير الذي ينبئ عن نفسية معينة: (حل الأستاذ مبارك الميلي ببلدة القرارم قادما من الميلية بعد صلة الرحم صباح يوم الأربعاء عاشر ربيع الآخر, وبنزوله من السيارة تسابق الناس إلى لقائه فتلقوه بوجوه ضاحكة مستبشرة وقلوب تحمل في سويدائها إيمانا صادقا وعطفا زائدا نحو العلماء العاملين. وقصد الكل محل آل بوزيان المعد لنزول الوافدين, وما إن انتشر خبر قدومه حتى أسرع أهل البلدة للترحيب به وفي مقدمتهم بعض العلماء الذين كانوا هنا منهم الشيخ بلقاسم السوفي المتطوع بجامع الزيتونة)[3]

---

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 7)

[2] الشريعة النبوية العدد6، ص5.

[3] الشريعة النبوية العدد6، ص5.

وحتى تكتمل الصورة جيدا، فقد كان الشيخ مبارك الميلي حينها لا يتجاوز عمره 37 سنة، لكن المشايخ من كل حدب وصوب يسرعون إليه كما يحلو للصحيفة أن تصور، حتى أنها وصفت ذلك اليوم بكونه (يوما عزيز الوجود)

بعد هذه الملاحظة التي رأينا ضرورة ذكرها اجتمع الجمع، بعد صلاة العشاء في المسجد الجامع، وبعد الصلاة تحلق الجمع حول هذا الشيخ المصلح الفتي، وكانت فرصة عظيمة له لينشر الفكر الإصلاحي، فانتهز الشيخ الفرصة، وتحدث في وقت كانت الأعين – كما تصف الصحيفة- إليه ناظرة, (فأبان للسامعين قسمه تعالى بما ذكر في هذه السورة وما يستنتجه العقل السليم من بلاغة القرآن العظيم, وأن الله تعالى يقسم بما يريد من مخلوقاته لينبهنا إلى ما في المقسم به من علامات ناطقة بجلال قدرته, هذا بخلاف المخلوق فإنه لا يجوز له شرعا أن يقسم بمخلوق مثله. ومعلوم أن المقسم بالكسر بقسمه قد عظم المقسم به, والتعظيم لا ينبغي أن يكون إلا لله)[1]

إذن الموضوع واضح، وهو الشرك ومظاهر الشرك..

وفي الغد ألقى درسا آخر بعد صلاة الظهر في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الممتحنة: 12] بمثل الأسلوب الذي سار عليه في الدرس الأول.

قد يستغرب القارئ اختياره لهذه الآية في جو هيئ له خصيصا لينشر الفكر الإصلاحي الذي جاءت به الجمعية، خاصة وأن الإقبال عليه كان عظيما كما تذكر الصحيفة.

ولكن الاستغراب يزول إذا علم أنه – كما تذكر الصحيفة- (بين للحاضرين معنى المبايعة ومبايعة رسول الله ﷺ المؤمنات, وأن مبايعة النساء بعد رسول الله ﷺ لا تكون لأحد, فتلقى الحضور هاته النصائح بارتياح عظيم, مما يدل على أن العقول قابلة لتلقي

---

[1]) الشريعة النبوية العدد6، ص5.

النور الإلهي)[1]

وقد يستغرب القارئ الذي لا يعرف معنى المبايعة والعهد عند الصوفية حديثه هذا، ولكن الاستغراب يزول بشرح الصحيفة لما ذكره الشيخ الميلي، وهو (أن هذه الآية خلاف ما يفهمه الجهال من أهل هذا الزمان الذين يستبيحون مبايعة النساء بما يعطونهن من الأوراد, ويستندون في هذا إلى هذه الآية الكريمة. والحقيقة أنهم لم يعرفوا من سنة رسول الله ﷺ شيئا)[2]

وقد مر معنا المراد ببيعة الصوفية وأنها تشمل الأذكار الكثيرة، والالتزام الديني والأخلاقي ونحوها.

ولسنا ندري السر في بذل كل هذه الجهود، وتجنيدها من أجل أن يقول للنساء: لا تعاهدوا المشايخ على الذكر وعلى الالتزام.

ولكن هذا هو منهج السلف كما تفهمه الجمعية، وكما يفهمه التيار السلفي الاستئصالي.

2 ــ تنقلات مناسباتية:

كما حاولنا من خلال النماذج السابقة أن نتعرف على أنواع المواضيع التي كان يتطرق لها أعضاء الجمعية، وصلتها بالطرق الصوفية، فسنذكر هنا التنقلات المرتبطة بالمناسبات الدينية.

وقد كان اهتمام الجمعية بهذه المناسبات وخصوصا مناسبة المولد النبوي الشريف مثار سخط لدى التيار السلفي الحديث، والذي يرى أن إحياء هذه المناسبات بدعة ضلالة.

ولذلك فقد تعامل مع علماء الجمعية بنفس المعاملة التي تعاملوا بها مع الطرق الصوفية، فاتهموهم بالبدعة لأجل هذا.

ولكن السؤال ليس هو عن الإحياء، فقد كان معروفا متعودا عليه من طرف المجتمع الجزائري، وإنما عن كيفية الإحياء وصيغتها الجديدة التي جاءت بها الجمعية، ونحب قبل أن نعرض المنهج الإحيائي الجديد الذي جاءت به الجمعية أن نذكر الطريقة البدعية التي كان يحيي بها أهل عنابة المولد، وقد نشرت الشريعة رسالة تذكر كيف كان أهل عنابة يحيون مناسبة المولد، ونصها: (قد اعتاد الناس في هذا الشهر أن يحتفلوا بذكرى المولد النبوي الشريف تذكارا وموعظة وإحياء لشيء من سند سيدنا محمد ﷺ

---

[1] الشريعة النبوية العدد6، ص5.

[2] الشريعة النبوية العدد6، ص5.

ومعالمه ومآثره وإظهارا لأخلاقه الكريمة لقصد بعث الناس وحملهم على التأسي والاقتداء بسيرته الفاضلة الحميدة الجميلة.. غير أننا نلاحظ على أكثر هاته الاحتفالات بأنها تقتصر على سرد قصائد في مدحه عليه وآله الصلاة والسلام وسرد قصة مولده وذكر أناشيد بنغمات وأصوات شجية كل بلد على قدر ذوقه ومبلغه في صناعة الألحان والنغمات)[1]

ولسنا ندري ما العيب في هذا، وهل الناس في الاحتفالات يحتاجون إلى الترويح المفرح لهم بمثل هذه الأناشيد، أم يحتاجون إلى الخطب والمحاضرات، والتي يمكن أن يسمعوها في أي وقت آخر.

ولكن مع ذلك قد تكون المحاضرات والخطب أجدى في واقع يسيطر عليه الاستعمار وتوابعه، وهذا ما لاحظته الجمعية، وكان لها أن تنجح فيه لو أنها عرفت كيف تستعمله.

وحتى ندرك مدى نجاحها فيه نحب أن ننقل خطبتين ألقيتا في تلك المناسبة لنعرف ما الذي استبدلت به تلك القصائد في مدح رسول الله ﷺ، وكلا الخطبتين نشرتا في جريدة الشريعة.

الخطبة الأولى:

وهي الخطبة التي ألقاها – كما تذكر صحيفة الشريعة النبوية - الكاتب الأديب السيد حامد الأرقش، وسننقلها كما هي من دون أي تصرف لنعرف محتواها وأسلوبها، ونترك للقارئ بعد ذلك الحكم في أيهما أفضل: قصائد مدح رسول الله ﷺ أم هذه الخطبة العصماء.

قال هذا الكاتب الأديب– يخاطب ابن باديس، والجموع الغفيرة التي حضرت الحفل-: (سيدي الأستاذ، سادتي، باسم الشباب البوني وجمعيتنا دعوناكم وقبلتم ضيافتنا فأشكركم كثيرا من صميم الفؤاد إذ لبيتم دعوتنا تاركين أشغالكم غير مبالين بالتعب ووعثاء السفر ولا ألسنة الوشاة وفي الحقيقة ما هذه التلبية وهذه الأتعاب إلا تنفيذا لبرنامج عملكم الصالح الذي أخذتم على عاتقكم إسداءه لأبناء جنسكم المتخبطين في دياجي الجهالة وتحت سيطرة كهنوت خئون انتفاعي غايته التضليل والغش.. حياتكم أيها الأستاذ كلها جهاد ولكن بسلاح سلمي علمي تحت سماء الصراحة

[1] جريدة الشريعة النبوية المحمدية (2/ 4)

وضوء الهداية، البدع أحاطت بنا إحاطة السوار بالمعصم فقيدتنا، فحطموها ويد الله معكم وعينه ترعاكم, إن بارقة الأمل لاحت رغم المشاغبات ولم تبق إلا عشية أو ضحاها حتى تعم الأمة بكل ما تحويه من سعادة حقيقة.

إن جمعيتنا أسست لمحاربة البدع والأضاليل وما أرى إن شاء الله إلا سعيها مكللا بالنجاح وعنوان ذلك وجود أمثالكم بيننا أرجوكم أن تسعفونا بوصاياكم النيرة فإنكم كالشمس ونحن هلال نقتبس نوركم الذي فيه بذور الحياة.

إن الشباب المتعلم باللغة الفرنسوية سرت فيه الروح التي أنتم ساعون في بثها, فغايتكم وغايتها صارت واحدة وإن الحوادث والحقائق المنطقية وحدت الصفوف بالأمس كان هذا الشباب كغريب عن وسطكم أما الآن فلا وإننا نشاهد هذه الحركة هنا وقد شاهدناها أخيرا في قسنطينة حقيقة تلمس باليد.

إن جو اليوم غير جو الأمس وفكر اليوم غير فكر الأمس وإن لاحت بارقة الحياة في أمة فإنها لا ترد كيفما كانت الحوادث.. وفي الختام أقول لكم: وفقتم وأيدتم آمنين)[1]

الخطبة الثانية:

وهذه الخطبة ألقاها – كما تذكر جريدة الشريعة النبوية - المعلم الناصح الشيخ محمد نمر، وهذا نصها - بعد الحمد والصلاة على رسول الله ﷺ - من غير تقطيع: (وبعد فمرحبا بك يا أستاذنا المبرور والذائد عن حمى شريعتنا المنصور, ثم ها أنا أقدم لك عبارات الترحيب والتهنية بلسان مجموع الأمة البونية ونشكرك على إجابة دعوتنا ومساعدتك على مرغوبنا كما نعرب عن إخلاص مودتنا لكم وتأييدنا ولا منة لنا عليكم في ذلك إن كان حب العلم والعلماء من واجبات ديننا ويا ليتنا جميعا عرفنا ما للعلماء علينا من واجبات فاتبعناهم وأيدناهم ونصرناهم على ذوي الأغراض السفلة والمشاغبات ولكنا ويا للأسف يجدر بنا أن ينشد في حقنا ما قاله شاعر العراق:

إذا ما رأينا واحدا قام بانيا هناك, رأينا خلفه ألف هادم

أيها السادة إنني أعرفكم بمبدإ جمعيتنا جمعية العلماء

---

[1]) جريدة الشريعة النبوية المحمدية (4/ 6)

المسـلمين الجزائـريين ومـا قدمتـه من الأعمـال الخالصـة لأمتنـا وللدين والوطن سعيا وراء لم شعث المسلمين وابتغـاء وجـه اللـه الكريم.

تكونت حركة الإصلاح فينا على يد علمائنـا العـاملين المخلصـين فألفوا الجمعية السالفة الذكر وعلى رأسها الأسـتاذ بـاديس. مـا ذا قام المصلحون به, وما الشؤون التي يـدعوننا إليهـا, ومـا الأعمـال التي خدمت الأمة الجمعيـة بهـا؟ قـام المصـلحون من علمائنـا في زمان تفرقت فيه أهواؤنا وتشتت آراؤنا وخيم الجهـل على ربوعنـا وتركنـا العمـل بمـا شـرعه اللـه لنـا في السـنة والكتـاب وتعـددت المعبودات وإن شئتم فقولوا الأرباب. يدعوننا إلى التمسك بكتـاب ربنـا وسـنة نبينـا والعمـل بشـريعة الإسـلام النقيـة الموجـودة في ضمنهما يدعوننا إلى نبذ العوائد والخرافات الملصـقة بالـدين الـتي مـا أنـزل اللـه بهـا من سـلطان يـدعوننا إلى عبـادة اللـه وحـده والتمسك بحبله والاعتماد عليه في شؤوننا الدينية والدنيوية, قاموا قومة رجـل واحـد بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر يوجهـون أغراضنا ويلفتوننا نحو تعاليم ديننا الراقية النبيلة يصـرخون فينـا أن اعتمدوا على الله واستعينوا بالله واسـألوا اللـه وتوكلـوا عليـه في جلب المصـالح ودفـع المضـار الخ ممـا يطـول شـرحه ولا يتسـع المقام له, وهنا صاح ذوو الأغراض الشخصية الانتفاعيون من أبنـاء جنسنا صيحة حمر الوحش وتدرعوا بدروع التمويه وقلب الحقـائق وتنوعـوا في الاختلاق على العلمـاء والـرمي لهم بمـا سـولت لهم نفوسهم وليت شعري ما حملهم على هذه الأعمال المرذولة الـتي تهدم الأمة وتبعدها عن الإسلام الصحيح ويبقى الجهل سائدا عليهـا ولكن لا يخفى على البصير إذا ألقى نظرة على أعمالهم ما يجنون من ورائها وكيف تخفى فائدة استعبادهم للأمة ومـا يأخذونـه منهـا باسم الزردة والوعدة والزيارة!. أمـا الجمعيـة فـإن مبـدأها إحيـاء السنة وإماتة البدعة والعمل على الرجوع بالأمة إلى ما كـان عليـه محمـد ﷺ وأصـحابه والاتحـاد والإخـاء وعـدم التفريـق في الـدين والتخلق بأخلاق خاتم المرسـلين، وهي تحـارب كـل مـا ذكرنـا من البـدع والخرافـات ومـا لم نـذكره ممـا يشـوه سـمعة الإسـلام والمسلمين وأخيرا نسأل الله الكبير المتعال أن يوفقنا وإيـاكم في

الأقوال والأعمال وينصر العلماء العاملين المخلصين بجاه سيد الأولين والآخرين ﷺ وعلى آله وأصحابه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)(1)

هذه نماذج عن الخطب التي كانت تلقى في مناسبة المولد النبوي الشريف، وهي المناسبة التي اتفقت الأمة على اعتبارها رمزا للوحدة الإسلامية، ونترك للباحثين النفسانيين والاجتماعيين تحليلهما ليعرفوا من خلالها نوع الشخصيات التي بنتها الجمعية، ونوع المجتمع الذي سعت إلى تأسيسه على أنقاض المجتمع الطرقي الذي استطاعت أن تهدمه.

ثانيا ـ التجمعات:

وهي من الوسائل الهامة التي استطاعت الجمعية من خلالها أن تبلغ رسالتها الإصلاحية إلى عدد كبير من الجزائريين، ذلك أن تأثير التجمعات والتنظيمات يجعل من كل فرد من الجمعية طاقة كبرى تتحرك بانتظام لهدف واحد.

وقد ذكر المؤرخون للجمعية ورجالها مدى اهتمام كل فرد منهم بهذه التجمعات، فابن باديس - مثلا- كان يركز على الشباب، فيجتمع بهم ويلقي في أنديتهم ومراكز تجمعاتهم المحاضرات الدينية التاريخية والاجتماعية والوطنية.. كما كان يدعوهم إلى تكتيل قواهم ويحثهم على الاستقلال بمؤسساتهم عن التجمعات الفرنسية في الميادين الرياضية والفنون المسرحية والموسيقية والكشافة)(2)

وقد استجاب مثلا لدعوة شباب جمعية بجاية للرياضة وألقى في ناديها محاضرة بث فيها روح الوعي، ورغب الحاضرين في استغلال النوادي الرياضية لخدمة الأمة(3)

كما كان يجتهد في تحصينهم بإنشاء الجمعيات الفنية والرياضية، ومنها (جمعية الشباب الفني) التي تأسست عام (1936) وهدفها إحياء الفنون الإسلامية والاقتباس من الغرب الفن التمثيلي لخدمة الإصلاح الإسلامي، وقد اختير رئيسا شرفيا لها وكان من نشاطها التمثيلي (الدعوة إلى الأخلاق العالية وكبح شهوات النفس وتجنب

---

(1) جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (5/ 7)

(2) محمد المنصوري الغسيري، مرجع سابق،ص122.

(3) البصائر، ع 116: 04 ربيع الثاني 1337/03 جوان 1938.

الأمراض الفتاكة كالخمر والميسر والقمار والتزوج بالأجنبيات)[4]

وهكذا نجد الشيخ الطيب العقبي يؤسس تجمعات في كل المناطق التي ينزل فيها، وقد ورد في مكاتبة نشرت لأديب في جرائد تونس ـ جريدة لسان الشعب 1927 ـ قام برحلة إلى بسكرة فسجل ما يلي: (في بسكرة جماعة إصلاحية قوية على رأسها الأستاذ الطيب العقبي ... وأهم ما ترمي إليه هاته الجمعية القضاء على الخرافات القديمة والتنقيص مما يعلمه الناس عن الطرق والزوايا للقضاء عليها بعد ذلك بتاتا، وهو أمر تعهد به العقبي الذي لا يترك فرصة تمر بدون أن يكون فيها خطيبا لا فرق عنده أكان ذلك في طريق، أو مقهى، أو حانوت عطار، وقد اشتهر الأستاذ بفكرته وهو فخور بها يسمع الناس يسبونه ولا يتحرك ويأتيه البريد بالمكاتيب ـ أي الرسائل ـ المملوءة بشتمه فيضحك منها ويعطيها لمن بجانبه ويقول: (انظر في أي شيء يضيعون أوقاتهم)، وله في طريق داره ضريح صغير في مقبرة قديمة رأى الناس يعبدونه فهدمه ثلاث مرات، ولكنهم في كل مرة يجددون بناءه بعد أن يزودوا الأستاذ بجانب من الدعاء وأخيرا تركوه وصمموا على عدم تجديده إلا إذا انتقم لنفسه من عدوه وهم منتظرون.. ولقد التفت حول هذا الرجل المصلح نخبة مهمة من أبناء البلاد كونوا نهضة لا يستهان بها وهي تعمل بكل مجهودها في إنارة الطريق إلى الأفكار القديمة التي استولت عليها وأفسدتها من حيث لا تشعر)[1]

وكتب الزاهري عن إحدى جولات العقبي رفقة إخوانه من العلماء والأدباء في منطقة بسكرة تحت عنوان: (وفد الشعراء يزور طولقة، فرفار، البرج) في جريدة البرق يقول: (وبعد الفراغ من مأدبة الغداء شرع الأستاذ الطيب العقبي يدعو الناس إلى النجاة ويهديهم إلى سبيل الرشاد ويجاهد الذين يجعلون لله أندادا ويدعون مع الله آلهة كثيرة بالقرآن جهادا كبيرا، ومضى العقبي في هذا الموضوع وتغلغل فيه بشدة كأنه التيار الجارف الذي

---

[4] د/ عبد الرزاق قسوم، ابن باديس والشباب، مجلة الرسالة (الجزائر) العدد 2/3،جمادى الأولى والثانية 1400ه-أفريل ماي 1980م نقلا عن مازن صلاح مطبقاني.، عبد الحميد بن باديس، ص117..

[1] محمد الجابري، رحلات جزائرية، ص 84.

جرف طرق القوم وخرافاتهم، أو كأنه إعصار فيه نار تأكل ضلالات المشركين أكلا لمـا، فلم يبـق في مجلسـه ذلـك أحـدا إلى وخضـع لكتاب الله وسلم لله ورسوله تسليما ولم يخرجوا من هنـاك حـتى عادوا لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى الله ورسوله) [1]

وقال في مجلس آخر جمعهم بالشيخ السعدوني الذي قال قـولا شنيعا: (ولم يتكلم الشيخ السعدوني وجعلنا نتباحث معه في حركة الإصلاح وفي المصلحين وفي أعداء الإصـلاح المفسـدين فـاعترف بأنه قال: (الرجوع إلى كتـاب اللـه وسـنة رسـوله ﷺ ضـلال مـبين وشقاوة وخسارة سرمدية اليوم وقبل اليوم)، وقال: (إنــه لا يـزال مصرا على هذا القـول وقـد بين لنـا مـراده بتأويـل لم نسـتطع أن نفهمه وقد هجم عليه العقـبي هجـوم المحـق على الباطـل فتركـه حائرا مبهتا، وكان هذا الموقف الذي وقفه الأستاذ العقـبي موقـف جـد، موقـف صـراحة، موقـف من لا يخـاف في اللـه لومـة لائم، موقف من يجاهد الخرافيين بالقرآن جهـادا كبـيرا، بتلـك الفصـاحة العربية التي لم تكن لغير العقبي، فإنه أحاط بالسـعدوني من كـل جانب يحتج بالقرآن، ولم يكن للسـعدوني من حجـة، وأخـيرا عجـز عن كل شيء واعـترف بأنـه لا يسـتطيع أن ينتصـر علينـا بلسـانه، ولكنه سيكتب في الجرائد، وقد قرعه العقـبي على طعنـه في ابن تيمية تقريعا حلوا ومرا) [2]

المطلب الثاني: الصحافة المكتوبة

بالإضافة إلى ما ذكرناه من الحركـات والنشـاطات الـتي كـانت تقـوم بهـا الجمعيـة في أداء رسـالتها الدعويـة على المنهج الـذي ارتضته لنفسها، كانت هناك وسيلة أخرى تسـتعملها لتعـبر بهـا عن فكرها الإصلاحي، وهي وسيلة الصحافة المكتوبة، الـتي كـانت في ذلك الحين تعتبر من أكثر الوسائل تطورا.

ومن خلال دراسـة مـا وصـل إلينـا من صـحف الجمعيـة يمكننـا بسهولة أن ندرك علاقتها الكبرى بـالطرق الصـوفية، وكـأن الكثـير منها لم يوضع إلا لأجـل مواجهـة مـا تسـميه بــ (بدعـة الطرائـق)، وسنرى بعض النماذج عن ذلك.

---

[1] البرق، ماي 1927، ص3..

[2] البرق، ماي 1927، ص3..

ولكنا قبل ذلك نحب أن ننبه إلى أن الكثير من الباحثين عندما يصور إغلاق المستعمر الفرنسي لبعض الصحف يصورها، وكأن تلك الصحف تمس بالسيادة الفرنسية، أو تتعرض لحقوق الجزائريين، والأمر لم يكن كذلك بتاتا للأسف، فقد كانت ممارسات تلك الصحف في محاربة السلم الاجتماعي، يجعلها تتعرض للإغلاق في أي نظام يحترم نفسه.

ونحن لا ندافع عن المستعمر هنا، فقد عرفنا ظلمه وإجحافه، ولكنا نتأسف لبعض تلك الصحف التي تركت قضايا الأمة الكبرى لتنشر بدلها الضغائن والأحقاد، وتناقش في الحرية الدينية التي هي أبسط أنواع الحريات في جميع المجتمعات الإنسانية، وليتها ناقشتها بعلم، إذن لهان الأمر، ولكنها تناقشها بعنف وغلظة وتحريض.

انطلاقا من هذا سنحاول في هذا المطلب أن نذكر الصحف التي أسستها الجمعية أو أسسها أعضاؤها، قبل التأسيس أو بعده، وقد كنا نود تقسيمها إلى صحف رسمية، وصحف شخصية، لكنا وجدنا عدم جدوى هذا من الناحية التي نريد أن نبحث فيها، باعتبار أن بعض الصحف يملكها أفراد متعددون، وصحف أخرى لا ندري أصحابها بالضبط، أو اختلف في أصحابها والمؤسسين لها، والتحقيق في ذلك يبعدنا عن الهدف الذي نهدف إليه من خلال طرح الموضوع في هذا المحل.

بالإضافة إلى ذلك، فإنه يمكن اعتبار الصحف الشخصية نوعا من الصحف الرسمية، لأن المواقف في الجميع واحدة، والخلاف لا يعدو في اسم المؤسسة التي صدرت الصحيفة باسمها.

ولهذا رأينا بدل ذلك أن نقسمها تقسيما آخر يعتمد السرد التاريخي حتى نرى مسيرة هذه الصحف من أجل خدمة أهداف الجمعية، وحتى نتصور الواقع بجميع ملابساته.

بناء على هذا، فسنذكر هنا الصحف الصادرة في ذلك الحين على حسب التسلسل التاريخي، مركزين على ما لها من علاقة بالطرق الصوفية، ولذلك لن نذكر صحف أبي اليقظان[1]، ولا بعض

[1] يعتبر الشاعر والأستاذ الكبير أبو اليقظان أحد أكبر أعمدة الصحافة الإصلاحية في الجزائر، وهذا سرد مختصر لهذه الصحف:

(وادي ميزاب) 119عددا، من 01/10/1926 إلى 18/01/1929م.

(ميزاب) عدد واحد، 25/01/1930م.

صـحف الأمين العمـودي أو الزاهـري، لأنـا لم نـر لهـا علاقـة بموضوعنا.

1 ــ المنتقد:

أصدرها الشيخ عبد الحميد ابن باديس في 03 جويليـة 1925 م الموافق لـ 11 ذي الحجة سـنة 1343 هـ بمدينـة قسـنطينة تحت شعار (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء)

ولعـل أحسـن من أرخ لهـذه الصـحيفة، وبين الـدوافع لهـا هـو مؤسسها ابن باديس، فقد كتب في (الشهاب) في أفريل 1935م، أي بعد فترة قصيرة من تأسيسها وتعطيها يقول: (في يـوم النحـر من ذي الحجـة خاتمـة شـهور عـام ثلاثـة وأربعين وثلاثمائـة وألـف برزت جريدة (المنتقد) تحمل فكرة الإصلاح الديني) [(1)]

ثم بين مـراده منـه بقولـه: (بتنزيـه الإسـلام عمـا أحدثـه فيـه المبتدعون وحرفه الجاهلون. وبيانـه كمـا جـاء في القـرآن العظيم والسنة المطهرة وعمل به السلف الصالحون) [(2)]

وهي بهذا تصب في الهـدف الـذي ذكرنـا، وهـو نصـرة المـذهب السلفي، والرد على من يسميهم الإصلاحيون مبتدعة، وهم ليسـوا سوى أصحاب الطرق الصوفية.

والـذين أشـار إليهم بقولـه في افتتاحيتهـا: (ونحـارب على الخصوص البدع التي أدخلت على الـدين الـذي هـو قـوام الإخلاص فأفسدته. وعاد وبـال ذلـك الفسـاد علينـا وتأخرنـا من حيث يكـون تقدمنا وسقطنا بما لا نرتفع إلا به، لما شوهناه بإدخال ما هو ضده عليه) [(3)]

بعد بيانه الأهداف الإصلاحية المحصورة في مقاومة البدعة، بين

(المغرب) 38 عددا، من 29/05/1930 إلى 09/03/1931م.

(النور) 78 عددا، من 15/09/1931 إلى 02/05/1933م.

(البستان) 10 أعداد، من 27/04/1933 إلى 13/07/1933.

(النبراس) 6 أعداد، من 21/07/1933 إلى 22/08/1933.

(الأمة) 170 عددا، من 08/09/1933 إلى 06/06/1938.

(الفرقان) 6 أعداد، من 08/07/1938 إلى 03/08/1938.

[1]) آثار ابن باديس (4/ 352)

[2]) آثار ابن باديس (4/ 352)

الأهـداف السياسـية، فقـال: (بـرزت جريـدة (المنتقد) تحمـل هـذا وتلفت الجزائريين المسلمين إلى حقيقة وضعيتهم بين الأمم بأنهم أمة لها قوميتها ولغتها ودينها وتاريخها، فهي بذلك أمة تامة الأهمية لا ينقصها شيء من مقومات الأمم. وأنهم إلى ذلك مرتبطون بأمة عظيمة ذات تاريخ مجيد ومدنية راقية وحكومة منظمة، وأن عليهم أن يراعوا هـذا كلـه في حيـاتهم فيحـترموا قـوميتم ولغتهم ودينهم وتـاريخهم والأمــة الــتي هم مرتبطــون بهــا والحكومــة الــتي هم مسيرون بقوانينها) [1]

وهذا الذي ذكره ابن باديس هو الـذي نص عليـه في افتتاحيتهـا، وهي أول افتتاحية يكتبها ابن بـاديس، فقـد جـاء فيهـا قولـه: (نحن قــوم مســلمون جزائريــون، في نطــاق مســتعمرات الجمهوريــة الفرنسوية) [2]

ثم بين مســتلزمات كــون الجزائــر مســلمة، فقــال: (فلأننــا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليـد ديننـا الـتي تـدعو إلى كـل كمـال إنسـاني، ونحـرص على الأخـوة والسـلام بين شـعوب البشــر وفي المحافظــة على هــذه التقاليــد المحافظــة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سـعادتنا وهنائنـا، لأننـا نعلم أنـه لا يقدر الناس أن يعيشوا بلا دين، وأن الدين قوة عظيمـة لا يسـتهان بها، وأن الحكومة التي تتجاهـل دين الشـعب تسـيء في سياسـته وتجلب عليه وعليها الأضرار والأتعاب.. لا نعني بهذا أننا نخلــط بين الدين والسياسة في جميع شؤوننا، ولا أن يتداخل رجال الدين في سياسـتنا، وإنمـا نعـني اعتبـار الـدين قوامـا لنـا، ومهيعـا شـرعيا لسـلوكنا، ونظامـا محكمـا نعمـل عليـه في حياتنـا، وقـوة معنويـة نلتجيء إليها في تهذيب أخلاقنا) [3]

وبين مستلزمات كونها تابعة لفرنسـا، فقـال: (ولأننـا مسـتعمرة

---

[3] انظر: آثار ابن باديس (3/ 277)، والمنتقد العدد الأول ص 1ع 1، 2، 3، 4، 5، الخميس 11 ذي الحجة 1343هـ - 2 جويلية 1625م. وقـد أمضـى هـذا المقـال بمـا يلى (النخبة)

[1] آثار ابن باديس (4/ 352)

[2] آثار ابن باديس (3/ 277)

[3] آثار ابن باديس (3/ 277)

من مستعمرات الجمهورية الفرنسيوية نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسوية وتحسين العلائق بين الأمتين المرتبطتين بروابط المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة من الجانبين، تلك الروابط التي ظهرت دلائلها وثمراتها في غير ما موطن من مواطن الحرب والسلم) [1]

ثم ذكرت ما قدمته الجزائر لفرنسا في مقابل ما قدمته فرنسا للجزائر، فقال: (إن الأمة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا في أيام عسرها ويسرها، ومع الأسف لم نر الجزائر نالت على ذلك ما يصلح أن يكون جزاءها، فنحن ندعو فرنسا إلى ما تقتضيه مبادئها الثلاثة التاريخية "الحرية والمساواة والأخوة" من رفع مستوانا العلمي والأدبي بتعميم التعليم كل ممت الحديث، وتشريكنا تشريكا صحيحا سياسيا واقتصاديا في إدارة شؤون وطننا الجزائري، إن لفرنسا ما يناهز القرن في الجزائر ولا أحد ينكر ما لها من الأيادي في نشر الأمن وعمارة الأرض وجميع وجوه الرقي الاقتصادي، غير أنها ويا للأسف ليست لها تلك الأيادي ولا نصفها في تحسين حال الأهالي العلمي والأدبي، مع أن الذي يناسب سمعة فرنسا ومبادئها ويصدق ما ينادي به خطباؤها ويكون أجمع للقلوب عليها هو أن تعنى بالعباد كما تعنى بالبلاد) [2]

بل إن ابن باديس كتب في هذه المقدمة يذكر أن حاجة الجزائريين إلى فرنسا ضرورة حيوية، فقال: (إن الأمة الجزائرية أمة ضعيفة ومتأخرة فترى من ضرورتها الحيوية أن تكون في كنف أمة قوية عادلة متمدنة لترقيها في سلم المدينة والعمران وترى هذا في فرنسا التي ربطتها بها روابط المصلحة والوداد، فنحن نخدم للتفاهم بين الأمتين ونشرح للحكومة رغائب الشعب الجزائري ونطالبها بصدق وصراحة بحقوقه لديها ولا نرفع مطالبنا أبدا إلا إليها، ولا نستعين عليها إلا بالمنصفين من أبنائها، وفي جدنا وإخلاصنا وشرف الشعب الفرنسوي وحريته ما يقرب كل أمل بعيد) [3]

هذا ما كتبه ابن باديس في أول افتتاحية كتبها، وإنما ذكرنا نص

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 278)

[2] آثار ابن باديس (3/ 279)

[3] آثار ابن باديس (3/ 279)

كلامه بطوله، لأنا وجدنا للأسف الكثير من الباحثين يقتطع من كلام ابن باديس أو غيره ما يتناسب مع ما يريد أن يفرضه على القارئ من أفكار، ولكنه إن جاء لأصحاب الطرق الصوفية وما يكتبونه ضخم الهزيل، وعظم الحقير.

والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا استعمل ابن باديس – ومثله الجمعية – تلك اللغة الدبلوماسية الذكية مع المستعمر ليحققوا ما يريدون من أهداف، ولم يستعملوا نفس تلك اللغة مع إخوان لهم لم يطلبوا منهم إلا أن يكفوا سبابهم عنهم، وكان في إمكانهم أن يحققوا بذلك من الأهداف أضعاف ما يريدون تحقيقه من المستعمر؟

بعد هذا التوضيح لأهداف الصحيفة من خلال كلام مؤسسها، ذكر ابن باديس كيف بدأت الصحيفة تستقطب الإصلاحيين وتجمعهم، وهو ما يبين أثرها وأثر الصحف في تجميع الإصلاحيين بعد ذلك في مؤسسة الجمعية، فقال: (ثم ما كاد يبرز العدد الثاني منها حتى ظهر في الجزائر كتابه لم يجدوا مجالا لأقلامهم قبلها فانضموا إلى تحريرها وأوجدوا بهيئتهم أول حزب المصلحين)[1]

ثم ذكر ما حصل للجريدة من تعطيل، فقال: مضت الجريدة على خطتها حتى سقطت في الميدان بقرار التعطيل بعد ما برز منها (18) ثمانية عشر عددا كانت في بنيان النهضة ثمانية عشر سندا)[2]

2 ـ الشهاب

بعد تعطيل المنتقد، وفي نفس السنة (أي في سنة 1925م) أصدر الشيخ عبد الحميد بن باديس جريدة (الشهاب) وكانت في أول الأمر أسبوعية، ثم تحولت في فبراير من سنة 1929 م إلى مجلة شهرية، تحتوي افتتاحية، ومقالات وفتاوى وقصصا وأخبارا وطرائف وتراجم وغير ذلك، وكان في السنوات الأولى يكتب معظم مقالاتها بنفسه، ويوزعها أيضا بنفسه، وقد استمرت في الصدور إلى الحرب العالمية الثانية فتوقفت في سبتمبر 1939م[3].

أما علاقتها بالطرق الصوفية، وحربها لها، فلا يحتاج إلى أي

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 279)

[2] الشهاب: ج 1، م 11، ص 1 - 3 محرم 1345ه - أفريل 1935م.

دليـل، ذلـك أن الشـيخ ابن بـاديس نفسـه صـرح بـدورها في هـذا المجال، حيث نشر بعد ما يقرب من عشر سـنوات من تأسيسـها[1] يقول: (وبعـد فـإن مجلـة (الشـهاب) تفخـر بأنهـا أنشـئت للحركـة الإصـلاحية ورافقتهـا في جميـع مراحلهـا وأنهـا هـاجمت البـدع في معاقلهـا وواثبت الخرافـات في أيـام عزهـا واشـتدادها، وسـاورت الأباطيل على احتفالها واستعدادها لم تهن لهـا عزيمـة في موقـف من المواقف التي تخور فيها العـزائم وترجـف الأفئـدة، ولم يكتب لها قلم في ميدان من الميادين الـتي تنعقـد فيهـا الألسـنة وتجبـل القرائح)[2]

وقد ذكر ابن باديس بعض النماذج عن البدع التي كانت تحاريهـا الشهاب في هذا المجال، ونجاحهـا فيهـا، فقـال: (نشـرنا في جـزء ربيع الثاني من العام الماضي الفتوى التي أصدرها عشرون عالمـا من علماء طرابلس الغرب في وجوب إلغاء ما يسـتعمله أصـحاب الطـــرق من المشـــي على الفحم المصـــهور وابتلاع العقـــارب والأفـاعي والحشـرات السـامة وطعن أجسـادهم وثقبهـا بـالآلات الحادة. وقدموا في ذلك مطلبا لحكومة البلاد وعملت على تنفيذه، ثم اطلعنـا على عريضـة مؤرخـة بربيـع الأول من العـام الماضـي قدمها نحو الثلاثين عالما من علماء المغرب الأقصى من مدرسـين بجامع القرويين وغيرهم إلى جلالة مولانا السلطان (سيدي محمد) أيده الله يشتكون إليه ما كان من مخالفة ما تقدم من أمـره بمنـع بدع كل الطوائف المبتدعة كطائفة العيسـيوية وغـيرهم، ويرغبـون من جلالتـه إصـدار أوامـره بزجـر المجـرمين المخـالفين فصـوت العلمـاء بالإصـلاح الإسـلامي والحمـد للـه قـد ارتفـع من مصـر وطـرابلس والجزائـر والغـرب الأقصـى ومـا بقي سـاكنا إلا جـامع الزيتونة، فلا تسمع له همسا)[3]

---

[3] آثار ابن باديس (1/ـ 59)، والعدد الأخير الذي هو عـدد سـبتمبر لا يوجـد منـه إلا ملزمة واحدة كتب فيها عبد الحميد مقالا عنوانه (أولو الأمر) تعليقا على مقـال كتبـه الشيخ الخضر الحسين شيخ الأزهر وصاحب مجلة الهداية الإسلامية.

[1] الشهاب: ج 9، م 10، ص 370 غرة جمادى الأولى 1353ه - 12 أوت 1934م.

[2] آثار ابن باديس (4/ 351)

[3] انظر: البصائر: السنة الأولى العدد الأول الجزائر في يوم الجمعـة 26 ذي الحجـة 1354هـ الموافق لـ: 20 مارس 1936م، ص1، ع1 و2 و3 ونشر هذا المقال بنفسه

وهو نجاح يستحق الاحترام من زاويتين:
الأول: هو كون ما ذكر من البدع والمنكرات من المتفق عليه بين الأمة جميعا، ولا يخالف فيه أحد، لا صوفي ولا سلفي.
والثاني: هو أن اللغة التي استعملت في المحاربة لغة علمية، وهي فتاوى العلماء.
وهذا ما يريده الصوفية أنفسهم من الجمعية: أن يتحاوروا حوارا علميا، لا حوار سخرية وسباب، وأن يكون الإنكار في حال تحققه في المتفق عليه لا في المختلف فيه.
ولكن الشهاب لم تسر على هذا الخط في جميع القضايا، فقد عرفنا من قبل كيف لم يرض الشيخ العقبي إلا أن يكتب فيها بالطريقة التي يريد، لا بالطريقة التي طلب منه الشيخ ابن باديس.
لكن ابن باديس شعر بأنه وقف بين مفسدتين: مفسدة كف بعض الأقلام المهمة في الكتابة في صحيفته كالشيخ الطيب العقبي، ومفسدة اشتداد الشقاق بينه وبين الطرق الصوفية، فاختار أهون المفسدتين في تصوره، وهو أولئك الكتاب الغلاظ الشداد، وقد سبق ذكر تفاصيل ذلك سابقا.
وقد ذكر الإبراهيمي تأثيرها مقارنا بينها وبين (المنتقد)، فقال: (ورأى المرحوم عبد الحميد بن باديس أنه لا بدّ من جريدة تظاهر الفكرة وتخدمها، فأنشأ جريدة (المنتقد) وهي أول جريدة إصلاحية بالشمال الأفريقي، فكانت أرفع صوتا وأفعل وسيلة لنشر الإصلاح الديني، فارتاع لها الاستعمار الفرنسي وعطّلها في مدة قريبة بما يملك من قوانين، فأصدر المرحوم جريدة أخرى باسم (الشهاب) كانت أسدّ رماية، وأوسع خطى من سابقتها، وسكت عنها الاستعمار فنقلها صاحبها من جريدة إلى مجلة، طال عمرها بضع عشرة سنة ورافقت سنوات الإرهاص بجمعية العلماء، فسجّلت خطوات الحركة، وكانت لها مواقف رائعة في عدة ميادين، فخدمت العلم والدين والسياسة، وتردّد صداها في المغارب الثلاثة، فتركت في كل قطر أثرًا حميدًا في النفوس، وفضحت الاستعمار الفرنسي فضائح لا ينسى خزيها، وبدروس الأستاذ عبد

في الشهاب، ص 1، م 12، ص 4 - 6 بتاريخ غرة محرم 1355هـ - أفريل 1936م.

الحميد بن باديس، ومجلته (الشهاب)، استحقّ لقب (باني النهضة الجزائرية بجميع فروعها)[1]

ولعل أهم ما استطاعت الشهاب أن تقدمه هي كونها البوابة التي فتحت لتأسيس الجمعية، فقد نشر ابن باديس على منبرها سنة 1925م، يدعو إلى ضرورة تشكيل حزب إسلامي إصلاحي يعمل على تطهير الدين مما أدخله عليه الجاهلون من خرافات وضلالات، والعودة به إلى أصوله الصحيحة المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وذلك بعد مرور شهور من احتفال فرنسا بمناسبة مرور قرن كامل على احتلالها الجزائر.

3 ـ الجزائر:

وقد تأسست سنة 1925 من طرف الشيخ السعيد الزاهري، وقد ذكرها ابن باديس في (المنتقد)، وذكر بأنها (جريدة سياسية أدبية أخلاقية اجتماعية تصدر بالجزائر لصاحبها الشاعر الشيخ السعيد الزاهري، جلا علينا العدد الأول منها مقالات بليغة في متانة التعبير وسمو الفكر، ونبالة المقصد، وثقة لبلوغ الغاية، وجدير بها إذا كان السعيد واضعها أن يكون السعد طالعها)[2]

والظاهر أن هذه الصحيفة كانت ذات ميول سياسية أكثر منها دينية، فقد ذكر عنها الدكتور سعد الله، بأنها من أوائل الصحف ذات الاتجاه الوطني الإصلاحي، وقد اتخذت عبارة (الجزائر للجزائريين) شعارا لها[3].

ولهذا، فإن الباحثين يذكرون أنها امتداد لجريدة الإقدام التي كان يصدرها الأمير خالد باللغتين العربية والفرنسية منذ 1919، فقد جاء في هذه الأخيرة إعلان يبشر بصدور جريدة (الجزائر) جاء فيه: (نستطيع اليوم بكل سرور أن نبشر قرائنا الفطناء، بأن صحيفتهم هذه ستطلع عليهم في العهد القريب باللسانين العربي والفرنسي باسم آخر غير اسم (الإقدام)، فقد اخترنا أن يكون (الجزائر) في حجم بقدر هذا مرتين، ثم تأخذ بعد ذلك في النمو بحسب الظروف إلى أن تصير صحيفة كبرى، ويتكفل بالقلم

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 144)

[2] ابن باديس: الجزائر. المنتقد. ع5، س1، 30/07/ 1925. ص 3.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1830 ـ 1954) ج5. ط 1. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 1998، ص 258.

العربي حضرة صديقنا الشيخ محمد السعيد الزاهري المتطوع بالجامع الأعظم بالزيتونة بتونس، وتكون الجريدة أيضا تحت إشرافه، أما مواضيع الجريدة فستكون مقصورة على ما ينفع الناس)(1)

وقد منعت الصحيفة بعد صدور ثلاثة أعداد منها فقط، ولعل ذلك لما كانت تحمله من حملة المستعمر، فمن جملة ما ورد في العدد الأول قصيدة حارة معبرة منها(2):

فيا ويح أحرار الجزائر كم وكم ... يهيج عليهم من هموم بالبال

لقد كسر الناس القيود وحطموا ... ونحن بقينا في قيود وأغلال

وفي العدد الثاني نرى الزاهري بكل حماس يهزأ بشعار دولة (المساواة والحرية والعدالة الذي ترفعه فرنسا منذ ثورتها (1789) في قصة بعنوان: (المساواة، فرانسوا الرشيد)، وهي قصة تروي مسيرة طفلين، أحدهما إسباني متجنس بالجنسية الفرنسية، والثاني عربي غير متجنس قد تدرجا في مراحل التعليم تدرجا مماثلا، وأديا نفس الواجبات وعندما أجبرا على الجندية، هناك بدأ يظهر الجور والحيف، حيث درج فرانسوا في المراتب إلى أن أصبح صاحب الأمر والنهي، أما الرشيد فراح ضحية المساواة المزعومة(3).

ومن الذرائع التي استعملتها فرنسا لإيقاف الصحيفة، هو أن المترجم، ترجم عنها كلمة: (نهضة) بكلمة فرنسية معناها: (الثورة) وترجم عنها كلمة (فرنسا الظافرة المنتصرة) بما معناه فرنسا الظالمة الغاصبة(4).

---

1) صالح خرفي، الأبعاد التاريخية في الشعر الجزائري الحديث، الثقافة، العدد 01، الجزائر: مارس 1971، ص 33.

2) انظر نص القصيدة كاملة في: الزاهري محمد الهادي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ط1، المطبعة التونسية، 1926، ، ج1، ص 68 وما بعدها.

3) محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية (نشأتها- تطورها- أعلامها) من 1943 إلى 1931، ص 55 .

4) الزاهري: في الموقف الحاضر. الشهاب. مج9. ج 9. ص 405.

ولا نعلم لهذه الصحيفة أي علاقة بالطرق الصوفية، فلم يتسن لنا الاطلاع عليها.

4 ـ صدى الصحراء:

وهي من أوائل الصحف التي أسسها الشيخ الطيب العقبي والشيخ أحمد العابد، وهي – كما وصفها الباحثون- جريدة علمية أدبية واجتماعية انتقادية شعارها (العمل لدرء المفسدة قبل جلب المصلحة)

والشعار، والمؤسس يدل على مدى العلاقة التي تربطها بالطرق الصوفية، ولهذا لم تعمر طويلا، فقد أوقفت من طرف إدارة الاستعمار يوم 26 /ديسمبر/ 1926 م[1].

5 ـ الإصلاح:

وقد حاولت أن تخلف (صدى الصحراء) بعد توقفها، وكانت أسبوعية، ولم يصدر منها سوى بضعة أعداد، ثم توقفت[2].

6 ـ البرق

وقد أنشأها عبد المجيد الرحموني في مارس 1927،ـ وهي صحيفة اجتماعية أدبية انتقادية سياسية اقتصادية فكاهية، شعارها (خدمة الوطن والمصلحة العامة واستثمار المال)، وقد كتب فوق عنوانها عبارة: (تسامحوا فيما بينكم، فإنه لا سبيل للاتحاد كالتسامح) بإمضاء الزاهري، وكان التحرير موكل إليه، أما الإدارة والامتياز، فكانت للرحموني محمد عبد المجيد[3].

وقد بشرت بها جريدة النجاح، فذكرت أنها (جريدة في الصحافة الأسبوعية تبحث في مسائل الترقي والعمران والمصلحة العامة وتمتاز باشتغالها بشؤون الواردات والصادرات من أنواع البضائع. والنتائج الجزائرية)[4]

وكانت في بداية أمرها تطبع في المطبعة الإسلامية في قسنطينة، لكن خلافا وقع بين الزاهري (صاحب الجريدة الحقيقي)

---

[1] مفدي زكريا، تاريخ الصحافة العربية في الجزائر (الجزائر: مؤسسة مفدي زكريا، 2003)، ص 152.

[2] مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص 153.

[3] مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص 153.

[4] انظر: النجاح. ع 15.. س1، 40/03/1927، ص 2.

وصاحب المطبعة السيد أحمد بوشمال اضطره إلى نقـل الجريـدة لتطبع في مطبعة النهضة بتونس ابتداء من العدد السابع عشر[1].

وحسب رواية لمفدي زكريا: أن مـديرها حـاول طبعهـا بتـونس، وذلــك في رســالة مؤرخــة بيــوم 21 مــاي 1927 للأســتاذ زين العابدين السنوسي، إلا أنه لم يحصل له الاتفاق على طبعها[2].

أما توجه هذه الجريدة فقد لخصه محررها في أربعة نقاط هي:

- الاشتغال بالتجارة، وبالأسعار والبورصة.
- أن تكون الجريدة لسان حال الأمة المعبر عن آلامها وآمالها.
- ملاحقة الأشخاص البارزين بالنقد أن أضروا بالمصـلحة العامـة للأهالي.
- الاعتناء بالأدب[3].

وقد التف حـول هـذه الصـحيفة مجموعـة من الكتـاب البـارعين المعــروفين بــنزعتهم الإصــلاحية المتحمســة، وأســلوبهم النــاري المقذع، على رأسهم محرر الجريدة نفسه، وكـان يمضـي مقالاتـه ب (تأبط شرا، رقيب، الراصد، جساس)، ومحمـد الأمين العمـودي الذي كان يوقع كتاباته ب (سمهري)، وكان بجانبهما مبـارك الميلي الذي كان يوقع ب (ببيضاوي)، والشـيخ الطيب العقـبي الـذي كـان يوقع بإمضائه الصريح وأحيانـا ب (سـلفي)،، وكـذلك نجـد المولـود الحافظي الذي كان يمضي باسمه الصريح كذلك.

وقد كانت مقالات الزاهري ومن معه في البرق حادة الأســلوب يهاجم فيها بعنف وبطريقة فيها قليل من السـخرية والتهكم، يخص بها أولئك الأفراد الذي كـانوا ضـد الحركـة الإصـلاحية، أو من كـان يعمل ضد المصلحة العامة، فكان هـذا الاتجـاه الحـاد من الجريـدة من أهم أســباب تعطيلهــا، إذ رفــع الــدكتور ابن تهــامي والمعمــر مورينو النائب بالبرلمان ضـدها دعـوة قضـائية متهمين إياهـا بثلب الأعراض، وجرح كرامة الأفـراد بعـد أن تناولهمـا الزاهـري منتقـدا

---

[1] عبد المجيد الرحموني: إلى القراء. البرق. ع 17. س 1.

[2] مفدي زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر. (جمع وتحقيق). أحمد حمــدي. مؤسسة مفدي زكرياء. الجزائر.) . 2003. ص 180.

[3] الزاهري: الفاتحة. البرق. ع 1. ص 1.

سعيهما السياسي ضد مصلحة الأهالي المسلمين [1].

ولما فشل ابن تهامي وقرينه في تعطيل الجريـدة قضـائيا بهـذه الوسـيلة فقـط اسـتطاع ابن تهـامي أن يقنـع الحكومـة الحامـة للمتحنسين أن تعطل البرق، ولم يسحب منها أكثر من 23 عددا[2].

7 ــ السنة المحمدية:

وهي صحيفة أسبوعية كانت تصدر بقسنطينة، وهي أول جريـدة ناطقة بلسان جمعية العلماء المسلمين، يديرها الشيخ ابن باديس، ويرأس تحريرها عضوان من إدارة الجمعية، عرفا بعدائهما الشديد للطـرق الصـوفية، وهمـا الشـيخ الطيب العقـبي، والشـيخ محمـد السعيد الزاهري.

وقد تأسست بعد تأسيس الجمعية بسنتين، وبعد حـوالي ثمـاني سنوات من صدور الشهاب"، وكان أول عـدد منهـا في الثـامن من ذي الحجة سنة 1351هـ (1933 م)، وسرعان ما أوقفتها الإدارة الاستعمارية بحيث صـدر آخـر عـدد منهـا في 10 ربيـع الأول سـنة 1352 هـ الموافق لـ 03 جويلية 1933 م.

وكان شعارها قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: 21] والحديث الشـريف: (من رغب عن سـنتي فليس مني)[3]

وهما يدلان على نهجها المواجه للطرق الصوفية، لأن السنة في ذلك الحين لم يكن يقصد بها إلا هـذا المعـنى، بـدليل أنهـا سـميت بذلك ردا على الجمعية التي أسسها الطرق الصوفية باسم السنة.

وهذا على الرغم من أن ابن باديس عـبر في مقالهـا الافتتـاحي بأن القصد من هذه الجريدة هو: (نشـر السـنة النبويـة المحمديـة، وحمايتها من كل ما يمسها بأذية، وخطتنا الأخـذ بالثـابت عنـد أهـل النقل الموثوق بهم، والاهتداء بفهم الأئمة المعتمـد عليهم، ودعـوة المسـلمين كافـة إلى السـنة النبويـة المحمديـة دون تفريـق بينهم وغايتها أن المسـلمين مهتـدين بهـدي نـبيهم في القـوال والأفعـال

---

[1] محمد ناصر: الصحف العربيـة. مرجـع سـابق. ص 85،ـ عبـد المجيـد الرحمـوني: جريدة البرق والدكتور ابن التهامي! الشهاب. ع 134. ص680.

[2] محمد ناصر: المرجع السابق. ص 85.

[3] صحيح البخاري (7/ 2)، صحيح مسلم (4/ 129)

والسير والأحوال حتى يكونوا للناس كما كـان هـو ﷺ مثـالا أعلى في الكمال)[1]

وقد كان من أبرز كتابها على صفحاتها الأربع[2] الزاهـري، ويكفي اسمه لمعرفة المواضيع التي يحسن الكتابة فيها، كما سـنرى عنـد الحديث عن اساليب الجمعية.

وبناء على هذا، فقد أصدر وزير الداخلية قـرارا يقضـي بتعطيـل جريدة السنة بتـاريخ 16 فيفـري 1933م[3]، بعـد صـدور 13 عـددا منها.

8 ــ الشريعة المحمدية:

لما عطلت السلطات الاستعمارية جريدة السنة أعادت الجمعية إصدارها باسم (الشـريعة المحمديـة) في 17 جويليـة سـنة 1933 م، أي بعد توقيف (السنة المحمدية) بأربعة عشر يومـا فقـط، ولم يتغير فيها شيء عن سابقتها إلا في الشكل فقـد جعلت من الآيـة: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا} [الجاثية: 18] شـعارا لها بدلا من الآية: {لَقَـدْ كَـانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللَّهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ} [الأحزاب: 21]

وقد احتفظت بالمواد الـتي احتـوت عليهـا والخطـة الـتي كـانت تتبعها، والكتاب الـذين كـانوا يحـررون فصـولها، وبنفس الأسـلوب وبالنهج الإصلاحي نفسه، وهي بذلك قـد حملت قـرار تعطيلهـا في مقالها الافتتاحي كما عبر عن ذلك الدكتور محمد ناصر[4].

وفعلا كان تعطيل هذه الجريدة بعد أمد قصير، إذ لم يصدر منهـا سوى 17 عددا، وقد أوقفتها الإدارة الاستعمارية في 28 أوت سنة 1933 م أي أنها لم تستمر في الحياة سوى أربعين يوما.

9 ــ الصراط السوي:

بعد توقيف صحيفة (الشريعة النبوية) أصـدرت الجمعيـة في 11 سـبتمبر 1933 م جريـدتها الثالثـة تحت اسـم (الصـراط السـوي)

---

[1] ابن باديس: بواعثنا. خطتنا. غايتنا. السنة. ع 1، س1، 03/04/1933، ص 8.

[2] أعـادت دار الغـرب الإسـلامي طبعهـا وشـقيقاتها: الشـريعة والصـراط في ثمـان صفحات بدل الأربع..

[3] محمد ناصر: الصحف العربية، ص 132.

[4] محمد ناصر: الصحف العربية، ص 153.

محتفظة بشعار سابقتها الشريعة، إلا أنهـا تم توقيفهـا هي الأخـرى من طرف الإدارة بعـد ثلاثـة أشـهر فقـط من صـدورها وذلـك في شهر يناير سنة 1934 م.

وقد نقلت الشريعة في مقالها الافتتاحي لعـددها الأول تصـريحا للوالي العام الذي تملص من مسـؤولية العراقيـل الإداريـة، ولعلـه جعـل ذلـك تحت ضـغط برقيـات الاحتجـاج والتنديـد الـتي وجهتهـا جمعيـة العلمـاء إلى السـلطات الحاكمـة المسـؤولة في كـل من الجزائـر وفرنسـا من مسـلكها المتعسـف تجـاه جمعيـة دينيـة تهذيبية[1].

وقـد علـق ابن بـاديس على هـذا التصـريح مؤكـدا على تصـميم الجمعيـة على الصـمود أمـام العواصـف الإداريـة والمضـي على خطتها، وغايتها والثبات على المبادئ مهما يكن الثمن، ولكن ما إن صدر العدد 17 حتى عطل، وكان قد سبقه قـرار بهـذا الشـأن من وزارة الداخليـة علقت عليـه الصـراط بأنـه: (سـيتخذ ضـد كـل الصحف الحاملة لهذه النزعة (الإصلاحية) أينما وجدت من الـتراب الجزائري، ومهما يكن صاحب امتيازها، ومهما تكن المطبعـة الـتي تسحب فيها)[2]

10 ـــ الجحيم

وهـذه الصـحيفة تعـبر عن مـدى الانحطـاط الـذي وصـلت إليـه العلاقـة بين الجمعيـة والطـرق الصـوفية، وقـد صـدرت في حـدود فترة زمنية قصـيرة جـدا، أي مـا بين مـارس ومـاي سـنة 1933، وكانت بداية تأسيسها متزامنة مع صحيفة (السنة)[3]

وكانت تصدر سـريا في المطبعـة الجزائريـة بقسـنطينة، وتـوزع في الجزائـر العاصـمة كأنهـا تصـدر هنـاك[4]، أسـندت إدارتهـا إلى

---

[1] محمد ناصر: الصحف العربية، ص 181.

[2] محمد ناصر: الصحف العربية، ص 153.

[3] رجعنا فيما يتعلق بهـذه الصـحيفة إلى مقـال جيـد للكـاتب أحمـد حمـدي بعنـوان: (الجحيم: صحيفة هزلية من نوع خاص) موقع فضاء أحمد حمدي، على هذا الرابـط (http://www.ahmedhamdi.net/?p=105

الفرنسي الذي أسلم (محمد شريف جوكلاري)[1]، وكان يحررها رفقة الزاهري، ومحمد الأمين العمودي، وحمزة بوكوشة، ومحمد الصالح خبشاش، وعبد الرحمن غريب[2].

وقد عبرت عن نفسها بأنها: (جريدة مستقلة تدافع عن الشرف والفضيلة)، وكان شعارها (العصا لمن عصى)[3]

ويذكر الباحثون كانت موجهة كرد فعل على هجومات جريدة (المعيار)[4] التي كانت تهاجم الإصلاحيين، وقد كانت هذه الجريدة أقرب إلى الهجاء منها إلى الأخبار والإفادة العامة[5].

وكان كتابها يكتبون تحت إمضاءات مستعارة منها: رئيس الزبانية، وهو كاتب الافتتاحيات ومنها : هامان، مسرور، مراقب، شبيب، الراوي، شاعر الزبانية، الفحل، الكواي، فرعون، بودفرة.

ويذكر السائحي عن الشيخ حمزة بوكوشة: أن محمد السعيد

---

[4] وقد ذكر السائحي تفاصيل مكان وظروف طباعة، فقال: (إن جريدة الجحيم كانت تطبع في مطبعة بن باديس ليلا بقسنطينة دون علمه. وأن العمال يقومون بذلك خارج أوقات عملهم، وفي سرية تامة لأن الشرط الأساسي بينهم وبين أصحاب الجريدة هو أن لا يعلم الإمام بذلك)

[1] جوكلاري محمد الشريف: شخصية لها دور بارز في تاريخ الصحافة الوطنية، فهو فرنسي الأصل اعتنق الإسلام في مدينة بسكرة، وصار يسمى بمحمد الشريف، ونظرا لكونه يحمل الجنسية الفرنسية يحق له أن يمنح من قبل السلطات الفرنسية حق امتياز إنشاء الصحف وفقا لمقتضيات القانون الفرنسي، وبهذه الخاصية نجد اسمه في واجهة العديد من الصحف الإسلامية.

[2] من الذين واكبوا الحركة الإصلاحية من بداياتها له مقالات في الشهاب والمنتقد وغيرهما من الجرائد الإصلاحية كان يمضي أغلب مقالاته ب " ع غ " أو " غ " أو " غريب "..

[3] سليمان الصيد: محمد السعيد الزاهري. الحلقة الثانية. النصر. ع 4213، 31/05/1987، ص 7.

[4] المعيار جريدة معبرة عن الاتجاه الطرقي. وهي جريدة نصف شهرية كان يحررها مولود الحافظي بعد انسحابه من الجمعية مع بقية من الطرقيين صدرت في 18/12/1932، واختفت في 23/04/1933، وهي جريدة مناوئة لجمعية العلماء.

[5] سليمان الصيد: محمد السعيد الزاهري. الحلقة الثانية. النصر. ص 7.

الزاهري ومحمد الأمين العمودي ومحمد الصالح خبشاش وحمزة بوكوشة نفسه هم المؤسسون لصحيفة (الجحيم) وخاصة منهم محمد الأمين العمودي ومحمد السعيد الزاهري، وأن هذا الأخير ـ حسب السائحي دائما ـ هو رئيس الزبانية، وأن الفحل وبودفرة هما شخص واحد ألا وهو الشهيد الصحفي المترجم محمد الأمين العمودي.

وقد نشرت صحيفة (الجحيم) للشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشاعر محمد العيد آل خليفة حسب شهادة بوكوشة.

وقد ذكرت في أول أعدادها الدافع الديني لها، فقد كتب (رئيس الزبانية) يقول: (كان سيدنا عبد الله بن عباس ض جالسا في مجلس ينشر العلم، فشتمه أحد الطغمة الرعاع، فسكت عنه ابن عباس، ولم يجبه، ولكن أحد الحاضرين قام إلى هذا الشاتم المعتدي بصفعه وجلد به الأرض، فاستحسن سيدنا عبد الله بن عباس هذا الدفاع وقال : (ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه)

ولسنا ندري مدى صحة هذا النص الذي استنتجوا منه الحكم الشرعي بالتعامل البذيء المخالف، ثم ذكروا المصداق الذي ينطبق عليه الحديث الذي رموا به ابن عباس، وقد عبر عنه هذا الرئيس بقوله: (وقد ظهر في هذه الأيام رهط ينتسبون إلى الجنس البشري وهو يتبرأ منهم. هؤلاء الخنازير اتخذوا الشتم وثلب الأعراض حرفة وقذف أهل العلم والفضل بضاعة روجوها رغم الأزمة التي كسدت بسببها البضائع الأخرى.. وقد أسسوا ورقة عفنة سموها (المعهر)[1] وهي حقيقة معهر من أقذر وأنجس المعاهر وكتبوا في تلك الورقة ما أطربوا به بعض السفهاء أمثالهم، وما خوفوا به بعض الجبناء، وأيقنوا أن الجو خلا لهم وأن بلاد الجزائر لم يبق فيها إلا من يناصرهم أو يهابهم، وليس فيها من يحاربهم أو يلعنهم أو ينتقدهم وهكذا شأن اللئيم يزيده سكوت خصمه جراءة ولا يقبل إلا اليد التي تصفعه.. وقد أسسنا هذه الجريدة المباركة الطاهرة النقية العفيفة النزيهة لا لغرض سوى الانتقام للفضيلة والدفاع عن الأعراض البريئة وتطهير قطرنا العزيز من الجراثيم الخبيثة التي انبتها فيها الطمع وحب الرئاسة

---

[1]) يريد بذلك صحيفة (المعيار)

والتكـالب على جمـع الأمـوال الطائلـة وتحصـيل الألقـاب الهائلـة. وسنذيق أهـل الزيـغ والكفـر والعنـاد أضـعاف مـا اعتـدوا بـه على السادة الأبرياء من عباد الله)[1]

11 ــ البــصائر:

وهي رابــع صــحف جمعيّــة العلمــاء المســلمين الجزائــريّين الأسـبوعيّة، وقـد أنشـئت بعـد تعطيـل الإدارة الاسـتعمارية لثلاث جرائد للجمعية في سنة واحدة - السنة المحمديـة (1933-1933) الشــريعة المطهــرة (1933-1933) الصــراط الســوي (1933-1934)

وبعد توقف آخر صحيفة رسمية للجمعية، منعت من إصـدار أيـة صحيفة باسمها، وقد دام هذا المنع قرابة السنتين (من ينـاير سـنة 1934 م إلى سبتمبر سنة 1935 م) إلا أنه بعد جهود كبيرة بذلتها الجمعية لأجل الحصول على رخصة من الحكومة الفرنسية بإصدار صحيفة باسم الجمعية، صدرت في 27 سبتمبر 1935 م.

وهي من الصحف التي لم تتعرض لها الإدارة الاسـتعمارية حيث ظلّت تصدر بانتظام إلى سنة 1939 م، وقد أشرف عليهـا الشّـيخ الطّيّب العقبي من أول عدد لها (27 سـبتمبر 1935م) إلى العـدد 83 الصــــادر في (30 ســــبتمبر 1937 م)، حين تحــــولت إدارة تحريرهــا من العــــاصمة إلى قســنطينة، وعين المجلس الإداري لجمعيّـة العلمــاء الشّـيخ مبـارك الميلي مـديرا ومحـررا لهـا خلفـا للشّـيخ العقـبي إلى أن تـوقفت بسـبب الحـرب عنـد العـدد 180 الصادر في 25 أوت 1939 م، حيث قررت الجمعيّـة تعطيلهـا مـع إعلان الحـرب العالميـة الثانيـة، لئلا تتعـرض لضـغوط ومسـاومات الإدارة الاستعمارية الـتي طلبت منهـا أن تعلن باسـمها وتكتب في صفحاتها، تصريحات ومقالات ضد دول المحور.

وعادت إلى الصدور بعد انتهاء الحرب العالميـة الثانيـة من عـام 1947 م إلى غاية 1956م، بإشراف وإدارة رئيس الجمعيّة الثاني الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي، وقد بدأ صدورها يـوم 25 جويليـة 1947 م، ولكنهــا لم تلبث أن تــوقفت عن الصــدور مجــددا من طرف المشرفين عليها سنة 1956 م.

وكـانت تصـدر يـوم الجمعـة قبـل أن تتحـول إلى يـوم الاثـنين، وتحتوي على ثمـاني صـفحات ويكـون العنـوان دائمـا أسـودا وفي

---

[1]) صحيفة (الجحيم) كلمة أولى.. أما بعد، العدد الأول، بتاريخ 30 مارس 1933.

بعض الأحيان أخضرا أو أحمرا، ويكتب فوقه الآية القرآنية: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } [الأنعام: 104] وتحت العنوان نجد هذه العبارة (لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، ويزخر كل عدد بمجموعة من الصور.

وهي تعد من أهم الجرائد التي أصدرتها الجمعية باعتبار طول المدة التي أتيحت لها، وباعتبار المواضيع التي كانت تناقشها، فقد كانت تناقش جميع القضايا التي تهم الجزائر والعالمين العربي والإسلامي، بالإضافة إلى صراعها مع الطرق الصوفية.

ولا حاجة بنا إلى نقل الشواهد على ذلك، لأن أكثر ما نقلناه من الاقتباسات من الشيخ ابن باديس والإبراهيمي والعربي التبسي وغيرهم منها.

المطلب الثالث: الكتب والرسائل

لم تهتم الجمعية بالتأليف كما اهتمت بالصحافة، وذلك لانشغال أعضائها الشديد بالعمل الإصلاحي، بالإضافة إلى اعتبارها أن منتوج الصحافة أكثر، وأقرب من منتوج الكتب، ولهذا فإن إنتاجها في هذا الجانب محدود جدا لا يكاد يذكر، وسنذكر هنا باختصار بعض ما ألفه أعضاء الجمعية مما سبق الإشارة إلى أكثره:

جواب سؤال عن سوء مقال:

وهي رسالة ألفها الشيخ عبد الحميد بن باديس ردا على أبيات شعرية للشيخ أحمد بن عليوة المستغانمي صاحب الطريقة العلاوية وهي قوله:

إنْ مُتّ بالشَّوْق منكد	إن تبق في هجري زائد
من هو بالملك موحّد	عبس بالقول تساعد
ما عذر ينجيك	للمولى ندعيك
ينظر في أمريك	ما نرجوه فيك

وقد رُفعتِ هذه الأبياتُ إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس بعد نشرها في ديوان ابن عليوة المطبوع في تونس عام 1920م، فكتب الشيخ ابن باديس للردّ عليها هذه الرسالة في مقدّمة وأربعة فصول وخاتمة، حَشَدَ فيها الأدلة من الكتاب والسنّة وآثار

السلف، وقد فرغ من تحريرها صبيحة الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة الحرام عام 1340هـ الموافق لعام 1922م، وأرسل بها إلى كبار مشايخه بتونس وإلى أفاضل العلماء والمفتين بالجزائر والمغرب، فاطّلعوا عليها وقرّظوها[1].

ونص السؤال الذي رفع لابن باديس هو (ما قول ساداتنا العلماء ـ رضي الله تعالى عنهم، وأدام النفع بهم ــ في رجلٍ يزعم أنّه قطب الزمان الفرد، وأنّ الكلّ دونه، وأنّه العارف الْمُسَلِّك.. إلى غير ذلك من أعلى صفات العارفين، وأسمى درجات الكاملين، ثُمَّ يقول مخاطبًا للنبيّ ﷺ بما نصّه: (الأبيات السابقة)، ولَمّا قيل له في هذه الأبيات، قال: أَلسُنُ الْمُحِبِّين أعجمية ! فهل يُعَدُّ خِطابُه هذا سُوء أدب؟ وهل تجوز مخاطبة النبيّ ﷺ بمثله؟ وهل صدور مثله من شأن العارفين الكاملين !؟ وهل يُقبل منه ما اعتذر به من عُجمة ألسن الْمُحبّين ؟ أفيدونا مأجورين)

وقد قال محمد الصالح رمضان في مقدمته على الرسالة المحققة، وهو من تلاميذ ابن باديس: (أبعد الطرق عن الإسلام في بلادنا (الطريقة العليوية) التي تدعو إلى الحلول صراحة وتقول بوحدة الوجود التي لا نعرفها. فقد كان (أحمد بن عليوة) قد آلت إليه مشيخة زاوية (درقاوة) بمستغانم بوصيّة من شيخه محمد بن الحبيب البوزيدي المتوفى عام 1909م ولكن الشيخ ابن عليوة كان طموحًا جدًّا فجدّد الطريقة وأدخل على نظامها وطقوسها ودعايتها تغييرًا شاملاً مِمّا جعلها تنتسب إليه بدلاً من نسبتها إلى (الدرقاوي) أو (الشاذلي)، وخرج بها من مستغانم لتنتشر في الآفاق، ونشطت على يده نشاطًا هائلاً، وامتدّت دعوتها باسمها الجديد: (الطريقة العليوية) في الوطن وخارج الوطن)

وقد قدم لها بقوله: (أما بعد- فقد وقفت على سؤالكم وتأملت من جميع فصوله، وأحطت خبرا إن شاء الله- تعالى- بلفظه ومدلوله، وهممت أن لا أجيبكم عنه بحرف واحد، لما أعلم من تصميم أكثر العامة على العناد فيما اعتقدوه من الباطل، وسكوت

[1] من الذين قرظوا الرسالة العلامة المفكر محمد النخلي القيرواني، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وأبو محمد بلحسن إبن الشيخ المفتي محمد النجار الذي تولى الإفتاء سنة 1342هـ ومحمد الصادق النيفر وسعد العياض السطايفي المصلح المجدد، ومحمد بن القاضي، والبشير صفر المؤرخ المجدد، وغيرهم كثير..

أكثر الخاصة عن التصريح بالإنكـار عليهم، والإرشـاد لهم، وتهـافت بعض الطلبة القاصرين، على تسويد صحفهم وصـحائفهم بشـبهات يسـمونها بـأفواههم دلائـل وأجوبـة عن متبـوعيهم من الجـاهلين، يخشـونها بالأحـاديث الضـعيفة والموضـوعة والتـأويلات الباطلـة الممنوعة، والروايات المدخولة عمن ليس قوله حجـة على النـاس في الدين وإنما غايته إذا ثبت عنه ذلك وحسن بـه الظن أن يـؤول على وجه صحيح يقبله الشـرع. ثم يـردون بمثـل هـذا على الآيـات البينـة والأحـاديث الثابتـة وعمـل السـلف الصـالح المشـهود لهم بالخيرة على لسان المعصوم. أفمـع هـؤلاء ينفـع الكلام أو يحسـن الجواب. لكنني تذكرت ما جـاء في وعيـد الكـاتبين، وفي وعـد من بذل الجهد في نصح إخوانه المسلمين، ورجوت أن لا أعدم أنصـارا على الحق، وإخوانا متكاتفين في نصـرة الـدين، من عـدول حملـة العلم الذين ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويـل الجاهلين، فاستخرت الله- تعـالى- وحـررت لكم هـذا الجـواب في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، غير قاصد- علم اللـه- شـخص أحـد بالتقص، ولا خـارج بعـون اللـه- تعـالى- عن جـادة الفهم من دلالـة الظاهر والنص، والله أسأل أن ينفـع بـه المسترشـدين ويهـدي بـه في المعاندين ويفت به أعضاء المفسدين آمين)(1)

رسالة بدعة الطرائق في الإسلام:

وهي في أصــلها ثلاث مقــالات نشــرت في مجلــة الشــهاب الجزائرية التي أنشأها رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس رحمه الله (مج 4 عـدد 166، 168 و169 سنة 1347 هـ 9281 م)، ثم جمعها بعد وفاته محمــد شايب شريف بالجزائر.

وهي عبارة عن ثلاث مقالات في إبطال بعض ما يتصوره الشيخ العربي التبسي بدعا، وهي ثلاثة أمور:

1- بدعة تحديد الأذكار.

2- بدعة إعطاء العهود للأتباع.

3- وبدعة التصدي للدعوات.

وقـد سـار في هـذه الرسـالة على منهج الشـاطبي والسـلفية المحافظـة في اسـتعمال الـترك كـدليل في الحكم على التعبـدات بالبدعة.

---

(1) آثار ابن باديس (3/ 154)

وسنناقش ما ذكر في الرسالة من أدلة بتفصـيل في محلهـا من الجزء الثالث من السلسلة.

ونحب أن ننبه هنـا إلى أنـه أضـيف إلى المقـالات الثلاث مقالـة أخرى بعنوان (إن كنت حاملا فلدي غلاما) نشـرتها مجلـة الشـهاب في عـددين (مج 4 عـدد 77 1 و78 1 سـنة 1347 هـ/92 م) رد فيها على المدعو (ناصر معروف) أحد أنصار الطرقيين الـذي كتب مجموعـة من المقـالات في جريـدة البلاغ رد فيهـا على مقـالات الشيخ التبسي (بدعة الطرائق في الإسلام)

وسنعرض لها أيضا في محلها من الباب الرابع بتفصيل.

رسالة الشرك ومظاهره:

وقد ألفها الشيخ مبارك الميلي، وسار فيها – كما ذكرنا سـابقا – على منهج الوهابية في الحكم بالشـرك الجلي على بعض القضـايا المختلــف فيهــا أساســا، أو مــا يــدخل في ضــمن المعاصــي والمحرمات، ولا ضمن ما يحكم بكفر فاعله.

ولم يسر في هذه الرسالة - للأسف- على ضـوء المنهج العلمي من ذكر أدلة المخالف والرد العلمي عليها، وإنما سار على طريقة الشيخ ابن عبد الوهـاب من ذكـر بعض النصـوص الـتي نـزلت في المشركين ليحملها على المؤمنين، ويضـيف إليهـا بعض الحكايـات والقصص التي يتلقاها من العامة.

وبذلك فإن الرسـالة رسـالة وهابيـة بامتيـاز على الـرغم من أن الوهابية المعاصرين ينكرون بعض ما فيهـا، باعتبـار الشـيخ مبـارك الميلي تتلمذ على مشـايخ من الأشـاعرة، فكـان لهم تـأثيره فيـه، وهو تأثير لا يصل إلى حـد إخراجـه من المنهج الوهـابي في الحكم على مثل تلك القضايا الخطيرة التي حكم بها.

وأخطر ما في الرسالة في تصوري هو إقرار الجمعية لهـا، لأنهـا بهذا الإقرار أخرجت الرسالة من كونها آراء شخصـية إلى مواقـف للجمعية، وهو ما يجعل تصنيفها ضمن الوهابيـة بسـيطا للمخـالف، فأفكار الرسالة هي نفس الأفكار التي جـاء بهـا ابن عبـد الوهـاب، وخالفه فيها غيره من المسلمين.

وقـد جـاء هـذا الإقـرار من الجمعيـة في تقـديم الشـيخ العـربي التبسي لهــا بتكليــف من المجلس الإداري لجمعيــة العلمــاء

المسلمين الجزائريين في سنة 1356هـ - 1937م[1] بما يـدل على أنها رسالة رسمية تمثل مواقف الجمعية جميعا على الرغم مما فيها من الشدة والتأثر بالوهابية، فمما جاء في تقديمها قول الشيخ: (أما بعد فإن الدعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي في العالم الإسلامي عامة وتقوم بها (جمعية العلماء) في القطر الجزائري خاصة، تتلخص في دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب ربهم، وسنة نبيهم، والسير على منهاج سلفهم الصالح في أخلاقهم وعباداتهم القولية والاعتقادية والعملية، وتطبيق ما هم عليه اليوم من عقائد وأعمال وآداب على ما كان في عهد السلف الصالح. فما وافقه عددناه من دين الله، فعملنا به واعتبرنا القائم به قائما بدين الله. ومالم يكن معروفا في عهد الصحابة عددناه ليس من دين الله. ولا علينا فيمن أحدثه أو عمل به. فالدين حجة على كل أحد. وليس عمل أحد حجة على الدين)[2]

وقد ذكر أن الرسالة عرضت على مجلس الجمعية، فوافق على كل ما فيها، فقال: (نهض إلى القيام بهذا الفرض الكفائي الأستاذ المحقق، مؤرخ الجزائر الشيخ مبارك الميلي أمين مال جمعية العلماء، وجمع رسالة تحت عنوان (رسالة الشرك ومظاهره) خدم بها الإسلام، ونصر بها السنة، وقاوم بها العوائد الضالة والخرافات المفسدة للعقول. وعرض هذه الرسالة على مجلس إدارة الجمعية، فتصفحها واستقصى مسائلها، فإذا هي رسالة تعد في أوليات الرسائل، أو الكتب المؤلفة في نصر السنن، وإماتة البدع تقر بها عين السنة والسنيين، وينشرح لها صدور المؤمنين، وتكون نكبة على أولئك الغاشين للإسلام والمسلمين من جهلة المسلمين، ومن أحمرة المستعمرين الذين يجدون من هذه البدع أكبر عون لهم على استعباد الأمم، فيتخذون هذه البدع التي ينسبها البدعيون إلى الدين الإسلامي مخدرا يخدرون به عقول الجماهير. وإذا تخدرت العقول وأصبحت تروج الأوهام وجدت

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الشهاب: جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 121، الخميس 01/ 12/1927م الموافق 06/ جمادى الآخرة/1346هـ، ص 10 و11 و12 و13.

[2] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 27)

الأجـواء الـتي يرجوهـا غلاة المسـتعمرين للأمم المصـابة برؤسـاء دينـيين أو دنيـويين يغشـون أممهم ويتـاجرون فيهـا.. وإن المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرر بإجمـاع أعضـائه أحقيـة مـا اشـتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة، ويوافق مؤلفهـا على مـا فيهـا، ويـدعو المسـلمين إلى دراسـتها، والعمـل بمـا فيها فإنـه العمـل بالدين) [1]

وقـد سـقنا فيمـا سـبق بعض الأمثلـة على تـأثر هـذه الرسـالة خصوصا بالوهابية، وسنعرض لرد أصحاب الطرق الصوفية على ما جاء فيها في الباب الرابع.

الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير:

وهي رسـالة ألفهـا الشـيخ الزاهـري، وهي عبـارة عن مجموعـة مقالات كان قد نشرها في مجلة ((الفتح) في أواخـر العشـرينات من القرن الماضي، تصدر بعضـها افتتاحيـات هـذه المجلة[2]، ولمـا قابل النـاس هـذه المقـالات بالاستحسـان والرضـى، رأى صـاحب الفتح (محب الدين الخطيب) نشرها في كتيب صدر عن المطبعــة السلفية في القاهرة، وفي مقدمة هـذه الطبعـة كتب الناشـر بـأن (هــذه الفصــول كتبهــا أخي في الــدعوة الأســتاذ محمــد الســعيد الزاهري الجزائري لتنشر في صـحيفة الفتح، فرأيتهـا مثـالا صـالحا للدعوة للخير، وما يجب أن يكون عليه الداعي من بصيرة وحكمـة لذلك استخرت الله عز وجل في إفرادها بهذا الكتاب...)[3]

وبعد عامين من صـدور هـذه الطبعـة، قـامت مطبعـة الاعتـدال بسوريا بإعادة طبع هذه المقالات ثانية[4]، ثم أعاد الزاهـري طبعهـا في كتيب في الجزائر سنة 1932 مع إضافات.

ولما صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى أثنى عليـه أمـير البيـان السيد شـكيب أرسـلان في رسـالة بعث بهـا إلى صـاحبه (مؤلفـه) أبدى له فيها إعجابه بفصول هذا الكتاب، وهو ما جعله يسـتدل بـه على وجود نهضـة أدبيـة وعلميـة في الجزائـر، أعمـدتها: الزاهـري وابن باديس، والعقبي والميلي، كما أثنى عليه بعض محـرري الفتح

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص28)

[2] الزاهري: الإسلام في حاجة إلى دعاية. مصدر سابق. ص 5 وما بعدها.

[3] نفس المصدر. ص 11.

[4] خرفي صالح: الأبعاد التاريخية في الشعر الجزائري الحديث. ص 14

كالأستاذ محمود ياسين الدمشقي، والأستاذة تفيدة علام التي أعجبت كثيرا بفصل (الكتاب الممزق)، واعتبرت مجلة (المجمع العلمي العربي) الكتاب دليلا على وجود نهضة في الأدب العربي، وذكرت مجلة الفتح أن: (فكرة التبشير الإسلامي نشأت مع الفتح الإسلامي جنبا إلى جنب... وجاء اليوم كاتب الجزائر محمد السعيد الزاهري فكساها ثوب العصر الحاضر وخلع عليها أسلوب الرواية الرائع)[1]

وفي الجزائر أثنى عليه الشيخ ابن باديس مبرزا فصوله في شهابه قائلا: (عرفنا الشيخ السعيد الزاهري شاعرا خنذيذا وعرفناه كاتبا رحب البيان، وعرفناه في هذا الكتاب، داعية إسلاميا كبيرا، فقد خاض في مسألة الحجاب والمرأة الجزائرية ومسألة الإسلام والتغريب والشبيبة المتعلمة، فأبان من الحقائق، وأقام من الحجج ما لا يلقاه أشد الخصوم – إذا أنصف – إلا بالإكبار والتسليم، وساق ذلك كله في أسلوب من البلاغة الشبيه بالروائي سهل جذاب، لا تستطيع إذا تناولت أوله أن تتركه قبل أن تأتي على آخره)[2]

المبحث الثاني: وسائل تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية

كما أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين استعملت كل الوسائل المتاحة في ذلك الحين لمواجهة الطرق الصوفية فإن الطرق الصوفية لم تقل عنها في أي ذلك، وخصوصا الطريقة العلاوية التي يجمع كل من ذكرها أو أرخ لها على أنها طريقة عصرية استعملت كل الوسائل والأساليب العصرية.

وبناء على ما سبق ذكره من وسائل، فإنه يمكن تصنيف الوسائل التي استعملها رجال الطرق الصوفية في نشر أفكارهم أو الرد على المخالف في ثلاثة وسائل:

أولا ــ التنقلات والتجمعات.

ثانيا ــ الصحافة المكتوبة

ثالثا ــ الرسائل والكتب

[1] الزاهري: الإسلام في حاجة إلى دعاية. ص7-11.

[2] ابن باديس: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير. الشهاب. مج7. ج 12. ديسمبر 1931. ص 793.

وقد خصصنا كل وسيلة منها بمطلب خاص.

المطلب الأول: التنقلات والتجمعات

عرفنا فيما سبق اهتمام رجال الطرق الصوفية مشايخ ومريدين بالتنقل في المناطق المختلفة عبر ما يسمونة (سياحة)، والتي لم يكن الغرض منها فقط السير التعبدي والتأملي، وإنما كان الغرض منها كذلك نشر الطريقة في المناطق المختلفة.

ويضاف إلى ذلك ما قامت به الطريقة العلاوية من إنشاء بعض الجمعيات التي ساهمت في التعريف بالطريقة ونشرها، بل إن بعضها لا يزال إلى الآن يؤدي دوره في التعريف بالطريقة العلاوية.

وقد بدأ تاريخ الحركة الجمعوية الموازي للعمل الروحي للطريقة العلاوية، منذ أن أسس الشيخ ابن عليوة طريقته الصوفية خلال العقد الأول من القرن العشرين، وقد حاول الشيخ وخلفاؤه إحداث حركة ثقافية اجتماعية من خلال إنشاء عدة جمعيات، كان الهدف المعلن عنها هو (الحفاظ على قيم الدين الحنيف ومكارم الأخلاق، والنصيحة لجميع خلق الله، وتعليم الناشئة والشباب، وإبراز مظاهر التضامن الاجتماعي من خلال الأعمال الخيرية، وتعليم الشباب الذين لم يسعفهم الحظ بعض الحرف، ولتحقيق ذلك أنشئت عدة أقسام وورشات بمحاذاة الزاوية الكبرى بمستغانم لممارسة هذه النشاطات التي توسعت إلى بقية فروع الجمعية مثل تلمسان وغليزان وتغنيف والمحمدية وغيرها)[1]

وقد تبلورت فكرة تأسيس جمعية السلام في العشرينات وبالضبط سنة 1926 غير أن الشيخ العلاوي استبدلها سنة 1932 بجمعية الوعظ والإرشاد التي توسعت لاستقطاب عدد كبير من العلماء ورجال الدين والأئمة للقيام بدورهم الديني والتوجيهي والإصلاحي، وقد توقف نشاطها بعد وفاة الشيخ سنة 1934م[2].

غير أن خلفاء الشيخ العلاوي استمروا على منهجه الديني التربوي والاجتماعي، ففي سنة 1934 أسس الشيخ عدة بن تونس (جمعية التذكير العلاوية) ثم (جمعية الشبان العلاويين) سنة

---

[1] انظر: موقع جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية على هذا الرابط: (http://www.asso-alawi.org)

[2] المصدر السابق.

1936 التي توقفت قبيل اندلاع الحرب العالمية سنة 1939.

وبعد نهاية الحرب، ظهرت (جمعية التنوير) سنة 1948، ثم أنشأ الشيخ عدة بن تونس جمعية (أحباب الإسلام) سنة 1950، وكانت لها مجلة تحمل عنوان (مجلة أحباب الإسلام) التي كانت تصدر بمدينة وهران باللغة الفرنسية، دعت في أهم محاورها إلى الحوار بين الأديان، وتحسين صورة الإسلام إلى الرأي العام الغربي على وجه الخصوص ،و أهم مآثر هذه الجمعية أنها استطاعت في فترة وجيزة أن تجعل عددا كبيرا من الفرنسيين والأوروبيين القاطنين بالجزائر وخارجها يعتنق الإسلام، وقد توقف نشاط الجمعية إثر اندلاع حرب التحرير الجزائرية.

وقام خليفته الشيخ محمد المهدي بن تونس، بعد استقلال الجزائر بإنشاء جمعية الشبيبة العلاوية سنة 1963.

وفي سنة 1981 أحيا الشيخ خالد عدلان بن تونس جمعية أحباب الإسلام مرة ثانية بالعاصمة الفرنسية باريس، لتعمل على إحياء الحوار البناء، وبعث مجال التعاون بين الإنسانية.

وتعتبر هذه الجمعية من أهم هذه التجمعات التي أنشأها الشيخ عدة بن تونس وقد ذكر من مقاصدها: (التبشير بالدين الإسلامي وبث تعاليمه بين المسلمين وغيرهم من مختلف الأديان والأجناس، وإعطاء صورة صحيحة عن الإسلام وتاريخه المجيد بعد أن شوهه كتاب مغرضون، ولم شعث الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام على يد الطائفة العلاوية ومدهم بأنواع الإرشاد والتوجيه الديني)[1]

وقد تطورت هذه الجمعية وصارت لها هياكلها ونواديها وإصداراتها لتقوم بعملها الدعوي في الخارج وفي الجزائر أيضا، ولا يزال نشاطها إلى الآن.

المطلب الثاني: الصحافة المكتوبة

كما اهتم الإصلاحيون قبل تأسيس الجمعية وبعده بالصحافة نجد رجال الطرق الصوفية كذلك يهتمون بها، ومن أهم الصحف التي أسست في ذلك الحين، وكان لها بعض التعامل السلبي أو الإيجابي مع جمعية العلماء:

1 ــ جريدة النجاح:

وهي من الجرائد المحسوبة على الطرق الصوفية، باعتبار أن

[1]) انظر: عدة بن تونس: تنبيه القراء إلى كفاح مجلة المرشد الغراء، ج1، ص 147.

مؤسسها هو السيد عبد الحفيظ ابن الهاشمي الذي ينتمي إلى زاوية (سيدي علي بن عمر) الرحمانية المعروفة بالزاوية العثمانية، في طولقة، وهي إحدى أهم الزوايا في الشرق الجزائري[1].

وقد صدرت بمدينة قسنطينة سنة 1919 م، وتعتبر أول محاولة لظهور صحافة عربية بعد الحرب العالمية الأولى[2].

والبعض يعتبر أنها مرت بمرحلتين: مرحلة كانت فيها موالية للإصلاحيين، ومرحلة تغيرت فيها عليهم، ويعتبرونها بذلك، وكأنها غيرت مسارها والأمر ليس كذلك، وإنما يرجع الأمر إلى التشدد الذي بلغه سلوك الجمعية مع المخالفين لها، فلما وصل التشدد إلى غايته القصوى، وسيطر على الجمعية المتشددون وحدهم، ولم يبق في الجمعية أي أطراف أخرى، مالت الجريدة إلى الجهة الأخرى.

وحتى نتأكد من صحة هذا نرى أن الجريدة فتحت أبوابها أول الأمر للجمعية وأعضائها، بل ساهمت مساهمات مهمة في الإشهار بها، خاصة مع انتشارها الواسع، فتحت عنوان (جمعية العلماء منة كبرى يجود بها قرن العشرين على الجزائر)كتب مامي إسماعيل يقول: (إذا جاء موسى وألقى العصا، فقد بطل السحر والساحر)[3] مشبها فيه جمعية العلماء بعصا موسى عليه السلام التي ابتلعت عصي السحرة.

وختم مقاله بدعوة العلماء الى الالتفاف حول المشروع الذي جاء فيه:

1- سن برنامج للتعليم العربي يشمل البنين والبنات.
2- العمل على نشر التعليم الديني والاهتمام بالتربية والإرشاد.
3- طبع وتوزيع الخطب على أئمة المساجد.
4- نشر فتاوى خاصة بالمواد الغذائية حلالها وحرامها ومفيدها ومضرها.

---

[1] أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام عبد الحميد بن باديس، ج1، ص 128.

[2] انظر: محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من1847-1954م، ص 48

[3] مامي إسماعيل : جمعية العلماء منة كبرى، النجاح، العدد1229 يوم 9 سبتمبر. 1931 ،ص 1.

5- القيام بحملة ضد البـدع والخرافـات ومـا علـق الإسـلام من شوائب.

6- تكوين هيئة عليا تقـترح إنشـاء كليـة إسـلامية متوسـطة بين الزيتونة والقرويين يكون مقرها العاصبة.

وختم مقاله بقولـه: (هـذا أملنـا في الجمعيـة الـتي نؤيـدها بكـل قوانـا، ونقـول من الآن لكـل من أراد أن يناهضـنا إن في العـرين ليوثا، ومن كذب فليجرب والمستقبل كفيل بصحة ما نقول)[1]

وبقيت الجريدة تنشر لعلماء الجمعية سـواء مقـالاتهم المختلفـة والخاصة بهم أو تلك التي تخص جمعيـة العلمـاء وتنقلات أعضـائها عبر مختلف مناطق البلاد للشرح والتوعية وجلب الأنصار.

ومن ذلـك مـا كتبتـه في الصـفحة الأولى تحت عنـوان (رئيس جمعية العلماء المسـلمين الجزائـريين في معسـكر) قائلـة : (قـد أستقبل بحفاوة من طرف أعيان المنطقة إذ أقام فيهـا عـدة أيـام مطلعا على أحوال الناس وموجها وواعظا)[2]

وقد نشرت الجريدة وبتفصيل اجتماع نادي الترقي الذي تأسـت فيه جمعية العلماء[3].

بـل إنهـا كـانت تنـادي عـبر مـديرها ورئيس تحريرهـا منـذ العشرينيات بضرورة تأسيس جمعية وطنيـة تهتم بشـؤون الـوطن فكتب عبـد الحفيـظ بن الهاشـمي تحت عنـوان (قلـة المشـاريع الوطنية في بلادنا وعدم تأسيس جمعية وطنيـة)[4] قـائلا: (إن حالـة الأمة الجزائرية تستدعي مزيـدا من الاهتمـام بشـؤونها، ولكن أين الرجال الأقوياء؟ حالة الأمة الجزائرية اليـوم هي الحالـة المؤسـف عليهـا، والـتي تهـدد بـالخطر المـبين المقبـل، وهي تنـبئ بـزوال

---

[1] مامي إسماعيل : نفس المرجع والمكان.

[2] قسم التحرير : رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى معسكر، النجاح، العدد 1343،يوم 25 جوان 1932،ص1.

[3] قسم التحرير : القانون الأساسي لجمعية العلماء المطمبن الجزائريين، النجاح، ع 1195 يوم 21 أوت 1931، ص1

[4] عبد الحفيظ بن الهاشمي : قلة المشاريع الوطنية، النجـاح العـدد 199 يـوم 13 مارس 1925،ص1.

الخصائص الجزائرية الذاتية التي كانت في سالف العصور)
ثم ويواصـل مناديـا: (يـا قلـوب فلتقشـع منـك ظلمـات الجبن والرعب، ويا ألسن فلتنطقي بما فيه لهذه الأمة صلاح ونجـاح، ويـا أفئدة القـول الصـادق، ويـا أيـدي جـودي بالإسـعاف في المسـائل الوطنيـة، ويـا أيهـا النـواب مـالي أراكم مطـأطئ الـرؤوس أمـام الحوادث والمشاكل السياسية)
بل إنها كانت تنشر لرواد الإصلاح قبـل تأسـيس جمعيـة العلمـاء وعلى رأسـهم الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس الـذي كـان يكتب بانتظام في الجريدة لعدة سنوات تارة باسمه وتارة أخرى باسـمه المستعار كالعبسي والقسنطيني.
بل إنها فوق ذلك كانت تقـدم خـدماتها بالمجـان للجمعيـة، حيث كـانت تلعب دور المسـكن كلمـا حصـلت القطيعـة بين الجمعيـة والإدارة الاستعمارية، وتأسفت عندما منع الطيب العقبي – مـع مـا كان من شدته وحدته على الطـرق الصـوفية- من إلقـاء محاضـرة بالجـامع الجديـد يـوم 3 مـارس 1933م من قبـل عامـل العمالـة، وأشادت بالجمع الغفير من الجزائريين الذين تجمعوا أمـام الجـامع احتجاجا على تصرفات عامـل العمالـة وسـاروا في مـوكب قدرتـه الجريدة بأكثر من سبة آلاف شخص، كما دعت إلى الهدوء والحـل الذي يرضي الجميع (جمعية العلماء والإدارة الاسـتعمارية) عنـدما منع وزير الداخلية الفرنسي جريدة الصراط من الصـدور يـوم 23 ديسمبر 1933م، إذ نشرت احتجـاج جمعيـة العلمـاء الـذي وجهتـه إلى الأمة، كما نشرت في الوقت نفسه قرار منع جريدة الصـراط من الصـدور. ووجهت نـداء تـدعو فيـه نبـذ الخلاف بين الطـرفين المتنازعين بقولها : (إن فكرنا في جمعية العلماء خاص، ونتمنى لو أنها توفقت الجمعية لطريق المفاهمة مع الإدارة وإيجاد حل مرض فان استمرار سوء المفاهمة بين الطرفين تجـني الأمـة من ورائـه أضرارا علميـة وخيمـة في زمن نحن أحـوج النـاس فيـه إلى نشـر العلوم العربية والدينية)[1]
كـان هـذا هـو سـلوكها مـع الجمعيـة كمـا كـان سـلوك الطـرق الصوفية مع الجمعية، فالطرق بطبيعتها المسالمة لا تبدأ بـالحرب،

---
[1]) مامي : دعوة إلى التوفيق، النجام، العدد 1489 يوم 7 جويلية 1933،ص1.

ولا بالصراع، ولكن إن تجاوز الأمر حـده، فحينـذاك يتغـير الموقـف بالضرورة.

فكيف نتصور بعد تلك الإذية الكبير التي حصلت لرجال الطـرق، واستدعيت الشرطة لأجلهم ورموا من طـرف الجمعيـة في عنابـة بما رموا به، ولم يكن من هم لصحف الجمعية إلا الثلب فيهم وفي أعراضهم، كيف نتصور أن تبقى الجريدة في موقفها؟

ولهذا، فقد كان من الطبيعي أن تغير موقفها، وقد اعتبرنـا ذلـك في الباب الأول خسارة للجمعية، لأنها مع قدرتها الدبلوماسـية في التعامل مـع المسـتعمر لم تسـتعمل تلـك القـدرة في تعاملهـا مـع إخوانها من أصحاب الطرق الصوفية.

والغريب أن محمـد ناصـر وكثـير من البـاحثين لا ينحى باللائمـة على سـلوك الجمعيـة الاسـتفزازي، وإنمـا ينحى باللائمـة على الجريدة، فيقول: (جريدة إصلاحية ثم انتفاعية)[1]

ولست أدري ما المنطق الداعي إلى هذا الطـرح، أي أن محمـد ناصر يعتبرها إصلاحية ما دامت مع الجمعية لكنها إن تحولت لعـدم اقتناعها بمنهجها الإصلاحي تتحول إلى انتفاعية.

وقد نتج عن هذا الموقف الـذي وقفتـه الجريـدة سـجال إعلامي زاد طين الفرقة بين الجمعية والطرق الصوفية بلة، ومن ذلـك مـا كتبـه ابن بـاديس يقـول في مقـال في (الشـهاب) بعنـوان (نحن والنجاح) جاء فيه: (لا نحب أن نعرض لجريدة النجاح فيما اختارتـه لنفسها من خطتها، فذلك شأنها وإنمـا نـرى من الـواجب علينـا أن نعرض لها في أشياء نشرتها تتعلـق بنـا، ولا يخمن ضـررها بنـا بـل يتعدى إلى الحقيقة والوطن)

ومن تلك الأشياء التي نشرتها عنه – كما يذكر – من أنه (حاربـه المسـلمون ورفعـوا من حلقـة الـدرس الشـموع ليصـدوه عن التدريس)[2]

وقد رد عليهم ابن باديس بقوله: (فنقول: أنا أشهد الله وملائكته ان المسلمين لم يحـاربوني، ولم يصـدوني عن التـدريس من يـوم قدمت الى قسنطينة يوما من الايام، بل كانت ومـا زالت دروسـي

---

[1] محمد ناصر ; المقالة الصحفية، المرجع السابق، ص 234.

[2] ابن باديس، نحن والنجاح، الشـهاب، العـدد 2، المجلـد 1 ،ج 1 يـوم 19سـبتمبر 1925 ،ص 344.

معمورة بهم طلبة وعامة، وهي بمد الله في ازدياد عاما بعد عـام، أمـا الـذي حـاربني وصـدني عن التـدريس في الجـامع الكبـير بقسنطينة أول قدومي فهو شخصن واحد فقط لا غـير هـو الشـيخ المولود بن الموهوب)

وقد كانت لهذا تنشر ما يرتبط بالطرق الصوفية من أخبار، كمـا في حديثها عن جمعية علماء السنة، والتي اهتمت بها كثيرا، وممـا كتبتـه عنهـا قولها[1]: (قـام رجـال الغـيرة على العلم والـدين وعلى رأسهم السيد عمر إسماعيل من أهالي العاصمة فبذلوا مسـاعيهم الجدية في تأليف جمعية تهذيبية علمية خيريـة تحت عنـوان علمـاء السنة، فكللت مساعيهم بالنجـاح، وصـادف نـداؤهم إقبـالا عظيمـا من افراد الأمة فجاءوا إليهـا أفواجـا من عناصـر شـتى مكونـة من هيئات دينية من حضرات العلماء ومن رؤساء الزوايا خصوصا)

وكانت تصف علماء السنة بـالفريق العـارف المعتـدل، في حين تصف جمعية العلماء بالفريق الجاهل. وردت عليهـا جريـدة صـدى الصحراء بمقال بعنوان (حول ميكروب النجاح)، جاء فيه: (الـوطن على ما ذكرنا، والنجاح وكتابه يدعون الناس إلى اعتنـاق التصـوف والدخول في زمـرة الطرقـيين)[2]، ثم يقـول: (أمـا تصـوفكم الـذي تدعون الناس إليه فإنا نجيبكم بكل بسـاطة بأنـه مـذهب لا يوافـق العمران، مـذهب كسـل وخمـول، مـذهب يعمـل لفسـاد المجتمـع الإنساني)

2 ــ صحيفة لسان الدين:

وهي من الصحف التابعة للطريقـة العلاويـة، وقـد عـرفت أنهـا: (جريدة دينيـة سياسـية، إخباريـة، أسـبوعية، أسسـت لإعلاء كلمـة الدين)، وقد صدرت بمدينة الجزائـر في أول جـانفي 1923، تحت رعاية جماعة من فضلائها.

وقـد ذكـر محمـد ناصـر أن صـحيفة لسـان الـدين كـانت تمجـد الطريقة العليوية، وتبين مشاريعها الخيرية مؤكدة باتجاهها هذا بأن

---

[1] قسم التحرير : تأسيس جمعية علماء السنة بالجرائر، النجاح، العـدد1380 يـوم 28 سبتمبر 1932، ص1

[2] محمد العزوزي ; حول ميكروب النجاح، صدى الصحراء، العـدد10 يـوم 8 فيفـري 1926،ص2

الذي أنشأها إنما هو أحمد بن عليوة الذي كان يطمح إلى ضم الطرق في الجزائر في طريقة واحدة يتولى هو مشيختها[1].

ويذكر أحمد المجاجي أن أرباب الصحف لم يكونوا يعرفون أنها من آثار العلاويين[2] لكن إدارتها العلاوية ودفاعها عن الشيخ ابن عليوة كان مؤشرا قوي على مشربها العلاوي، أما غايتها كما وضحها مقالها الافتتاحي فهي: (أن تمكن هذا الدين الحنيف بصفته الخالصة من الشوائب فيما بين الأجانب فضلا عن أبناء الملة)[3]

وقد عنيت الصحيفة بقضايا الإصلاح الاجتماعي ومقاومة الآفات الاجتماعية التي لا يختلف عليها المسلمون مثل: الدعارة وتعاطي الخمور والقمار، ومحاربة ثالوث الفقر والجهل والمرض، ولذلك لم تصرح بانتمائي الطرقي لتصل إلى كل الشرائح الاجتماعية.

لكنها لم تلبث أن توقفت بعد إصدار اثني عشر عددا منها، ولعل ذلك يعود إلى صعوبات الطبع لعدم امتلاكها لمطبعة، حيث كانت في كل أعدادها تنشر إعلانا تبحث فيه عن مطبعة لشرائها.

ولعله يعود إلى منع الحكومة لصدورها، ولعل ذلك المنع يرجع إلى رسالة وجهها الشيخ ابن عليوة إلى الوالي العام لولاية الجزائر يشكو فيها عدم الترخيص لأتباعه بفتح زاوية يجتمعون فيها للذكر والذاكرة رغم مساعي الشيخ وأتباعه الحثيثة لدى الجهات المعنية ولمدة تسعة أشهر [4] حتى اضطر إلى اتخاذ مقر الزاوية غير المرخص لها.

3 ــ صحيفة البلاغ الجزائري:

وهي جريدة أسبوعية صدر عددها الأول في 18 جمادى الثانية 1345 الموافق ل 24 ديسمبر 1926 بمستغانم، وقد تعدد مديروها وأصحاب امتيازها فحتى العدد 61 (مارس 1928) كان حدوني محي الدين هو مديرها وصاحب امتيازها، وفي نفس السنة انتقلت إدارتها لوكيل الزاوية عدة بن تونس، العدد: 92 (نوفمبر 1928). ومنذ عام 1930 خلصت للخضر عمروش وأصبح مقرها

---

[1] انظر: محمد ناصر، الصحف العربية، ص 51.

[2] الشهائد والفتاوى، ص 58.

[3] لسان الدين، ع: 1، الجزائر: 2 جانفي 1923.

[4] أحمد بن مصطفى العلاوي: أعذب المناهل، ص 163، نقلا عن: غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص251.

بمدينـة الجزائـر العاصـمة فكـانت تصـدر - مثـل جريـدة المغـرب- عشرة آلاف نسخة شهريا في عـام 1930 حـتى وفـاة الشـيخ ابن عليـوة عـام 1934 فـوق بجريدتـه في صـف حسـن الطرابلسي المنشق على الشيخ الجديد. وقد وصفها المدني بأنها (ذات برنامج ديني إسلامي وطني)[1]

وقد قدمت الصحيفة نفسها في عددها الأول على أنهـا: (عاملـة في خدمــة الــدين والــوطن...غايتهــا...بــذل الجهــود في إيضــاح المقاصد الدينية، والفوائد الشرعية زيادة على ما ستطرقه من إن شاء الله من الأبحاث الهامة، والنصائح العامـة، معتمـدة على اللـه في تحقيق الإنتاج، وتقويم الاعوجاج)[2]

كما قدمت نفسها على أنها صحيفة وسـطية تـرفض الطعن في أي طبقة من طبقات الأمة وفي أي مذهب من مذاهبها[3].

وتــرى أنــه من صــلاح الأمــة وإصــلاحها في أن لا يتســاهل في تنقيص سلفها وأن لا يمس بسوء أي مذهب من مذاهبها مـا دامـوا متفقين على أركان الإسلا م. منكرة على معارضيها وصـمها (تـارة بصــحيفة الحلولــيين وتــارة بصــحيفة المبشــرين، وتــارة بورقــة المضلين)[4]

المطلب الثالث: الكتب والرسائل

اهتم رجــال الطــرق الصــوفية – على عكس الجمعيــة - بكتابــة الكتب والرسائل أكثر من اهتمامهم بالكتابة الصحفية، ولهذا كثرت مؤلفاتهم وتنوعت حتى أن كتب الشيخ ابن عليوة وحده تفـوق مـا كتب أعضاء الجمعية جميعـا، أمـا كتب الشـيخ سـكيرج وغـيره من شــيوخ التيجانيــة فهي بالمئــات، وهكــذا الكتب الــتي ألفت في مواجهة الوهابية عند ظهورها، كما سنرى ذلـك في الفصـل الثـاني من هذا الباب.

وسنحاول هنا أن نذكر بعض مؤلفات الطريقـة العلاويـة باعتبـار توجهها الخالص لمناقشة الجمعية، وباعتبار أنها مصــدرنا الأول في

---

[1] انظر: أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص 372.

[2] أضاميم المد الساري، ج 1، المصدر السابق. ص 56.

[3] أضاميم المد الساري، ج 1، المصدر السابق. ص 61.

[4] إرشاد النبيل إلى مقالات الأستاذ الجليل، المصدر السابق. ص 174.

المناقشات بين الجمعيـة والطـرق الصـوفية، وسـنذكر الكثـير من المؤلفات الأخرى في الفصل الثاني عند ذكر المصادر التي رجعت إليها الطرق الصوفية في الرد على الجمعية.

رســالة القــول المعــروف في الــرد على من أنكــر التصوف:

وهي رسالة طبعت على نفقة الفقـراء العلاويين، وأشـرف على الطبع والتصـحيح كـل من الحسـن بن عبـد العزيز، والحـاج حسـن الطرابلسي، بالمطبعة التونسية عام 1921 في نفس السنة الـتي كتبت فيها، وكان قد جمعها بمدينة وهران[1].

وغرض الرسالة – كما جـاء في مقـدمتها- هـو الـرد على كتـاب (المـرآة لإظهـار الضـلالات) للشـيخ عثمـان بن المكي، المـدرس بجامع الزيتونة[2].

ومما جاء في مقدمتها قول الشيخ ابن عليوة: (من كاتبـه كثـير المساوئ عبد ربّـه (أحمـد بن مصـطفى العلـوي) منّ اللـه عليـه بالتوفيق والهمّـة والمؤمـنين إلى أقـوم طريـق إلى الفقيـه المكّي الشيخ سيدي (عثمان ابن المكي) المدرس بمدينة تونس بجامعهـا الأعظم زاده اللـه عمرانـا على عمـران، وطهّـره من كـلّ متمـرّد شـيطان، عليكم سـلام اللـه مـا كنتم محـترمين لأهـل نسـبة اللـه {وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْـرٌ لَـهُ عِنْـدَ رَبِّهِ} [الحج: 30] إنّي كنت قـد عـثرت على رسـالة نمقتموهـا بقلمكم تسـمى (المـرآة إظهار الضلالات)، فتناولتها بيد الاعتبار لنتصفحها بفؤاد الاستبصار، فعرضني ما فيها ألزمني الفشل وأورثني الكلل فتأسفت بقـدر مـا استبشرت، لما اشتملت عليه مرآتكم من العضّ وتمزيق العــرض، فهي تـرمي بشــرر كالقصــر نحــو الــذاكرين، وتحطّم بـالجهر لحم المؤمــنين، وبمناســبة مــا اشــتملت عليــه مــرآتكم من الــزور، وارتكبتموه فيها من الفجور، فطعنتم في أعراض أهـل نسـبة اللـه بكلّ لسان وذكرتموهم بكلّ زور وبهتان، فحركتـني الغـيرة الإلهيّـة

---

[1] أحمـد بن مصـطفى العلاوي : رسـالة القـول المعـروف في الـرد على من أنكـر التصوف، المطبعة التونسية، تونس: 1339 ص 76.

[2] المصدر نفسه. ص 2.

والحميّـة الإسـلاميّة على أن نكـاتبكم احترامـا للمنتسـبين حيث شوهتموهم وانتصارا للذاكرين حيث خذلتموهم)[1]

ثم تناول بتفصيل ما ذكره عثمـان بن مكي في (المـرآة لإظهـار الضلالات) كلمة كلمـة وعقب عليهـا جميعـا، والملاحـظ في ردوده هـو أدبـه مـع المخـالف واحترامـه لـه حـتى أنـه يـدعوه كـل حين (سيدي)، والملاحظ كذلك هو كثرة النقول والاقتباسات.

وقـد رجعنـا إلى هـذه الرسـالة كثـيرا باعتبـار أن القضـايا الـتي طرحها عثمان بن مكي وانتقدها على الطـرق الصـوفية هي نفس ما كان يطرحه رجال الجمعية.

رسالة الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف:

وأصلها مقالات نشرت في مجلة البلاغ الجزائري هـدفها الـدفاع عن التصـوف ضـد مـا نشـره جماعـة من السـلفيين في جريـدة (الشـهاب) هـاجموا فيهـا التصـوف، فقـام العلاوي بـإيراد الأدلـة العقلية والنقلية من الكتاب والسنة ومن علمـاء يعظمهم السـلفية أنفسهم بمشروعية التصوف وسموه ورفعتـه، وقـد كـان الإمضـاء فيها باسم (الناصر معروف)[2]، وقد جاءت الرسالة في مائة وسـت وعشرين صفحة ثم أضاف لها تقاريظ للعديد من العلماء الشام.

ومما جاء في مقدمتها قول الشـيخ ابن عليـوة: (هـذا أيهـا الأخ إننا وأيم الله لممن يغبطكم لمكانكم ومكانتكم وهذا لا يمنعـني أن نقـول لكم أنـه يجـدر بكم وأنتم أهـل الصـلاح والـدعاة إلى سـبيل الإصلاح أن تكونوا على جانبٍ عظيمٍ من التثبت في النقل ومجانبة أضعف المآخذ، لا سيما وأنتم بصدد إثبات الحجة وتوضـيح المحجـة كما لا يخفاكم أن الحجة لا تثبت فيما تحاولون إثباتـه إلا بـالمتواتر، والأمـر الـبين الظـاهر على أنـك لا تنكـر أن يوجـد بين النـاس من يملـك حـق التميـيز بحيث لا ينخـدع بنحـو خـزفٍ المسـكوكات ومموهاتها، وأنتم تعرفون أن الناقـد بصـير خصوصـاً في مثـل هـذا الأمـر الخطـير الـذي ركبتم متن الوصـول إليـه بـدون مـا تتخـذون للطريق زاداً ولا لأنفسكم عماداً، وهو الأمـر الـذي دعانـا لتسـطير

[1] أحمـد بن مصـطفى العلاوي : رسـالة القـول المعـروف في الـرد على من أنكـر التصوف، المطبعة التونسية، تونس: 1339 ص 7.

[2] أحمد بن مصطفى العلوي: الناصر معـروف في الـذب عن مجـد التصـوف، ط 1، مطبعة التوفيق، دمشق: 1931. ص – ص.3.

هاتـه الجمـل.. قـد كنت أيهـا الأخ وقفت على مـا كتبتمـوه بمجلـة الشهاب عدد (174) تلك الكتابة التي أخذت لنا صورة معلوماتكم، والتي لم تكن الغايـة منهـا إلا الحـط من شـرف القـوم الصـوفية والتنكيل بكراماتهم لتظهروهم للعموم بالصفة التي ذكرتموهـا من كون الجنيد وعصابته كانوا أحط مرتبةً عند بعض الأئمـة من مرتبـة الخوارج فضلاً عن حمقهم والخلل الموجودفي أقاويلهم وأعمـالهم هذا ما كنتم تحاولون التعبير عنـه وقـد أسـعفكم الحـظ على ذلـك فلم يبقَ لكم والحالـة هـذه إلا أن تسـمعوا منـا نظـير مـا سـمعناه منكم، أو يسمعه غـيركم حـتى لا يكـون مـا قررتمـوه ضـربة لازب يقضي على مجد التصوف من أصله)[1]

رسالة القـول المعتمـد في مشـروعية الـذكر بالإسـم المفرد :

وهي رسالة جمعهـا محمـد الهاشـمي تلميـذ الشـيخ ابن عليـوة، ونشرها بدمشق عدد صـفحاتها ثلاث وسـتين صـفحة، منهـا خمس وعشرون صفحة عبارة عن مقالات نشرت في البلاغ الجزائـري[2]، وباقي الصفحات تقريظ العلماء للرسالة.

وقد ذكر الشيخ ابن عليوة دافعه إلى كتابة هذه الرسالة، فقال: (أما بعـد أيهـا الأخ المحـترم، فقـد كنتُ تشـرفتُ بزيـارتكم صـحبة صـديق الجميـع حضـرة الشـيخ....... وبمناسـبة مـا دار بيننـا من الحديث، في تلك السويعات الـتي رأيتكم فيهـا مـوغر الصـدر على إخـــوانكم العلاويين، حســـبما لاح لي في ذلـــك الحين، لا لـــذنب ارتكبوه سوى أنهم مولعون بإجراء الاسـم المفـرد على ألسـنتهم، وهو قولهم: (الله). فظهر لكم أن ذلك مما يستحق عليه العتاب، أو نقـول العقـاب، لأنكم قلتم إنهم يلهجـون بـذكر ذلـك الاسـم بمناسـبة أو غـير مناسـبة، سـواء عليهم في الأزقـة، أو غيرهـا من الأماكن التي لا تليق للذكر، حتى أن أحدهم إذا طرق الباب يقـول: (الله)، وإذا ناداه إنسان يقول: (الله)، وإذا قام يقول: (اللـه)، وإذا جلس يقول: (الله)، إلى غير ذلـك ممـا جـرى بـه الحـديث.. ومن جهة أخرى أنكم كنتم ترون أن هذا الاسم، لا يصلح أن يكـون

[1] أحمد بن مصطفى العلوي: الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف، ص 3.

[2] المقالات كانت قد نشرت في صحيفة البلاغ الجزائري، الأعداد: 69.

ذكــرا، ولا هــو من أقســام الكلام المفيــد، جريــا منكم على مــا اشترطه النحويون، من لزوم التركيب، في تعريفهم الكلام المفيد، ولمـا كـان لا يسـعني حملكم في جميـع ذلـك إلا على قصـد طلب التفاهم، والفحص عن الحق والصواب فيما جاءوا به، هل هو جـائز أو لا، ظهر لي أن نواجهكم بهذا المكتوب، عسى أن يحصل بـه مـا هو شفاء للصدور، ودواء للقلوب)[1]

وسنرى الأدلة المذكورة في الرسالة بتفصيل في الفصل الثاني من الباب الرابع.

الشهائد والفتاوى:

وقد جمع هذه الكتـاب ردا على رسـالة الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس (جـواب سـؤال عن سـوء مقـال)، وعلى حملـة صـحيفة (النجاح) على الشيخ ابن عليوة شيخ الطريقة العلاوية.

وهـو عبـارة عن شـهادات بفضـل الشـيخ ابن عليـوة ومكانتـه، بالإضـافة إلى إبرازهـا لمـدى قـدرة الشـيخ ابن عليـوة على تربيـة أتباعه، وعلى حفظ الأمن وصيانة الأخلاق في مناطق نفوذه ببركـة النسـبة، مـع نفي تهمـة البدعـة عن الشـيخ ابن عليـوة وطريقتـه، وكانت تلك الشهادات لأعيان الطريقة الذين أخبر جلهم أنهم كـانوا يبحثون عن شيخ تربية فوجدوا ضالتهم في الشيخ ابن عليوة. فهـو بذلك لم يبث فيهم عقيدة جديدة وإنما حقق لهم ما كانوا يتطلعون له من سلوك للوصول إلى المعرفة المنشودة.

وقد تم جمـع الشـهائد الـتي صـاغ أسـئلتها واختـار الشخصـيات الموجهة لها الأسئلة محمد بن عبـد البـاري التونسي- الـذي تـوفي قبيل إصدار الكتاب- وكـان تسـليم الأسـئلة يتم باليـد، حيث يتلقى حامل الأسئلة الشهادة ليطلع غيره.

وللأسف فإن الكتاب الآن في حكم المفقـود، فلم يتسـن لي أن أجده، حتى أن المواقـع الكثـيرة للطريقـة العلاويـة على الإنـترنت دعت القراء للبحث عنه ووضعه على الشبكة كسائر كتب الطريقة العلاوية.

أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل

وهـو للشـيخ (أحمـد بن مصـطفى العلاوي)، وقـد قـام بجمعـه الشيخ (علي بن محمد الغفاري) وقد ذكر في مقدمته بأنّ الدافع

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد ص6.

إلى ذلك هو لنشر تـراث الأسـتاذ والعنايـة بـه، (خوفـا من الضـياع وإفادة المنتسـبين من الأتبـاع، وغـيرهم من المسـلمين، إذ تعكس كثيرا من مواقف الشيـــــــخ (العلاوي) في التربية والتوجيه، ومواجهته للمشاكل المعاصرة، كما وتكشـف من جهـة أخـرى عن سعة معارف الشيخ الدينيّـة، وتفسـيراته العجيبـة الصـحيحة لكثـير من النصـوص والنقـول بأسـلوب رصـين محكم وعبـارات مركـزّة، وأفهام مدعمة بالبراهين والحجج للعديد من أقوال معارضيه الـتي تتسم بالسطحيّة أحيانا وبعدم الموضـوعيّة، حيث إنّ هـذه الأسـئلة وأجوبتها تمثل ثروّة ثقافيّـة متنوعـة، جـديرة بالمطالعـة والـدرس، وبخاصّة لأولئك الـذين يبحثـون عن الحقيقـة للوصـول إلى طريـق الهداية الربانيّة الكفيلـة بتحقيـق النجـاة في الـدنيا والآخـرة، ولقـد أشرف على إصدار هذا الكتـاب سـيدي (رشـيد محمـد الهـادي) مدير المطبعة العلاوية الذي لم يبخل بمجهوداته الماديّة والمعنويّة جزاه الله عن الجميع كلّ الخير)[1]

تنبيه القراء إلى كفاح مجلة المرشد الغراء:

وهو للشيخ عدة بن تونس المستغانمي خليفة الشيخ ابن عليوة على الطريقـة العلاويـة، يضـم الكتـاب بجزئيـه جميـع المقـالات والدراسـات الـتي نشـرها في أعـداد مجلـة (المرشـد) الـتي كـان يصدرها في أواخر الأربعينات، وأوائل الخمسينات باللغتين العربيـة والفرنسية، تجاوز عددها 230 مقالة، عـالج فيهـا مختلـف القضـايا الدينية والاجتماعية والثقافية.

وهو مرجـع يـؤرخ لتلـك الفـترة، ومـا كـان فيهـا من صـراع بين الجمعية والطـرق الصـوفية، بالإضـافة إلى بيـان موقـف الطريقـة العلاوية من القضـايا المختلفـة، وقـد قـام بتحقيقـه وتنظيم مـواده الأسـتاذ يحي الطـاهر برقـة، وجمعـه وأشـرف على طبعـه الحـاج محمد الهادي مدير المطبعة العلاوية بمستغانم.

وقاية الذاكرين من غواية الغافلين

---

[1]) نقل الشيخ الطريقة الدرقاوية في الأردن الشيخ أحمد حسن شحاذة الردايدة في كتابه (صفحات مطويّة في التصوّف الإسلاميّ) جـزءا كبـيرا من هـذا الكتـاب، ابتـداء من صفحة 153.

وهي رسالة صغيرة للشيخ عدة بن تـونس مشـحونة بالنصـوص القرآنية والآثار النبوية على فضل الذكر والذاكرين؛ ومكانـة الـذكر من سائر العبادات الأخرى؛ وقد كتبه ردا على مـا تـورده الجمعيـة من انتقـادات حـول أوراد الطريقـة العلاويـة وغيرهـا من الطـرق الصوفية.

الدرة البهية في أوراد وسند الطريقة العلاوية

ويشتمل على أوراد الطـريـقـة العلاويــة المأخوذة عن الشـيــخ محمد بن الحبيب البوزيدي، منها الأوراد العامـة لجميـع المريديــن لكل من داوم عليها صباحا ومساء، ومنها الورد الخاص وهو الاسـم الأعظم بشروط مقـررة؛ ومحـل مخصـوص، وكيفيـة من المرشـد الخاص، وفي ختامـه أرجـوزة للشـيخ العلاوي تتنـاول أسـماء أهـل السلسـلة حـتى رسـول اللـه ﷺ، مذيلـة بمناجـاة للأسـتاذ العلاوي يستغيث بها برجال الطريق.

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ـ أنه مع التضييق الشديد الذي كان يمارسه الاستعمار على الشعب الجزائري بطبقاته جميعا إلا أنا نجده قد وضع كثيرا من الفسحة للجمعية وللطرق الصوفية لنشاطهما، وخاصة ما كان منه داخليا فيما بينهما، وهذا ما أتاح لكل الطرفين أن يتحرك بحرية أكبر على المستويات المختلفة، والذي تجلي في استعمالهما لكل الوسائل في ذلك الحين.

2 ـ رأينا من خلال استقراء وسائل الجمعية التي استعملتها في التعامل مع الطرق الصوفية أنها ثلاثة أنواع:

النوع الأول: هو حركات وتنقلات وتجمعات الجمعية لأجل توعية المجتمع بمواقفها من الطرق الصوفية.

النوع الثاني: هو ما أصدرته الجمعية من صحف سواء كانت رسمية، أو كانت تابعة للشخصيات المؤسسة للجمعية، أو التي لها علاقة بها، ولهذا، فلم نكتف عند الحديث عن صحف الجمعية بالصحف الرسمية، أو الصحف التي تلت التأسيس، بل تناولنا الصحف جميعا، باعتبارها كانت تهدف إلى هدف واحد.

النوع الثالث: هو ما ألفته الجمعية من كتب ورسائل ترتبط بتعاملها مع الطرق الصوفية.

3 ـ أن من أهم الوسائل التي استعملتها الجمعية في تحقيق أهدافها الإصلاحية، وخاصة هدفها الأكبر مواجهة الطرق الصوفية هو ما كان يقوم به أعضاؤها من تنقلات إلى المناطق المختلفة سواء لأجل إحياء مناسبات معينة، واستثمارها، أو لغير ذلك، ومنها كذلك إقامة أعضاء الجمعية لتجمعات حركية محدودة، يمكن أن تعتبر كنوع من التنظيمات التي تخدم الأهداف الإصلاحية، وقد كان لكلا الوسيلتين تأثيره الكبير في نشر الدعوة الإصلاحية على ربوع كثيرة من الجزائر، خاصة إذا علمنا أن نسبة الأمية، ونسبة الفقر، المتضخمتين لا تتيحان لأكثر الناس الاطلاع على ما تكتبه الجمعية في صحفها أو رسائلها.

4 ـ من خلال دراسة ما وصل إلينا من صحف الجمعية يمكننا بسهولة أن ندرك علاقتها الكبرى بالطرق الصوفية، وكأن الكثير منها لم يوضع إلا لأجل مواجهة ما تسميه بـ (بدعة الطرائق)، وسنرى بعض النماذج عن ذلك.

5 ـــ لم تهتم الجمعية بالتأليف كما اهتمت بالصحافة، وذلك

لانشغال أعضائها الشديد بالعمل الإصلاحي، بالإضافة إلى اعتبارها أن منتوج الصحافة أكثر، وأقرب من منتوج الكتب، ولهذا فإن إنتاجها في هذا الجانب محدود جدا لا يكاد يذكر.

6 ـ كما أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين استعملت كل الوسائل المتاحة في ذلك الحين لمواجهة الطرق الصوفية فإن الطرق الصوفية لم تقل عنها في ذلك، وخصوصا الطريقة العلاوية التي يجمع كل من ذكرها أو أرخ لها على أنها طريقة عصرية استعملت كل الوسائل والأساليب العصرية.

7 ـ اهتم رجال الطرق الصوفية مشايخ ومريدين بالتنقل في المناطق المختلفة عبر ما يسمونة (سياحة)، والتي لم يكن الغرض منها فقط السير التعبدي والتأملي، وإنما كان الغرض منها كذلك نشر الطريقة في المناطق المختلفة، ويضاف إلى ذلك ما قامت به الطريقة العلاوية من إنشاء بعض الجمعيات التي ساهمت في التعريف بالطريقة ونشرها، بل إن بعضها لا يزال إلى الآن يؤدي دوره في التعريف بالطريقة العلاوية.

8 ـــ كما اهتم الإصلاحيون قبل تأسيس الجمعية وبعده بالصحافة نجد رجال الطرق الصوفية كذلك يهتمون بها.

9 ـ اهتم رجال الطرق الصوفية – على عكس الجمعية - بكتابة الكتب والرسائل أكثر من اهتمامهم بالكتابة الصحفية، ولهذا كثرت مؤلفاتهم وتنوعت حتى أن كتب الشيخ ابن عليوة وحده تفوق ما كتب أعضاء الجمعية جميعا، أما كتب الشيخ سكيرج وغيره من شيوخ التيجانية فهي بالمئات، وهكذا الكتب التي ألفت في مواجهة الوهابية عند ظهورها.

الفصل الرابع
أساليب التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية

لا تكفي وسائل الاتصال وحدها في تحقيـق الأهـداف مهمـا تكن قوتها وفاعليتها ما لم تصحبها الأساليب التي يمكنهـا أن تصـل إلى عقل المتلقي وقلبه، وتستطيع بعد ذلـك أن تـؤثر في حياتـه، وفي الوجهة التي تتوجه إليها حياته.

بنـاء على هـذا اهتم كلا الجـانبين: الجمعيـة، والطـرق الصـوفية باستعمال الأساليب الـتي يـرون مـدى تأثيرهـا في المجتمـع الـذي يريد كل طرف منهما أن يجذبه إلى وجهته.

بناء على هـذا كـان لزامـا على من يريـد أن يـدرس بموضـوعية التاريخ الفكري للجمعية أو للطرق الصوفية وعلاقاتهـا أن لا يكتفي بالأفكار التي طرحت، ولا بالمواضيع التي طـرقت، وإنمـا يهتم مـع ذلك وقبله بالأساليب، فالحق إذا عبر عنه بتعبير أهل الباطل، صار باطلا أو كاد.

انطلاقا من هذه الأهمية التي تكتسيها الأسـاليب في المعـاملات المختلفة نحـاول في هـذا المبحث أن نبحث في كيفيـة تعامـل كلا الطرفين مع الآخر.

ولأجل هذا قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: أساليب تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية

المبحث الثاني: أساليب تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية

المبحث الأول: أساليب تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية

من خلال استقراء الأساليب التي استعملتها الجمعية في مواجهة الطرق الصوفية يمكننا تقسيمها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المواجهة العلمية، ونعني بها الخطاب العلمي، الذي يتضمن أدلة وأحكاما مباشرة، وصريحة، وتستعمل فيه اللغة العملية المجردة والدقيقة.

النوع الثاني: المواجهة الأدبية، ونعني بها الخطاب الأدبي، بمختلف أنواعه وأغراضه وأساليبه، وقد فرقنا بينه وبين الخطاب الأول، باعتبار ما يحمله هذا الخطاب من مبالغات قد لا تكون مقصودة، وبالتالي لا يمكن بناء الأحكام عليها، بالإضافة إلى أن أصحاب الخطاب في هذا القسم لا يشترط أن يكونوا من العلماء، فقد وظفت الجمعية الكثير من الطاقات الفنية والأدبية لخدمة أهدافها.

النوع الثالث: المواجهة العاطفية، ونعني بها استغلال الجمعية لمناسبات أو أحداث معينة، واستثمارها في التحذير من الطرق الصوفية.

وقد خصصنا كل نوع من هذه الأنواع بمطلب خاص.

المطلب الأول: المواجهة العلمية

ربما كان حظ المواجهة العلمية – من خلال ما وصل إلينا من تراث الجمعية من صحفها ورسائلها - كما عرفنا ذلك في الفصل السابق – هو أهون أنواع المواجهات وأقلها، فمع تلك الحملة الشديدة لم نر إلا بعض رسائل قصيرة محدودة المحتوى، وفي لغة لا نستطيع أن نصنفها ضمن اللغات العلمية المنهجية البحتة.

وربما يكون عذر الجمعية في هذا هو ما ذكرناه من قبل من طغيان المتشددين عليها، ورفضهم لأي حوار مع الآخر، بل رفضهم، ولو لذكر أدلة الطرف الآخر، ثم مناقشتها.

والعلة في هذا واضحة، وهي نابعة من صميم المنهج السلفي المحافظ الذي يؤكد كل حين ما ورد عن أئمتهم من تحريم رواية ما يذكره أهل الشبهات حتى لا تقع في ذهن القارئ، ثم يضعف استئصالها منه.

بناء على هذه النتائج المستخلصة، والتي سنرى تفاصيلها

والنماذج الكثيرة عليها في الباب الرابع، نحب أن نركز في هذا الباب الحديث على أمرين يخصان هذا النوع من المواجهة:

الأول: هو المصادر التي تعتمدها الجمعية أثناء مناقشاتها للطرق الصوفية

الثاني: هو خصائص تلك المناقشات.

ونحب أن نبين أننا في هذه المحاكمات التي نجريها لتراث الجمعية العلمي في هذا الباب، لا نريد أن نخضعها للمنهج العلمي الحديث، والذي قد يرى البعض أن الجمعية لم تكن لها ا لفرصة الزمنية للاطلاع عليه، وإنما نخضعها لمنهج البحث العلمي التراثي، وخاصة ما ارتبط منه بالجدل مع المخالف، بل نربطها فوق ذلك بمن يعتبره التيار السلفي من الشخصيات العلمية، بل بمن يعتبر منظرا للتيار السلفي بقسميه التنويري والمحافظ، وهو ابن تيمية.

أولا ـ مصادر الجمعية في الرد على الطرق الصوفية:

يمكن تصنيف المصادر العلمية للجمعية، والتي كانت ترجع إليها في الفتوى والتعليم ونحوها إلى المصادر التالية[1]:

1- **القرآن الكريم**: ويعتبر أكبر مصدر للجمعية في مناقشاتها، بل إن الجمعية تعتبر نفسها داعية للقرآن الكريم في مقابل الطرف الآخر الذي تتصور أنه لا يعرف القرآن الكريم، وقد سبق ذكر الشواهد على ذلك.

2- **تفاسير القرآن**: وهي ترجع إما للتفاسير المرتبطة بالمأثور كتفسير ابن جرير، وتفسير البغوي وتفسير ابن كثير وتفسير الثعالبي، وإما تفاسير فقهية كتفسير القرطبي، تفسير ابن العربي لآيات الأحكام.

بالإضافة إلى تفسير المنار للعلامة الشيخ محمد رشيد رضا: وهو من التفاسير الحديثة التي اهتمت به الجمعية كثيرا، يقول الشيخ أحمد حماني: (وإن تفسير المنار الذي اشتركا في إنتاجه محمد عبده ورشيد رضا، وكان الفضل الأكبر للثاني في إخراجه لم يأت تفسير قبله ولا بعده على مثاله، وقد كان له الأثر الكبير في النهضة الإسلامية واليقظة الشرقية والحركة القومية السياسية المنبنية على الدين الصحيح السليم من البدع

[1] انظر: البعد المقاصدي للفتوى عند الجمعية: ص58.

والخرافات ومن الجحود والجمود[1] .

3- **الحديث النبوي الشريف**: ومن أهم الكتب التي اعتمدت عليها الجمعية: الموطأ، وصحيحي البخـاري ومسـلم، وكتب السـنة المشـهورة كسـنن أبى داود، وابن ماجـه، والترمـذي، والنسـائي، ومسـند أحمـد، ومعـاجم الطـبراني الثلاثـة، وسـنن الـدارقطني، والجامع الصغير للسـيوطي، وبلـوغ المـرام، والمشـكاة للتـبريزي، والمصابيح للبغوي، ومصنف ابن أبي شيبة وعبد الرزاق، والتلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني.

4- **شروح الحديث**: ومن أهمها فتح الباري لابن حجر، وشـرح النووي على مسلم، وشـرح العيـني على البخـاري، وشـرح عيـاض على مسلم، وشرح الصنعاني على بلـوغ المـرام (سـبل السـلام)، ونيل الأوطار للشـوكاني، والمنتقى شـرح الموطـأ للبـاجي، شـرح الخطابي على أبي داود.

5- **كتب الأصــول والمقاصد**: ومن أهمهــا: الموافقــات للشاطبي، وقواطع الأدلـة للمعـاني، وإرشـاد الفحـول للشـوكاني، وبدايــة المجهــد لابن رشــد، وإعلام المــوقعين لابن القيم، وكتب القرافي الأصولية.

6- **كتب الردع على البدع**: كالاعتصـام للشـاطبي، وأصـول البدع والسنن محمد العدوي والباعث على إنكار البـدع والحـوادث أبو شامة المقدسي.

7- **الكتب المختصـة بالمـذهب المـالكي**: مثـل المدونـة، ومختصـر خليـل، وشـروح خليـل وحواشـيه كالخرشـي والعـدوي وعليش وشرح الدردير (أقرب المسالك)، والمقـدمات لابن رشـد، والجواهر الثمينـة لابن شـاس، وكتب ابن عرفـة، وكتب الأجهـري، ورسالة ابن أبي زيد القـيرواني وبعض شـروحها وحواشـيها، ومتن ابن عاشر وشروحه.

8- **كتب الفتاوى**: وهي المعيار للونشريسي، وفتاوى عليش، وفتاوى بخيت المطيعي في مجلة الإسلام.

9-**كتب العقائد**: كـ (منهاج السنة) لابن تيمية.

---

[1] أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة،1/52.

بالإضـافة إلى هـذا نحب أن نتعـرف على المراجـع الـتي كـانت الجمعية تهتم بها خصوصا دراسة وتدريسا، ولعـل أحسـن من ذكـر عن هذه المراجع الشيخ عمر بن البسكري العقبي[1] الذي عرف به ابن باديس، وقدمه لمقال كتبه في هذا البـاب بقولـه:: (لنـا أخ في الله ببلدة الفاتح العظيم سيدي عقبة بن نافع ممن يحفظون كتاب الله ويتدبرونه ويهتدون به ويعملون على نشـر هدايتـه ويشـاركون في العلــوم الشــرعية والأدبيــة والعقليــة ويضــربون في اللغــة الفرنسية بسهم هو الشيخ عمر بن البسكري صاحب هذا المقــال، وقد كان الشيخ معلما للصبيان خاملا، فهداه العلم ووفقه لمطالعة كتب السلف، فأصبح من أهل العلم العاملين وعباد الله الصالحين، وقد بين لي في كتاب خاص ما طالعه من الكتب، وأنـا أذكرهـا هـا هنــا متمنيــا لكــل مهتم للعلم أن يكــون طالعهــا أو عازمــا على مطالعتها)[2]

وهذا ما كتبه الشيخ عمر عن هـذه المراجـع: (وأمـا توغلنـا في العلم الصـحيح السـلفي فهـو ضـالتنا المنشـودة الـتي ظفرنـا بهـا وسعادتنا العظمى التي أرجو بها الفـوز عنـد اللـه والـزلفى والـتي نفثت في روعنا- والحمد لله - توحيدا خالصا من شـوائب الشـرك، وايمانا ناشئا عن نظر صحيح، ومن الكتب الـتي طالعناهـا مطالعـة تحصــيل (الاحكــام) للآمــدي، (بدايــة المجتهــد)، و(الاعتصــام) للشــاطبي، (منهــاج الســنة)، وغــيره من كتب الامــام ابن تيمية، و(اعلام الموقعين) و(اغاثـة اللهفـان)، وغيرهمـا للامـام ابن القيم، و(الـدر النضـيد)، وغـيره من كتب الشـوكاني، وغـير هـذا من كتب العلم الصحيحة بعدما طالعنا (الموطأ)، و(صحيح البخـاري)، وبعض التفاســير الصــحيحة، ولم يفتنــا من مجلتكم الزاهــرة بمجــالس التذكير عدد واحـد، فكم أفادتنـا من علـوم أدام اللـه حيـاة منشـئه للاسلام)

---

[1] عمر بن البسكري العقبي (1898-1986): ولد بسيدي عقبة سنة1898 وحفظ القرآن بها وتعلم على علمائها، انظر: ((مجلة الإصلاح الجزائريـة)) عـدد/14 بتـاريخ: ماي/جوان2009م

[2] جريدة البصائر: العدد/44.

ونلاحظ من خلال هذه المراجع جميعا ما يلي:

1 ـ افتقارها للدراسات الفقهية المقارنة، والتي لها دور كبير في التعرف على الخلاف الوارد في الأمة، والذي يتيح لها بعد ذلك أن تتعامل بأفق أوسع، ورحابة صدر أكبر.

2 ـ افتقارها لكتب التصوف، مع كونها تتوجه بخطابها للصوفية، ومن المستغرب أن لا يكون (إحياء علوم الدين) من مصادر الجمعية الكبرى مع كونه لا يكاد يخلو منه بيت مسلم.

وهذا واضح، ومن الأمثلة القريبة عليه أن ابن باديس عندما ذكر إعجابه بإشارة القشيري، تصورت أنه اطلع على تفسيره، وتعجبت أنه لم ينكر عليه مثلما أنكر على الطرق الصوفية، لكني وجدت أنه لم يرجع إليه، وإنما وجد إشارته في تفسير ابن العربي المالكي، ورأى أن ابن العربي أقرها، فقلده في إقرارها[1].

3 ـ افتقارها للتراث الصوفي المقارن، والموجه خصوصا للتيار السلفي، والذي سنذكر نمادج عنه في المبحث التالي، وهذا مما يضخم المشكلة بين الطرفين، فالافتقار إلى المصادر، كافتقار المريض إلى دواء من الأدوية، ولا يمكن أن يطمع في الشفاء من لم يحصل الدواء، أو رغب عن الدواء.

4 ـ اعتمادها في الحديث عن التصوف على كتب أعدائه، وخاصة ابن الجوزي، وخاصة ما ذكره في كتابه (تلبيس إبليس)، وهو كتاب لقي الكثير من مقولاته الرفض حتى من ابن تيمية وغيره.

ولهذا نجد الشيخ ابن عليوة في رده على مقال الشهاب في رسالة (الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف) يخاطب رجل الجمعية بقوله: (..فأقول لكم صريحاً يا حضرة الأخ: إن معتمدكم فيما نقلتموه من كتاب ابن الجوزي المسمى بـ (تلبيس إبليس) لا تقوم به حجة ولست أدري هل أنتم على علم من قيمة هذا الكتاب ومنزلته بين العلماء أم كنتم على خلاف ذلك؟ ولهذا أراني مضطراً أن أذكر لكم مقداره عند العلماء فأقول أن للعلماء في ذلك الكتاب كثيراً من الأخذ والرد وفي الأخير اتضح عندهم أنه

---

[1] انظر: آثار ابن باديس (2/ 34)

مما لا تنهض به الحجة ولا يصح به الاستدلال .. وها أنا أنقل لكم من أقوالهم حتى تدرك مقدار ما اعتمدتموه في الحط من كرامة رجال كان من واجبك أن تعتبرهم في الصف الأول من رجال الدين وأئمة المسلمين)[1]

ثانيا ــ خصائص المواجهة العلمية:

من خلال دراسة التراث القليل الذي كتبه رجال الجمعية حول تفاصيل الخلاف بينهم وبين الطرق الصوفية يمكن ملاحظة الخصائص التالية:

1 ــ عدم الاعتراف بالآخر:

فجمعية العلماء لم تكن ترى في الآخر شخصا اعتباريا يمكن أن تتحاور معه، أو تقبل مناقشته، لأنها، ومنذ أول يوم قررت عدم الحوار، بل لم تر من حل سوى الاستئصال الجذري لا للطرق الصوفية فقط، بل لكل ما يرتبط بها من معان، وهي في هذا ترجع لأشد أنواع السلفية تطرفا، وهي السلفية الوهابية.

ولهذا نرى مشايخ الصوفية في ردودهم على الجمعية، وخاصة الشيخ ابن عليوة يذكرهم بمقالات ابن تيمية وابن القيم والشيخ محمد عبده وغيرهم من أعلام المدرسة السلفية، كما سنرى ذلك بتفصيل في الباب الرابع.

وقد ذكر الشيخ ابن عليوة في معرض رده على المخالفين له الكيفية التي يتعاملون بها معه فقال: (..وأيّ معصية أشنع من تطبيقك جميع ما ورد في أهل الزيغ والضلالة على جماعة الصوفيّة ؟ ولم يكفك ذلك حتى جعلتهم فرقة من فرق أهل النار مستدلا بما رواه عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ليأتيّن على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمّه علانية لكان في أمتّي من يصنع ذلك، وإنّ بني إسرائيل تفرّقت إلى ثنتين وسبعين ملّة وتفترق أمتّي على ثلاث وسبعين ملّة كلّهم في النار إلاّ ملّة واحدة، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟، قال : ما أنا عليه وأصحابي)[2] رواه الترمذي في سننه، وهذا صريح في أنّك تعني أنّ فرقة أهل

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص7.

[2] سنن الترمذي (5/ 26)

التصـوّف واحـدة من تلـك الفـرق، وإنّي أحكمـك للـه ولرسـوله ولصالح المؤمنين فيما بينك وبين الصوفيّة)[1]

ثم أشـار الشـيخ ابن عليـوة إلى العقليـة الانتقائيـة للجمعيـة وللمنهج السـلفي عمومـا، وهي انتقاؤهـا من النصـوص مـا تـراه مناسبا لها، ثم تفسره بحسب مـا تـراه، فقـال: (وهلا نقلت حـديثا نقله الإمام الغزالي في كتابه المسمّى بـ (فصل التفريقـات)[2] وهو قوله عليه الصـلاة والسـلام :(سـتفترق أمـتي على بضـع وسـبعين فرقة كلّهم في الجنّة إلاّ الزنادقة)[3]

ثم يذكر العلة في هذه الانتقائية، وهي علة نفسية كما يتصـورها

---

[1] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صـفحات مطويـة في التصوف الإسلامي، ص204.

[2] يشير به إلى كتاب أبي حامد الغزالي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة)، وهو من أهم الكتب في الرد على التكفيريين، وقد قال في هذا: (وظـاهر ظـني ــ والعلم عند الله ـ أن هؤلاء هم المرادون بقوله عليه السلام: (ستفترق أمتي بضـعاً وسـبعين فرقـة، كلهم في الجنـة، إلا الزنادقـة) وهي فرقـة، هـذا لفـظ الحـديث في بعض الروايات، وظاهر الحديث يدل على أنه أراد به (الزنادقة) من أمته، إذ قال (سـتفرق أمـتي) ومن لم يعـترف بنبوتـه فليس من أمتـه) (انظـر: أبـو حامد الغـزالي، فيصـل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ط1، 1993، ص68)

[3] قال العجلوني في (كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشـتهر من الاحـاديث على ألسنة الناس (1/ـ 150)) بعد عرض الروايات الأخرى المشهورة: (وصـححه الحـاكم بلفظ غريب وهو (ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحـدة)، وفي رواية عند الديلمي (الهالك منها واحدة)، قال العلمـاء هي الزنادقـة انتهى، وفي هامش الميزان المذكور عن أنس عن النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم بلفـظ (تفـترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة)، قال وفي رواية عنه أيضا (تفترق هذه الأمـة على بضـع وسـبعين فرقـه إني أعلم أهـداها الجماعـة) انتهى، ثم رأيت ما في هامش الميزان مذكورا في تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر، ولفظه (تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلهـا في الجنـة إلا واحـدة وهي الزنادقـة)، أسـنده عن أنس قـال وأخرجـه أبـو يعلى من وجـه آخـر عن أنس بلفـظ أهداها فرقة الجماعة انتهى، فلينظر مع المشهور ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة في الرواية الثانية ولو مآلا فتأمل)

الشيخ ابن عليوة، حيث يقول: (ولكن هذا لا يقع عليه بصرك وإنّما يقع على ما يساعدك في الحكم على سائر أفراد المسلمين بالنار حتى تخلو لك الجنّة أنت ومن هو على شاكلتك لا غير، ولا تجد من يرفع عنك معضلتك إلاّ صوفيّ ومحال أن تتنزل له لأنّ الحسد باب الإنصاف ويقطع لسان الاعتراف)(1)

ويرد الشيخ ابن عليوة على هذا المنهج الإقصائي الذي تمارسه الجمعية مع الطرق الصوفية بالمنهج الذي تمارسه أو تعتقده الطرق الصوفية، فقال – تعقيبا على الكلام السابق-: (وأنا أقول : إنّ الله سبحانه وتعالى عند ظنّ كلّ مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر مهما اجتهد لنفسه بما يقرّبه إلى الله، فإن أصاب فله أجران، وإن لم يصب فله أجر، فهو مأجور على كلّ حال أحببت أم كرهت، لأنّ الخلق ما كلّفوا إصابة الصواب، إنّما كلّفوا الظنّ بأنّه صواب، وجميع ذلك ممّا يقتضيه تسامح الشرع الأحمدي المشار إليه بقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78]

وبعد أن ذكر بعض النصوص الدالة على سعة رحمة الله للجميع، علق عليها بقوله: (فلما لم تصادف هذه الأخبار التي تفيد الوسع وتقضي على الأمّة بالنجاة ؟، ولكنّك تنظر بالعين العوراء، فلهذا أراك إلى الآن لم تترك نصّا يقضي على الذاكرين بالدمار والخروج من سعة رحمة الله التي وسعت كلّ شيء إلاّ وألصقته بجانبهم)(2)

قد يرى البعض بأن استدلالنا بالشيخ ابن عليوة لإثبات هذه الخاصية مناف للمنهج العلمي، وهذا صحيح، ولكنا أردنا أن نذكر فقط بعض شكوى الطرق الصوفية من ذلك التعامل الاستعلائي الذي تمارسه الجمعية معهم، فلا تأذن لهم حتى بالحديث.

وأساس هذا التعامل هو تلك الصورة التي تحملها الجمعية عن نفسها، وهي أنها تمثل الكتاب والسنة، ولا ينبغي لأحد من الناس

---

(1) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص204.

(2) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص205.

أن يواجه الكتاب والسنة، أو يقف أمام الكتاب والسنة.

والثاني – وهو أخطر- وهو اعتقادها أنها جماعة المسلمين في الجزائر، أو بتعبير آخر، هي من يمثل الإسلام في الجزائر، وهذا للأسف ما ورثته عنها الحركات الإسلامية بعد الاستقلال مما جعلها تستعلي على المجتمع، ثم تتميز عنه، ثم في الأخير تصطدم معه، ولو أنها تعاملت مع المجتمع على أنها طرف فيه، لا باعتباره الطرف الوحيد لما وقعت في الأزمة التي وقعت فيها.

وقد قدم الشيخ العربي التبسي لهذا التقرير الذي يريد من خلاله أن يلغي الآخر بذكره ما ذكر الفقهاء حول الأحكام المرتبطة بعدم الإمام، قال: (قال فقهاء الإسلام في بيان حكم هذه القضية بالنسبة إلى الإمام واستعمال سلطته في نشر العلم : ومعلوم عندنا بالضرورة أن المسلمين عندنا إذا فقدوا الإمام وجب على جماعة المسلمين أن يحلوا محل الإمام في القيام بالدين، يقول أولئك الفقهاء : يجب على الإمام في كل مسافة قصر أن يضع فيها من يعلم الناس أمر دينهم، والدين يقول : يجب على الأمة الجزائرية العديمة الإمام، والحكومة المعترفة بالإسلام وجوبا شرعيا، أن تقوم كأمة بفروض الكفاية والمعالم العامة الشعبية والاجتماعية وهذه الأمة الجزائرية عليها أن تمتثل آية : {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} [آل عمران: 104]) [1]

وكان في إمكانه بعد هذا الطرح أن يقترح اجتماع جميع من يمثل الأمة من فقهائها وأعيانها ونحوهم بمذاهبهم واتجاهاتهم المختلفة ليشكلوا هذه الجماعة لتكون رمزا لوحدة الأمة، وتكون صوتا عاليا يمكنه أن يؤثر في تحصيل الحقوق أو توجيهها.

لكن الشيخ العربي بدل ذلك قال – بكل برودة، وكأنه يقرر قضية بديهية لا خلاف فيها- : (وتلك الطائفة من الأمة المعبر عنها في هذه الآية بلفظ الأمة، هي جماعة المسلمين، وتتمثل في أمتنا جماعة المسلمين في جمعية العلماء)

ثم بين الدوافع التي جعلته يذهب إلى هذا، فقال: (فهذه الجمعية هي الطائفة التي توفرت فيها أوصاف جماعة المسلمين الشرعية، وإذا كنا ممن ينطق لله، ويغضب لله، ويرضى لله،

---

[1] جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

ويحكم بما في دين الله، ويسـند الأمور إلى أهلها كما أمر الله) [1]

وبناء على هذه الأوصاف الـتي تغلب عليهـا لغـة العاطفـة، أكـثر ممـا يغلب عليهـا لغـة العلم، اسـتنتج الشـيخ العـربي التبسي هـذا الحكم الشرعية الخطير، فقـال: (وقـد وجب على كـل مسـلم في الجزائر أن يعترف بأن جماعة المسلمين في الجزائر هي جمعيــة العلماء) [2]

بل لم يكتف بهذه الألفاظ الشرعية المؤدبة، فأضاف إليها قوله: (لا ينازع في ذلك إلا من أضله الله على علم أو جهـل، أو كـان من الذين سبقت عليهم الشقوة، فأنساهم الشيطان والهوى وحظـوظ أنفسهم القيام بالقسط والشهادة ولو على أنفسهم) [3]

ولسنا ندري المصدر الـذي عـرف من خلالـه الشـيخ العـربي أن تلك الجموع الغفيرة التي لم تخضع للجمعية أنهـا ممن (من الـذين سبقت عليهم الشقوة)، لأن هـذا يسـتدعي الرجـوع إلى مصـادر لا توجد في هذه الحياة الدنيا، ولا يمكن لعاقل يحترم قدره أن يدعي أنه تعرف على ما فيها.

ثم بين الأسباب الـتي جعلت الجمعيـة لا تعـترف بـالآخر، والـتي عبر عنها بقوله: (اعلموا أنه إذا كـانت جماعــة المسـلمين بـالعلم، فأكثر علماء الجزائر في هذه الجمعية، وإذا كانت الدعوة إلى اللــه فهي الجماعــة المخلصــة المؤمنــة المجاهـدة الـتي عاهـدت ربهـا، وكتبت ميثاقا على نفسها، أنها الداعية بجماعتها وأفرادهـا إلى دين الله، وإلى كتابه، وسنة نبيه)[4]

ولسنا ندري كذلك كيف حكم على جميع أعضاء الجمعية بكونهم مخلصين مع أنـه في ذلـك الحين كـان من أنشـط دعـاة الجمعيـة، وأكثرهم تطرفا الشيخ الزاهري، والذي كتب الشيخ العـربي يقـول عنه في البصائر بعـد ذلـك: (رد على معــرض أكـاذيـــب الزاهـري

[1] جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/ 1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

[2] جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/ 1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

[3] المصدر السابق، ص 1.

[4] المصدر السابق، ص 1.

وتلامذته الزيتونيين)[1]

بل إن الشيخ العربي التبسي، وخشية أن يستدرك عليه بأن هناك في الجزائر الكثير من العلماء المحترمين الذين لم يدخلوا الجمعية، وأنه مسهم بأحكامه القاسية، عقب على ذلك بقوله: (وإذ وجدنا في الأمة الجزائرية شخصيات علمية أو لها في مجتمعنا مكانة طيبة أو سمعة قديمة، ولم تدخل جمعية العلماء أو دخلت فيها، ثم خرجت منها فإن تلك الشخصية لا تخلو من إحدى الآفتين)

أما **الآفة الأولى** – التي يراها الشيخ العربي- فهي الانتماء إلى الحكومة الاستعمارية سرا أو علنا. مباشرة أو بواسطة، ولا علينا أكان الانتماء حلالا أم حراما.. فأصحاب هذه الآفة يخشون غضب الحكومة عليهم إن هم وقفوا مع جمعية العلماء، وقالوا كما تقول جمعية العلماء : إننا على دين آبائنا وأجدادنا الذين دفنوا في هذه الأرض الجزائرية الطاهرة منذ ألف وثلاث مائة سنة عربا. وتركونا بعدهم ذرية عربا، فكيف تحاول فرنسا قطع بنا سلاسل أنسابنا وتحويلنا من بعدهم إلى فرنسيين لاتينيين.

أما الآفة الثانية – التي يراها الشيخ العربي- فهي (الحزبية وحب الرئاسة، فإن الرئاسة والحزبية لا تبنى على الإسلام وأنظمته

---

[1] المصدر السابق، ص 3،ـ وقد ذكر الدكتور أحمد عيساوي قصة هذا المكتوب، وهي أن الشيخ العربي نشر هذا الرد التوضيحي في جريدة البصائر اثر التآمر الذي أظهره الأستاذ (محمد السعيد الزاهري) بواسطة بعض الطلبة الموالين له الدارسين بالزيتونة، الذين استغلوا كل أشكال التآمر والكيد من أجل الاستحواذ على أمانة جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين الزيتونيين، وكان ذلك في بدايات سنة 1949م 1368هـ بتونس. وكان الشيخ العربي في زيارة لتونس فحرص السيد (محمد مرازقة) عدم حضور الشيخ العربي والوفد المرافق له كي لا تنكشف لعبتهم، ثم حرف حقيقة ما جرى يومها في تونس صاحب (جريدة المغرب العربي 1947-1948م) (محمد السعيد الزاهري)، فرد عليه الأستاذ (العباس بن الشيخ الحسين) في جريدة البصائر بمقال عنونه بـ (معرض الأكاذيب) مذيلا به رسالة الشيخ العربي التبسي، انظر: نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثار الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص259.

وتشـــكيلاته، ولا على جماعـــة المســـلمين.. فلا عجب أن يكـــون أصـحاب الرئاسـة من خصـوم جمعيـة العلمـاء الممثلـة لجماعـة المسلمين من الجزائر العربية المسلمة)[1]

وكلا الآفـتين لا تنهضـان أمـام حقيقـة الواقـع الـذي مارسـته الجمعية:

أما الآفة الأولى، فالكل يعلم – كمـا ذكرنـا سـابقا- بـأن الجميـع استعمل الهدنة مع الاستعمار، لأنه لولا استعمال الهدنة لما انتشـر لا للجمعية ولا للطرق الصوفية في ذلك الواقع القمعي.

وأما الآفة الثانيـة، فهي غيب من الغيب، فـالإخلاص والتـبرؤ من حب الرئاسة لا يعلمـه إلا اللـه، بالإضـافة إلى هـذا، فـإن القـوانين والديمقراطية لم نرها تطبق يوما واحدا في الجمعية للأسـف، فلم يحـدث أن حصـلت انتخابـات حـرة ونزيهـة ليغـير على أساسـها الرؤسـاء، بـل إن الشـيخ البشـير الإبـراهيمي عنـدما ذهب إلى المشرق ليستقر فيه أخذ الرئاسة معه، ولم يسمح لأحد بأن يخلفه مما هيأ لانحلال الجمعية بعد ذلك وصراعها على السلطة.

لكن الشيخ العربي بنى على ما ذكره من الآفـتين حكمـا قاسـيا لم يوجهـه للعـوام، وإنمـا وجهـه للخـواص من العلمـاء الـذين لم يـدخلوا الجمعيـة، أو لم يقتنعـوا بمنهجهـا، قـال فيـه: (فالمرضـى بهاتين الآفـتين لا يضـر خلافهم جمعيـة العلمـاء في تمثيـل جماعـة المسلمين من الأمة الجزائرية)[2]

ثم عقب على ذلك بهـذا الحكم الخطـير، والـذي يمارسـه عـادة أصـحاب المنهج السـلفي: (وإذا صـدقنا فيمـا وصـفنا بـه جمعيـة العلمـاء من الأوصـاف، وصـدقنا فيمـا نسـبناه إليهـا من الأعمـال الدينية والعلمية والاجتماعية، فهي بحـق جماعـة المسـلمين، ومن خالفها يوليه الله ما تولى إذا مـا شـذ عنهـا إلا من لا يعبـأ اللـه بـه ممن يسـير في هـدي الحكومـة الاسـتعمارية، أو من اتخـذ آلهـة حزبية، وما فيها من مبادىء وعصبيات ورجال)[3]

وهذا نفس ما ذكره الشيخ ابن عليوة عندما قـال: (ولكن هـذا لا يقع عليه بصرك وإنّما يقع على ما يساعدك في الحكم على سـائر

---

[1] المصدر السابق، ، ص 3.

[2] المصدر السابق، ص 1.

[3] المصدر السابق، ص 1.

أفراد المسلمين بالنار حتى تخلو لك الجنّة أنت ومن هو على شاكلتك لا غير) (1)

وعقب الشيخ العربي كذلك على من يشرط أن تضم جماعات المسلمين جميع أطياف المجتمع، وهذا ما ذكره الفقهاء، بقوله:

(ولو قال قائل إن جماعة المسلمين لا تتحقق ولا نعترف بها البتة، إلا إذا ضمت جميع الطوائف الجزائرية من سياسيين وموالين للحكومة وطلاب الرياسات بالعصبيات. لكان طلبه هذا محالا، وطلب المحال ممنوع قانونا، ومحرم شرعا،، ولكان طلبه هذا أيضا ذريعة لتعطيل جماعة المسلمين) (2)

ثم استدل لهذا بقوله: (وقد قال العلماء في تقرير قاعدة عامة حادثتنا هذه فرع من فروعها، وجزئية من جزئياتها : (إن رأي الأمة يكفي في تمثيله أهل الحل والعقد، قلوا أو كثروا . ولا يشترط في ذلك التمثيل حضور جميع الطوائف، وذكروا لذلك مسألة البيعة للخليفة، فإن من حضر من أفاضل الصحابة في كل من خلافة الخلفاء الأربعة انعقدت بهم الخلافة، ولزمت الأمة على اختلاف ديارها، ومذاهبها، وزعمائها، ومن خرج عن تلك البيعة لم يضرها في نظر الإسلام، والأمة الإسلامية)(3)

وهذا الدليل كما يصح أن تستعمله الجمعية يصح أن يستعمله غيرها، بل إن الطرق الصوفية في المناطق التي كانت تستحوذ عليها كانت تمارس هذا الأسلوب، فقد كان شيخ الطريق هو الأب الروحي والحاكم السياسي والقاضي لمن يرى أهليته للمشيخة، وعلى هذا الأساس استطاعت الطرق أن تحقق بعض نجاحاتها التي أشرنا إليها عند الحديث عن مشروعها الإصلاحي.

ولكني مع البحث الشديد، لم أجد طريقة صوفية تلغي من سواها، جل ما في الأمر أن كل شيخ يطلب من أتباعه الثقة فيه،

---

[1] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص204.

[2] جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/ 1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

[3] جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/ 1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

وأن يروا فيه أنـه أهـل للمشـيخة، بـل إنـه أولى من يمثلهـا، وهـذا شيء طبيعي، فلا يمكن للمريض أن يسـتفيد من علاج الطـبيب أو يستعمله وهو يشك فيه، أو يرى أن غيره أولى منه.

وما ذكره الشيخ العربي التبسي من هذه المقاييس طبقـه بكـل دقة الشـيخ البشـير الإبـراهيمي حين خـاطب بكـل عنجهيـة الـذين طلبـوا منـه المنـاظرة في مسـائل فرعيـة محـددة، وبكـل أدب[1]، فأجابهم بقوله: (إن المنـاظرة في الشـيء تسـتدعي نظـيرين، أي مثيلين في المعنى الذي يتناظران فيـه، والمنـاظرة المطلوبـة هنـا في مسائل علمية دينية لَابَسَها تاريخ المسلمين الطويل، وداخلتهـا عوائدهم واجتماعياتهم وأثر فيها هذا وذاك.. وإذا كنا نحن الطــرف الأول في هــذه القضــية، ونحن علمــاء نقــول في الــدين بِدَلِيلــهِ المعتـبر، ونتكلم في التـاريخ بعللـه وأسـبابه، ونقـول في العـادات بمناشئها وآثارها، ونرجع كل شيء إلى أصله، ونرد كـل حادثـة إلى سببها، ونربط بين الدليل ومدلوله والعلة ومعلولها، فإن الطرقيين بالطبع هم الطرف الثاني، وهل بلغ الطرقيون أن يكونـوا نظراءنـا بالعلم والدين والتاريخ والاجتماع؟)[2]

ثم وضح السر الذي جعله لا يعتبر هـؤلاء، فقـال: (نحن نعـرفهم

---

[1]) نص البشير الإبراهيمي على مضمون رسالتهم بطريقتـه التهكميـة، فقـال: تلقينـا صبيحة يوم الاثـنين الماضـي رسـالة مضـمونة متتوجـة باسـم جامعـة اتحـاد الطـرق الصوفية، ومنتعلة باسم كاتبها العام. وبين التاج والنعل سطور جميلـة الخـط (قريبـة الأسـلوب في أسـاليب التوثيـق من المحـاكم) ولكن تحتهـا من المعـاني مـا يضـحك الثكل، ففيها بعد البَسْـمَلة بـالقلم العـريض: تعـالوا إلى المنـاظرة. وفيهـا بعـد اسـم رئيس جمعية العلماء والسلام عليه ورحمة الله ما نصـه بـالحرف: "أمـا بعـد، فـإنكم تعلمون علم اليقين أن ما فكك الأمة المسلمة الجزائرية ومزق وحدتها حتى صــارت متنافرة متخالفة بعد أن كانت متقاربة متألفة هـو مـا أدخلتمـوه عليهـا من التشـكيك في أمر دينها اعتقادًا وعملًا، وأفتيتموها في كل مسـألة خلافيـة بمـا يعـد خروجًـا عن دائـرة الحـق والإنصـاف وولُوجًـا في ورطـة الشـذوذ والاعتسـاف، ولطالمـا انتظرنـا رجوعكم إلى الجادة، ولكن ذهب انتظارنا سدى. وبناءً على هذا فإننا نـدعوكم باسـم الدين إلى "المناظر" في المسائل الآتي ذكرها، ونرجوكم أن لا تتخلفـوا كمـا تخلفتم في المرة الأولى عن موعد المناظرة، ولكم الشكر".
هذا نص الديباجة، وبعـدها سـرد المسـائل، وهي إحـدى عشـرة مسـألة) انظـر: آثـار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 300)

حـق المعرفـة، ونعـرف أنهم جهلاء ويفخـرون بالجهـل، وأنصـاف أمـيين ويتبـاهون بالأميـة، إذ ليس العلم ولا القـراءة شـرطًا في طرقهم ولا في مشيختهم، ونعرف أنهم لا يملكون من أسلحة هـذا الميدان إلا العناد والإصرار على الباطل.. ولو كانوا علماء لمـا بلـغ النزاع بيننا وبينهم إلى هذا الحد، ولرَجَوْنا- إن لم يزَعْهم الدين- أن يزَعَهم العلم)[1]

بل إنه يجاوز الحد في التعالي عليهم عندما يخاطبهم قـائلا: (ولا يبلغ بهم الغرور أن يناظروا علماء من الطـراز الـذي تحتـوي عليـه جمعية العلماء، وإنما يعتمدون في هذه المنـاظرة على موجـودات آلية يسمونها علماء عوَّدوهـا أن تنطـق باسـمهم وتسـبح بحمـدهم وتحـامي عنهم بالباطــل.. ونحن لا نعـترف بـالعلم لهـذا الصـنف المتهـافت على أبـواب الزوايـا المتعيش من فضـلاتها، ويـأبى لنـا شرف العلم أن يكون هؤلاء المسـلوبو الإرادة الفاقـدو الاسـتقلال في العلم نظراءنـــا في المنـــاظرة، لأننـــا بلَوْنَـــاهم في العمـــل فوجَدناهم جبناء، وبلَوْنَاهُم في العلم فوجَدناهم يحكمون الهوى ولا يحكّمون الدليل، وبلَوْناهم في الكتابة فوجَدْنا أَمْثَلَهم يسمي البــدع المنكـرة عوائـد دينيـة.. أَمَـعَ هـؤلاء تكـون المنـاظرة؟ لا، وشـرف العلم) [2]

ثم اسقط هذه المناظرة بسبب عدم كفاءة من يناظره، فقــال: (فقد تحقق أن هـذه المنـاظرة الـتي دعـوا إليهـا سـاقطة سـقوط شرطها الأساسي مِن قِبَلهم وهو النظير) [3]

بل إن الشيخ الإبراهيمي يتعمـق إلى أعمـاق نيـاتهم حين يـذكر الـــدافع الحقيقي لهم من وراء المنـــاظرة: (ألا إنهم من إِفْكِهم ليتداهون ويختلون بهـذه الـدعوة إلى المنـاظرة، لنُجِيبَهم فنعـترف لهم بالكفـاءة، أو نسـكت عنهم فيقولـوا عنـا: أَحْجَمـوا وخـافوا، أو نُجيبَهم بالحقيقة (كمـا فعلنـا) فيقولـوا: إن جمعيـة العلمـاء تحتقـر العلماء ويتباكون ويشنعون) [4]

---

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 301)

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 301)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 302)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 302)

[4] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 302)

وما ذكره الشيخ الإبراهيمي يجعلنا نتساءل عن سر هذا الغــرور الــذي يمنــع من تعليم الجاهــل، إذا جــاء يبث مــا لديــه من قضــايا وشـبهات.. ولا بـأس أن يسـمي نفسـه عالمـا أو منـاظرا، لأن دور المربي هو رفع الشبهات، لا الترفع عليها.

ولكن هذا لم يحصل للأسف لأن المدرسة الفكريــة الــتي ينتمي إليها جعلته لا يرى إلا نفسه.

وأحب أن أذكر هنا حادثة شخصية ترتبـط بشـخص يعتـبر نفسـه من العلماء الكبار، وقد سمعته في محاضـرة يحـرض على إحـراق كتب الغزالي، فطلبت الكلام فلم يؤذن لي، وبعد انتهاء المحاضرة التقيت به، وقلت له بأدب: أريد أن أناقشك في مسألة ذكرتها في المحاضرة، فنظر إلي شزرا، وقال: من أنت حتى تناقشـني، لا بـد أن تصير في مستواي حتى تناقشني.

أقول هذا من باب الشـهادة للـه في الـوقت الـذي كـان الشـيخ محمد بلقايد رحمـه اللـه يحضـر إليـه الكثـير من أصـحاب الاتجـاه السلفي سـاخرين منـه، فلم يكن يقـابلهم إلا بـالأدب، ويجيب على أسئلتهم بكل احترام، وهكذا كل من عرفته من مشـايخ الصـوفية، والسر بسيط، وهو أن التصوف بالمفـاهيم العميقـة الـتي يملأ بهـا أصـحابه يجعـل صـدورهم أوسـع من أن تضـيق بـأي خلاف أو أي مخالف.

2 ــ الانتقائية في التعامل مع القضايا العلمية:

المنهج العلمي، وخاصـــة المنهج المقـــارن يســـتدعي البحث الشامل والموضوعي في كل ما يذكره المخالف، والرد عليـه بنـاء على ذلك، ونفس الشيء بالنسبة للمصادر التي يرجـع إليهـا، فـإن المنهج العلمي يقتضي عدم الانتقائية أو التقطيع فيها.

وهذا المنهج لم يقرره المحدثون فقط، بـل هـو منهج مقـرر من قديم في العالم الإسلامي، ونحب هنا أن نأخذ نموذجا من العلمــاء القــدامى لنقارنــه بمنهج علمــاء الجمعيــة، ونــرى مــدى تحقــق الموضوعية العلمية بين الطرفين:

وهذا النموذج هو أبو حامد الغزالي، والطـرف الـذي توجـه إليـه خلاف الغزالي ليس رجـل دين، وإنمـا هم الفلاسـفة، الـذين ينظـر إليهم الاتجاه السلفي نظرته الاستئصـالية، لكن الغـزالي لم يفعـل ذلك، بل إنه أمضى سنين محترمة من عمره يدرس الفلسفة قبـل أن يقدم على الحديث فيها تأييدا أو معارضة، وقد قـال معـبرا عن نفسه: (ثم إني ابتدأت، بعد الفراغ من علم الكلام، بعلم الفلسـفة

وعلمت يقيناً، أنه لا يقف على فساد نـوع من العلـوم، من لا يقـف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلـك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليـه صـاحب العلم من غـور وغائلـه، وإذا ذاك يمكن أن يكـون مـا يدعيـه من فساده حقّاً)[1]

هـذا هـو المنطلـق الـذي ينطلـق منـه كـل من يريـد أن ينـاقش قضية، فلا يمكن أن يناقشها وهو يجهل جميع أبعادهـا، يسـتوي في هذا التصوف والفلسفة واي شيء آخر، وهذا للأسف مـا لم تفعلـه الجمعية في مناقشاتها، فهي تتحدث عن (شـيخ الحلـول) من غـير أن تشرح للمجتمع مرادها بهذا وأدلتها عليها وكلام المخالف عنه.

ثم يـذكر الغـزالي الجهـد الـذي بذلـه في فهم الفلسـفة، وهـو جهدان تحصيلي وتـأملي، فقـال: (فـأطلعني اللـه سـبحانه وتعـالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة، على منتهى علومهم في أقل من سنتين. ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمـه قريبـاً من سـنة، أعـاوده وأردده وأتفقـد غوائلـه وأغـواره، حـتى اطّلعت على ما فيه من خداع وتلبيس، وتحقيق وتخييل، اطلاعاً لم أشك فيه)[2]

ثم ذكر بعد ذلك النتيجة التي وصل إليها، وهي تصنيف الفلسـفة إلى ما يمكن اعتباره وقبوله، وإلى ما ينبغي رفضه وطرحه، ثم لم يناقشهم بعد ذلك إلا فيما ينبغي طرحه.

هذا هو المنهج الذي رسمه الغزالي، وعلى خطاه، بل قبله كـان العلماء يناقش بعضهم بعضا، بل إنهم في مناقشـاتهم يـذكرون مـا يقوله المخالف حرفا حرفا، ثم يردون عليه حرفا حرفا.

ولكن الجمعية – للأسف – لم تفعـل هـذا لأنهـا انطلقت - مثلمـا ذكرنا في الخاصـية السـابقة – من الخـوف من تسـرب أي شـبهة للقارئ إن هي ذكرت أدلة الصـوفية، وخاصـة مـا يـذكره الصـوفية من العلماء الذين تتبناهم الجمعية، بل تعتـبرهم مشـايخ لهـا كـابن تيمية وابن القيم والشاطبي ومحمد عبده وغيرهم كما سنرى.

وسنذكر هنا بعض الأمثلة على هذه الانتقائية التي كانت الجمعية تمارسها لتمرر ما تريد تمريره فقط.

---

[1] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص13.

[2] المنقذ من الضلال، ص14.

فقد ورد في بعض فتاوى الجمعية جواز اعتبار الأعراف في الإعلان بالبوق على موعد الاجتماع، باعتباره كان عرفا في منطقة الزواوة، وقد أقرته الجمعية وعبرت عن إقراره لذلك بقولها: (فالشارع أحال في الأمور التي تتغير مصلحتها وتتبدل بتغير الأزمان والأماكن والأحوال على العرف، وذلك لكون عرف الناس العام أو الغالب يحقق المصلحة المرجوة من هذه الأحكام)[1]

وهذا الموقف عجيب جدا في جانب موقفها من الأذكار الجماعية التي كان يمارسها الصوفية في بعض المناطق كإعلان عن الوفاة أو نحوها، فقد اعتبروا هذا من أخطر أنواع البدع وأنكروه كما سنرى في الباب الرابع.

ونحسب على فتاواهم تلك أنه لو كان العرف في الزواوة الإعلان بالذكر بدل البوق لاعتبروه بدعة وأفتوا بتحريمه، بل هذا حقيقة ما كانوا يعتقدونه، وقد ذكر الشيخ ابن عليوة كيف أنكر الإصلاحيون على أعراف جزائرية مرتبطة بالذكر، فقال – مخاطبا من زاره من بعض علماء الجمعية-: (و بمناسبة ما دار بيننا من الحديث، في تلك السويعات التي رأيتكم فيها موغر الصدر على إخوانكم العلاويين، حسبما لاح لي في ذلك الحين، لا لذنب ارتكبوه سوى أنهم مولعون بإجراء الاسم المفرد على ألسنتهم، وهو قولهم: (الله). فظهر لكم أن ذلك مما يستحق عليه العتاب، أو نقول العقاب، لأنكم قلتم إنهم يلهجون بذكر ذلك الاسم بمناسبة أو غير مناسبة، سواء عليهم في الأزقة، أو غيرها من الأماكن التي لا تليق للذكر، حتى أن أحدهم إذا طرق الباب يقول: (الله)، وإذا ناداه إنسان يقول: (الله)، وإذا قام يقول: (الله)، وإذا جلس يقول: (الله)، إلى غير ذلك مما جرى به الحديث)[2]

ومن النماذج التي تصلح لهذا ما يذكره الفقهاء حول اعتبار النيات في الأفعال، بل ما عبر عنه رسول الله ﷺ حين قال: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه) [3]

فقد وقفت الجمعية موقفا سلبيا مما يقوم به رجال الطرق

---

[1] البصائر، ع 173: /07 جويلية 1939.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد ص6.

[3] صحيح البخاري (1/ 2)

الصوفية أو العوام مما تسميه (الـزردة) مـع أن أصـحابها يـذكرون اسـم اللـه على الذبيحـة، ويـأتي للطعـام الفقـراء والمسـاكين، والمقيمون لها يخبرون عن أنفسهم أنهم يفعلونها من باب التكافل والتعاون والتصالح بين الناس، لكن الجمعيـة لم تكن تصـدقهم في هذه النيـات، وقـد عـبر عن مقاصـدهم الشـيخ الميلي فقـال: (قـد يقـول الجامـدون والمغرضـون: إنـا نحكم بـالظواهر واللـه يتـولى السرائر، وقد ظهر من حال الذابح أنـه ذكـر اسـم اللـه، فلا نبحث عن نيته الباطنة! فنقول لهم: أولا: إن المفتي لا يقتصر دائمـا على الظواهر؛ ففي الأيمان والطلاق مسائل تنبني على النيـة والقصـد، ويختلف حكمها بـاختلاف النيـة مـع اتحـاد اللفـظ، بـل تقـدم قريبـا الاستناد إلى النية في حكم الذبائح عن علي وغيره.. وثانيا: إن من السـرائر مـا تحـف بـه قـرائن تجعـل الحكم للنيـة ولا تقبـل معـه الظواهر، وذبائح الزردة من هذا القبيل؛ فإن كل من خالط العامـة يجزم بأن قصدهم بها التقرب من صاحب المزار)[1]

ولسـنا نـدري كيـف عـرف هـذه النيـة، ثم مـا الضـرر فيهـا، إن اعتقـدوا صـلاحه، فهم يحيـون صـلاحه لا ذاتـه، وكـأنهم يقولـون للمجتمع: انظروا لحرمة الصالح حيا وميتا.

لكن الجمعية للأسف في موقف آخر تقبـل النيـات – مـع كونهـا مجهولة- وتعتبرها، بل تلتمس الأعذار لأصحابها، ومع من؟ مـع من سب الدين، بل سب الله ورسوله، مـع أن العلمـاء مجمعـون على كفره، في نفس الـوقت الـذي تشـتد فيـه على من ذكـر اللـه في جماعة أو التزم أورادا يـذكر اللـه بهـا صـباح مسـاء, فقـد اعتـذروا للأول، وتشددوا مع الثاني، ثم بعـد ذلـك نتسـاءل عن السـر الـذي جعل الجزائريين من أكثر أمم الأرض سبا لله ورسوله.

وكيـف لا يكـون الأمـر كـذلك، وقـد ابتليت بمن يبـدع الـذاكر ويكفره، ويعتذر للساب ويدافع عنه.

وحتى لا يكون حـديثنا دعـوى سـننقل الفتـوى بحروفهـا، ونعقب عليهـا بـالفتوى المرتبطـة بالأذكـار الـتي تحـرص عليهـا الطـرق الصوفية.

كان السؤال الموجه للشيخ العربي التبسي باعتباره رئيس لجنة

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 380)

الفتوى في الجمعية هو:(ما قول سادتنا العلماء فيمن يسب الـدين من رعاع المسلمين وسفهائهم ؟ هل ذلك السب يخرج به السـاب من الملة ويعتبر به مرتدا داخلا فيمن تشـملهم آيـة {لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: 65] ؟)[1]

فأجابه الشيخ العربي بأن هـذا الشـخص الـذي ســـب الـدين لا يخلو حاله من أحد احتمالين[2]:

الاحتمال الأول أن يكون مسـتعملا للفظه في معنـاه اللغـوي الشـرعي عالمـا بجريمتـه قاصـدا لسـب الـدين، فاهمـا أنـه سـب الإسلام، أو من جـاء بـه، أو من يعـد سـبه ردة عن الإسـلام. وهـذا الشـخص كـافر داخـل في قولـه تعـالى: {لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: 65] مستهزئ بالله تعالى وآياته وكفره فوق كفـر من عبد غير الله، لأنه ممن قال اللـه فيـه: {إِنَّ الَّذِينَ يُـؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَأَعَـدَّ لَهُمْ عَـذَابًا مُهِينًـا} [الأحزاب: 57]

والاحتمال الثاني أن يكون هذا الساب ناقلا كلامه من معنـاه اللغوي إلى معنى جديـد متعـارف عنـد من كـان على شـاكلته نقلا ينسخ المعنى اللغوي، وذلك بطرو استعمال جديد عرفي على هـذا اللفظ، كما يطرأ العـرف على اللغـة في كثـير من الألفـاظ طـروا عاما عند الناس كلهم، أو عند فريق منهم.

وبعد أن ميع هذه القضية الخطيرة التي لم يقدم لها بأي مقدمة تبين خطورتهـا، راح يـدافع عن الاحتمـال الثـاني، فيقـول: (.. فـإذا تصورنا هذا الاحتمال، أمكن أن نقـول: إن هـذا السـاب للـدين قـد نقل لفظ الدين من معناه الشرعي اللغوي إلى إهانة من يخاصمه ويتشاجر معه، واستعمل كلامـه البشـع القـبيح في سـب الشـخص الذي تنازع معه، وذلك هو مراده وذلك ما يفهمه خصمه أيضا، وقد يجيب خصمه أيضا منتقما منه بذلك اللفظ نفسه، مريدا هو كـذلك

---

[1] نقلا عن: منارات من شـهاب البصـائر (آثـار الشـيخ العـربي بن بلقاسـم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص:221.

[2] المصدر السابق، ص:221.

سب خصمه، وكلاهما لا يفهم ولا يريد بسبه إلا خصمه)[1]

ثم استدل لهذا بالعرف، في مسألة قد بت فيها القرآن وبتت فيها السنة، وليس فيها مجال للخلاف، لكنها عند الشيخ العربي مسألة بسيطة وفرعية، بل يمكن أن يقصى فيها القرآن ليستدل لها بالعرف، قال مقررا لوجه الاستدلال بالعرف: (والدليل على هذا العرف، وهذا النقل أن المقام الذي تستعمل فيه هذه الألفاظ هو مقام كفر وردة، وإذا علمنا من مقاصد المتسابين أنهما لم يريدا الكفر، والردة لم يجز لنا أن نحكم عليهما بالردة والكفر، ذلك أن الأعمال بالنيات. وهذا السب عمل لساني، ليس من مقصد أهله سب الإسلام، أو من يعد سبه ردة)[2]

والشيخ العربي المصلح يذكر أن مثل هذا منتشر في الجزائر بكثرة، وبدل أن يهتم هو وأعضاء الجمعية بالرد عليه باعتباره يمثل جماعة المسلمين واجبة الطاعة نراه يعتذر بالكثرة على ضرورة اللين، ولسنا ندري لم لم يعتذر بكثرة الطرق الصوفية في الجزائر أو كثرة أتباعها على ضرورة اللين معهم، يقول الشيخ العربي: (هذا ما فهمنا من هذه الحادثة الكثيرة الوقوع، التي لو أجرينا الحكم فيها على ظاهر اللفظ، غاضين النظر عن مقاصد الناس التي يجوز غض النظر عنها في الأحكام الشرعية، لحكمنا بردة ما لا يقل عن ثلث الأمة في الشمال الإفريقي. ونحن مع قولنا بعدم ردة أهل الاحتمال الثاني نقول أن عملهم هذا معدود من منكر القول ومن وفحشه، ومن الأقوال التي تحتمل الكفر والتفسيق، وما كان كذلك كان حراما بإجماع المسلمين) [3]

ثم ختم كلامه بهذه التوجيهات الباردة، التي لا تحمل حرارة الألم على ذلك الواقع الجزائري الخطير الذي يتجرأ فيه العبد على سب ربه، قال:(فعلى العلماء المدرسين والواعظين والداعين إلى الله أن يقاوموا هذه الشناعات بكل ما أعطاهم الله من قوة الحجة في باب الترغيب والترهيب، وإن هذا لمن أوكد الواجبات

---

[1] المصدر السابق، ص:222.

[2] المصدر السابق، ص:222.

[3] المصدر السابق، ص:222.

عليهم لأنه حماية للدين وعلماء الدين هم حماته) [1]

هذا نموذج التسامح واللين عند الجمعية، والذي بلـغ حـدوده في مقابلـه التشـدد في أعلى حـدوده مـع الـذاكرين للـه بحجـة أنهم مبتدعة، والمبتدع أحيانا أخطر من الكافر، يقول الشيخ العربي في موقفه من الأوضاع الطرقية والتي لم تكن تعـني سـوى الجلـوس في الحلقات للاستغفار أو للتهليل أو للصـلاة على رسـول اللـه ﷺ أو لقراءة القرآن ونحوها، فالشيخ –كالجمعية جميعا- اعتـبروا هـذا من أنكر المنكر، وأن مهمته الإصلاحية لا تتمثـل في الـرد على من يسب الله، وإنما في الرد على من يذكر الله، يقول الشيخ العربي في هذا: (من الـبين لجميـع من عـرف الطرائـق الـتي غضـت بهـا الجزائـر؛ أنهـا اشـتركت في أمـور وامتـازت كـل واحـدة بخـواص تجعلها منفصلة عن البقيـة تسـتحق بهـا اسـم: طريقـة فلان. وقـد وضعوا طرائقهم كالشرع الموضوع المتبع، وبنوا هذه الأذكـار على أوضاع وهيآت وألحقوا بها أدعية أحدثها من أسس الطريقـة.. ومن الشـائع الـذائع: أن هـذه الأذكـار يعطيهـا رؤسـاء الطرائـق أو من يقيمونـه ويسـمى بأخـذ الـورد أو رفـع السـبحة ويعينـون أعـدادها وصيغها وأوقاتها وما يرتئونه من آدابهـا. ونحن نعـرض عملهم هـذا ونقيسه بالهدي النبوي وعمل السلف فذلك الدين، ومـا لم يعـرف في هذه الأيام بعموم أو خصوص فليس من الـدين. ومـا دام ليس من الدين فإنكاره قربة والاعتراف به بدعة)[2]

بالإضـافة إلى هـذا، فالشـيخ التبسي يمنـع المـأمومين من رفـع الأيدي للدعاء والإمام يخطب معللا ذلـك بأنـه انفضـاض من حـول الإمـام وإعـراض عن الإنصـات الـواجب وتضـييع للخطبـة وتفـويت لحكمتها والغرض منها[3] مع أنه قد ورد في رفع الأيدي عند الـدعاء

---

[1] المصدر السابق، ص:222.

[2] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص10.

[3] نص فتوى الشيخ العـربي التبسي في هـذا هي قولـه: (أمـا رفـع الأيـدي في تلـك الساعة للدعاء، فأما للمأموم فممنوع، لأنه نوع من الانفضاض حول الإمام، وإعراض عن الإنصات الواجب، وترك لـه وحـده يخطب، وكـل ذلـك تضـييع للخطبـة، وتفـويت لحكمتها، والغرض منها .. وأما رفع الإمام يديه للدعاء في خطبة الجمعة فقد اختلـف

مطلقا الأحاديث المتواترة، بل اتفقت عليه الأمة جميعا، بل إنه من دلائل انفعال المأمومين للإمام، فتأمينهم ورفعهم الأيدي دليل على مدى تجاوبهم معه.

ولكن القصد في هذا واضح، وهو مخالفة الآخر، فقد رأوا حرص الصوفية عند الدعاء على رفع الأيدي – بناء على ما صح عندهم من أحاديث في هذا[1] - فراحوا يقاومونه حتى حدثت الفتن في المساجد أثناء الدعاء ففريق يرفع يديه، وفريق لا يرفعها، وكل طرف يرمي الآخر بالبدعة والضلال.

ثم لسنا ندري ما العلاقة بين الإنصات للخطبة ورفع الأيدي، أم أن الأيدي إذا رفعت سدت الآذان؟

3 ــ ترجيح الفتوى على الحوار العلمي:

وهذا من الخصائص التي حالت بين الجمعية وبين الكتابة العلمية المفصلة المتضمنة للرأي والرأي الآخر، ذلك أن الفتوى في العادة توجه للعوام، ولا تقتضي ذكر الدليل بتفصيل، ولا تقتضي نقل الخلاف، ولا ذكر أدلة المخالف.

ولعل الذي دعا الجمعية إلى هذا هو ما ذكرناه سابقا، وهو ما يعتمده المنهج السلفي عموما، من اعتبار ذكر الخلاف بتفصيل قد يكون نوعا من إشهار المبتدع والدعوة له بالمجان، والجمعية لا تريد هذا، ولهذا تمارس كل أنواع التشدد حتى الحسنات تبرزها

الفقهاء في جوازه وكراهته، وليس مع المجيزين غير أقيسة لا معنى لها (نشرت هذه الفتوى في جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، عدد 138، الجمعة 04/11/1938م الموافق 11/ رمضان/1357هـ، ص 2، نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثار الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص:232)

[1]) من آداب الدعاء العظيمة التي نص عليها الفقهاء رفعَ اليدين في الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لثبوت ذلك عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة عدَّها بعضُ العلماء في جملة ما تواتر فيه النقلُ عن النبيِّ ﷺ، قال السيوطي في شرحه لتقريب الإمام النووي ممثِّلا لِما تواتر معناه عن النبي ﷺ: (فقد ورد عنه ﷺ نحوُ مائة حديث فيه رفعُ يديه في الدعاء، وقد جمعتها في جزء، لكنها في قضايا مختلفة، فكلُّ قضية منها لَم تتواتر، والقدر المشترَك فيه هو الرفعُ عند الدعاء تواتَر باعتبار المجموع) (عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، (2/ 180)

بصورة السيئات حتى تتمكن من استئصال الآخر استئصـالا جـذريا، وقد ذكرنا الكثير من الشواهد على هذا سابقا.

ولأجل هذا نرى الجمعية اهتمت بالفتوى، فأسست لها مجلسا[1]، ولكنها لم تهتم بالنواحي العلمية، ولذلك لم تؤسس لها المجلس.

وهذا الخطأ المنهجي في تصورنا هو الذي جعل الجمعية ضعيفة في إنتاجها العلمي، حتى مع كونهـا اهتمت ببنـاء المـدارس، وعلى أسس رفيعة من العمران، ولكنها لم تهتم بوضع المقررات مـع أن المقررات أهم بكثير من المدارس، بل كانت تعتمـد في مقرراتهـا على كتب بسيطة تقليدية.

والأخطر من ذلك – وهو لا يرتبط بموضـوعنا – هـو أن الجمعيـة لم تؤسس للدولة الجزائريـة الإسـلامية، فلا هي كتبت في النظـام السياسي أو النظـام الاقتصـادي أو غيرهـا من النظم بلغـة علميـة عصرية، بحيث يتسنى للجزائريين بعد الاستقلال أن يجدوا أمـامهم المشـروع الإسـلامي كـاملا لتنفيـذه، أو ليكـون على الأقـل حجـة عليهم.

وفوق ذلك كله أنها - لغرامها باللغة العربية - جعلت كل أهـداف التكوين أن تخـرج جيلا من الـذين يحسـنون اسـتعمال المحسـنات البديعيـة، وجـذب انتبـاه المسـتمع للألفـاظ، وهـذا واضـح جـدا في تلاميـذها الـذين وكلت إليهم أزمـة التـدريس في المسـاجد وفي

---

[1] قررت الجمعية في اجتماعها السادس العـام المنعقـد ابتـداء من: 1937/09/24 والذي دام ثلاثة أيام تقسيم المجلس الإداري الى لجان أربع والتي منها لجنة الإفتاء. وكانت لجة الفتوى تضم الأعضاء التالية أسماؤهم:

1- العربي التبسي: بصفته رئيس اللجنة. 3- البشير الإبراهيمي: عضو مستشار.

2- مبارك الميلى: عضو مستشار. 4- على الخيار: عضو مستشار.

وكان الاقتراح بتشـكيل اللجنـة للإفتـاء في المجلس العـام للجمعـة المنعقـد في 06 شوال 1354 الموافق ل01 جانفي 1936، وكانت إدارة البصـائر قـد عهـدت بصـفة مؤقتة إلى لجنة تأتمنها على الفتوى في دين الله برئاسـة الشـيخ أبي يعلى الـزواوي إلى حين تعيين جمعية العلماء من ناحيتها لجنة إفتاء بصفة رسمية باتة.

أما بعد استشهاد الشيخ التبسي فقد انتقلت رئاسة لجنة الإفتـاء إلى رئيس الجمعيـة الشيخ البشير الإبراهيمي الذي وسع من دائرة تلك اللجنة بزيادة أعضائها، ويتمثلـون في كل من: أحمد سحنون - مصـطفى الفخـار - عبـد اللطيـف القنطـري - الفضـيل اسكندر - نعيم النعيمي)

القنـوات الإعلاميـة، والـذين كـان يسـتفاد من كلامهم أكـثر ممـا يستفاد من علمهم.

وهذا لا يعـني أن أعضـاء الجمعيـة، وخاصـة الكبـار منهم ليسـوا علماء، فهم يشهدون لأنفسهم بأنهم علماء، بل علمـاء فحـول قـل نظيرهم في التاريخ الإسلامي، فالإبراهيمي يقول عن ابن بـاديس: (وعبد الحميد بن باديس باني النهضـة وإمامهـا، ومـدرب جيوشـها، عـالم ديـني ولكنـه ليس كعلمـاء الـدين الـذين عـرفهم التـاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة، جمع الله فيه ما تفرق في غـيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان الناصع، واللسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والعقـل اللمـاح، والفهم الغواص على دقائق القرآن، وأسرار التشـريع الإسـلامي، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين، ومناشئ أمراضهم، وطرق علاجها، والرأي السديد في العلميات والعمليات من فقـه الإسـلام وأطـوار تاريخه، والإلمام الكـافي بمعـارف العصـر مـع التميـيز بين ضـارها ونافعها)[1]

والعـربي التبسي يقـول عن الإبـراهيمي: (المواقـف العظيمـة البـاهرة لرئيسـنا الشـيخ (محمـد البشـير الإبـراهيمي) وبخطبـه ودروسه ومحاضراته، وأعمالـه الجليلـة العاليـة. فليعلم العـالم في الشرق والغرب أن الإبراهيمي ليس فلتة من فلتات الطبيعة عندنا وليستعد كل واحد منا لأن يقف مواقف الإبراهيمي، وأن يكـون لنـا عمله ونبوغه وفصاحته. فالعار كل العـار أن لا يكـون لنـا إلا بشـير واحد. وليعلم هو وليعلم الناس أن له من يقف حواليـه لشـد أزره، ولـه من يقـف وراءه، ولـه من يسـتعد لحمـل الرايـة في ميـادين الإسلام والعربية والإصلاح)[2]

والإبراهيمي يقول عن التبسي: (والأسـتاذ التبسي عـالم عريـق النسـبة في الإصـلاح، بعيـد الغـور في التفكـير، سـديد النظـر في الحكم على الأشياء، عزوف الهمّة عن المظاهر والسفاسف)[3]

وهكـذا، فكلهم يشـهد لنفسـه ولأخيـه بالاقتـدار العلمي، ولكنـا

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 137)

[2] جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الخامسـة، عـدد 204، 20/ 10/1952م الموافق 01/صفر/1372هـ، ص2 .

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (2/ 272)

عندما نبحث عن دلائل ذلك الاقتدار لا نجـد إلا مقـالات فيهـا بلاغـة وبيان عريـق، ولكن لا نجـد أبـدا أي تحقيـق علمي، أو إنتـاج علمي يرقى إلى المراتب التي يمكن اعتبارها علميا.

وسـر ذلـك بسـيط، وقـد اسـتفدته من أسـتاذي الـدكتور أحمـد عيساوي، فهو يذكر كل حين حقيقة مهمة، وهي أنه يســتحيل على من يتبــنى المنهج الســلفي، وخاصــة الوهــابي أن يتعلم أو يصــير عالما، وذلك لأنه يسد أذنه عن الآخر، ومن سـد أذنـه يسـتحيل أن يتعلم.

بالإضافة إلى هذا فـإن المنهج السـلفي يقصـر دارسـته على مـا قاله شاعرهم[1]:

العلم قـال اللــه قـال رسـولُه قـــال الصـــحابةُ ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرســــول وبين رأى فقيه

كلا ولا جحْـــد الصــفات ونفيها حــذرا من التمثيــل والتشــبيه

وهو لـذلك لا يـدرس الفلسـفة، ولا العلـوم التجريبيـة ولا أشـياء كثيرة، ولهذا، فإنا لو قارنا إنتاج جمعية العلماء العلمي مـع شـخص واحد من الطرق الصوفية المتهم بالأمية لوجدنا فارقا كبيرا.

نعم نجد في كتب ابن عليوة ركاكة لغوية أحيانا، ولكنا نجد معهـا منهجــا علميــا، وللأســف حجبت الجمعيــة بالركاكــة اللغويــة عن المعاني العلمية, حتى أن الشيخ العربي التبسي يقــول عن كتابتــه وكتابة غيره من أصحاب الطريقــة العلاويــة: (ولا يفوتــني أن أذكــر إلى كتاب العليويين طالبـا منهم أن يعرضـوا كتابـاتهم على علمـاء المعاجم اللغوية والصناعة النحوية، فإنه أصاب اللغة العربيــة منهم ما لو علمــه ســيبويه في قــبره والأصــمعي في مضــجعه لقامـا من تحت التراب ورفعا قضية في إحدى محــاكم الجنايـات على هـؤلاء الكتاب الذين أفسـدوا لغة العرب والإسلام)[2]

---

[1] محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبـو عبـد اللـه (ابن قيم الجوزية)، الفوائـد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ، 1393 – 1973، ص 105.

[2] العربي بن بلقاسم التبسي، لقد سمعنا باطـلك فأين حقـك؟ جريــدة الشـهاب، السـنة الثالثة، عــدد 121، الخميس 01/12/1927م الموافق 06/ جمـادى الآخــرة/ 1346هــ، ص 13 ،نقلا عن: منـارات من شـهاب البصـائر (آثـار الشـيخ العـربي بن

والـذي رد عليـه الشـيخ ابن عليـوة بقولـه – متحـدثا عن منهج الصوفية-: (.. بل لهم ذلك لكونهم لا يقفـون عنـد ظـاهر الألفـاظ، وإنّما ينظرون إلى المعاني الدالّـة على المـراد، ولا يلتفتـون للحن ولا للإعراب، بل يأخذون المعاني من حيث وجدوها، فهم نــاظرون لإشارة الأرواح، غافلون عما يتلفظ به اللسان، تراهم مع اللــه في كلّ حال وشأن، مع انّه كلّ يوم هـو في شـأن، مـا اتخـذ اللـه وليّـا جاهلا إلاّ علّمه، وابتداء التعليم بـه ثمّ بأحكامـه، وأمّـا بقيّـة العلـوم فليسـت شـرطا في صـحّة الولايـة وإنّمـا هي شـرط كمـال وذلـك كالنحو والصرف، والمعاني والبيان، وعلم اللغة، حيث من لم تغنـه معرفة الله، فذلك هو الشقي)[1]

وينقل عن الفقيـه (ميمـون) قولـه: (أقبح كـلّ قـبيح أن يتعلّم الإنسان نحو اللسان ويعلّمه، ولا يتعلّم نحو القلب ويعلّمه، مـع أنّـه محـلّ نظـر الـربّ، فـإذا كـان نحـو اللسـان مـع نحـو الجنـان كـان صـاحبهما في أمـان، ولا يخشـى عليـه الخسـارة والخـذلان، يـوم وقوفه بين يدي الرحمن، لأنّ الله تبارك وتعالى لا يثيب العباد على إعرابهم، وإنّما يثيبهم على قلوبهم) [2]

4 ــ عدم المناقشة العلمية الهادفة:

لاشك أن من أول شروط المناقشة العلمية الهادفـة مـا يسـميه العلماء (تحرير النزاع)، أو البحث في مواطن الخلاف، وعدم قصر الاهتمام بالنواحي الشكلية أو التعبيرية التي قد تكـون صـدرت من الطرف الآخر، وعـدم الاهتمـام – كـذلك - ببعض الأخطـاء الجزئيـة التي لا تمس صميم الموضوع.

وعكسها أنواع كثـيرة من المناقشـات تضـيع جهـدها في قضـايا شكلية أو فرعية تصرف الذهن عن البحث عن القضـايا الأساسـية

بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص171.

[1]) ابن عليوة، المنح القدوسـية في شـرح المرشـد المعين على الطريقـة الصـوفية، ص24.

[2]) ابن عليوة، المنح القدوسـية في شـرح المرشـد المعين على الطريقـة الصـوفية، ص20.

التي طرح البحث فيها.

وبناء على هذا، وعند دراسة التراث العلمي القليل الموجه للطرق الصوفية، الذي نشرته الجمعية نجد أن الكثير منه يضيع في مناقشات لا علاقة لها بالموضوع، أو لا تخدم الموضوع.

وكمثال على ذلك مقال علمي كتبه الشيخ العربي التبسي تحت عنوان (قد سمعنا باطلك فأين حقك؟)[1]، وهو مقال قوي جدا من جهة اللغة، بل يصلح أن يكون نموذجا لدروس الإنشاء في المرحلة الإعدادية أو الثانوية، ولكنه لا يصلح أن يكون نموذجا لمقال علمي هادف.

وقد بدأ الشيخ مقاله باستهلال يذكر فيه ما كتبه المخالف، فقال: (طلع علينا كاتب في جريدة (البلاغ) عدد (44)[2] يضرب أصدريه، وينفخ مذرويه، يقول: ها أنا ذا فاعرفوني، واستمعوا لما جئت به. فأصخنا نستمع له، فإذا به محموم يهذي، أو ممسوس يتخبط. ولقد كان في مستودع المعقول والمنقول أن لا نعبأ به، ولا نقيم له وزنا، لأنه أهون على الله وعلى عباده مادام يهرف بما لا يعرف، ولكننا أصبحنا في زمان ينعق فيه الناعق بما شاء، فسيجد أنصارا ولا بد. وفي قطر يعد كل لاغط فيه صاحب حكمة تقرع له العصى. فوجب علي حفظا لعقول الجماهير من الترامي في متاهات الغلط أن نصدع إلى الرأي العام، وهو الرشيد في حكمه بما يفهم حقيقة هذه المهزلة، التي سودتها يد العارف بالله

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الشهاب : جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 121، الخميس 01/12/1927م الموافق 06/ جمادى الآخرة/1346هـ، ص 10 و11 و12 و13.

[2] جريدة البلاغ الصادرة عن الزاوية العليوية بمستغانم : جريدة البلاغ، عدد 44، 19/جمادى أولى/1346هـ الموافق 16/11/1927م.

- كما يسمون أنفسهم - (قـدور بن أحمـد المجـاجي)[1]، كفى اللـه المؤمنين شره)[2]

وأنا أتحدى من قـرأ كـل هـذه التعبـيرات القويـة، وهـذه البلاغـة الجزلة أن يعرف ما الذي حصل، لأنه لا يسـمع إلا صـراخا لا يـدري سببه ولا غايته.

وهـذا مخـالف للمنهج العلمي، فـالمنهج العلمي في مثـل هـذه الأحوال لا ينظر إلا حـزازات النفـوس، ولا مـا يضـيع وقت القـارئ بقراءة ما تفرزه الأحقاد، وإنما يقرأ الحقائق مجردة، وبلغة مؤدبة.

كان يكفيه بدل كل تلـك الجمـل الطويلـة أن يقتصـر على هـذه الجملة: (كتب قدور بن أحمـد المجـاجي في جريـدة البلاغ عـدد (44) يقول:..)

وإذا إن أراد أن يســتعمل اللغـــة الدبلوماســـية الـــتي كـــانت تستعملها الجمعية مع فرنسـا أن يقـول: (كتب المحـترم قـدور بن أحمـد المجـاجي في جريـدة البلاغ عـدد (44) بعض الأمـور الـتي تستدعي المناقشة، وهي: ..)

لكن الشـيخ العـربي لم يـرض تينـك العبـارتين العلميـتين الـتي اقترحناهما، بل كتب ما يزيد طينة الخلاف بلة، ولم يكفه ذلك، بـل

---

[1] قدور بن أحمد المجاجي : (1894-1951م): ولد في قرية مجاجـة بـالقرب من مدينة مستغانم، وتلقى تعليما طرقيا أولا في زاويا القادرية بمدينة معسكر، ثم تحول منها إلى زاوية سيدي أحمـد بن عليـوة المسـتغانمي بمسـتغانم، وصـارمن بين أهم شيوخها، ومن أشهر كتاب جريدة البلاغ العليوي. كتب العديد من المقـالات الطرقيـة التي يرد فيهـا على شـيوخ الجمعيـة، وعلى رأسـهم الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس والعـربي التبسي ومبـارك الميلي.. واتسـم سـلوكه الطـرقي الاسـتغلالي في خدمـة الزاويـة وشـيخه أحمـد بن عليـوة المسـتغانمي، والانتفـاع من كتاباتـه الصـحفية من جريدة البلاغ الجزائري. انظر : منشورات المكتبة الدينية للطريقة الصـوفية العلاويـة بمستغانم، ص 5، بتصرف، نقلا عن نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثار الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي،، ص 168.

[2] العربي التبسي، قد سمعنا باطـلك فأين حقك؟، جريـدة الشهاب، السـنة الثالثة، عــدد 121، الخميس 01/12/1927م الموافـق 06/ جمـادى الآخـرة/1346هــ، ص 10، نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثـار الشـيخ العـربي بن بلقاسـم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي،، ص267.

أضاف إليها يقول واصفا هذا المجاجي الذي أثـار غضـبه[1]: (.. غلت مراجله، لأني - كما يعلم القراء - من أمد كتبت في مجلة الشهاب فاتحة مقالات حـالت دون نشـرها ظـروف تحت عنـوان (الخلـوة العليويـــة هـــل هي من الإســـلام ؟)، وكنت أظن أن في الرهـــط العليـوي بقيـة من حكمـة، وفضـلا من تـدبير. فـإذا رأوا في كلامي جـورا عن الحــق، أو اعوجاجـا عن الهـدى قومـوني بعلم وصـدق وأدب، لأن هذه السنة سنة من يرغب حقا، وهـذه الطريقـة أدخـل في باب النصيحة والوصـول إلى المفاهمـة. ولكن اللـه تعـالى أبى أن تكون هذه الطائفة العليوية أهلا لمثل هذا فما عدوا قــدرهم ولا تجاوزوا الفهم)[2]

وهكذا يمضي المقال لا يذكر أدلة المخالف ليقبلهـا أو ليرفضـها أو ليبين محلها من العلم، وإنما يضيع كـل الجهـد في الحـديث عن شخص المخالف أو عن الطائفة التي ينتمي إليها.

ولا نعلم من خلال المقـال الطويـل إلا شـيئا واحـدا هـو أن هـذا المجاجي كتب مقالا يرد على الشيخ العــربي عارضــه بــه، وعنونــه (الخلـوة في الإسـلام)، وقد عــبر عن هــذه الفائـدة وسـط كم من

---

[1] يبدو الشيخ العربي التبسي من خلال ما كتب سريع الغضب، وقد ذكرنا ما حصـــل بينه وبين مالك بن نبي بسبب هذا، ونضيف إليه هنا ما ذكره الدكتور أحمـد عيسـاوي من أنه زار شيوخ جمعية العلماء مدينة وادي سـوف سـنة 1937م بمناسـبة تدشـين مسجد ومدرسة البلدة، وكان الوفد مكونا من الشيوخ عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي والعربي التبسي، وابتدأ الحفل بآيات بينات من القرآن الكريم، ثم بالكلمات الترحيبية، ثم بكلمة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ثم بكلمة الشيخ البشـير الإبراهيمي، ولما حان وقت كلمة الشيخ العربي التبسي قـام الجمهـور الحاضـر وهمّ بالانصراف، فـانزعج الشـيخ العـربي، ثم خـاطبهم بحـدة، : (أنـا أعلم يـا أهـل وادي سوف أنكم تسمعون لكلام تجاركم عني شيئا من الأباطيل، ولكنـني أقـول لكم : أنـا أشرف منكم نسبا ومن عبد الحميد هذا - وأشار إلى الشيخ عبد الحميـد بن بـاديبس في المنصة -، فعلاقة والدي بالاستعمار كلها علاقة قتل وقمع وتعـذيب، ولكن علاقـة والده كما تعرفون تعاون واتفاق) (انظـر: منـارات من شـهاب البصـائر (آثـار الشـيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص495)

[2] نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثـار الشـيخ العـربي بن بلقاسـم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص168.

الألفاظ كان يمكنه أن يستغني عنها، فقد قال:(كتبنا حقا وذدنا عن الدين، ودافعنا عن حياض الصوفية رضي الله عنهم، فكتب حضرة العارف بالله كما يقولون بجهل لم ير الناس مثله، وقال بهتانا آثما صاحبه، ودافع عن شهوات إبليس، كتبنا كما علمت بالعنوان المار أعلاه مقالا، فجاء العارف المجاجي بعنوان (الخلوة في الإسلام)، وكأن هذا المخلوق الشاذ لم ير كلام الناس على اختلاف لغاتهم ونحلهم أن الكلام المقيد غير المطلق وإن نفى المقيد الخاص لا يلزمه نفي المطلق لا لغة ولا عرفا، فإذا نفينا العقل والعلم عن المجاجي، كما هو الواقع، لا يلزم منه نفي العقل والعلم المطلقين، وإلا لنبذت صحيفة البلاغ الجزائري عند العموم. وهذا ما يعرفه الأسود والأحمر قبل ظهور كتاب العليويين..)[1]

إلى آخر مثل هذا الكلام الذي لا مبرر له، وكان يمكنه أن يتجاوزه جميعا ليدخل في الموضوع مباشرة، ويفترض أن قصد محدثه طيب، ثم يناقشه في مقالاته بكل هدوء.

ولكن العربي التبسي لم يكن يمارس وظيفة الحوار العلمي لترشيد المخالف، وإنما كان يستعمل أسلوب المحارب الذي لا يرضيه إلا أن يجهز على خصمه.

ولهذا نجد مثل هذه التعبيرات في هذا المقال الذي اعتبرناه نموذجا على عدم المناقشة العلمية الهادفة: (يا حضرة العارف العليوي ؟ إذا كنت كذوبا فكن ذكورا. أما دريت أن هذا البهت يفضحك. وينزع الثقة بك، وبمن تدافع عنه، إن رضي منك هذا الدفاع عنهم، وعلى ما نعيناه عليهم. أليس هذا الصنيع يجعلك ممقوتا عند العليويين أنفسهم ؟ لو فهموا حقيقتك فإنهم إذا قرأوا كتابك علموا أنك غاش لهم، لم تدفع عنهم تهمة، بل سخرت منهم وخادعتهم) [2]

ومثلها قوله: (.. إما أن تجيب بالمنع عما كتبنا وأنت صادق غير غاش، وتذكر إلينا أن عارفكم الذي قص علي ما كتبت في ملاء من الناس كاذب في خبره، وليس لك بذلك يدان. لأن أخباركم قد سارت بها الركبان في كل مكان، وإنكارها رجوع عن مبادىء

[1] المصدر السابق، ص169.

[2] المصدر السابق، ص170.

طريقتكم) [1]

ومثلها قوله: (ألا ليعلم المجاجي أنه عـّد نفسه ريحا فقد لاقى إعصارا. أما جوابنا على شتائمك وما تتوعدني بـه من إظهـار الأسباب التي لا تود أن تجرح عواطفي بهـا، فبعـد أن أذن لـك في نشرها، وإن تأخرت فأنت الكذاب على وجه الأرض) [2]

وهكذا لـو حللنـا المقـال الطويـل لا نجـد منـه أكـثر من صـفحة واحدة يمكن اعتبارها صفحة علمية بعد تهذيبها من السباب الكثـير الذي يحيط بها.

والحسرة التي يشعر بها أي منصف بعد قراءة هذا المقال ليس على الشيخ العربي وما كتبه، ولا على المجـاجي ومـا صـب عليـه، وإنما الأسف على ذلـك القـارئ الجزائـري الـذي لم يكفـه أن يملأ صدره بالحقد على المستعمر ليضيف إليه الحقد على المجاجي.

5 ــ الرجوع في المناقشات إلى العامة بدل العلماء

من خصـــــائص المنهج العلمي الرجـــــوع في التحقيـــــق إلى المعتمدين لدى الجهة التي يراد الحـديث عنهـا، أو مـا يسـمى في العرف الحديث (الناطق الرسمي)

وإلا فإننا يمكننا إن أردنا أن نصف أي جماعة أو توجـه أو طائفـة بأي وصف أن نختار أي عينة نشاء، ثم نطبـق من خلال مـا تتصـف به على الجماعة جميعا، وبذلك لن يمثل الحقيقة أحد.

وهذا للأسف ما تقوم به مراكز الشر في العالم عنـدما تريـد أن تصـور الإسـلام بصـورة الإرهـابي، فلـذلك تختـار أسـامة بن لادن والظواهري والمدخلي ونحوها كنماذج تعبر عن الإسلام.

وقد أشار الشيخ ابن عليوة إلى أن الجمعية تمـارس هـذا النـوع من الأساليب مع طريقته أو مع الطرق الصوفية عموما، فقال: (.. ولكنّك ظننت أنّ التصوّف عبارة عن جماعة من النـاس يجتمعـون للـرقص، وإنشـاد الأشـعار لا غـير، ومثلـك كمن قصـد راعي الغنم بالليل يطلبه أن يتصدّق عليه بماشـية، فـأذن لـه في ذلـك فـذهب ليأخذ ماشـية، فـوقعت يـده بالليـل على كلب الحراسـة الـذي هـو عادة يكون مختلطا بالمواشي، فلمّا أصبح الصـباح وجـد بيـده كلبـا فأخذ يتهم راعي المواشي، ويلقبّه براعي الكلاب، وهذا ما يقتضيه

---

[1] المصدر السابق، ص170.

[2] المصدر السابق، ص171.

لسان ما جمعتموه لأنّكم أقصرتم التصـوّف على الـرقص ومـا في معناه) [1]

طبعـا ليس من المنهج العلمي أن نعتمـد مـا ذكـره الشـيخ ابن عليوة، فقد يكون مخطئا أو متوهمـا، ولهـذا سـنرجع إلى مـا كتبـه علماء الجمعية، ونرجع خصوصا إلى ما كتبه الشيخ ابن بـاديس من فتواه الخطيرة حول التيجانية، والتي اعتـبرهم فيهـا كفـارا بسـبب مقالاتهم حول صلاة الفاتح[2] مع أنـه كـان في إمكانـه أن يعـود إلى علماء التيجانية، وقد كـانوا كثـيرين في ذلـك الـوقت ليوضـحوا لـه المـراد، ويـبينوا لـه أن مـا يحكى من ذلـك لا صـحة لـه، وبالتـالي يتراجع عن قراره الخطير بتكفير عشـرات بـل مئـات الملايين من المسـلمين، لأن فتـواه لا ترتبـط بـزمن دون زمن، فلا زال أتبـاع السلفية الوهابية ينشرون رسالته تلك في جميع المحـال، ليكفـروا بذلك التيجانية، ثم يهدروا بعدها دماءهم.

ولـو أنـه رجـع في هـذا إلى كثـير من علمـاء التيجانيـة لوجـدهم يردون هذه الشبهة، ويصرحون بأنها لا تمت إلى الواقع بصـلة، بـل لو أنه رجع إلى شيخ الطريقة العلاوية في ذلك الحين، وهو الشـيخ محمد الحافظ المصري الذي زار الجزائر في ذلـك الـوقت لوجـده يتبرأ من تلك الشبهة.

وللأسـف فـإن هـذه الشـبهة لا تـزال تطـرح على الـرغم من المؤلفات الكثـيرة الـتي ألفهـا التيجـانيون في الـرد عليهـا، مـع أن المسـائل المرتبطـة بـالردة يكفي فيهـا مجـرد تصـريح الشـخص بتراجعه أو براءته أو عدم فهم المخالف له لتنفى عنه التهمة.

ولخطورة المسألة لتعلقها بإسلام مئات الملايين من المسلمين نعرض هنا ما ذكره الشيخ محمد الحافظ شـيخ الطريقـة التيجانيـة في ذلك الحين، فقد كتب خطابا نشـرته مجلـة الفتح الصـادرة في القاهرة العـدد 418 بتـاريخ : الخميس 16 رجب 1353، جـاء فيـه

---

[1] ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص65.

[2] صيغة صلاة الفاتح هي: (اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق الهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم)، وهي مشهورة متداولة، (انظر: حرازم ابن العربي براده المغـربي، جـواهر المعاني وبلوغ المعاني في فيض سـيدي أبي العبـاس التيجـاني، طبعـة مصـر، سـنه 1901، ص94)

بعد الحمد والصلاة والسلام على رسول الله: (إني أعلن أننا لا نعتقد أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً مما أُمِرَ بتبليغه، ومستحيل أن يُؤمَر بتبليغ ورد أو صلاة الفاتح أو غيرها أو بيانِ فضلها فيكتم شيئاً من ذلك، ومن أعتقد ذلك فهو كافر بالله ورسوله لا يُقبل منه صرف ولا عدل، ولا أدري كيف يعقل أن يكون قد كتم الورد وهو الاستغفار والصلاة عليه ﷺ بأي صيغة ولا إله إلا الله . وصلاة الفاتح موجودة قبل الشيخ (أي أبي العباس التيجاني) مشهورة فلا يصح بحالٍ كونُها ادّخِرَت له، ولم يثبت ذلك عنه)[1]

ورد على شبهة بقاء التشريع بعد رسول الله ﷺ التي يرميهم بها خصومهم، فقال: (ولا نعتقد أن هنالك بعد رسول الله ﷺ تشريعاً بأي وجه من الوجوه، وما جاء به ﷺ مستحيل أن ينسخ شيء منه أو يزاد شيء عليه، ومن زعم ذلك فهو كافر خارج على الإسلام) [2]

وبين المراد من التلقي المباشر من رسول الله ﷺ، فقال: (وإننا وإن قلنا بجواز أن يرى الوليُ رسولَ الله ﷺ في اليقظة إلا أننا نعتبر حكمها حكم رؤية النوم الصحيحة سواء بسواء، ولا يعوّل فيها إلا على ما وافق شرعه صلى الله عليه وسلم، وليست مشاهد الأولياء بحجة وإنما الحجة هي الشريعة المحمدية . أما تلك فمبشرات مقيدة بشرعه الشريف : ما قبِله منها قبلناه وما لم يقبله فمذهبنا فيه حسن الظن فنحكم عليها حكم الرؤيا المؤولة، ولا نشك أن معظم الرؤيا يحتاج إلى التأويل . وإنما رجحنا حسن الظن لأن المؤمن الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وهو شحيح بدينه حريص على متابعته نستبعد عليه أن يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ ـ واليقظة في ذلك كالنوم ـ وهو يقرأ قوله عليه الصلاة والسلام : (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[3]، ولا نخص واحداً من الصالحين بذلك بل هو عندنا عام في كل ما ينقل عنهم، وكم نقِلَ عن الشيوخ من الموهمات والشطحات سواء في ذلك طريقة مولانا الشيخ عبد القادر وغيرها . وقد اعتذر لهم العلماء وردوا

---

[1] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، د.ط.د.ت، ص3.

[2] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص3.

[3] صحيح البخاري (1/ 38)، صحيح مسلم (1/ 8)

الوجهَ المخالف . ولا تخلـو كتب أي طريقـة من موهمـاتٍ وشـطحٍ كلها مؤول)[1]

وبين حقيقة ما تريده التيجانيـة من تـأثير العلاقـة بين المريـدين والمشايخ، فقـال: (ولا نعتقـد أن مجـرد رؤيـة أحـد من الصـالحين كافية في نجاة المرء وإنمـا ينجيـه الإيمـان والعمـل الصـالح {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَـانِ إِلَّا مَـا سَـعَى} [النجم: 39]، ونـرى أن الاجتمـاع بالصالحين مـع صـدق المحبـة يجـر إلى الصـلاح غالبـاً ولـذلك حث الشرع علي صحبتهم وبيّن أنها من أسـباب التوبـة، وحـديث الـذي قتـل تسـعاً وتسـعين نفسـاً ثم طلب التوبـة فدلـه حـبرٌ على بعض الصالحين ليصحبهم فأدركه الموت قبل أن يصل إليهم فرحمه الله وقبِله، ثابتٌ في الصحيح . وحديث الجليس الصالح كذلك) [2]

وبين أن صلاة الفاتح التي قامت عليها كـل تلـك الضـجة، مجـرد أوهام عارية من الصحة، فقال معبرا عن عقائد التيجانية في هـذا: (ونعتقـد أن من أعظم الكفـر أن يعتقـد أحـد أن صـلاة الفـاتح أو غيرهـا من الصـلوات عليـه ﷺ تعـادل في الفضـل أيـة آيـة من القرءان، فكيف تفضلها ؟! فكيف بسورة ؟! فكيف بـه كلـه ؟! ولا نعتقـد أنهـا من القـرءان كمـا زعم من زعم، ولا من الحـديث القدسي ولا من أي قسـم من وحي النبـوة، فـإن ذلـك قـد انقطـع بلحوقه ﷺ بالرفيق الأعلى . والمذكور عندنا أنها من الإلهام الثابت للأولياء، ولا نعتقد أنهـا تسـاوي الكلمـة الشـريفة (لا إلـه إلا اللـه)، وحاشا الشيخ أن يقول بنسخ الذكر بالأسـماء فـذلك باطـل، فنحن ولله الحمد نـذكر اللـه عـز وجـل بأسـمائه ونحافـظ على التسـبيح والتحميد وقيام الليل وسائر النوافل والأذكار الواردة في الشـريعة ونحث عليها) [3]

وبين التصـور التيجـاني للـورد، وعـدم تعارضـه مـع الإلـتزام الشرعي، فقال: (ولا نعتقد أن مجرد أخذ الورد يُـدخلُ أحـداً الجنـة بحسـابٍ أو بغـير حسـابٍ فـإن شـرطَه المحافظـة على الأوامـر الشرعية كلها علماً وعملاً . وما هـو الـورد : اسـتغفار وصـلاة على النبي ﷺ ولا إله إلا اللـه بعـد القيـام بالواجبـات الـتي أوجبهـا اللـه

---

[1] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص4.

[2] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص4.

[3] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص5.

تبارك وتعالى) [1]

ورد على الشبهة التي ترفع الشيخ التيجاني أو أتباعه إلى مقامات عالية فوق جميع الصالحين، فقال: (.. ولا أن الشيخ التيجاني ولا أحداً من غير أصحاب رسول الله ﷺ يبلغ مرتبة أصحابه ﷺ . فكيف بالأنبياء عليهم السلام فكيف بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم، والولي مهما سمت رتبته مستحيل أن يبلغ في العلوم الإلهية مبلغَ أي نبي، ومن زعم ذلك فهو ضال مضل . ونعتقد أن من الضلال أن يأمن العبد مكر الله تبارك وتعالى مهما توالت عليه المبشرات، ومن اتكل على عمله أو نسبته إلى أي شخص وترك العمل فذلك ءاية الخسران المبين والعياذ بالله تعالى) [2]

ورد على الشبهة المرتبطة باعتقاد تصرف الأولياء، فقال: (ونعتقد أن من أشنع الشرك أن يعتقد أحد أن لأي أحدٍ كان مع الله تصرفاً، أو من دونه سبحانه وتعالى . وإنما نقول أن العبد قد يصل إلى مكانة من المحبوبية لدى ربه عز وجل بحيث يتصرف الحقُ فيه فيربط على قلبه فلا يسأله إلا ما سبقت به إرادته الأزلية سبحانه، وهذا الذي نفهمه في قوله ﷺ : (إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرّه)[3] وفي الحديث القدسي (وإن سألني لأعطينه) [4] وهذا غالباً، وإلا فقد يسأل ربَه عز وجل ولا يعطيه لأن ما شاء الله كان لا ما شاء غيره) [5]

ورد على تهمة الحلول والاتحاد التي يرمي بها السلفيون ومن

---

[1] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص5.

[2] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص6.

[3] صحيح البخاري (3/ 243)، وصحيح مسلم (5/ 105)

[4] نص الحديث كما في البخاري: (إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) (صحيح البخاري (8/ 131)

[5] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص6.

بينهم جميعة العلماء الطرق الصوفية، فقال: (وإن من اعتقد في الله عز وجل حلولاً أو اتحاداً أو اعتقد أن مخلوقاً هو ذات الله أو فيه صفة من صفاته أو شبهه بخلقه أو شبّه خلقه به أو أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة أو أوّله إلى صورة تخالفه كمن يقول بتناسخ الأرواح ويزعم أنه البعث، أو اتبع رأياً من ءاراء المبتدعة فهو ضال مضل) [1]

ثم ذكر خلاصة عقيدة التيجانية، والتي تنسجم مع سائر عقائد المسلمين، فقال: (وخلاصة عقيدتنا في الأصول ما عليه السلف الصالح والخلف من أهل السنة والجماعة من الفقهاء والمحدثين والصوفية وما عليه الأئمة الأربعة مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وأصحابهم في الفروع . ونسلم للسادة الصوفية قاطبة مع وزن أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم بالشريعة، فما وافقها أقررناه وما كان يحتمل الموافقة والمخالفة حسّنّا للظن فيهم وحملنا حالهم على الوجه الموافق ووكلنا أمرهم إلى الله العليم بما في القلوب، وقد نُقلت عنهم شطحات لا يتابَعون عليها ولا يُقتدى بهم فيها . وما لا يحتمل رددناه فإنه لا نبوة بعد رسول الله ﷺ ولا تشريع)[2]

وهكذا يستمر الشيخ الذي هو مرجع التيجانية الأكبر في بيان عقائد التيجانية، وأنها لا تختلف عن سائر عقائد المسلمين، وكان في إمكان الشيخ ابن باديس وغيره من أعضاء الجمعية، ومن بعدهم من المكفرة أن يقرؤوا مثل هذه النصوص الصادرة من الناطقين الرسميين باسم الطريقة، ويتراجعوا عن تلك الأحكام الخطيرة التي أصدروها، ولكن ذلك للأسف لم يحصل، لسبب بسيط وهو الافتقار إلى المنهج العلمي، وإلى بعض الأمراض النفسية التي تجعل من الشخص لا يحب أن يدخل الجنة إلا وحده أو مع طائفته.

ولو أنهم رجعوا إلى مصادر التيجانية لعلموا أن الشيخ التيجاني يخبر أنه سيكذب عليه كما كذب على غيره، وأنه في هذه الحالة ينبغي العودة إلى المصادر الشرعية، فقد روي أنه سئل: هل يُكذَب عليك؟ قال : نعم، إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع فما وافق فاعملوا به وما خالف فاتركوه)

[1] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص7.

[2] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص7.

وبنـاء على هـذا يخـير الشـيخ محمـد الحافظ، وهـو مرجـع من مراجع التيجانية الكبار في عهد الجمعية وبعـدها أنـه (مـا من فـرد في هذه الطريقة كبيراً كان أو صغيراً إلا وهو يعلن براءته من تلـك الأباطيل . وقد تلقينا عن مشايخ هـذه الطريـق ــ وهـو المنصـوص عليه عن صاحبها نفسه ـ أن كل ما ينسب إلى الشيخ بفرض صحة نسبته إليه سواء وُجد في كتبه أو لم يوجـد وكـان ظـاهره مخالفـاً لنص الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة المحمدية فهو مؤول ويحــرم الأخذ بظاهره، ويجب حمله على وجه يلتئم مع الشريعة . وقد قام علماء الطريق ببيان تأويله الموافـق للشـريعة حـتى لا يضـل أحـد بحمله على الوجه المخـالف . ومـا لم تصـح نسـبته إليـه فلا يعـول على شيء منه بحال . وقـد بلغنـا أن بعض خلفـاء الطريـق أحـرق بعض مـا ينسـب للشـيخ من الفضـائل المختلفـة الـتي تتنـافى مـع السنة المحمدية وأمر بإحراقهـا حيثمـا وجـدت . وهـل من منصـف يستطيع أن يبين لنا معنى لتتبع تلك الموهمـات ــ حـتى كأنـه ليس في الطريــق غيرهــا مــع أنــه لا خلاف بين أهــل الطريــق في أنهــا مؤولة ـ وترك الصريح البيّن من الدعوة إلى الله عز وجل والعمـل بالكتاب والسنة والتمسـك الشـديد بهمـا وهـو الـذي عليـه العمـل وحـده عنـد كـل فـرد من أهـل الطريقـة ؟ وحيث أن تلـك العقائـد المخالفة بحذافيرها لا خلاف بيننا في بطلانهـا ونحن متفقــون على البراءة من كل من يعتقدها كلها أو بعضـها، فلم تبــق إلا الخلافـات الشخصية وليست خلافاً جوهرياً .. فإن كان هذا النكـير غـيرةً على الدين حقيقة فلا يوجد أحد ــ فيمـا نعلم ــ يعتقـد تلـك العقائـد من التيجـانيين فهـو جهـاد في غـير عـدو . ومن نسـب إلى الطريقـة التيجانية أي عقيدة من تلك العقائد أو غيرهـا ممـا ينـافي العقيـدة الإسلامية فهو كاذب . وصح عنه ﷺ : (ما أكفـر رجـلٌ رجلاً إلا بـاء أحدهما بها إن كان كافراً وإلا يكفر بتكفيره)[1] [2]

المطلب الثاني: المواجهة الأدبية

نريد بالمواجهـة الأدبيـة مـا كـانت تقـوم بـه جمعيـة العلمـاء من اسـتعمالها للأشـكال والأسـاليب الأدبيــة المختلفــة في الــرد على الطرق الصـوفية، وتشـويه صـورتها في عين الجمهـور الـذي يثـق

[1] نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، مـوارد الظمـآن إلى زوائـد ابن حبان، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، (ص: 44)

[2] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص7.

فيها، بغية صده عن تلك الثقة.
ويظهر – من خلال دراسة تـراث الجمعيـة المكتـوب – أن هـذا الأسلوب من المواجهة كان أهم الأساليب وأكثرها استعمالا، ولعل ذلك يرجع إلى ما يلي:

1 ـــ أن الجمعيـة عاصـرت في ذلـك الـوقت أدبـاء كبـار كطـه حسين والرافعي والزيات وغيرهم، وقد كانت تحصـل بينهم أحيانـا سجالات في ميادين مختلفة، وكانت أداتهم في مواجهاتهم هي مـا عرفه العرب من أساليب في هذا المجال.

2 ــ أن هذه الأداة كانت كأنهـا من الأسـلحة الـتي لا توجـد عنـد خصـمهم، فلم يكن في الطـرق الصـوفية من الأدبـاء من لـه قـوة لسانهم وحدته، بل كان الكثير منهم – على ما يظهر – ضــعيفا في النواحي اللغوية، وخاصة النحو.

3 ــ أن معظم علماء الجمعيـة أتيح لهم الدراسـة في تـونس أو مصر، وأتيح لبعضهم السياحة في كثـير من بلاد العـالم الإسـلامي، وقد رأوا في تلـك المحـال مـا للكلمـة القويـة من التـأثير، ولـذلك راحـوا يسـتعملون في مواجهـة من تصـوروا أنهم الخصـم الأكـبر للجزائر، وهم الطرق الصوفية.

هذه في تصورنا الأسباب الكـبرى في كـون الجمعيـة غـالت في اسـتعمال هـذا الأسـلوب دون غـيره، وقـد كنـا نحب أن نعتـبر من الأسباب ضعف باع الجمعية في بعض العلوم الشرعية، وخاصة مـا تعلق منها بأصول الفقه، والمقاصد، والتصـوف، والعلـوم العقليـة، ولكنا لم نؤثر أن نصـف الجمعيـة بهـذا الوصـف، وإن كـانت الأدلـة الكثيرة تدل عليه، وهو ليس بدعة في الجمعيـة، بـل لعلهـا تعتـبره منقبة تفخر بها، فهي صافية خالصة لم تتكـدر بعلـوم التصـوف ولا العلوم العقلية، ولا الكثير من الجـدل الأصـولي والمقاصـدي الـذي يتجنبه عادة أصحاب التوجه السلفي المحافظ.

بناء على هذا، نحب أن نتحدث هنا عن أهم الأشكال الأدبية التي استعملتها الجمعية في مواجهة الطـرق الصـوفية من البـاب الـذي يتعلــق بمقصــودنا، فلا نبحث فيمــا يتطلبــه النقــد الفــني والأدبي والمحض، وإنما نتحدث عن المعاني والأغـراض، ولا يهمنـا الشـكل الذي طرحت بـه لكـون البحث فيـه خـاص بالمختصـين في الأدب، وقد كتبت بعض الدراسات المرتبطة بالنواحي الأدبية عند الجمعية أو عند بعض أعضائها، ونظنها كافية في الوفاء بتلك الجوانب الـتي

نقصر في ذكرها هنا.

أولا ــ الخطابة:

تعتبر الخطابة من أهم ما كان يستعمله علماء الجمعية من أساليب في إيصال رسالتهم الإصلاحية.

والعلة في ذلك – كما يذكر الإبراهيمي- هو التأثير القوي للخطابة في التغيير والإصلاح، وقد قارن بينها وبين التمثيل معتبرا دور الخطيب كدور الممثل في إيصال الحقائق بأبسط أسلوب وأبلغ تأثير، فقال: (التمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان، وأخوان شقيقان. وأن منزلتهما من دواعي التهذيب والتربية الفاضلة لأرفع منزلة، وأن مكانتهما من بين مقوّمات الأخلاق لمنزلة الطعام والشراب من بين المقوّمات الجسدية. وما بنيت نهضة من النهضات الأخلاقية في الأمم الجديدة إلا وللتمثيل والخطابة في بنائها القسط الأوفر والحظ الأولى.. وليس موقف الممثل بينهم دون موقف الخطيب ولا موقع الرواية من نفوسهم دون موقع الخطبة. فإنما الخطيب والممثل شيء واحد- الممثل خطيب إذا أحسن تصوير المغزى وشخّص الحقائق الغائبة للمشاهدين كالحاضر المشاهد، وألبس الخيالات لباس الواقع المحسوس. والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقصّ الخبر وكيف يستخرج العبر، وكيف يسوق المؤثرات فيترك في نفوس سامعيه أعمق الأثر)[1]

وقد انتهجت الجمعية في تكوينها للنشء الإصلاحي على هذا الأساس، لذلك حاولت أن تنشئ فيهم القدرة على الكلام والخطابة، وقد صرح الإبراهيمي عند بيانه للإصلاح التعليمي الذي تريد الجمعية تحقيقه في مدارسها، فذكر من السبل لذلك سبيلان[2]:

الأول: مؤتمر سنوي تعقده الجمعية بقسنطينة يحضره كل القائمين بالتعليم من أعضائها العاملين، فتتبادل الآراء وتتلاقح الأفكار وتستفيض المباحث عن أصول التربية والتعليم وأقوم طرائقهما، وعن الأساليب والكتب التي تجمع بين العلم والعمل، وسيكون من نتائج هذا المؤتمر توحيد التعليم.

[1] الشهاب، الجزء الثالث، المجلد السادس، أبريل 1930. مقتطفة من خطاب مرتجل، نقلا عن الآثار: 1/67.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 145)

والثـاني: سـماه الإبـراهيمي (عكـاظ علمي سـنوي) تقيمـه الجمعية في مدينة الجزائر على أثر اجتماعهـا العـام، وتمتـد أيامـه إلى مـا فـوق الأسـبوع، ويلقي كـل أعضـائها العـاملين محاضـرات ليتمرّنوا على الخطابة في مواضيع الدعوة والإرشاد.

وبالإضافة إلى هذا نرى الجمعية في صحفها تصف الخطب التي يقدمها أعضاؤها، وتفاعل الجمهور معها، بأوصاف كثيرة تـدل على مبلغ قيمة هذا الجانب عنـدهم، وخاصـة أن الجـانب الآخـر ضـعيف فيه إلى الغاية التي تجعل علماء الجمعية يضحكون منهم.

وهذا ما نراه في الاتجاه السلفي الوهابي عموما، فهم يركـزون على الخطابة وتخريج الخطباء وذوي المقدرة على الكلام، ولـو لم يكن في كلامهم ما يسمن أو يغني من جوع.

ثانيا ــ الشعر:

من الأشكال الأدبية التي استعملتها الجمعية في مواجهة الطرق الصوفية (الشعر)، وقد برزت فيه إلى درجة كبـيرة، بحيث أنـه قـد تحول ما كتب من قصائد في هذا الجانب إلى زاد لا تزال تسـتعين به السلفية الحديثة في مواجهة التصوف والطرق الصوفية.

وسنحاول هنا باختصار أن نذكر بعض من كتب الشعر من علماء الجمعية فيما له علاقة بالطرق الصوفية، سواء اشتهر كشـاعر، أو لم يشتهر، ولهذا استبعدنا الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة مع كونه شاعر الجمعية الأكبر، لأنا بعد البحث فيما كتبـه لم نجـد منـه ما يسـتحق أن يضـم لأجلـه إلى من نـذكرهم، بالإضـافة إلى ذلـك، فقد كان للشيخ ميول صوفية، بل إن التيجانيـة تعتـبره من رجالهـا المخلصين:

1 ــ الزاهري:

اشتهر الزاهري كما عرفنا في كل المجالات الأدبيـة من القصـة والشعر ونحوها، وقد سخرها جميعا – في الفترة الأولى من حياتـه – لخدمة الجمعية، وخدمة أهدافها، وخدمة أهم هدف من أهـدافها، وهو مواجهة الطرق الصوفية.

ومن قصائده في هذا المجال، قصـيدة بعنـوان (تحيـة الإصـلاح) كتب يحذر من شيوخ الطـرق الصـوفية الـذين يرشـدون مريـديهم إلى الضلالة، فيقول[1]:

ويريـد آخـر للجزائـر أن تضل   في طـــرق وفي الرشـــد

[1] الزاهري: تحية الإصلاح. الشهاب. ع 161. س 1928، ص237.

أبـــــــــــــــــــواب

تلقي زمــام عقولهــا جهلا إلى	من كــان متكلا على الأنســاب
من كــل ذي نســب يسلســله إلى	جــــــــد لـــــــه متحنث أواب
أو كـل ذي دجـل يمت بـه إلى	شـــيخ لـــه متصـــوف كـــذاب
يـــا ويحنــــا من أمــــة لم تتبع	في الدين غـير مشـائخ وذئـاب
قســــموا عبــــاد اللـــه أغناما	لهم فالجــــــــــاهلون لهم من الأذنـــــــــــــــــــــاب
ملكـــــوا على البســـطاء من جهالنا	مـا كـان من مهج ومن أسـلاب

وهو ينتقل من الحـديث عن مشـايخ الصـوفية إلى الزوايـا الـتي ساهمت في نشـر العلم والتربيـة ليتهمهـا بأنهـا تحـولت إلى حانـة يتعاطى فيها الشيوخ ومريدوهم الخمر، ولسنا ندري المصدر الـذي اعتمد عليه في هذه المعلومة، وربما يكـون مـا ذكرنـاه سـابقا من تعبير شـعراء الصـوفية عن الحالـة الوجدانيـة الـتي يشـعرون بهـا، وبأنها كنشوة الخمرة، يقول في ذلك[1]:

يـــا رب زاويـــــة بهـــا لم يكن	في حانــة من خمــرة وشــراب
يســقي الشــيوخ الصــالحون ضـــــــــــــــــــيوفهم	بالكأس أو بالطـأس والأكـواب
فتجنــوا على الــدين الحــنيف وأفســـــــــــــــــــدوا	مــا فيــه من خلــق ومن آداب

وفي قصيدة أخرى لـه بعنـوان (إلى زعيم المصـلحين)، ويعـني ابن باديس، وقد عرج فيها إلى اتهام الطرق الصـوفية بتهم كثـيرة

[1] الزاهري: تحية الإصلاح. الشهاب. ع 161. س 1928، ص237.

كالخمول وحب الذات، ونحوها، ومما جاء فيها قوله[1]:

مارست أخلاق الشيوخ فلم أجد ... غير الخمول – وغير – حب الذات

ووجدت منهم من يعد أخا العبا ... دة وهو في لهو وفي لذات

طلبوا صلاح المسلمين ففرقوا الإ ... سلام في طرق لهم أشتات

ومن قصائده في هذا المجال قوله – وهو يرسم العلاقة التي تربط المريد بشيخه[2] -

كانوا طوائف شتى كل طائفة ... تطيع شيخا لها في كل ما زعما

إن قال إني ولي صدقوه وإن ... هو ادعى الغيب قالوا أحكم الحكما

وإن تعلم بعض الشيء تهجية ... قليلة هتفوا يا أعلم العلما

وإن هو ارتكب الفحشاء فاضحة ... فلا محالة معذور وقد أثما

أو احتسى الخمر قالوا إنها عسل ... ولا غرابة في هذا ولا جرما

أو ادعى أن خير الخلق يخدمه ... فما اعتدى عندهم ولا ظلما

(أو لم يصل رأوه حسبما زعموا ... يقيمها إذ يزور البيت والحرما

---

1) الزاهري: إلى (زيارة سيدي عابد) الصراط. ص 4.

2) الزاهري، التحية الصادقة. الشهاب. مج10، ج9، 12 أوت 1933. ص 454.

وفي قصدة أخرى يوبخ المجتمع الجزائري الذي وكل نفسه إلى هؤلاء الذين يعتبرهم غواة، فيقول[1]:

أمـــة تتبـــع الغـــوي وتعصي	كـــل هــاد إلى الرشــاد حكيم
إن دعاهــا الــدعاة إلى الخــير يوما	شــردت منهم شــروط الظليم
هي للمفســدين جنــات عــدن	وعلى المصــلحين نــار الجحيم
أمة لا تـرى لـذي الفضـل فض	لا، ولا تعتـــــــــني بعلم عليم
ومن يكن صــوفيا كــذوبا خبيثا	فـــاز منهم بكـــل خـــير عميم
وحبتـــه بغـــير حـــق من التك	ريم كـــل الإكبـــار والتكـــريم
أنت لـــو كنت صـــوفيا لتلقت	كـــل مـــا تفتريـــه بالتســـليم
وإن كنت مصــلحا فلــك الويل	ملومـــا وأنت غـــير ملـــوم

2 ــ الطيب العقبي:

وهو بالإضافة إلى قدراته الخطابية العالية التي تحدثنا عنها كـان شاعرا فحلا، وقد وجه شـعره لمواجهـة الطـرق الصـوفية، بـل إن قصائده في هذا المجال لا تزال تنشر على مستوى واسع، وخاصة في النوادي السلفية.

وقد شهد له بالقدرة الشعرية الشـيخ ابن بـاديس الـذي تحـدث عن هذا الجانب فيه بقوله: (يعرف الناس العقـبي واعظـا مرشـدا يلين القلوب القاسية، ويهـد البـدع والضـلالات العاتيـة بقـوة بيانـه وشدة عارضته، ولكن العقبي الشـاعر لا يعرفـه كثـير من النـاس، فلمــا تــرنحت الســفينة على الأمــواج وهب النســيم العليــل هب العقبي الشاعر من رقدته وأخذ يشنف أسماعنا بأشـعاره ويطربنـا بنغمته الحجازيـة مـرة والنجديـة أخـرى، ويرتجـل البيـتين والثلاثـة والأربعة في المناسبات، وهاج بالرجل شوقه إلى الحجاز فلو ملـك قيــادة البــاخرة لمــا ســار بهــا إلا إلى جــدة دون أن يعــرج على

[1]) الزاهري، ليتني ما قرأت حرفا. الشهاب. مج7، ج1، 1931. ص 927.

مارساي، وإن رجلا يحمل ذلك الشوق كله للحجاز ثم يكبته ويصب على بلاء الجزائر وويلاتها ومظالمها لرجل ضحى في سبيل الجزائر تضحية أي تضحية) [1]

ولعل أهم ما كتب من شعر في هذا المجال قصيدته الكبرى (إلى الدين الخالص) التي وصفها ووصف صاحبها الشيخ مبارك الميلي بقوله: (ولكن أتى الوادي فطم على القرى، إذ حمل العدد الثامن في نحره المشرق قصيدة (إلى الدين الخالص) للأخ في الله وداعية الإصلاح وخطيب المصلحين الشيخ الطيب العقبي ـ أمد الله في أنفاسه ـ فكانت تلك القصيدة أول المعول المؤثر في هيكل المقدسات الطرقية، ولا يعلم مبلغ ما تحمله هذه القصيدة من الجراءة ومبلغ ما حدث عنها من انفعال الطرقية، إلا من عرف العصر الذي نشرت فيه وحالته في الجمود والتقديس لكل خرافة في الوجود)[2]

وقد قدّمت (المنتقد) للقصيدة بهذه المقدمة الاستفزازية: (تحت هذا العنوان جاءتنا هذه المنظومة الإصلاحية للعلاّمة المرشد صاحب التوقيع، فحلّينا بها صدر هذا العدد تبصرة وذكرى لقوم يؤمنون ؛ و(المنتقد) يتحدّى بها كلّ ذي علم تحدّثه نفسه بمعارضتها إلى معارضتنا بصحيح الأدلّة من الكتاب والسنّة وكلام سلف الأمّة، ويتكفّل بنشرما يَرِدُ عليه من جميع المعارضين، ومن لم يفعل منهم وبقي يلغو في المجالس والحوانيت، فإنّه يكون من الجبناء الكاذبين المفسدين)[3]

ونحب أن ننبه هنا - قبل أن نذكر الجوانب التي تحدثت عنها القصيدة - إلى أن الطرق الصوفية واجهت التحدي، وعارضت القصيدة، ولكنها للأسف لم تنشر، بل لعله لم يبق لها وجود[4].

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 334)

[2] رسالة الشرك ومظاهرة، ص 283.

[3] المنتقد، العدد: 8، يوم الخميس 30 محرّم 1344هـ الموافق لِـ 20 أوت 1925م، ص3.

[4] والقصيدة كتبها رجل (من أهل وادي سوف) وعنوانها (إرشاد الضالّين إلى سبيل أهل الحقّ المبين) ضمنها (64 بيتًا) ومن أبياتها قوله:

يا رجال الدين يا أهل الرشاد =يا ذوي التحقيق أهل الاعتقاد

ياذوي التمكين يا أهل النهى =يا ذوي التصريف في كلّ البلاد

تبدأ القصيدة بأسف العقبي على حال الجزائر، ويركز بوجه خاص على ما يركز عليه الاتجاه السلفي الذي يختصر الدين في بعض المظاهر والسلوكات، بل إنه من خلال ذلك يحكم على الشعب الجزائري بخروجه من الملة، وهو المعتقد التكفيري الذي اعتبرناه من الثمرات الخبيثة التي جنتها الجمعية من تأثرها بالوهابية يقول في ذلك بعد الاستهلال السابق، وبلهجة تقريرية[1]:

ماتت السنة في هذي البلاد قبر العلم وساد الجهل ساد

وفشا داء اعتقاد باطل في سهول القطر طرا والنجاد

عبد الكل هواء شيخه حده ضل، فضل الإعتقاد

حكموا عاداتهم في دينهم دون شرع الله إذ عم الفساد

بل إنه يتبرأ منهم، ويحكم عليهم كما يحكم الوهابية عادة على خصومهم بكونهم من أهل النار لا يستثنون في ذلك مشيئة الله ولا إرادته، بل يجزمون بأحكامهم جزما، يقول في ذلك[2]:

لست منهم لا، ولامني همو ويلهم يا ويلهم يوم المعاد

يوم يأتي الخلق في الحشر وقد نشروا نشر فراش وجراد

بلغتنا في حماكم سَبَّةً =حالها زعزع ركن كلّ ناد

وقد بذلت جهدي في البحث عنها لكني لم أجدها، بل لم أجد الإشارة إليها إلا في موقع (راية الإصلاح) أو من نقل عنه، وهو على هذا الرابط: (http://www.rayatalislah.com/article.php?id=10).

[1] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، دت، دط، ص3.

[2] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص4.

يـــــــوم لا تنفعهم معـــــــذرة ولظى مـــأواهم بئس المهـــاد
يصـــهر الســـاكن في أطباقها كلمـا أحـرق منـه الجلـد عـاد
وكـــــل اللـــــه بمن حـــــل بها جمــــع أملاك غلاظ وشـــــداد
أكلهم فيهـــا ضـــريع، شـــربهم من حميم لبسـهم فيهـا سـواد
كلمـــــا فكــــرت في أمـــــرهم طال حـزني وتغشـاني الهسـاد

ثم يتحدث – كشأن التيار الوهابي – عن نفسه – جازمـا قاطعـا- بأنه ملتزم التزاما حقيقيا بالدين الصحيح الذي لا دين صحيح غيره، وبالتالي فهو - في مقابل ذلك الشعب الجزائـري المسـكين الـذي حكم عليـه بجهنم – من الفرقــة الناجيــة المحفوظــة المعصــومة، يقول في ذلك على عادة شعراء الفخر[1]:

أيهـــا الســـائل عن معتقـــدي يبغي مـني مـا يحـوي الفـؤاد
إنـــــني لســـــت ببـــــدعي ولا خـــارجي دأبـــه طـــول العنـــاد
يحـــــدث البدعـــــة في أقوامه فتعم الأرض نجــــدا ووهـــــاد
لســـت ممن يرتضـــي في دينه مـا يقـول النـاس زيـد أو زيـاد
ليس يرضى اللـه من ذي بدعة عملا إلا إذا تـــــــاب وهـــــــاد
بـــــل أنـــــا متبـــــع نهج الألى صــــدعوا بـــالحق في طـــرق الرشـــــــــــــــــــــــــــاد

[1] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص5.

حجـــتي القـــرآن فيمـــا قلته	ليس لي إلا على ذاك اســـتناد
وكــذا مــا ســنه خــير الــورى	عــدتي وهــو ســلاحي والعتــاد
وبـــذا أدعـــو إلى اللـــه ولي	أجر مشـكور على ذاك الجهـاد
منكم لا أســـــأل الأجـــــر ولا	أبتغي شـــكركم بلـــه الـــوداد
مذهبي شرع النبي المصـطفى	واعتقــادي ســلفي ذو ســداد
خطـــــتي علم وفكــــر ونظر	في شـــــؤون الكـــــون بحث واجتهـــــــــــــــــاد
وطريـــق الحـــق عنـــدي واحد	مشربي مشرب قرب لا ابتعاد

ثم يخـرج من الجملـة إلى التفصـيل ليتحـدث عن المعتقـدات الصوفية وآدابهم على حسب ما تتصورها الوهابية، فيقول[1]:

لا أرى الأشـــياخ في قبضـــتهم	كل شيء بل همو مثـل العبـاد
وعلى من يـــدعي غــير الــذي	قلتــه إثبــات دعــوى الإتحــاد
قــال قــوم: ســلم الأمــر لهم	تكن السـابق في يـوم الطـراد
تنـل المقصـود، تحظى بـالمنى	وترى خيلك في الخيل الجيـاد"
قلت:" إني مســـلم يـــاويحكم	ليس لي إلا إلى الشرع انقيـاد
قـــولكم هـــذا هـــراء أصـــله	ما روت هند ومـا قـالت سـعاد

[1]) الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص6.

أنـــا لا أســـلم نفســـي لهم لا، ولا ألقي إليهم بالقيـــــــاد

لسـت أدعـوهم كمـا قلتم وقد عجـزوا عن طـرد بـقٍّ أو قـراد

وهو كالتيار الوهابي يعتبر الأضـرحة والقبـاب ونحوهـا أصـناما لا تختلف عن اللات والعزى، وبالتالي، فإن الزائر لها له حكم من زار اللات والعزى وعبدها، فيقول[1]:

لســـت من قـــوم على أصـــنامهم قـــد عكفـــــــــوا يـــــــدعونها في كـــــل نـــــاد

كلمـــــا أنشـــــد شـــــاد فيهم قـــول شـــرك ذهبـــوا في كـــل واد

كم بنـــوا قـــبرا، وشـــادوا هيكلا وصـــــروح الغي بالجهـــل تشـــاد

غـــــــرهم من داهنـــــوا في دينهم وارتضـــوا في ســـيرهم ذر الرمـــاد

ثم يذكر شدة عداوته لهم، بل إنه يلعنهم هكـذا إجمـالا من دون استثناء، فيقول[2]:

إنـــــني ألعنهم ممـــــا بـــــدا حاضـــر في إفكـــه منهم وبـــاد

[1] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص6.

[2] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص7.

وأنـــا خصـــم لهم أنكـــرهم كيفمـا كـانوا جميعـا أو فـراد
علمونـــا طـــرق العجـــز وما منهم من لسـوى الشـر أفـاد
طالما جـدَّ الـورى في سـيرهم وهم كم صـدهم طـول الرقـاد

ثم يعـود إلى تفصـيل مـا يحفظـه الوهـابيون عمومـا من معـنى التوحيد والشرك وقصره على القباب والقبور ونحوها، فيقول[1]:

لســـت أدعـــو غـــير ربي أحـــدا وهـــو ســـؤلي وملاذي والعمـــاد
ولـــه الحمـــد فقـــد صـــيرنا بالهـــدى فـــوق نـــزار وإيـــاد
فاعبـــدوا مـــا شـــئتم من دونه مـــا عنـــاني منكم ذاك العنـــاد
لســـت منقـــادا إلى طـــاغوتكم بظـبي الـبيض والسـمر الصـعاد
لم أطـــف قـــط بقـــبر لا ،ولا أرتجي مـا كـان من نـوع الجمـاد

[1] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص7.

لســـت أكســـو بحريـــر جـــدثا | نخـــرت أعظمـــه من عهـــد عـــاد
لا أشـــــد الرحـــــل أبغي حجه | قربـــة تنفعـــني يـــوم التنـــاد
حالفـــــــا كـــــل يمين أنه | سـوف يقضـي حـاجتي ذاك الجـواد
لا أســـوق الهـــدي قربانـــا له | زردة يـــــدعونها أهـــــل البلاد

ويضم إلى هـذه المظـاهر الـتي يعتبرهـا شـركا جليـا مكفـرا مـا يقرره الصوفية من التوسـل والاسـتغاثة ونحوهـا، فيعتبرهـا شـركا كما يعتبرها أساتذته الوهابية، فيقول[1]:

لا أنــادي صــاحب القــبر أغث | أنت قطب، أنت غـوث وسـناد
قائمـــا أو قاعـــدا أدعـــو به | إن ذا عنـــدي شـــرك وارتـــداد
لا أناديـــه، ولا أدعـــو ســـوى | خـــالق الخلـــق رؤوف بالعبـــاد
من له أسـماؤه الحسـنى وهل | أحـــد يـــدفع مـــا اللـــه أراد؟

[1] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص7.

مخلصـــــا ديـــــني لــــه ممتثلا أمـــره لا أمـــر من زاغ وحـــاد

3 ـ الإبراهيمي

وهو بالإضافة إلى قدراته البيانية المختلفة لديه قدرة كبـيرة في صـياغة الشـعر الفصـيح المـتين[1]، وقـد وجـه جـزءا محترمـا منـه لمواجهة الطرق الصـوفية، ومن ذلـك مـا كتبـه في قصـدية يقـول فيها[2]:

فـــإن شـــئتموا أن تســـمعوني محاضـــــــــــــــــــــــرا أحاضـركم عن حضـرة الغـوث والقطب

هنالك يدري الجاهلون حقيقتي ويهتز ناديكم ويعرف ما خطبي

وان سكوتي مسـحة مسـتعارة من المدفع الصـخاب والصـارم الشـــــــــــــــــــــــطب

---

[1] للإبـراهيمي ملحمـة رجزيـة في سـتة وثلاثين ألـف بيت - مفقـودة - أشـار إليهـا المترجم لـه نفسـه، وهي عـرض تـاريخي تحليلي للتـاريخ الإسـلامي وتقلبـات الأمـة الإسـلامية - نظمهـا إبّـان إبعـاده في صـحراء وهـران الجزائريـة، وروايـة الثلاثـة - مسرحية شعرية في 877 بيتًا من الرجز - نظمها إبّان تحديد إقامته في «آفلو» الـتزم شـعره الـوزن والقافيـة، ويتنـوع بين التعبـير عن المناسـبات الاجتماعيـة، والإخوانيات، ووصف بعض منجـزات العصـر: كالطـائرة، ورصـد الأحـداث السياسـية التي مرت بها الجزائر، والتعبير عن تجربة نفيه وسجنه، وبخاصة في المدة (1939 - 1946)، والتعبير عن القضية الجزائرية. مسرحيته الشـعرية تقـع في 877 بيتًـا عـبر ثلاث جلسات، تناول فيها أوضاع التعليم من خلال مدرسة وشخصيات محوريـة يـدور بينها صراع.

[2] جريدة البصـائر، السـنة الأولى، العـدد 43، الجمعـة 28 شـعبان 1355هــ / 13 نوفمبر 1936م، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 288)

أنا المرء لا أعطي إلى القطب مقـــــــــــــــــودي ولـــو دفعتـــني الحادثـــات إلى القطب

ومن ذلـك أرجوزتـه الـتي وجهها إلى بعض الوهابيـة من نجد[1]، وهي وإن لم يكن فيها مواجهة مباشـرة للطـرق الصـوفية إلا في بعض المسائل المتعلقة بما يتصوره الوهابية شركا، إلا أنا نـرى أن في أصل القصيدة مضادة ومواجهة حادة للطـرق الصـوفية ذلـك أنهم في ذلك الحين خصوصا كانوا يعتبرون ما ورد من الأحـاديث[2] عن اعتبار نجد هي رأس الفتن ومنطلقها متعلقا بالمنطقـة الـتي ولد فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وانطلقت منها دعوته.

لكن الإبراهيمي – على عكس ما ورد في تلك الأحـاديث – كتب قصـيدته يثـني على علمـاء نجـد، بـل يعتـبرهم من القلائـل الـذين حافظوا على توحيدهم في الـوقت الـذي انتشـر فيـه الشـرك في جميع البلاد الإسلامية.

ومن الذين أثنى عليهم الشيخ صديقه الشيخ محمـد بن إبـراهيم آل الشـيخ وعمـر بن حسـن آل الشـيخ - رئيس هيئـات الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر آنذاك-، ومما جاء فيها قوله[3]:

إنَّا إذا مـا ليـلُ نجـدٍ عسعسا وغـربت هـذا الجـواري خُنَّسا

والصـبح عن ضـيائه لتنفسا قمنـا نـؤدِّي الـواجب المقدسا

ونقطـع اليـوم نناجي الطُّرُسا وننتحي بعـد العشـاء مجلسا

موطَّداً على التقى مؤسَّسا في شِيخةٍ حـديثهم يجلوالأسى

---

1) آثار الإبراهيمي: 4 / 126 - 130 وأبياتها 73 بيتاً

2) من ذلك ما ورد في الحديث عن ابن عمر قال : ذكر النبي ﷺ فقال : اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا : وفي نجدنا، قال : اللهم بـارك لنـا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا : يا رسول الله وفي نجدنا فأظنه قال الثالثـة : هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان) صحيح البخاري، (9/ 67)

3) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 127)

وعلمهم غيث يغـــادي الجُلسا خلائـــقٌ زهـــرٌ تنـــير الغلسا
وهمم غُــــرٌّ تعــــاف الدَّنسا وذممٌ طهـــر تجـــافي النَّجَسا
يُحْيُـــون فينـــا مالكــــاً وأنسا والأحمـــدين والإمـــام المؤتسا

ثم يخاطب نجد، ويعتبرها بلاد التوحيد ويقصره عليها في الوقت الذي يعتبر فيه جميع بلاد الإسلامي بلادا للشرك، وهذا للأسـف مـا يتفوه به التيار الوهابي كل حين[1]:

بوركتِ يا أرضٌ بها الـدين رسا وَأَمِنَتْ آثـــــــاره أن تُدْرُسا
والشـرك في كـلِّ البلاد عرَّسا جـــذلان يتلـــو كُتْبَـــه مُدرِّسا
مصـــــاولاً مواثبـــــاً مفترسا حتى إذا مـا جـاء جَلْسـاً جَلَسَـا
منكمشـــاً مُنخــــذلاً نقْعَنسسا مُبَصْبصاً قيـل لـه اخْسـأْ فخسا
شـــيطانه بعـــد العُـــرَام خنسا لمـــا رأى إبليســـه قـــد أبلسا
ونُكِّســـــتْ راياتــــه فانتكسا وقـــــام في أتباعــــه مبتئسا
مُخَافِتـــاً مِنْ صـــوته محترسا وقـــال إنَّ شـــيخكم قـــد يئسا
من بلـد فيهـا الهـدى قـد رأسا ومعْلَمُ الشـرك بهـا قـد طُمِسا
ومعهـــدُ العلم بهـــا قـــد أسسا ومنهـــلُ التوحيـــد فيهـــا انبجسا

ثالثا ـ القصة:

وإنتاج الجمعيـة فيهـا محـدود جـدا، ولعلهـا مقصـورة على بعض القصص التي كتبها الشيخ الزاهري، ومنها قصته المعروفـة الـتي أخرجهـا بعض الوهابيـة المعاصـرين على شـكل رسـالة صـغيرة، وسماها (اعترافات طرقي قديم)

وفي القصة حملة شديدة على الطـرق الصـوفية هكـذا مجملـة عامة لينصرف ذهن القارئ إلى جميع الطرق، ويركز فيهـا بشـكل

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 127)

خاص على دورها في التفرقة الاجتماعيـة، وكأنـه يواجـه بـذلك مـا كانت تنشره الطرق من أن الجمعية تريد أن تخـترق صـف الأمـة ووحدتها.

فالولاء الطرقي – كما يذكر الزاهـري – مرتبـط بالطريقـة أكـثر من ارتباطه بالإسلام، حتى أن هذا الطرقي التـائب الـذي يتحـدث عنه (حينما كان طرقيـا كـان لا يفـرح بانتشـار الإسـلام كمـا يفـرح بانتشار الطرقية التي ينتسـب إليهـا، فـإذا سـمع برجـل دخـل دين الله، سأل عنه هل اعتنـق طريقتـه أم لا؟ فـإذا لم يعتنقهـا تعـامى وتصامم، وإذا سمع أن مسـلما اعتنـق الطريقـة الـتي يعتنقهـا هـو اهتز طرباً، وكاد يطير من شدة الفرح والسرور، وإذا نزل بالإسلام أي مكروه تصامم صاحبنا كأن الأمر لا يعنيه ولا يعني دينـه، أمـا إذا أصابتطريقته مصيبة ما اغتم لها واهتم)[1]

وفي اعتراف آخر يقـول: (لا أكتمكم، أنـه قـد يكـون بيـني وبين الرجل صلة القربى، وقد تجمعني به الروابط والصلات، وقد يكون مهذباً ولكني لم أكن أثق به ولا أطمئن إليه، لا لشيء سوى أنــه لا يرافقـني في الطريـق!!وقـد يكـون الرجـل لا قرابـة بيـني وبينـه، وليس بيننا أية صلة أخرى، ولكـني أثـق بـه وأطمئن إليـه، وأشـعر نحوه بحب شديد لا لشيء سوى أنه أخي من الشـيخ، هـذا هـو مـا كان يوصينا به أسيادنا ورؤساء طريقتنا جميعاً)[2]

وينقل الحديث عن تائب آخر تحول – في تصوره- من الطرقيــة إلى الإصلاح، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجاهلية إلى الإسلام قوله: (وكان من كراهيتنا لأتباع الطرق الأخرى، أننا لا ننزل ضيوفاً إلا على من تبع ديننـا(طريقتنـا)، ولا نكـرم ضـيوفاً لا يكونـون على طريقتنا، ولا نجتمع معهم في حلقة ذكر، وأذكر أن رجلا كـان أخانـا من الشيخ، له مكانة بيننا وكنا نحبه ونحترمه، وما هي إلا أن أخبرنا أحدنا بأنه رآه في بلدة أخرى، في حلقة ذكر لطائفة أخـرى، حـتى كرهنـاه وهجرنـاه، وأخبرنـا سـيدنا بـه وبمـا فعلنـا، فقـال، نعم مـا فعلتم، لا تتســاهلوا فيمن يخــل بشــيء من آداب الطريــق، ولا

---

[1] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العــدد7، ص 2.

[2] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العــدد7، ص 3.

تخــالطوا من يفســد عليكم نيتكم في الشــيخ، ولا تصــلوا وراءهم، وكل من صلى منكم وراء إمام ليس على طريقتنا، ولا يجتمع معنا على محبة الشيخ، فصلاته باطلة تجب عليه إعادتها!!)[1]

ويصـور الزاهـري تـأثير مشـايخ الطـرق في مريـديهم حـتى في المسائل المرتبطة بالحياة الشخصية لكل مريـد، بـل حـتى الحيـاة الشخصية لأفراد أسرته، فقـد ورد في القصـة من اعترافـات هـذا الطــرقي التــائب: (وســأل رجــل وقــال:يــا ســيدنا إني أريــد أن أستشيرك في أمر يهمـني، قـال ومـا هـو؟قـال:إن ابـني قـد كـبر، وأردنا أن نزوجه، وخطبنا له كريمة فلان إلى أبيهـا، فوعـدنا خـيراً، ولكنها من بنات طريقة أخرى لا من بنـات طريقتنـا،وهي فتـاة من الفتيات الصـالحات،فقـال لـه سـيده: وكيـف تكـون صـالحة، وهي ليست من بنات طريقتنا؟ ولم تدخل زاويتنا قـط!!،فقـال الرجـل: عسى الله أن يهديها فتعتنق طريقتنا، وتزور زاوية سيدنا، فقال له سيده: اشترطوا عليها أن تترك طريقتها إلى طريقتنا، فإذا رضـيت بهذا الشـرط فـذلك مـا كنـا نبغي، وإلا فلا تعزمـوا عقـدة النكـاح.. وتكلم له رجل وقال:يا سيدي،إن الآنسـة فلانـة، الـتي تـوفي عنهـا أبوها أخيراً، وكانت من بنات طريقتنا، قد أعجب بها فتى ليس منا، فـأبت أن تقبلـه لهـا بعلاً حـتى يـترك طريقتـه إلى طريقتنـا، وقـد تزوجهــا على هــذا الشــرط وأصــبح أخــاً لنــا في الشــيخ، فقــال سيدنا:أحسنت هذه الآنسة، وهي محبة في الشيخ، وإن عملها هـذا هو من الصالحات، ومن أفضل ما يقربهـا إلى اللـه زلفى، ففرحنـا نحن بها، وصرنا نسميها"سـكينة"تشـبيهاً لهـا بسـيدتنا سـكينة بنت زين العابدين رضي الله عنها)[2]

ويذكر الزاهري كيف كانت تنتشر العداوة بين الطرق الصــوفية بسبب خلافات بسيطة، فيقـول: (على أن الطـرق الأخـرى يحمـل أتباعها لنا من الضغينة والحقد أكبر مما يحمل أتباع طريقتنـا، فقـد جربت ذات يوم أن أتودد إلى أهل طريقة، فرفضـوا ودادي، وذلـك أن جلست معهم في حلقة لهم عقدوها لتلاوة أورادهم، وكــان من عادتهم أن يغمضوا أعينهم عند تلاوة هذه الأوراد، وكان من عادتنــا

---

[1] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العــدد7، ص 3.

[2] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العــدد7، ص 3.

نحن أن نفتح أعيننا، وأن لا نغمضها عند قراءة الأوراد، ومـا هي إلا أن عرفـوا أنـني لا أغمض عيـني حـتى طـردوني، وقـالوا لي:أنت لست من طريقتنا!!) [1]

وهو يحاول عن طريق اعترافـات هـذا الطـرقي أن ينسـب كـل الرذائـل والآفـات إلى مشـايخ الطـرق بطريقـة سـردية بسـيطة، فيذكر أنه قد في بعض الطلبة لتصوره أنه من الإصلاحيين لكنه مـا إن زار زاوية من الزوايا فوجده فيها حتى تغـير موقفـه منـه، وقـد جرى في سر هذا التغير هذا الحوار الـذي ذكـره الزاهـري، فقـال: (وقـال لي: لقـد حضـرت أنـا نفسـي على هـذا الشـيخ درسـاً في التوحيد يلقيه على أسيادنا، فظننت أن الإمـام الأشـعري هـو الـذي يلقي هـذا الـدرس علينـا، فقلت: لقـد أصـبح الطـالب في نظـرك شـيخاً نظـير الإمـام الأشـعري، ولكن في أي مسـألة من مسـائل التوحيد كان درس هـذا الشـيخ؟ قـال: كـان في مسـألة "كرامـات الأولياء"، وقد ذكـر من كرامـات شـيخنا أكـثر من مائـة وخمسـين كرامة، فقلت له: يا فلان، هـل نسـيت مـا كنت تقولـه يـوم لقيت هذا الطالب أنه قليـل العلم مـدمن على التـدخين، فقـال: أمـا مـا قلته عنه من قلة العلم فقد كنت مخطئاً فيه، واليوم تـبين لي أنـه غزيـر العلم، وحسـبك أنـه أسـتاذ لأسـيادنا، وأمـا أنـه مـدمن على شـرب الـدخان، فهـذا أمـر لا بـأس بـه، لأن أسـيادنا هم أنفسـهم يدخنون ويـدمنون على التـدخين، ويـدمنون على مـا هـو أكـثر من الدخان أيضـا، من غـير أن يقـدح ذلـك في مـروءتهم أو في دينهم، فقلت: إن المدمنين على هـذه الآفـات هم ممن لا مـروءة لهم ولا دين، قال: لا يقـول كلامـك هـذا إلا من كـان مسـلوباً من الإيمـان، قلت: ويحك، فهل تعتقـد أن تعـاطي هـذه الآفـات هـو أمـر مبـاح؟ قال: لا، ولكني أعتقد أن الإنكار على أسيادنا، لا يجوز مهما ارتكبوا من الكبـائر والموبقـات، قلت: وهـل أسـيادك هم فـوق الشـرع الشريف حتى لا تنالهم أحكامه؟ قال: دعنا من هذا الكلام) [2]

بل إن الزاهري يذكر أن من أتباع الطـرق الصـوفية يهـود ظلـوا على يهوديتهم، وأن العلاقة التي تربط مريـدي الطريقـة بهم أكـثر

---

[1]) الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العـدد7، ص 4.

[2]) الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العـدد7، ص 2.

من العلاقة التي تـربطهم بالمسـلمين، فيقـول – على لسـان هـذا الطرقي التـائب - : (كـان اليهـود في بعض نـواحي الصـحراء، قـد دخلـوا هم أيضـاً في الطـرق الصـوفية، من غـير أن يـدخلوا في الإسلام، وكـان قـد اعتنـق طريقتنـا منهم عـدد غـير قليـل، فجعـل سيدنا عليهم(مقدما) يهودياً منهم.. ولا أكتمكم، أننـا كنـا نحب هـذا المقدم اليهودي، ونحب هؤلاء اليهود الذين هم إخواننـا من الشـيخ أكثر ممـا نحب أي مسـلم من المسـلمين، الـذين يتبعـون الطـرق الأخرى، وكما أن اليهود يسمون غيرهم-[الكوييم]- فإننا نحن أيضـاً نسمي غيرنا من المسلمين باسم القراميـط.. وبالجملـة، فلم نكن نعرف الحب في الله والبغض في الله، وإنما كنا نعـرف الحب في الشيخ والبغض في الشيخ)[1]

وهكذا تستمر القصة – وبلغة بسيطة –تجمع جميع ما تـرمي بـه الجمعية الطرق الصوفية في محـل واحـد، لتعتبرهـا جميعـا ضـلالا وشركا، ثم تعلن انتصار الجمعية عليها بتوبة الطرقي، وتحولـه إلى مصلح بمجرد توبته.

والملاحظـة الـتي يمكن أن نـدلي بهـا هنـا هي أن هـذه القصـة ليسـت سـوى نـوع من القـذف غـير العلمي وغـير الأخلاقي وغـير الشرعي، لأن قـارئ القصـة البسـيط يتصـور أنهـا حقيقـة واقعـة، ويتصور أن ما فيهـا من أحـداث ومواقـف مرتبـط بجميـع الطـرق، ولذلك جميع الطرق – كمـا تـذكر القصـة – يمارسـون الكبـائر بـل يدمنون عليها مع أشياخهم، وهذا كله وإن صدق في محـل لا يمكن أن يصدق في جميع المحال.

وهذا أكبر ما يشكو منه رجال الطرق من الجمعية، وهو التعميم المنافي للمنهج العلمي الصحيح، فالمنهج العلمي يقتضـي الـتريث في إطلاق الأحكام قبل التحقيق.

رابعا ـ المقالة الأدبية:

تعتبر المقالة الأدبية هي أكثر ما وردنا من تـراث الجمعيـة، وقـد وظفت خصوصا في مجال النقد بأنواعه المختلفـة، وخاصـة النقـد

[1] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العـدد7، ص 4.

الاجتماعي.
وربما تكون الجمعية في توظيفها للمقالة الأدبية النقدية في مواجهة الطرق الصوفية مقلدة للتيار الأدبي النقدي في ذلك الوقت، والذي مثله أحمد أمين وإبراهيم المازني وعباس محمود العقاد والرافعي وطه حسين وغيرهم من الأدباء، ولهذا نجد انسجاما بين طرق التعبير وأساليبه بين ما كتبته الجمعية وما كان يكتبه هؤلاء.
وربما يكون اختيار الجمعية لهذا الأسلوب في الكتابة هو بساطته وسرعة وصوله للقارئ وعدم حاجات صاحبه إلى إمكانات علمية كبيرة، بالإضافة إلى الحرية التي يشعر بها الكاتب، خاصة إن كانت له قدرة على التعبير، فهو يخوض فيما شاء، وكيف شاء بعلم أو بغير علم.
وهذا ما يفرق المقالة العلمية عن المقالة الأدبية، فكاتب المقالة العلمية يحتاج عند ذكر كل عبارة إلى التوثيق والتحقيق والبرهان، فهو دائم محاصر برقيب يردد عليه قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: 36]
انطلاقا من هذا وظفت الجمعية المقالة الأدبية خير توظيف في أداء رسالتها المتعلقة بمواجهة الطرق الصوفية.
وبما أن أكثر هذا المقالات إن لم نقل كلها يمكن اعتبارها من المقالات النقدية، فإنها استعملت – بالإضافة إلى الطريقة الوصفية- أساليب كثيرة لعلها أهمها أسلوب (التهكم والسخرية) من هذا الواقع لتصوره بصورة مستهجنة ينفر منها القارئ.
ولعل أشهر من اشتهر بهذا الأسلوب، وكان له القدرة الفائقة فيه بما أوتي من قوة بيان، الشيخ البشير الإبراهيمي، الذي لا يذكر الطرق ولا الصوفية أو مشايخها وعلماءها إلا ويصب عليهم من التهكم والسخرية ما يتصور أنه يذلهم به.
وكمثال على ذلك مقالين كتبهما عن العلامة المحدث الكبير عبد الحي الكتاني[1]، الذي لا يزال إلى الآن مرجعا من مراجع علماء الحديث، ولكنه – في منطق الإبراهيمي، وفي منطق المقالة

[1]) نشرت في العدد 31 من جريدة «البصائر»، 12 أفريل سنة 1948، والثانية نشرت في العدد 33 من جريدة «البصائر»، 26 أفريل سنة 1948

الأدبية – ليس كذلك، وكيف يكون كذلك، هـو يعتقـد بمـا يعتقـد بـه رجال الطرق الصوفية.

ولعـل الـداعي إلى سـخرية الإبـراهيمي من الشـيخ عبـد الحي الكتاني هو استقواء الطرق الصوفية به، وكيف لا وهو الـذي يجلب إليهم ما يحتاجون إليه من المصادر والنصوص التي تحفـظ كيـانهم في مواجهة الغزو الإصلاحي الموجه ضدهم.

وقد كانت الحادثـة المؤلمـة الـتي جعلت الإبـراهيمي يعلن على الشيخ حربه هو ما قام بـه من تجميـع الزوايـا في مـؤتمر دعـا من خلالـه إلى الإصـلاح الـتربوي والتعليمي، بـل دعـا من خلالـه إلى الإصلاح الشامل للزوايا ومن يمثلها من الطرق الصوفية[1].

وكان يمكن للجمعية أن تفـرح بهـذا، ولكنهـا للأسـف لم تفعـل، لأنهـا كـانت تتصـور أن في إصـلاح الزوايـا تقويـة لهـا، وفي قوتهـا يـذهب نشـاط الجمعيـة هـدرا، فهـل يمكن للطـبيب أن يمـارس وظيفته إن شفي جميع المرضى؟

وبناء على هذه النظرة التي لم يفصح عنهـا الإبـراهيمي، ولكنهـا تفوح بقوة من خلال كلماته صب جام غضبته وسخريته عليــه، ولم يجد من وسيلة سوى المقالة الأدبية التي رآها خير وسيلة لتحطيم عنفوان الرجل وقوته، لأن المقالة العلميـة تسـتدعي أدلـة كثـيرة، ووقتا طويلا، ولم يكن لدى الشـيخ الإبـراهيمي – وهـو المسـتغرق في الإصلاح وما يتطلبه من جهد- هذا الوقت ليضيعه في نقده.

وتبدأ سخرية الإبراهيمي من الرجل من عنوان المقالـة نفسـها،

[1] مما يدل على هذا ما ذكره الإبـراهيمي نفسـه عنـدما قـال: (.. بلغنـا مـا وقـع في المؤتمر الثاني (مؤتمر الزوايا) بالتفصيل أيضا، حتى أسماء الحاضرين والخطباء ومـا خطبوا، وأنهم تواردوا على معان متقاربة في غايـات الاجتمـاع الظاهريـة وهي جمـع الشمل وتجديد العهد وخدمة العلم بالتعليم) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 20)

ولكنه كعادته – في استخدام منطق المؤامرة – يعتبر أن هناك أهدافا مبيتة غير هذه الأهداف، فقال: (وكان من كياسة الرئيسين الدائم والهائم (كان هـذا الاجتمـاع تحت رئاسة اثنين: الدائم مصـطفى القاسـمي، والهـائم عبـد الحي الكتـاني) أن بالغـا في إخفاء الغاية الحقيقية، حتى قام طالب مأجور يعدونه من أتباع الأتباع، فـذكر جمعيـة العلماء بوصفها القديم الذي كانوا ينبزونها به، وهو أنها جمعيـة وهابيـة) (انظـر: آثـار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 394)

فقـد عنونهـا بــ (أفي كـل حي... عبـد الحي؟)[1]، وعنـوان المقالـة الثانية (عبد الحي الكتاني: ما هو؟ وما شأنه؟)[2]، وقد تعـرض فيهـا لشخص الشيخ عبد الحي أكـثر ممـا تعـرض فيهـا لفكـره ومنهجـه ودعوتــه، وهــذا كشــأن التيــار الوهــابي عمومــا من تغليبــه نقــد الأشخاص على نقد الأفكار.

وقد قـال جوابـا عن سـؤال طرحـه (مـا هـو عبـد الحي؟): (هـو مكيدة مدبرة، وفتنة محضرة؛ ولو قال قائل في وصفه:

شـــعوذة تخطـــر في حجلين وفتنـــة تمشـــي على رجلين

لأراح البيان والتحليل، كما يقـول شـوقي؛ ولعفى على أصـحاب التراجم، من أعاريب وأعاجم، ولأتى بالإعجاز، في باب الإيجــاز؛ إذ أتى بترجمة تحمل ببرقيـة، إلى الأقطـار الغربيـة والشـرقية، فيعم العلم، وتنتشر الإفادة، وتذيع الشهرة)[3]

ويعتبر أنه (مجموعة من العناصر منها العلم ومنها الظلم، ومنها الحق ومنها الباطل؛ وأكثرها الشر والفساد في الأرض) [4]

بل حتى اسمه يسخر منه، ويحوله عن المراد منه إلى مراد آخر يزيد من تهكمه بـه، فيقـول: (إن اسـم صـاحبنا لم يصـدق فيـه إلا جزؤه الأول، فهو عبد لعـدة أشـياء جـاءت بهـا الآثـار وجـرت على ألسنة الناس، ولكن أملكها به الاستعمار؛ أمـا جـزؤه الثـاني فليس هو من أسماء اللـه الحسـنى، ولا يخطـر هـذا ببـال مـؤمن يعـرف الرجل، ويعرف صفات عباد الرحمان، المذكورة في خواتيم سورة الفرقان، وإنما هو بمعنى القبيلة، كمـا يقـال كـاهن الحي وعـراف الحي وعير الحي، وقبح اللـه الاشـتراك اللفظي، فلـو علم العـرب أنه يـأتي بمثـل هـذا الالتبـاس لطهـروا منـه لغتهم، وتحـاموه فيمـا تحاموا من المستهجنات)[5]

وهكذا يتلاعب الإبراهيمي بالألفـاظ، ويسـتخدمها خـير اسـتخدام

---

[1] نشرت في العدد 31 من جريدة «البصائر»، 12 أفريل سنة 1948، وانظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 391)

[2] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 395)

[3] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 539)

[4] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 540)

[5] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 540)

في التهوين من شأن الرجل حتى فيما اشتهر من ذاكرة قوية وحفظ متين للحديث، أهله لأن يعتبر محدثا، لكن الإبراهيمي لم يكن ينظر إلى حفظه بتلك الصورة، فهو يقول عنه: (وعبد الحي محدث بمعنى آخر، فهو راوية بكل ما لهذه الكلمة من معنى. تتصل أسانيده بالجن والحن.. وبكل من هب ودب. وفيه من صفات المحدثين أنه جاب الآفاق، ولقي الرجال، واستوعب ما عندهم من الإجازات بالروايات، ثم غلبت عليه نزعة التجديد فأتى من صفات المحدثين (بالتخفيف) بكل عجيبة، فهو محدث محدث في آن واحد؛ وهمه وهم أمثاله من مجانين الرواية حفظ الأسانيد، وتحصيل الإجازات، ومكاتبة علماء الهند والسند للاستجازة، وأن يرحل أحدهم فيلقى رجلا من أهل الرواية في مثل فواق الحالب، فيقول له: أجزتك بكل مروياتي ومؤلفاتي.. فإذا عجز عن الرحلة كتب مستجيزا فيأتيه علم الحديث بل علوم الدين والدنيا كلها في بطاقة.. أهذا هو العلم؟ لا والله. وإنما هو شيء اسمه جنون الرواية)[1]

والإبراهيمي بحكم توجهه السلفي، وتغلب النزعة الوهابية خصوصا عليه ينفي عن الكتاني كونه محدثا، لأن من شروط المحدث في تصوره أن يكون سلفيا، فيقول: (ولقد كان من مقتضى كون الرجل محدثا أن يكون سلفي العقيدة وقافا عند حدود الكتاب والسنة.. لكن المعروف عن هذا المحدث أنه قضى عمره في نصر الطرقية وضلالات الطرقيين ومحدثاتهم بالقول والفعل والسكوت، وأنه خصم لدود للسلفيين، وحرب عوان على السلفية، وهل يرجى ممن نشأ في أحضان الطرقية، وفتح عينيه على ما فيها من مال وجاه وشهوات ميسرة ومخايل من الملك، أن يكون سلفيا ولو سلسل الدنيا كلها بمسلسلاته؟)[2]

وهكذا يستمر الإبراهيمي في التهكم والسخرية إلى نهاية مقاله الطويل، بل إنه يهدده بأنه إن استمر في دعم الطرق الصوفية في الجزائر، فإن سيروي الروايات في مثالبه وينشرها ويفضحه بها، فيقول: (..فإن عاد بالتوبة، عدنا بالصفح؛ وان زاد في الحوبة، عدنا على هذا المتن بالشرح، ولعل هذا الأسبوع هو أبرك الأسابيع على الشيخ، فقد أملينا فيه مجالس في مناقبه جاءت في كتيب،

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 545)

[2] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 544)

سميناه- بعد الوضع- "نشر الطي، من أعمال عبد الحي"، فإن تاب وأدناه، ووفينا له بما وعدناه، وإلا عممناه بالرواية، وأذنا لعبد الحي في روايته عنا للتبرك واتصال السند، وهو أعلم الناس بجواز رواية الأكابر عن الأصاغر) [1]

ولعل أهم ملاحظة نخرج بها من مطالعة هذه المقالة الطويلة هو أنها من الناحية الأدبية في منتهى الروعة والجمال، وكم تمنينا لو أنه كتبها أو كتب مثلها عن رجال الاستعمار الطغاة، لا عن رجل من المحدثين الثقاة.

وتمنينا – كذلك – لو خلطها ببعض العلم والأدلة، فلا يمكن للألفاظ مهما حسنت، ولا للتعابير مهما قويت أن تقنع عاقلا ما لم تتوج بالأدلة الكافية.

ولكن عذر الإبراهيمي هو كون كلامه موجها للعامة لا للخاصة، والعامة يفضلون السخرية والسباب على العلم والدليل.

هذا نموذج عن الإبراهيمي وهو قليل من كثير، ومثله في الجمعية الشيخ الزاهري الذي كانت سخريته تصل إلى حد السباب، وقد شهد له بالقوة في هذا الباب والريادة فيه زميله وصديقه الشيخ الإبراهيمي الذي كتب يقول عنه بعد أن انشق عن الجمعية: (لقد كنتم تسبوننا بألسنتكم في المقاهي ومجالس السوء، وتلقّنون صبيانكم سبّنا، حتى أصبحت أفواههم مستنقعات... فلم يُقنعكم ذلك لأنه سبٌّ بالمجان، فارتقيتم إلى سبّنا بالكتابة لتّتخذوا منها سلعةً للبيع، ووسيلة لجمع المال. وتضيفوا إلى الهلال الأحمر هلالًا أسود... ومن الغريب المضحك أنكم تعتمدون في بيع السب على السب، فقد شهد العقلاء أن تسعة أعشار جريدتكم لا تُباع إلا بالسب والتخويف والتهديد وما يُشبه الإكراه، وأن العشر العاشر فقط يباع بالتغليط والتضليل.. إن هذه لحقيقة لا تستطيعون إنكارها وتكذيبها إلا بالعمل. ولو فعلتم وتركتم بيعها للرغبة والاختيار- كما تباع الجرائد- لأفلست في أسبوع، فجرّبوا إن كنتم منصفين)[2]

وهو ينتقده في هذا المنهج مع كونه كان يحبذه منه قبل ذلك عندما كان متوجها بسبه إلى الطرق الصوفية، فيقول: (أيها القوم: إن الوطن الذي تتوقّف خدمته على بيع السب والكذب لوطن

[1] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 547)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 561)

مخـذول سـلفًا؛ وإن الحـزب الـذي يريـد أن يكمـلَ بتنقيص غـيره لحزب ناقص أبدًا، وإن السياسة التي تغـذّى بمثـل هـذه المطـاعم لسياسة ميتة... بالجوع.)[1]

بل إنه يسخر حتى من جرائده التي كان ينشر فيها ما ينشر من سباب يرتبط بالطرق الصوفية، فيقول: (أتذكر- يـا شـيخ- ماضـيك الصحافي، وصحائفك الماضية التي تهـاوت في مثـل عمـر الزهـر، من الجزائـر، إلى الـبرق، إلى الوفـاق، وقـد مـاتت كلهـا بـالهزال والتسمّم، ولو كانت مما ينفع النـاس لمكثت في الأرض، فاحتفـظ بما بقي من أعدادها، فسيحتاج الناس إلى ما فيها يوم ينكس اللـه طباعهم، ويطمس على بصائرهم، فيصبح السـب والكـذب عنـدهم من الفنون الجميلة، فيشيدون المعاهد العالية لتعلّمها، ويقتبســون النماذج الرفيعة من تلك الجرائد)[2]

وليت هذا الموقف الذي وقفه الإبراهيمي ضد الزاهـري اسـتفاد منه هـو قبلـه، ليعلم أنـه لا يمكن أن يتحقـق الإصـلاح إلا بالصـلاح، ففاقد الشيئ لا يعطيه.

ولا يتحقق الصلاح إلا بالتواضع مع الآخـر وعـدم السـخرية منـه، كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ} [الحجرات: 11]

المطلب الثالث: المواجهة العاطفية

نريـد بالمواجهـة العاطفيـة مـا كـانت تسـتعمله الجمعيـة لإثـارة عواطف الجماهير ضد الطرق الصوفية، وهي مواجهـة كالمواجهـة الأدبية تتسم بالبساطة، وبعدم الحاجة إلى الإقناع العقلي المعتمـد على الدليل، بل كـل اعتمادهـا على مـا عنـد المسـتقبل من ثـروة عاطفية، وهي من أكثر الثروات توفرا خاصة في الزمن الذي يكثر فيه الظلم والاضطهاد.

بناء على هذا نحاول هنا أن نذكر ثلاثة نماذج عن هـذا النـوع من المواجهة، وقـد ذكرنـا – سـابقا – أنـا لا نتعامـل مـع الجمعيـة على أسـاس وجودهـا التـاريخي الرسـمي، وإنمـا على أسـاس وجودهـا الـواقعي المتمثـل في أولئـك المصـلحين الـذين اتفقـوا على كـل شيء، ولكن تأخر فقط تأسيسهم الرسمي للجمعية إلى أن وجدوا

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 561)

[2] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 562)

الظرف المناسب، ولهذا فإن بعض الأحداث التي سنذكرها حصلت قبل التأسيس الرسمي للجمعية، بل لعله كان من الأسباب المؤثرة بعد ذلك في تأسيسها.

النموذج الأول: الاعتداء على ابن باديس

ذكرنا سابقا قصة هذا الاعتداء، وبساطته، وتعلقه بفرد واحد لم ينطلق في ذلك إلا من بعض الغضب على إهانة شيخه، بل إن صورة الحادثة تدل على أنه لم يرد أن يغتال، وإنما أراد أن يعاقب فقط، ولهذا لم تحدث كبير أثر في الشيخ ابن باديس، ولو أنه أراد اغتياله لطعنه بالسكين مباشرة، ولكان ذلك أسهل، بل ربما لو أراد ذلك لخطط له ولنجح في تخطيطه، فما أسهل القيام بمثل هذه العمليات في واقع كالواقع الذي حصلت فيه.

ولكن مع كل هذا نجد تضخيما كبيرا للحادثة، واتهاما لكل الطرق الصوفية بها، وكأن الطرق الصوفية جميعا اجتمعوا في اجتماع طارئ، ثم قرروا اغتيال ابن باديس، ولم يجدوا للتنفيذ إلا هذا الرجل الضعيف الهزيل الذي استطاع ابن باديس مع نحافته أن يلببه بثيابه، ويتغلب عليه بكل سهولة.

وقد كتب الإبراهيمي حينها يصف الحادثة وأسبابها وملابساتها بهذه الطريقة المثيرة للعواطف: (وإذا نسي الناس فإنهم لم ينسوا حادثة الاعتداء على الأستاذ عبد الحميد بن باديس الذي هو رئيس هذه الجمعية منذ تأسست إلى اليوم، فقد تآمر العليويون على اغتياله حيث ثقلت عليهم وطأة الحق الذي كان يقوله ولا زال يقوله فيهم وفي أمثالهم، وانتدب أشقاها لقتله في قسنطينة وضربه الضربة القاضية لولا وقاية الله ولطفه، ففي ذلك المشهد الذي تطيش فيه الألباب وتتفشى فيه روح الانتقام قوى الله الأستاذ- وهو أعزل- فأمسك خصمه الفاتك المسلّح ولبّبه بثيابه، ثم تجلّى على قلبه المطمئن بالرحمة فقال- وجرحه يثعب دمًا- للجمهور المتألّب المتعطّش لدم الجاني: إياكم أن يمسّه أحد منكم بسوء" حتى تسلموه للمحافظة، ولولا هذه الكلمة لقطعوا الجاني إربًا إربًا))[1]

فالإبراهيمي يبدأ مقاله بأن الناس، وإن نسوا كل شيء، فإنهم لن ينسوا هذه الحادثة، وكأنه يحرضهم أن لا ينسوها، ثم يتحدث –

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 268)

كعادته – على التآمر من غير أي دليل، ثم يصف المشهد الذي (تطيش فيه الألباب) ليملأ القلوب حقدا على الجاني ومن خلفه، ثم يذكر الموقف البطولي لابن باديس (المطمئن بالرحمة)

هكذا يصور الإبراهيمي الحادثة ليستثمرها في ملء القلوب بالأحقاد على الطريقة العلاوية أولا، وعلى الطرق الصوفية جميعا ثانيا.

وليت الأمر توقف عند الإبراهيمي، بل تعداه إلى غيره، إن ما كتب في هذا المجال يمكن جمعه في مصنف خاص، بل فعل ذلك الشيخ أحمد حماني حين صور الحادثة، وكأنها صراع بين السنة والبدعة، لا بين شخص بسيط انفعل لموقف من المواقف، فمد يده معبرا عن ذلك الموقف.

وقد ذكرنا سابقا أن الشيخ أحمد حماني، وفي موقف مماثل لم يقفه عامي، وإنما وقفه عضو بارز من أهم أعضاء جمعية العلماء، مع علم من أهم أعلام الطرق الصوفية، وكانت الواقعة أفدح، والألم المنجر عنها أشد، ومع ذلك وقف حماني مع الجاني ضد المجني عليه.

ولا بأس من إعادة ذكر ما ذكره الشيخ أحمد حماني هنا لنرى الأخلاق التي كانت تحكم الكثير من أعضاء الجمعية في مواقفهم، فقد قال: (وبلغ بالسيد مامي — عفا الله عنه — أن صار يسخر بالشيخ ابن باديس ويخترع على لسانه محاورات، فبلغ السيل الزبا، واشتد غيض الشهيد أحمد بوشمال ولم يملك نفسه ذات يوم في 1938م، أن ارتمى عليه في نهج تجاري مزدحم وأعطاه (طريحة)؛ أي ضربة كانت كافية لكفه النهائي عن التعرض لشخصية الشيخ ابن باديس بسوء حتى مات رحمه الله)[1]

بعد هذا نحب أن نشير هنا باختصار لبعض ما كتب في ذلك الحين بهذه المناسبة من باب تهييج العواطف وإثارتها:

فممن كتب في ذلك الشيخ العربي التبسي، وقد كان حينها في القاهرة، فأرسل منها مقالا بعنوان (أريد حياته ويريد قتلي)[2]، ومما جاء فيه قوله: (.. فمن ذا الذي لا ينفلق كبده أسفا وغما لما

---

[1] أحمد حماني ; صراع بين السنة والبدعة، ص131.

[2] نشر هذا المقال في جريدة الشهاب : جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10

أتـاه هـذا الأفـاك الأثيم العليـوي ممـا يغضـب الرحمـان، ويثـير الأشجان. ألا فليعلم العليـوي السـفاك ولي إبليس أن فعلتـه الـتي فعل لم تكن مسددة إلى الأسـتاذ العظيم ابن بـاديس، وإنمـا رمى بسهمه في نحر الإسلام، وأنه إنما أراد هو وشـيعته أن يـأتوا بـدين مزيج من معتقدات الآباء الكاثوليك والرسـل البروتسـتانت، فليس له أن يـزغم علمـاء الإسـلام على قبـول بدعتـه باسـم دينهم، وأن يكمم أفواههم حذر أن يبينوا للناس ما آتيتهم به ممـا ينقض هيكـل الإسـلام، ويحطمـه لبنـة لبنـة، فـدون وصـولكم إلى غـايتكم واللـه لمس السماء، ودك الشناخب أتـرم أنـوفكم أن جـاءكم بالحسـنى يجادل بها رسول الله أعـداء الإسـلام، فهـالكم الأمـر، وسـدت في وجوهكم مدارج الحق، فركنتم إلى الإجرام، وعمدتم إلى قتـل من شهد له رسول الله بأنه عدل هذا الخلق، وأنه يحل محـل نـبي في بني إسرائيل)[1]

وهكذا يستمر الشيخ العربي في إثارة العواطف وتبيين القضــية لا تتوقف عند اعتـداء بسـيط، وإنمـا هي حـرب معلنـة على الأمـة، وعلى رسولها وعلى من شهد له رسولها بأنه يحل محـل نـبي في بني إسرائيل.

والشيخ العربي لا يكتفي بهذا، بل يقرر بإثـارة عجيبـة أن أعـدى أعداء المسلمين ليست فرنسا، وليس الإلحـاد ولا التبشـير، وإنمـا أولئك الذين جعلوا من الزوايـا أوكـار للجريمـة المنظمـة في حـق العلمـاء، فيقـول: (ألا إن أعـدى المسـلمين للإسـلام أولئـك النفـر الذين يظنون من قبل أنفسهم أنهم هم أوليـاء الرحمـان وأحبـاؤه، وقد ملؤوا أنفسهم ومن يتبعهم بأماني هي ضـلال، ومـا أرادوا بهـا صوابا. فاستباحوا من الله المحارم، وتعدوا لـه الحـدود، وأعرضـوا عما فيه من الهدى، فاغتر بهم الجهال، وانقاد لهم الأغرار، ودخلـوا على الناس في عقائدهم، ولبسوا عليهم أمر دينهم، وزهدوا الملــة الإسـلامية في علمائهـا الـذين أمـر اللـه أن يـرد إليهم الأمـر في التشـغيب، ونعتهم أجـل نعت. وحث على سـؤالهم عنـد حلـول أي حادث. بما تحدث بـه هـؤلاء المضـللون إلى طغـام الأحلام، من أن بين الصـالحين وبين العلمـاء خلافـا عظيمـا قـديما، وضـربوا لهم

[1] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10.

الأمثال، وساقوا عليها الشواهد، وقصوا عليهم من الأغاليط ما جنوا به جنونا، حتى ذهبوا بهذه الأمة في متاهات لا نجاة لها)[1]

وبعد أن يملأ الشيخ العربي جماهيره بهذا الشحن الممتلئ بالأحقاد يعبئهم للمواجهة الحادة الشديدة التي ترفض التنازل أو الصلح أو الاستسلام، فيقول: (اتئدوا أيها المضللون، فإن الذي نعلمه ويعلمه كل أحد أن طريقة القوم لا تتنازل عن حصاة من أرض السنة، وفي سبيل السنة تبيع العلماء الأرواح بيع السماح)[2]

ثم يستغل الحادثة لبيان ضلال الطرق الصوفية وانحرافها وشركها وغير ذلك من المقولات التي رأينا الصياغات المختلفة لها، فيقول: (.. ركب منكم الشيطان كل مركب، واستنكفتم عن قبول الحق الأبلج، ووضعتم أصابعكم في آذانكم، وأصررتم على عنادكم إصرارا، شأن من سبقكم في الجاهلية الثانية.. هاأنتم استطعتم أن تفتنوا الأمة في دينها، وتحيدوا بها عن أوليات الدين الذي جعلتم أهله شيعا وأحزابا وأضرابا)[3]

ومما كتب في ذلك من شعر الزاهري، فقد قال في قصيدة له بهذه المناسبة ينوه بشخصية الإمام بن باديس، ويستنكر ما فعل أعداؤه[4]:

لا تبلغ العلياء دون ثبات	هيهات دون المجد كل أداة
يا وقفة لك في سبيل الله لم	نرهان لغيرك من ذوي الوقفات

[1] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10.

[2] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10.

[3] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10.

[4] عبد الناصر : الشيخ عبد الحميد بن باديس في يوم حرية التعبير.. أول صحافي في التاريخ يتعرض لمحاولة اغتيال، جريدة الشروق اليومي، العدد 1676 الصادرة يوم الأربعاء 04 ربيع الثاني 1427 هـ الموافق لـ 03 ماي 2006 م، ص : 8.

بعثـوا إليـك منومـا يعـدو على ما فيـك من جـد ومن عزمـات

قطع الطريق عليك في غســق ولم تكن التّيوس لتقطع الطرقــات

نهضوا لحرب المصلحين لعلهم يقفـون دون طريقـة عشـرات

أذوك حين دعوت من ضلوا ال دين النـــير بحكمـــة وعظـــات

ونلاحـظ هنـا كيـف يعمم الشـيخ الزاهـري حكمـه على الطـرق الصوفية، وكونها تآمرت عليه وعلى المصلحين، ولا نجد هذا الأمــر عند الشيخ محمد العيد آل خليفة الذي ذكرنا سابقا أنه أكثر أعضاء الجمعية اعتـدالا، بـل ذكرنـا تبعيتـه للطريقـة التيجانيـة، كمـا يـذكر التيجانيون، فقد عبر عن الحادثة بما تقتضيه دون أن يتجـاوز ذلـك، فقال في في قصيدة بعنوان (حمتك يد المولي)[1] :

حَمتْـك يَـدُ المَـوْلَى وكُنْتَ بِهَـا أولَى فيَالــكَ مِنْ شَـــيخَ حَمَتْــهُ يَــدُ المَــــــــــــــوْلَى

وأخطاك الموت الزؤام يقــوده إليـك أمـرؤ أملي لـه الغي مـا أملي

وأهــوى إلى نصــل بكــف لئمة تعود أن ينضي بهـا ذلـك النصلا

فأوسعها وهنا، وأوسـعتها قــوة وأجهـدتها عقــدا، وأجهـدها حلا

وكـــادت يـــد الجـــاني الســـخّر تعتلي يد الشيخ لولا اللـه أدركـه لـولا

فَيَـــا لـــو ضِــــيع النّفْسِ كَيَـــفَ تَطــــــــــــــــاولتْ بِهِ نَفْسُه حتَّى أســرّ لَـكَ القَتلاَ

فَوَافَتكَ بالنَّصْــر العَزِيــزِ طَلائــعٌ مُبَاركـةٌ تَتْـرى من الْملأ الأعْلَى

---

1) محمد العيد آل خليفة : ديوان محمد العيد، المؤسسة الوطنيـة للكتـاب، الجزائـر، ص : 122

وإِنْ أنْسَ لا أنْسَى الذينَ تَظَافَرُوا — عَلى الفَتْكِ بالجَاني فقلتَ لَهُم مَهْلاَ

أليس من الآيات أنك بيننا — تعامل بالعدل الذي أغضب العدلا

فدُم يا بن باديس كما كنت راشدًا — فإني رأيت الرشد يستأصل الدجلا

النموذج الثاني: الاعتداء على الزاهري

وهذا أيضا من الأحداث التي استثمرتها الجمعية أخطر استثمار في إلهاب العواطف، وتوجيهها نحو الطرق الصوفية، وقد أخذت حيزا محترما من صحيفة الشريعة التي انهالت عليها الأقلام تدين الحادثة، كما انهالت من قبل الأقلام على الشهاب تدين حادثة الاعتداء على ابن باديس.

وقد ذكر الشيخ الزاهري الحادثة وتأثيرها في مقال له كتبه بعد خمسة عشر يوما من الحادثة بعنوان (من الزاهري إلى سائر الأصدقاء والإخوان)، ومما استهل به مقاله ذكره لتأثير الحادثة في المجتمع، فقال:(مضى اليوم على حادث الاعتداء علي خمسة عشر يوما ولا يزال الحادث كما هو جديدا في أذهان الناس هنا في وهران يستنكرونه ويستفظعونه ويلعنون المعتدين الآثمين لعنا كثيرا)[1]

ثم ذكر الحادثة وأسبابها وصلتها ببعض المشايخ، ولم يذكر – كعادته في التعميم- لأي طريقة ينتمي هذا الشيخ حتى يحصر الأمر في محله، وتتلبس التهمة بأصحابها، فقال: (لقد كان الجاني الحقيقي الذي أغرى على هذه الجناية بعض أتباعه الأخلاف شيخا من أشياخ السوء في وهران وكان كثير العيال لا يكاد يحصى عدتهم إلا بعداد (!) وكان هو وعياله جميعا يعيشون عالة على المسلمين (الغافلين). يتظاهر بالولاية والصلاح ليحتال بذلك على ما في أيدي الناس, ولا نصيب له من الولاية والصلاح إلا سب العلماء والوقوع في أعراضهم والافتراء عليهم وأكل لحوم الناس, وكان في رغد من العيش بما كان يتناول من صدقات الناس. وكان الناس يحسنون إليه, ولكنه اليوم أصبح يعاني العسر

[1] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص2)

والضيق, وانفض عنه أكثر من كان حوله من المتصدقين)[1]
ويبدو من خلال هذا الوصف أن الشيخ لم يكن يصف شيخا له علاقة بالطرق الصوفية، وإنما كان يصف من يسميهم الناس مشايخ البركة، وهم الذين يقصدونهم لطلب الدعاء، أو لقراءة الغيب ونحوه[2]، وهؤلاء لا علاقة لهم بالتصوف، ولا بالطرق الصوفية، بل إن الطرق الصوفية تتبرأ منهم، ولكن الجمعية للأسف تجمعهم في سلة واحدة، لتطبق أخطاء هؤلاء على هؤلاء وتمحوهم جميعا.
ثم ذكر العلة التي دفعت هذا الشيخ إلى الاعتداء عليه، فقال: (ورأى أن الناس أصبحوا يلهجون بذكر جمعية العلماء المسلمين ويتعلقون بها, ويذكرون رئيسها الأستاذ ابن باديس كما يذكرون أكبر إمام من أئمة هذا الدين, فوقع في نفسه أنه من هنا جاءه البلاء (!) وأنه من هنا انقطعت عنه الصدقات والنذور التي كانت تجبى إليه. فجعل دأبه أن يسب جمعية العلماء وأن يختص بالسب والقذف رئيسها الأستاذ عبد الحميد بن باديس وهذا الضعيف العاجز (الزاهري) الذي يمثل الجمعية في وهران وكان سبق لهذا التيس أن أغرى جروا له (ابنه) فشتمني في الطريق العام لولا أن الشاب المفضال المهذب السيد بلقاسم بن الشراب عطف عليه وكان من رفقائي فأدبه وجازاه بما يستحق.. وثار الرأي العام الإسلامي في وهران يومئذ على هذا الجرو وعلى والده الذي أغراه)[3]
وإلى هنا فإن المنصف لا يرى في كل هذا شيئا، بل إننا لو حللنا ما حصل لوجدنا أن الجاني فيها هو الزاهري وأصحابه، ذلك أن هذا الولد الذي يسميه جروا ما فعل غير ما يسميه (شتيمة)، ونحن لا ندري ما قال له بالضبط في هذه الشتيمة، ولعلنا إن طبقنا ما

---

[1] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص2)

[2] ويدل لهذا ما كتبه العقبي في إدانة الحادثة، فقد جاء في مقاله: (إذن ما ذا يفعل (سيدي المرابط) أو الدجال المحتال الذي وقف له المصلحون في الطريق التي كان يجمع الناس لها ويحشرهم من كل ناحية إليها, وما هي إلا طريق ابتزازه الأموال من هذه الأمة واعتصاره آخر قطرة من دم بقيت في جسمها وقد قطعوا رزقه كما قيل وحالوا بينه وبين ما يشتهيه في هذه الأمة ومنها؟)

[3] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص2)

يذكر من شتائم الطرق الصوفية، فإنها لا تعدو رميه بالوهابية، وكان يمكن للشيخ – باعتباره مصلحا وداعية ومربيا- أن يخاطبه بالتي هي أحسن، ويوجهه إلى التي هي أحسن، لكن الشيخ لم يفعل ذلك، بل استعان بتابعه الذي (أدبه وجازاه بما يستحق)، ولم يكتف بذلك، بل راح يثير (الرأي العام الإسلامي في وهران يومئذ على هذا الجرو وعلى والده الذي أغراه)، وكان يمكنه بدل ذلك أن يهدئ الأوضاع ويطيب النفوس، ولكن الزاهري وجد فرصته في هذا، فأراد أن يحيي تلك الفتنة العظيمة التي حصلت بسبب الاعتداء على ابن باديس، وأراد أن يكون له هو الآخر حظ منها ومن شهرتها ومن المقالات والأشعار النابعة منها.

ويواصل الشيخ الزاهري وصف ما حدث فيقول: (كانت قبضة الشرطة السرية على شخص من أتباع شيخ السوء هذا ومن مريديه بتهمة أنه هو الجاني, ولكن بعدما حققوا معه لم يجدوا بينة على إدانته ولكنه لا يزال مسجونا بتهمة أنه هرب من منفاه قبل أن يستكمل المدة المحكوم عليه بها, ولما ترك سبيله من تهمة الاعتداء فإن الأعوان لم يقبضوا على شخص آخر بدعوى أنهم لا يجدون بينة على أحد تخول لهم أن يقبضوا عليه, ويظهر أن التحقيق في هذا الاعتداء بينما كان جاريا بغاية الجد والاجتهاد وقف فجأة ولم يتقدم قيد شعرة, وهنا سر يجب أن يفهمه القارئ وحده (!!) أما الرأي العام فلا يزال هائجا منفعلا ضد المعتدي الأثيم, والناس يعلمون كل شيء عن هذا الحادث ويعلمون أن أصل الجناية إنما هو شيخ السوء ويعلمون أن هذه الجناية قد دبرت في مسجد بناه لله أحد المحسنين)[1]

وإلى هنا فإن كل ما ذكر مجرد اتهامات لا دليل عليها، ولا صلة للشيخ المذكور بها، ولكن مع ذلك نرى الأقلام المستعدة للإبحار في طوفان الفتن تستثمر الحادثة أبشع استثمار لتهيج المجتمع على أولئك البسطاء أصحاب الحضرات والخلوات الذين يزعمون أنهم منشغلون بربهم عمن سواه.

ولن نحتاج لكشف هذه الحقيقة إلى كبير معاناة، فمع أن الحادثة لم تعرف ملابساتها بدقة إلا أن الشيخ العقبي، ومع كونه من أصحاب الاتجاه السلفي الذي يراعي التحري والتدقيق في الأسانيد لكنه في هذه الناحية لم يراع هذا الأمر، بل كتب يقول

[1] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص2)

في مقال تحت عنـوان (نحن والطرقيـون أو حـادث الاعتـداء على الأستاذ الزاهري): (وقد كنا نحسب أن مثل هذا الاعتداء ينتهي بعد حادثة ذلك العليوي الجـاني على الأسـتاذ الشـيخ (عبـد الحميـد بن باديس) واقتصاص يد العدالة منه بما صيره عبرة لغـيره وموعظـة للمعتدين، فإذا به يتجدد مرة ثانية, فقد جاءتنا أنبـاء اليـوم بفاجعـة جديدة وجناية فظيعة تضـاف إلى جنايـات رجـال الطـرق السـابقة حيث اعتـدى بعض الطرقـيين على (الأسـتاذ الزاهـري) في هـذه الأيـــام بمدينـــة (وهـــران) العضـــو الإداري بجمعيـــة ((العلمـــاء المسلمين)) وصاحب الكتابات الكثيرة ضد الضـالين المضـلين بمـا ذكرته جريدة ((الشريعة)) التي له اليد الأولى في تحريرها)[1]

ثم ذكـر التـأثير العـاطفي للحادثـة فيـه وفي الجمـاهير، فقـال: (تالله لقد هالنا هذا النبأ العظيم وأحزننا تجدد مثـل هـذه الحـوادث من حين لآخر بهذا القطر البـائس المسـكين, وعـز علينـا مـا نـزل بأخينا الأستاذ الزاهري)[2]

وهو مع إقراره بأن الحادثة لم تعلم أسبابها ولا ملابساتها بدقــة، يقول: (هذا وإننـا لم نـدر إلى سـاعتنا هـذه من هـو المباشـر لهـذا الاعتـداء والمنفـذ لعمليـة أيسـرها اعتـداء على حرمـة مسـلم ذي شرف ودم معصوم مصون, وأعظمها لو تم للمعتدي مـا أراد قتـل عالم من علماء المسلمين يقول: ربنا الله, لا يؤمن بعقيدة الحلول ويكفر بها وبمن يقـول: كـل مـا في الكـون هـو اللـه حـتى الشـيخ والكلب وحمار العزيز وخنزير جاره الذي يرعاه)[3]

ولكنـه مـع ذلـك يظـل مصـرا على أن مـرتكب الجريمـة ينتمي للطرق الصوفية، يقول في ذلك: (وقد جاءتنـا الأخبـار الأخـيرة عن هذا الحادث الفظيع أن الحكومة بوهران ألقت القبض على الجاني وأنه رهن السـجن والتحقيـق. ولكنـا لم نعلم اسـمه ولا هويتـه في طريقتـه ونحلتـه, ولا اسـم (الشـيخ) أو (المقـدم) الـذي سـول لـه ارتكاب هذه الخطيئة وجرأه عليها بل أغـراه بهـا وأشـلاه, فلهـذا لا نقدر أن نقول أنه من فقراء الطريقة العليوية أو أفرادها وما أكـثر الأفراد في كـل طريقـة؟... غـير أن الأمـر المحقـق عنـدنا هـو أن الجاني طـرقي وأنـه مـدفوع إلى هـذه الجنايـة من طـرقي ضـال,

[1] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص3)

[2] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص3)

[3] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص3)

وأفاك دجال ستظهره الأيام وسيلقى جزاء جريمته وما اكتسبت يداه, وإن غدا لناظره قريب, وقريب جدا ما يوعدون)[1]

لكن الأيام خلفت للأسف ما جزم به العقبي، فلم تعرف الطريقة ولا شيخها الذي استطاع بدهائه أن يدبر هذه الحادثة من غير أن يفطن له أحد.

ونحب في هذا المقام أن نذكر بما قاله مالك بن نبي من ممارسات الاستعمار لتفكيك المجتمع الجزائري، وإثارة النعرات العرقية أو الطائفية فيه، فقد ذكر من الأمثلة على ذلك (أن يغتال - المستعمر- رجلاً واحداً حتى يبث الفوضى والاضطراب، أو أن يشتري ضمير أحد الزعماء السياسيين، الذين تتجسد فيهم في فترة معينة، طاقة البلاد الحيوية وفكرة نضالها)[2]

وبناء على هذا لا نستبعد أن تكون الحادثة تدبيرا استعماريا لإثارة المنطقة الغربية الجزائرية ضد الطرق الصوفية، كما أثيرت من قبلها في المنطقة الشرقية، خاصة إذا علمنا أن الزاهري اتهم بعد ذلك من الجمعية بكونه عميلا للاستعمار، بل نفذت فيه الثورة الجزائرية حكمها بالإعدام، وبذلك قتل الزاهري بيد الثورة لا بيد المساكين من أبناء الطرق الصوفية الذين هم أعجز الناس عن تدبير محاولات الاغتيال.

النموذج الثالث: طلب المباهلة

يهتم أصحاب المنهج السلفي عادة بالمباهلة[3]، فهم يعوضون بها المناظرة والمناقشة والحوار، ولهذا يختارون هذا المنهج في التعامل مع مخالفيهم، والسر في استعمالهم لهذا الأسلوب يعود

---

[1] الشريعة النبوية، (6/4)

[2] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع : ص77.

[3] المباهلة في اللغة : من باهله مباهلة لعن كل منهما الآخر وابتهل إلى الله : ضرع إليه، وبهله بهلا : لعنه ومنه قول أبي بكر : من ولي من أمر الناس شيئا فلم يعطهم كتاب الله فعليه بهلة الله أي لعنته، وباهل بعضهم بعضا : اجتمعوا فتداعوا فاستنزلوا لعنة الله على الظالم منهم وفي أثر ابن عباس : من شاء باهلته أنه ليس للأمة ظهار، ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي (انظر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الموسوعة الفقهية الكويتية، دار السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية، (36/ 57)

إلى أمرين:

الأول: ثقتهم الزائدة في أنفسهم، والتي تصل أحيانا إلى حد الغرور، فهم يعتبرون أنفسهم أصحاب الفرقة الناجية، وأنهم على الحق المطلق كما أن غيرهم على الضلال المطلق.

والثاني: هو ضعف خصومهم في هذه الناحية، فهم مع اعتقادهم أنهم مع الحق، إلا أنهم لا يعتقدون أن خصومهم على الباطل، لأن الحق متعدد الصور عندهم، ولهذا لا يجرؤون أن يتفوهوا باللعن على الآخر مهما كان، وسنلاحظ هذا عند الحديث عن أساليب تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية.

وبناء على هذا، فقد حصل في تاريخ الجمعية حادثة من هذا النوع استثمرت أبشع استثمار، وكان الداعي لها في البداية الشيخ سكيرج وهو مغربي من الطريقة التيجانية، ولعل قصده من ذلك هو تحذير الجمعية من مغبة التكفير ونحوه، ثم تراجع عن ذلك، لكن الجمعية بقيت مصرة عليه، تلح عليه كل حين.

فقد كتب العقبي ردا على طلب المباهلة تحت عنوان (بل نجيب.. ولعنة الله على الكاذبين)[1]

ثم ذكر مباهلته في مقاله بقوله: (اللهم إن كنت تعلم أن سكيرج وجماعة الطرقيين فيما هم عليه اليوم وما يدعون الناس إليه ويقرونهم على فعله في طرقهم محقون، وأن ذلك هو دينك الذي ارتضيته وشرعته لعبادك بواسطة محمد ـ ﷺ ـ فالعني ومن معي لعنا كثيرا، وإن كنت ـ يا الله، يا ربنا ورب كل شيء ـ تعلم أن ما عليه الطرقيون اليوم فيما هم فيه من أمرهم ودعايتهم الناس إلى طرقهم هو من الحدث في دينك والباطل الذي لا يرضيك ولا يرضي نبيك، فالعن سكيرج ـ قاضي الجديدة ـ ومن معه لعنا كبيرا، واجعل مقتك الأبدي ولعنتك الدائمة على الكاذبين، ـ (آمين آمين آمين)[2]

ثم علق عليها بقوله: (هكذا أباهلك وألاعنك يا سكيرج فلاعني بمثلها وإياك أن تتأخر أو تنهزم يوم اللقاء)[3]

ولكن الشيخ سكيرج مع هذا الاستفزاز الذي استفزه به العقبي لم يستجب له، فما أصعب على الصوفي أن يتفوه بلفظ اللعنة

---

[1] الشِّهاب»، السنة الثانية، العدد (97)، 17 ذي القعدة 1345ه، ص8.

[2] الشِّهاب»، السنة الثانية، العدد (97)، 17 ذي القعدة 1345ه، ص8.

[3] الشِّهاب»، السنة الثانية، العدد (97)، 17 ذي القعدة 1345ه، ص8.

على نفسه أو على شخص يعتقد إسلامه، ويعتقد في نفس الوقت خطأه المبني على الاجتهاد، خاصة وأن العقبي دعا في مباهلته باللعنة الأبدية.

ونرى أن الشيخ سكيرج في هذا الموقف الحرج وقف بين أمرين: بين أن يستجيب لذلك الاستفزاز الذي استفز به، فينطق بتلك الألفاظ الخطيرة، وبين أن ينسحب ولو اتهم بما اتهم به، فاختار لورعه الثاني، وهو موقف في غاية الشرف والنبل والإيمان.

ولكن الجمعية لم تفهم هذا للأسف، فقد علقت الشهاب على نفور الشيخ سكيرج من المباهلة بهذا التعليق: (سكت سكيرج ولم يجب عن مقال العقبي ببنت شفة، وكان واجبه أن يجيب بصراحة ويقول: (إني قبلت تعيين الزمان والمكان)، وهكذا انهزم سكيرج، ولكن أصحابه عمدوا إلى التمويه والمغالطة والكذب فأعرض العقبي عنهم، وقطع الكلام معهم لأنهم كما قال: (هم قوم بُهتٌ)[1]

وقد كانت هذه الحادثة من الحوادث التي استثمرت في إثارة عواطف المجتمع ضد الطرق الصوفية، فقد كتب ابن باديس تحت عنوان (سيهزم الجمع ويولون الدبر) يقول: مخاطبا الشيخ العقبي: (حياك الله وأيدك ــ يا سيف السنة وعلم الموحدين ـ وجزاك الله أحسن جزاء عن نفسك وعن دينك وعن إخوانك السلفيين المصلحين، ها نحن كلنا معك في موقفك صفا واحدا ندعوا دعوتك ونباهل مباهلتك ونؤازرك لله وبالله.. فليقدم إلينا الحلوليون وشيخهم ومن لف لفهم وكثر سوادهم في اليوم الموعود والمكان المعين لهم، وليبادروا بإعلان ذلك في جريدتهم، إن كانوا صادقين،فإن لم يفعلوا ـ وأحسب أنهم لن يفعلوا ــ فقد حقت عليهم كلمة العذاب وكانوا من الظالمين والحمد لله رب العالمين) [2]

المبحث الثاني: أساليب تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية

لقد حاولنا - قبل إنجاز هذا المبحث - أن ننظر في مصادر الطرق الصوفية عن رد فعل الطرق الصوفية عن أنواع

---

[1]) الشهاب العدد 112 / ص8 ـ 14

[2]) الشِّهاب»، السنة الثّانية، العدد(97)، 17 ذي القعدة 1345هـ، (ص: 7)

المواجهات التي سبق ذكرها حتى تكون المقارنة تامة بين الطرفين، لكنا للأسف لم نجد إلا نوعا واحدا فقط يصلح للحديث عنه عند الطرق الصوفية، وهو ما أطلقنا عليه المواجهة العلمية.

ذلك أن المواجهتين الأخريين: الأدبية والعاطفية تقتضيان وجود أدباء وخطباء وذوي قدرات بيانية، ولم نجد هذا عند الطرق الصوفية، وفي حال وجوده، فإن الأدب الصوفي متوجه عموما للسلوك والعرفان، ولا يتوجه للجدل والخصومات.

ولهذا، فإنا لم نجد في دواوين الشيخ ابن عليوة، والشيخ عدة بن تونس وغيرهما ما يمكن أن نواجه به ما كتبه الزاهري أو العقبي، فأشعار ابن عليوة وغيره أشعار صوفية، بعيدة تماما عن البيئة التي كتبت فيها، قد يصح مقارنتها بأشعار ابن الفارض أو الششتري أو غيرهما من الصوفية، ولكنه لا يصح بأي حال من الأحوال مقارنتها بأشعار رجال الجمعية.

وهكذا في كل المجالات الأخرى، ولهذا اكتفينا في هذا المبحث بذكر خصائص المواجهة العلمية، والتي رأينا أنها تتمثل في ثلاث خصائص:

أولا ــ الاعتماد على المصادر التي ألفت في الرد على الوهابية.

ثانيا ــ ضعفها في علوم الحديث

ثالثا ــ تسامحها مع المخالف

وسنتحدث عن هذه الخصائص في هذا المبحث.

أولا ــ الاعتماد على المصادر التي ألفت في الرد على الوهابية:

منذ بداية تأسيس الحركة السلفية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب لقيت معارضة شديدة من طرف أكثر الطرق الصوفية، وألفت في ذلك الكتب والرسائل الكثيرة، وما أسرع ما انتشرت في العالم الإسلامي تلك الكتب والرسائل لتوسع الهوة بين كلا التيارين: السلفي والصوفي.

وقد ساعد على انتشار هذه الرسائل والكتب ما ووجهت به الدعوة السلفية الوهابية من معارضة سياسية واجتماعية في جميع بلاد العالم الإسلامي.

وكان من تلك الرسائل والكتب ما لبس لباس العلم والحوار العلمي بآدابه الشرعية، وهو قليل لا يكاد يذكر، وكان منها وهو الأكثر ما لبس لباس الشدة والعنف بجميع أشكاله.

وقد نهلت الطرق الصوفية الجزائرية من تلك المصادر جميعا،

واستعانت بها في مواجهتها لجمعية العلماء المسلمين.
ولهذا نرى لزاما علينا أن نذكر هنا باختصار بعض ما ألف في مواجهة المدرسة السلفية من طرف رجال الطرق الصوفية، أو الفقهاء المنتسبين لهم، باعتبار أن هذه الكتب والرسائل كانت هي المصادر التي اعتمدت عليها الطرق الصوفية الجزائرية بعد ذلك في مواقفها من جمعية العلماء، ودليل ذلك - كما سنرى - أن التهم التي وجهها المحاربون للمدرسة السلفية هي نفسها التي وجهها رجال الطرق الصوفية في الجزائر لجمعية العلماء.
ونحب أن نذكر هنا ــ بأسف ــ أن معظم الكتب والرسائل التي سنذكرها، والتي راجت أول ظهور الدعوة الوهابية، وكان لها دور في الحد من تأثيرها وانتشارها، هي الآن في حكم النادر، وبعضها لا يزال مخطوطا في مراكز أجنبية، ولم يمكننا الحصول عليه، ولهذا رجعنا في التعريف بها وبمؤلفيها إلى كتاب (دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عرض ونقض) للشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف.
ونرى أن ما حصل للمخالفين للشيخ محمد بن عبد الوهاب من التعتيم هو نفسه ما حصل للمخالفين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فلا تزال كتب المخالفين ورسائلهم إما نادرة أو مخطوطة أو مطبوعة طبعة رديئة مقارنة بكتب ورسائل الجمعية.
بعد هذه الملاحظات المنهجية، نذكر أهم ما ألف في الرد على الوهابية، واستندت إليه الطرق الصوفية في مواجهتها للمخالفين لها:
1 ــ رسالة (**الدرر السنية في الرد على الوهابية**)، وهي من أشهر ما كتب في هذا الباب، وهي من الكتب القليلة المطبوعة، وقد ألفها الشيخ أحمد بن زيني دحلان : ولعله أشهر من واجه السلفية (الوهابية) في ذلك الحين.
وقد أتاحت له مكانته العلمية، فقد كان مفتي الشافعية، وأتاح له كذلك وجوده في الحجاز، وبالضبط في مكة المكرمة، أن ينشر أفكاره التحذيرية من الدعوة الوهابية على جميع بلاد العالم الإسلامي، وأن تؤتي تحذيراته أكلها.
وقد ذكر محمد منظور النعماني ما كان ينشره (أحمد بن زيني دحلان) من أفكار، مبيناً مدى انتشارها بعد سقوط الدرعية 1234هـ: (صادرت أرض الحجاز مركز دعاية ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجماعته بعدما أقصت الوهابيين قوات محمد علي

باشا حاكم مصر آنذاك على إيعاز من الحكومة العثمانية.. وأضحت تنتشر في الحجاز – فيما يتصل بالشيخ – أمور مستهجنة إن سمعها مسلم فإنه لا يكره شخصه فحسب.. بل يعتبره أكفر الكافرين في العالم كله.. وبما أن الحرمين الشريفين هما مركز المسلمين الروحي والديني ومهد الدعوة الإسلامية ومنتجع الحجيج من المسلمين في العالم كله، يختلف إليها المسلمون ولا سيما في مناسبة الموسم فساعد كل ذلك على انتشار كل ما يحاك فيهما ضد الوهابيين أو يدور حولهم في المحافل والنوادي أو يقال ويكتب في المؤلفات ساعده على انتشار في طول العالم وعرضه)

وقد لقي لأجل هذا معارضة شديدة من طرف التيار السلفي بنوعيه التنويري والمحافظ:

فالشيخ محمد رشيد رضا ينفي عنه صفة العلمية بالرغم من كونه مفتي مكة المكرمة، فيقول: (إن دحلان غير محدث ولا مؤرخ ولا متكلم وإنما هو مقلد للمقلدين ونقال من كتب المتأخرين)

والتيار المحافظ يرميه بكل شيء حتى بالرفض كعادته في رمي المخالفين، يقول فوزان السابق:(قد قال بعض الفضلاء من علماء مكة : تصانيف دحلان كالميتة لا يأكلها إلا المضطر. وقد رد عليه كثير من علماء الهند والعراق ونجد وغيرهم ففضحوه وبينوا ضلاله. وقد سمعت غير واحد ممن يوثق بهم من أهل العلم يقولون : أن دحلان هذا رافضي لكنه أخفى مذهبه وتسمى بتقليد أحد الأئمة الأربعة ستراً لمقاصده الخبيثة، ولنيل المناصب التي يأكل منها. ومن أدل الدليل على رفضه الخبيث، تأليفه لكتاب (أسنى المطالب في نجاة أبي طالب) الذي ردّ فيه بهواه نصوص الكتاب والسنة الصحيحة المتواترة)

2 ــ **لفحات الوجد من فعلات أهل نجد**: وقد ألفه الشيخ محسن بن عبد الكريم بن إسحاق الحسني، وهو عبارة عن أبيات شعرية كتبها ضد الوهابية ثم شرحها في هذا الكتاب، وقد ذكر في آخر الرسالة بعض المسائل الفقهية التي يعارض فيها الوهابية.

3 ــ **فصل الخطاب في رد ضلالات ابن عبد الوهاب**: وقد ألفه الشيخ أحمد بن علي البصري الشهير بالقباني، وقد كان حيّا سنة 1157هـ، وهو مجلد ضخم كتبه جوابا على رسالة ابن سحيم التي بعثها إلى علماء الدول الإسلامية يحذرهم فيها من

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته.

4 ـ **الصواعق والرعود في الرد على ابن سعود** : وقد ألفه عبد الله بن داود الزبيري (ت 1225هـ)، وقد لقي هذا الكتاب حينها اهتماما كبيرا من طرف المخالفين للدعوة الوهابية، وأثنى عليه الكثير من مشايخ الصوفية أو من ارتبط بهم، يقول الشيخ محمد بن محمد القادري واصفا للكتاب: (وهو كتاب مخزون بالعجائب، ومشحون بالغرائب، عظيم النفع، جليل الشأن، واضح البرهان، لا نعرف كتاباً في هذا النمط أشرف منه وأعظم، ولا أنفس منه وأتم، من شأنه أن يكتب سطوره بالنور على خدود الحور .. ومن أراد أن يعرف دسائس الشيطان التي ألقاها إلى ابن سعود، فعليه بمطالعة (الصواعق والرعود)، فإنه كتاب غريب في صنعه عجيب، وكان التصدي لإبطالها فرض كفاية على علماء المسلمين، لئلا يغتر بها عوام المؤمنين، ويصير الوزر عليهم أجمعين، فجزا الله حضرة الشيخ عبد الله بن داود حيث أبطلها في (الصواعق والرعود) أحسن الجزاء حيث رفع الوزر عنه وعنهم في دار الجزاء)

وذكره الشيخ (علوي الحداد)، فقال: (وقد سمعت بكتاب مبسوط في عشرين كراساً سماه (الصواعق والرعود رداً على الشقي عبد العزيز بن سعود)، وقد قرظ عليه أئمة من علماء البصرة وبغداد وحلب والإحساء وغيرهم، تأييداً لكلام مؤلفه وثناء منهم عليه، وقد أجادوا وبينوا)

5 ـ **مصباح الأنام وجلاء الظلام في رد شبه البدعي النجدي التي أضل بها العوام**: ألفه الشيخ علوي بن أحمد الحداد (ت 1232هـ)، وهو يتكون من سبعة عشر فصلاً، ذكر فيها مسائل الخلاف بين الطرق الصوفية والوهابية كجواز الاستغاثة بالأموات وتعظيم الأولياء، وجواز البناء على القبور وتشييد المشاهد والمزارات لقبور الصالحين..

6 ـ **الرد على بعض المبتدعين من الطائفة الوهابية** : وهي رسالة من تأليف الشيخ محمد بن عبد المجيد بن عبد السلام بن كيران الفاسي (ت 1227هـ) وهو أحد علماء فاس بالمغرب، وكان سبب تأليف كتابه هو وصول رسالتين من الأمير سعود بن عبد العزيز (ت 1229هـ) إلى تلك البلاد فكتب هذا الرد على تلك الرسالتين.

بالإضافة إلى هذه الردود المبكرة، والمرتبطة بأصل الدعوة

الوهابيـة، نجـد الكثـير من الكتب والرسـائل الـتي ألفت بعـد ذلـك حول مسائل الخلاف الكثيرة بين الوهـابيين والصـوفية، وهي كلهـا مطبوعة ومنتشرة بكثرة خاصة بين الزوايا والطرق الصوفية نذكر منها باختصار:

1 - **الأجوبــة النعمانيــة عن الأســئلة الهــندية في العقائد**: لنعمـان بن محمـود خـير الـدين الشهــير بـابن الألوسي البغدادي، الحنفي (ت1317 هـ)

2- **إحيـاء المقبـور من أدلـة اسـتحباب بنـاء المسـاجذ والقبـاب على القبـور**: للشـيخ الحافـظ أحمـد بن الصـديق الغماري (ت 1380هـ)، وهو مطبوع طبعات كثيرة.

3 ـ **الأصول الأربعـة في ترديـد الوهّابية**: لمحمـد حسـن صاحب السرهـندي المجددي (ت 1346)

4- **الأقوال السنية في الرد على مدعي نصرة السـنة المحمدية**: جمعهـا إبـراهيم شـحاتة الصـديقي من كلام المحـدث عبد الله الغماري.

5 ـ **الأوراق البغداديــة في الجوابــات النجدية**: للشــيخ إبــراهيم الــراوي البغـدادي، الرفـاعي، رئيس الطريقـة الرفاعيـة ببغداد.

6 ـ **البراءة من الاختلاف في الرد على أهـل الشـقاق والنفاق والرد على الفرقة الوهّابية الضـالّة**: للشـيخ علي زين العابدين السوداني.

7 - **تحذير الخلف من مخـازي أدعيـاء السـلف**: للشـيخ محمد زاهـد الكوثري .

8 ـ **التحفة الوهـبية في الردّ على الوهّابية**: للشيخ داود بن سليمان البغدادي، النقشبندي الحنفي، المتوفى سنة 1299

9 ـ **تطهــير الفـؤاد من دنس الاعتقـاد**: للشـيخ محمـد بخيت المطيعي الحنفي، من علماء الأزهـر الشريف.

10 ـ **جلال الحــقّ في كشــف أحــوال أشــرار الخلق**: للشيخ إبراهيم حلمي القادري الاسكندري.

11 ـ **الردّ على ابن عبد الوهـاب**: لشـيخ الإسـلام بتـونس إسماعيل التميمي المالكي، المتوفى سنة 1248هـ.

12 ـ **الرد على الوهّابية**: للشـيخ صـالح الكـوا ش التونسي، وهـي رسالة مسجعة نقض بهـا رسالة لابن عبد الوهاب.

13 ـ **الــردّ على الوهّابية**: لإبراهــــيم بن عبــــد القــــادر

الطرابلسي الرياحي التونسي المـالكي من مدينـة تسـتور، تـوفي سنة 1266هــ.

14 ــ **سـعادة الـدارين في الــردّ على الفرقـتين: الوهّابية، ومقلّدة الظاهـرية**: لإبراهـيم بن عثمـان بن محمّـد السمنودي المنصوري المصري، مطبوع في مصر سنة 1320 هــ، في مجلدين.

15 ــ **صـلح الإخـوان في الــردّ على من قــال على المسـلمين بالشـرك والكفـران**: في الــردّ على الوهّابيـة لتكفيرهـم المسـلمين. للشـيخ داود بن سـليمان النقشـبندي البغدادي الحنفي، المتوفى سنة 1299هــ.

16 ــ **قمع أهـل الزيـغ والإلحـاد عن الطعن في تقليـد أئمة الاجتهـاد**: لمفتي المدينة المنـورة المحـدث الشـيخ محمـد الخضر الشنقيطي المتوفى سنة 1353 هــ.

ثانيا ــ ضعفها في علوم الحديث:

من الخصائص التي يكتشـفها البـاحث في الصـوفية عمومـا هـو عدم اهتمامهم الشديد بالتوثيق، وخصوصا في علم الحديث، ولعل سر ذلك يعود إلى اهتمامهم بالمعنى أكثر من اهتمامهم بالمصادر، فـإذا صـح المعـنى عنـدهم قبلـوه، بغض النظـر عن مصـدره، وإذا ضعف رفضوه، من غير مبالاة كثيرة بمصدره.

ولهـذا نـراهم يصـححون مـا اتفـق المحـدثون على تضـعيفه أو تكذيبه، كحديث جابر المشهور: يارسـول اللـه : (بـأبي أنت، وأمي أخبرني عن أول شـيء خلقـه اللـه قبـل الأشـياء، قـال : (إن اللـه تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك يا جابر، ثم خلـق منـه كـل خـير، وخلق بعده كل شـيء)[1]، فقـد حكم المحـدثون على هـذا الحـديث بالوضع[2]، ومع ذلك فإنا نرى الصوفية يستدلون به، بل يقرونه بنـاء

---

[1] انظر كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر على ألسـنة النـاس، للعجلـونى ص 263.

[2] حتى أن المنـافحين عن الصـوفية كالعلامـة عبـد اللـه بن الصـديق الغمـاري يـرى ضعفه، فيقول: (وعـزْوه إلى روايـة عبـد الـرزاق خطـأ لأنـه لا يوجـد في مصـنفه ولا جامعه ولا تفسيره، وقال الحافظ السيوطي في الحاوي في الفتاوى، ج1 ص 325 : (ليس له إسناد يعتمد عليه)ـ، وهو حديث موضوع جزمًا .. وبالجملـة فالحـديث منكـر موضوع لا أصل له في شىء من كتب السُّنّة)(انظر: مرشد الحائر لبيان وضع حديث

على التي اتفاقه مع الكشف.

فقد أقر العلامة الدردير المالكي– مع فقهه وعلمه بل ومالكيتـه المتشـددة- معـنى الحـديث فقـال : (ونـوره) ﷺ (أصـل الأنـوار) والأجسام كما قال ﷺ لجابر رضي اللـه عنـه : (أول مـا خلـق اللـه نور نبيك من نوره) الحديث فهو الواسطة في جميع المخلوقات)[1]

وذلك لكونه صوفيا، والصوفية متفقـون على الأقـل على معـنى الحديث.

وهكذا نراهم ينكرون الأحاديث التي وردت في البخاري ومسـلم إذا كان معناها مخالفا لما يؤمنون به، يقول ابن عربي - عند ذكـره لبعض الأحاديث -: (ولقد ورد في حديث نبوي عنـد أهـل الكشـف صحيح وإن لم يثبت طريقه عند أهل النقل لضعف الراوي)[2]

ويقول عن أولياء الصوفية: (ما وهبهم الحق تعـالى في طاعتـه حين أطاعوه، وبما صح عندهم من أحاديث الأحكام مـا أتفـق على ضعفه وتجريح نقلته (من علماء الحديث)، وهم (الصـوفية) أخـذوه عن الكشف عن قائله ﷺ صحيحاً، فتعبدوا به أنفسهم على غير مـا تقرر عند علماء الرسوم .. ورب حديث قد صححوه واتفقـوا عليـه (علمـاء الرسـوم)، وليس بصـحيح عنـدهم (الصـوفية) من طريـق الكشف، ويتركون العمل به)[3]

ولهذا نراهم - مثلا - ينكرون كون أبوي رسول الله ﷺ في النــار مع أن الحديث الوارد في ذلك ورد في البخاري، بل إن السـيوطي عدة رسائل في ذلك[4].

جابر، للعلامة: عبد الله بن الصديق الغماري، ص2.

ولقد حكم بوضعه أكثر المحـدثين كالحافـظ الصـغاني (الموضـوعات، للصـغاني، ص 25)، وأقره الحافظ العجلوني على ذلك (كشف الخفاء، للعجلوني، ج2 ص 232)

[1] الشرح الصغير، للدردير، ومعه حاشية الصاوي المسماة ببلغـة السـالك، ج4 ص 778، 779.

[2] الفتوحات المكية: جـ 3 صــ 16 .

[3] رسائل ابن عربي، ص30 .

[4] هذه الرسائل هي:

1) مسالك الحنفا فى أبوى المصطفى .

2) التعظيم والمنة فى أن أبوى الرسول فى الجنة .

بـل إن السـيوطى فى رسـالته (التعظيم والمنـة في أن أبـوي الرسول في الجنـة) يقـدم الحـديث الـوارد في إحيـاء أم النـبي ﷺ وهو باتفاق المحدثين من قسم الضعيف على الحـديث الـوارد في البخاري، وقد علل ذلك بأنه من (الضـعيف الـذى يتسـامح بروايتـه في الفضائل خصوصا في مثل هذا الموطن)[1]

ومن عجيب ما استدل به السيوطي في هذه الرسالة أنـه تأمـل بالاسـتقراء فوجـد جميـع أمهـات الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام مؤمنات فلا بد أن يكون أم النبي ﷺ كذلك، كأم إسحاق وإسماعيل ويعقوب وموسى وهارون وعيسى[2].

بل إن السيوطي – كالصوفية جميعا- يذهب إلى أخطر من ذلـك حين يقرر في رسالة (الدرج المنيفة في الآبـاء الشـريفة) على أن جميع أجداد النبي ﷺ مؤمنون وفي الجنة، ويسـتدل لـذلك بمـا ورد في الحديث من أن النبي ﷺ قال: (رأيت عمرو بن لحى الخـزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول سيب السوائب)، وهو أول من غـير دين إبراهيم[3].

---

3) الدرج المنيفة فى الآباء الشريفة .

4) نشر العلمين المنيفين فى إحياء الأبوين الشريفين .

5) المقامة السندسية فى النسبة المصطفوية .

6) السبل الجلية فى الآباء العلية

وقد طبعت جميعا - عدا الخامسة - تحت عنوان (رسائل الإمام الحافـظ جلال الـدين السيوطى فى تحقيق نجاة أبوى المصطفى صـلى اللـه عليـه وسـلم وأنهم من أهـل الجنة فى الآخرة)، تحقيق العلامة الشيخ حسنين مخلوف، رحمـه اللـه، أمـا الرسـالة الخامسة فمن الواضح أنها مقامة أديبة فى المسألة، فاقتصر على الرسائل الأخرى، فقال العلامة المحقق: (اكتفينا بطبع الرسائل الخمس عن طبع المقامة السندسـية، وذيلناهـا برسـالة إنبـاه الأذكيـاء فى حيـاة الأنبيـاء عليهم السـلام)، القـاهرة: مطبعة المدنى، ط 2، 1396هـ/1976 م)

[1] التعظيم والمنة، ضمن مجموعة الرسائل فى تحقيق نجاة أبوى المصطفى صلى الله عليه وسلم، (ص 78)

[2] التعظيم والمنة، ضمن مجموعة الرسائل فى تحقيق نجاة أبوى المصطفى صلى الله عليه وسلم (ص 99- 100)

[3] صحيح البخاريـ (2/ 82)، صحيح مسلم (8/ 155)

قـال السـيوطي معقبـا على الحـديث: (فثبت بهـذا التقريـر أن أجداده ﷺ من إبراهيم عليه السلام إلى كعب بن لؤي وولـده مـرة منصوص على إيمانهم ولم يختلف فى ذلـك اثنـان، وبقى بين مـرة بن كعب وعبـد المطلب أربعـة آبـاء هم : كلاب – وقصـى – وعبـد مناف – وهاشم، ولم أظفر فيهم بنقل لا بهذا ولا بهذا)[1]

بل إن الأمر لم يقتصر على أبوي رسول الله ﷺ حتى عمه الذي يتفق المحدثون على صحة الأحـاديث الـواردة في شـأنه، وأنـه لم يمت على الإيمان، ولكن الصـوفية مـع ذلـك كتبـوا الكتب الكثـيرة يصححون إيمانه[2].

وهكذا في المسائل الكثـيرة.. والـتي جعلت المحـدثين ينفـرون منهم، ويعتبرونهم جهـالا بعلم الحـديث، وقـد سـبق أن ذكرنـا نقـد الشيخ العربي التبسي لمحاوره حـول اسـتدلاله بالحسـن البصـري في العهود، وهو ما ينفيه المحدثون.

والأخطر من ذلك كله هو تصحيح الحـديث بالكشـف، ومن ذلـك ما أورده الشعراني عن أبي المواهب الشاذلي قال: قابلت رسول الله ﷺ فسألته عن الحـديث المشـهور (اذكـروا اللـه حـتى يقولـوا مجنون)[3]، وفي صحيح بن حبان (أكثروا من ذكر اللـه حـتى يقولـوا مجنون)، فقال عليه الصلاة والسلام: صدق ابن حبـان في روايتـه, وصدق راوي (اذكروا الله) فاني قلتهما معاً, مرة قلت هـذا, ومـرة قلت هذا)[4]

ومن ذلك ما ورد في (جواهر المعاني): (وسئل سـيدنا – رضـي

---

[1] السيوطي، الدرج المنيفة، ضمن مجموعة الرسائل السابقة، (ص 144 – 145)

[2] من الكتب المتداولة في الزوايا حول إيمانه كتاب (أسنى المطالب في نجـاة أبي طالب) للعلامة أحمد زيني دحلان، الفقيه الخطيب مفتي الشافعية (1232 ـ 1304 هـ)، وقد اختصر فيـه كتـاب (بغيـة الطـالب لإيمـان أبي طـالب) للعلامـة محمـد بن رسول البر زنجي، وأضاف عليه مطالب مهمة، طبع بمصر سنة (1305 هـ)، وبعـدها مكررا.

[3] الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (2/93) حديث رقم (814) وأخرجه الحاكم في (المسـتدرك) 499/1 والإمـام أحمـد في (المسـند) 3/68 وابن عـدي في الكامـل (3/980)

[4] الشعراني، الطبقات الكبرى: (2/68)

الله عنه – عن مسائل منها قوله عليه الصلاة والسلام : (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)[1]؟ فقال : الجواب – والله الموفق بمنه وكرمه للصواب - أما ما ذكرت من الحديث وهو علماء أمتي ... الخ فليس بحديث, نص عليه السيوطي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة) وسأل صاحب (الإبريز) شيخه – رضي الله عنه – فقال له: ليس بحديث, وذكره من جهة الكشف لأنه لا دراية له بعلم الحديث، وقوله حجة على غيره لأنه قطب – رضي الله تعالى عنه – كما صرح به صاحب الإبريز المذكور)[2]

بل إن المحدث الكبير العجلوني مع كونه مرجعا من مراجع التيار السلفي في الحديث– نتيجة تأثره بالتصوف – يصحح هذا، ويحاول أن يستدل له، وقد قال في مقدمة كتابه (كشف الخفاء): (والحكم على الحديث بالوضع والصحة أو غيرهما، إنما بحسب الظاهرِ للمحدثين، باعتبار الإسناد أو غيره، لا باعتبار نفس الأمرِ والقطع، لجواز أن يكون الصحيح مثلاً باعتبار نظر المحدث: موضوعاً أو ضعيفاً في نفس الأمر، وبالعكس. نعم المتواتر مطلقاً قطعي النسبة لرسول الله ﷺ اتفاقاً.. ومع كون الحديث يحتمل ذلك، فيعمل بمقتضى ما يثبت عند المحدثين، ويترتب عليه الحكم الشرعي المستفاد منه للمستنبطين. وفي (الفتوحات المكية) للشيخ الأكبر قدس سره الأنور، ما حاصله: فرب حديث يكون صحيحاً من طريق رواته يحصل لهذا المكاشف أنه غير صحيح لسؤاله لرسول الله ﷺ فيعَلم وضعه، ويترك العمل به وإن عمل به أهل النقل لصحة طريقه. ورب حديثٍ ترِك العمل به لضعف طريقه، من أجل وضاع في رواته، يكون صحيحاً في نفس الأمر، لسماعِ المكاشف له من الروح حين إلقائه على رسول الله صلى الله عليه وسلم)[3]

وإلى مثل هذا ذهب كل المحدثين من الصوفية، فهذا ابن حجر

---

[1] قال السخاوي: قال شيخنا – أي الحافظ ابن حجر ــ ومن قبله الدميري والزركشي: أنه لا أصل له، زاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر (انظر: المقاصد الحسنة (ص 286)

[2] جواهر المعاني: (2/71)

الهيثمي عنـدما سـئل عن رأيـه في اسـتخدام الكشـف الصـوفي للحكم على الأحاديث وافق ذلك، ثم ذكر حكايةً (عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه فروى ذلك الفقيه حـديثاً فقـال لـه الـولي : هذا الحديث باطل، قال : ومن أين لـك هـذا ؟ قـال هـذا النـبي ﷺ واقف على رأسك يقول: إنى لم أقل هذا الحديث وكُشـف للفقيـه فرآه)[1]

بل إن الأمر عند الصوفية أخطـر من أن ينحصـر في ذلـك، فهم يرون الرجوع إلى رسول الله ﷺ في كل محل، وقد نقـل النبهـاني عن كتاب (العهود المحمديـة) للشـعراني قولـه نصـيحة لمن رغب في المجـاورة في أحـد الحـرمين: (فـإن كـان من أهـل الصـفاء فليشاوره ﷺ في كل مسألة فيها رأي أو قياس ويفعل ما أشار بـه ﷺ بشرط أن يسمع لفظه ﷺ صريحا يقظة، كما كان عليـه الشـيخ محي الدين بن عربي رحمه الله قال : وقد صـححت منـه ﷺ عـدة أحاديث قال بعض الحفاظ بضعفها فأخذت بقوله ﷺ فيها، ولم يبق عندي شك فيما قاله وصار ذلك عندي من شـرعه الصـحيح أعمـل به وإن لم يطعني عليه العلماء بناء على قواعدهم)[2]

ثالثا ــ تسامحها مع المخالف:

من الأمور المتفق عليها، والتي لقيت إنكـارا شـديدا خاصـة من التيار السلفي، موقف الصوفية المتسامح من الآخر، حتى لـو كـان ذلـك الآخـر غـير مسـلم، ولهـذا يرمـونهم بـالقول بوحـدة الأديـان، ويكفرونهم على أساس ذلك.

وبناء على هذا، فإن أسـلوب الطـرق الصـوفية في تعاملهـا مـع الجمعية كان ألين بكثير من أسلوب الجمعية مع الطرق الصـوفية، وقد سبق ذكر الأمثلة الكثيرة على ذلك، بل سـبق أن ذكرنـا كيـف وصف الشيخ ابن باديس تعامل الشيخ ابن عليوة معه، وكيف أشاد بتلك المعاملة.

وأبسط مقارنة في هذا بين التوجـه الصـوفي والتوجـه السـلفي هو الموقف من قولـه ﷺ: (افـترقت اليهـود على إحـدى وسـبعين

---

[3] العجلوني، إسـماعيل بن محمـد الجـراحي، كشـف الخفـاء ومزيـل الالبـاس عمـا اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، دار إحياء التراث العربي، (1/ 9)

[1] الفتاوى الحديثية صـ 217.

[2] النبهاني، سعادة الدارين، صـ 440.

فرقة، وتفرقت أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلّها في النار إلاّ واحدة، وهي ما أنا عليه وأصحابي)[1] ،والذي يتعلق به الاتجاه السلفي كثيرا، بل على أساسه يحكم على سائر الطوائف والفرق.

بينما نجد الشيخ ابن عليوة والصوفية عموما ينظرون إليه نظرة مغايرة، فقد سئل الشيخ ابن عليوة عن الحديث، فقال: (إنّ هذا الحديث ممّا يقضي على الأمّة المحمديّة بالهلاك، مهما فهمناه حسبما فهمه أغلب المفسرين، لأنّه صريح في نجاة جزء من ثلاث وسبعين جزءا من الأمّة المحمديّة، وعليه فالمرجو من الله والموافق لرأفة رسول الله ﷺ بالمؤمنين، أن نحمل ذكر الأمّة في الحديث على أمّة الدعوة، لا على أمّة الإجابة، لقوله ﷺ: (أنا رسول من أدركته حيّا، ومن لم يولد بعدي)[2]، ويتضح لك المعنى من أنّ الأمّة هنا المراد بها أمّة الدعوة، لقوله ﷺ: (من كان آخر كلامه في الدنيا لا إله إلاّ الله دخل الجنّة)[3]، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء: 48] وغير هذا، ومن المعلوم أنّ أمّة الإجابة لم تعدم حظها من توحيد الله، والإقرار برسالة رسول الله ﷺ وإن تفرّقت من حيث الفروع فأصلها ثابت، وشفاعته ﷺ محيطة بمن انتسب إليه، كيفما كان، والظنّ في الله حسن .. ومن المحتمل أنّ الملل كانت قبل بعثة موسى عليه السلام، بالغة إلى حد السبعين فرقة والملّة التي جاء بها موسى عليه السلام هي تمام الإحدى والسبعين فرقة، والجميع في النار إلاّ ما كان عليه موسى عليه السلام وأتباعه، ولمّا بعث الله عيسى عليه السلام، كانت ملته هي تمام الاثنين والسبعين فرقة، والجميع في النار إلاّ ما كان عليه عيسى وأتباعه، ولمّا بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا (محمدا ﷺ) بشريعة سمحة عادت الفرق مع ما سبق ثلاثا وسبعين فرقة، والجميع في النار إلاّ ما كان عليه (محمد ﷺ وأتباعه)، والجميع أمتّه من جهة الدعوة حسبما سبق، والظنّ في الله جميل، وهو

---

[1] ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، مكتبة أبي المعاطي، (5/ 128)

[2] مع اجتهادي في البحث عن تخريج الحديث إلا أني لم أجده.

[3] مسند أحمد بن حنبل (5/ 233)

حسبنا ونعم الوكيل)[1]

وفي موضع آخر، وفي رده على الشيخ عثمان بن مكي، يقــول: (وأيّ معصــية أشــنع من تطبيقــك جميــع مــا ورد في أهــل الزيــغ والضلالة على جماعـة الصـوفيّة ؟، ولم يكفـك ذلـك حـتى جعلتهم فرقة من فرق أهل النار مستدلا بقوله، فعن عبد اللـه بن عمـرو ، قال : قال رسول اللـه ﷺ : (ليـأتيّن على أمـتي مـا أتى على بـني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمّــه علانيـة لكان في أمتّي من يصنع ذلك، وإنّ بني إسرائيل تفرّقت إلى ثنتين وسبعين ملّة وتفترق أمتّي على ثلاث وسبعين ملّـة كلّهم في النـار إلاّ ملّة واحدة، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟، قال : ما أنا عليــه وأصحابي)[2] رواه الترمذي في سننه، وهذا صريح في أنّك تعني أنّ فرقـة أهـل التصـوّف واحـدة من تلـك الفـرق، وإنّي أحكمـك للـه ولرسوله ولصالح المؤمـنين فيمـا بينـك وبين الصـوفيّة، وهلا نقلت حديثا نقله الإمام الغزالي في كتابه المسمّى بـ (فصل التفريقـات)[3] وهـو قولـه عليـه الصـلاة والسـلام :(سـتفترق أمـتي على بضـع وسبعين فرقة كلّهم في الجنّة إلاّ الزنادقة)[4]، ولكن هذا لا يقع عليه بصرك وإنّمـا يقـع على مـا يسـاعدك في الحكم على سـائر أفـراد المسلمين بالنار حتى تخلو لك الجنّة أنت ومن هو على شـاكلتك لا غير، ولا تجد من يرفع عنك معضلتك إلاّ صـوفيّ ومحـال أن تتـنزل له لأنّ الحسد باب الإنصاف ويقطع لسان الاعتراف) [5]

وعلى أساس ذلك يحكم على كـل المخـالفين بـأنهم نـاجون مـا دام طلبهم الحقيقة، فيقول: (وأنا أقول : إنّ الله سـبحانه وتعـالى عند ظنّ كلّ مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر مهما اجتهد لنفســه

---

[1] أحمد بن مصطفى العلاوي: أعـذب المناهل، ص 58، ابن عليـوة، أعـذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص147.

[2] سنن الترمذي (5/ 26)

[3] يشير به إلى كتاب أبي حامد الغزالي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) الذي سبقت الإشارة إليه.

[4] سبق تخريجه مفصلا.

[5] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صـفحات مطويـة في التصوف الإسلامي، ص204.

بما يقرّبه إلى الله، فإن أصاب فله أجران، وإن لم يصب فله أجر، فهو مأجور على كلّ حال أحببت أم كـرهت، لأنّ الخلـق مـا كلّفـوا إصابة الصواب، إنّمـا كلّفـوا الظنّ بأنّـه صـواب، وجميـع ذلـك ممّـا يقتضيه تسامح الشرع الأحمدي المشار إليـه بقولـه تعـالى: {وَمَـا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78] .. فلمـا لم تصـادف هذه الأخبار التي تفيد الوسع وتقضي على الأمّة بالنجاة ؟، ولكنّـك تنظر بـالعين العـوراء، فلهـذا أراك إلى الآن لم تـترك نصّـا يقضـي على الذاكرين بالدمار والخروج من سعة رحمة الله الـتي وسـعت كلّ شيء إلاّ وألصقته بجانبهم) [1]

[1] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صـفحات مطويـة في التصوف الإسلامي، ص205.

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ـ رأينا أنه يمكن تقسيم الأساليب التي استعملتها الجمعية في مواجهة الطرق الصوفية إلى ثلاثة أنواع: المواجهة العلمية، والمواجهة الأدبية، والمواجهة العاطفية.

2 ـ ربما كان حظ المواجهة العلمية – من خلال ما وصل إلينا من تراث الجمعية من صحفها ورسائلها هو أهون أنواع المواجهات وأقلها، فمع تلك الحملة الشديدة لم نر إلا بعض رسائل قصيرة محدودة المحتوى، وفي لغة لا نستطيع أن نصنفها ضمن اللغات العلمية المنهجية البحتة، وربما يكون عذر الجمعية في هذا هو طغيان المتشددين عليها، ورفضهم لأي حوار مع الآخر، بل رفضهم، ولو لذكر أدلة الطرف الآخر، ثم مناقشتها.

3 ـ من خلال دراسة التراث القليل الذي كتبه رجال الجمعية حول تفاصيل الخلاف بينهم وبين الطرق الصوفية يمكن ملاحظة أن جمعية العلماء لم تكن ترى في الآخر شخصا اعتباريا يمكن أن تتحاور معه، أو تقبل مناقشته، لأنها، ومنذ أول يوم قررت عدم الحوار، بل لم تر من حل سوى الاستئصال الجذري لا للطرق الصوفية فقط، بل لكل ما يرتبط بها من معان، وهي في هذا ترجع لأشد أنواع السلفية تطرفا، وهي السلفية الوهابية.

4 ـ من الأمور التي حالت بين الجمعية وبين الكتابة العلمية المفصلة المتضمنة للرأي والرأي الآخر، ذلك أن الفتوى في العادة توجه للعوام، ولا تقتضي ذكر الدليل بتفصيل، ولا تقتضي نقل الخلاف، ولا ذكر أدلة المخالف، ولعل الذي دعا الجمعية إلى هذا هو ما يعتمده المنهج السلفي عموما، من اعتبار ذكر الخلاف بتفصيل قد يكون نوعا من إشهار المبتدع والدعوة له بالمجان، والجمعية لا تريد هذا، ولهذا تمارس كل أنواع التشدد حتى الحسنات تبرزها بصورة السيئات حتى تتمكن من استئصال الآخر استئصالا جذريا.

5 ـ ويظهر – من خلال دراسة تراث الجمعية المكتوب – أن المواجهة الأدبية كانت أهم الأساليب وأكثرها استعمالا، ولعل ذلك يرجع أن الجمعية عاصرت في ذلك الوقت أدباء كبار كطه حسين والرافعي والزيات وغيرهم، وقد كانت تحصل بينهم أحيانا سجالات في ميادين مختلفة، وكانت أداتهم في مواجهاتهم هي ما عرفه

العرب من أساليب في هذا المجـال، بالإضـافة إلى أن هـذه الأداة كانت كأنها من الأسلحة التي لا توجـد عنـد خصـمهم، فلم يكن في الطرق الصوفية من الأدباء من له قـوة لسـانهم وحدتـه، بـل كـان الكثير منهم – على ما يظهر – ضعيفا في النواحي اللغوية، وخاصة النحو.

6 ــ تعتبر الخطابة من أهم ما كان يستعمله علماء الجمعية من أسـاليب في إيصـال رسـالتهم الإصـلاحية، والعلـة في ذلـك – كمـا يذكر الإبراهيمي- هو التأثير القوي للخطابة في التغيير والإصلاح.

7 ــ من الأشكال الأدبية الـتي اسـتعملتها الجمعيـة في مواجهـة الطرق الصوفية (الشعر)، وقد برزت فيه إلى درجـة كبـيرة، بحيث أنه قد تحول ما كتب من قصائد في هـذا الجـانب إلى زاد لا تـزال تسـتعين بـه السـلفية الحديثـة في مواجهـة التصـوف والطـرق الصوفية.

8 ـــ اسـتعملت الجمعيـة المواجهـة العاطفيـة لإثـارة عواطـف الجماهير ضد الطـرق الصـوفية، وهي مواجهـة كالمواجهـة الأدبيـة تتسم بالبساطة، وبعدم الحاجـة إلى الإقنـاع العقلي المعتمـد على الدليل، بل كل اعتمادها على ما عند المستقبل من ثروة عاطفيـة، وهي من أكثر الـثروات تـوفرا خاصـة في الـزمن الـذي يكـثر فيـه الظلم والاضطهاد.

9 ــ لم نجد لدى الطرق الصوفية من أنواع المواجهات إلا نوعـا واحدا فقط يصلح للحديث عنـه ، وهـو مـا أطلقنـا عليـه المواجهـة العلمية، ذلك أن المواجهتين الأخريين: الأدبية والعاطفية تقتضـيان وجود أدباء وخطباء وذوي قدرات بيانية، ولم نجد هذا عنـد الطـرق الصوفية، وفي حـال وجـوده، فـإن الأدب الصـوفي متوجـه عمومـا للسلوك والعرفان، ولا يتوجه للجدل والخصومات.

10 ـــ من خصـائص المواجهـة العلميـة لـدى الطـرق الصـوفية: اعتمادها على المصادر التي ألفت في الرد على الوهابية، وضعفها في علوم الحديث، وتسامحها مع المخالف.